رواية

محمود دولت آبادي

زوال كولونيل

ترجمة

د. علي عباس زليخة

بسم الله الرحمن الرحيم

((أولاً يجبُ أن أُطفئَ سيجارتي))

ربَّما كانت العشرين من بقايا السّجائر التي يطفئُها منذُ بداية الليل إلى الآن. أحسَّ بالاختناق وأنَّ لسانهُ وفمهُ من كثرةِ السجائرِ التي دخّنها يفقدانِ حسَّ الذّوقِ فيهما.((أُنظُرْ كم من الماءِ على الوجهِ الزجاجيّ للنّافذة. وأيُّ صمت!)) صوتُ مطرقة، وبعد كلِّ طرقةٍ منها يحلُّ السُّكونُ وعويلُ المطر. كان المطرُ وصوتُ المطرِ على أسطُحِ التوتياءِ والزنجارِ القديمةِ دائمُ العزف، وما سواهُ صامت. ((أستطيعُ من أيّامِ حياتي أن أتذكَّرَ غروبَ الشّمسِ على أسطُحِ التوتياءِ والزنجار مرَّةً واحدةً فقط.))

في الغروب، بعد المطر، وقبلَ أن تختفيَ الشَّمسُ بِلحظةٍ ترى لوناً آخرَ لِأسطُحِ الزنجارِ يبعثُ الحُزنَ الجميلَ في النفوس، أيّامَ كانتِ الشَّعَراتُ البيضُ تلاقي شقيقاتِها حديثاً. في تلكَ الأيّامِ كان يسيرُ واثِقَ الخُطى يتبخترُ ويُحِسُّ بالأرضِ من تحتِ أقدامِه. لم يكُنْ مجهولاً منسيّاً ولم يكُنْ وجهُهُ مُعتَصَراً ولم تكُنْ هذِهِ الثَّنايا والتَّجاعيدُ من الحيرَةِ والهَولِ قد رَسَمَتْ أخاديدَها على جبينِه :((مع وجودِ هؤلاءِ السَّادة....يجِبُ أنْ أُطفئَ ما بقي من سيجارتي أوّلاً ثُمَّ أنهضُ والمطرُ يتساقطُ على رأسي وآتي خلفَ الباب. اِقرعوا الباب، اِقرعوا الباب. أيَّاً تكونون! لقد مرَّت سنواتٌ ولم أسمعْ خبراً جميلاً والآنَ في هذا الوقتِ لستُ بمُنتظِرٍ لِخَبَرٍ سعيد. لنَرَ إذا ما كانت هذهِ السَّاعةُ القديمةُ دقيقةً، يجِبُ أن تكونَ السَّاعةُ في حدودِ الثّالثةِ والنِّصْفِ بعدَ مُنتَصَفِ اللّيل. وانظُرْ كم من الماءِ على الوجهِ الزُّجاجيّ للنَّافِذة...اِقرعِ البابَ، اقرَعِ البابَ يا عزيزي. دُقَّ بالقدرِ الّذي يوقِظُ الموتى من نومتِهِم. أمّا أنا فلن أخطوَ من الإيوانِ إلى باحةِ الدَّارِ قبلَ أن ألبَسَ حِذائي وأضَعَ معطفيَ المطريَّ فوقَ رأسي. حَسَناً، أنت ترى بِنفسِك أنَّ المَطَرَ يسقُطُ إلى الأسفل كأنابيب طويلةٍ مضيئة. طريّاً...يجبُ أن أُشعِلَ المِصباحَ الكهربائيَّ تحتَ سقفِ الإيوانِ ثُمَّ أنزِلُ على الدَّرَج. أتُريدُ أن تزِلَّ قَدَمي في الظَّلامِ وأسقُطَ وتذهَبَ كتِفي؟.....أنا قادِم. اللهُ وحدَهُ جعل مصباحَ أمير لا يُضيءُ في القبو، أنا أستطيعُ أن أحاوِلَ ألاّ أكونَ مُتحيّراً وأن لا أكونَ مُتعجِّباً مُضطرِباً وأنا أفتحُ الباب. أعلمُ، أعلمُ هذا، لا يجِبُ أن ينتفِخَ ما تحتَ ذقني وجفنايَ منَ الارتِعاد، بِأيّ وجهٍ لا يجِب! لكِنَّ

هذا الجفنَ الأيسَرَ ليسَ أمرُهُ في يدي ولا باختياري، فبِمُجَرَّدِ التَّركيزِ على شيءٍ فإنَّ جفنيَ الأيسَرَ يشرعُ منْ نفسِهِ بالارتعاش. فقط جفني الأيسر....))

. نعم يا سيّد...نعم...أنا آتٍ انتظِرْ قليلاً.

سَلْ أيَّ شخصٍ يُدَقُّ على بابِهِ في مِثلِ هذا الوقتِ غيرِ المُناسِبِ ماذا كانَ يفعل؟ ليسَ شيئاً يُتَصَوَّرُ أو يُجْرَأُ على التّفكيرِ في مِثلِه، لا. مِثلُ هذا الحالِ لم يحصلْ أصلاً. رُبَّما لم يجِدْ مِثلُ هذا التَّفكيرُ طريقاً إلى لِسانِه لِأنَّهُ كانَ مُطمئنّاً إلى أنَّهُ لا وجودَ للاختِلافِ في أصْلِ القضيّة. فمِنَ المفهومِ بالتَّجرِبَةِ أنَّهُ لو كانَ أرادَ أن يبقى بابُ البيتِ مُغلقاً فلن يقومَ شخصٌ بإصدارِ مِثلِ هذا الصَّوتِ بِمطرَقَتِهِ بِهذِهِ الصوّرة.

((ومَعَ وجودِ العلاجِ لا أملكُ إلاّ أنْ آخُذَ نَفَساً جديدا. طبعاً لا أتخيّلُ من نفْسي أنْ أفسَحَ المجالَ لِنفسي بالتَّفكيرِ في عدَدِ السّجائرِ الَّتي أُدخِّنُها في اللّيلِ والنَّهار، وقد أفلتُّ في لحظةٍ غيرِ متوازِنةٍ من التّصاميمِ الآنية غيرِ العمليّةِ مئةً في المئة. أمّا أن أكونَ عِندَ فتْحِ البابِ مالِكاً لِأعصابي ولا يُعبّرَ التِهابُ أنفاسيَ المُضطرِبَةِ عن خوفي فلا حيلَةَ لي إلاّ بِأخْذِ نَفَسٍ جديدٍ حيناً بعدَ حينٍ إلى أن يبرُدَ دمي تماماً فأفتَحَ الباب))

جناب الكولونيل؟

. نعم ...يا سيّد

. أنتُم أنفُسُكُم؟ جناب الكولونيل؟

. نعم يا سيّد، أتسألُ من عندي!

. فلِماذا لا تفتحونَ الباب؟

. الآن، الآن سوف أفتحُه، أخيراً...أنا أبحثُ عنِ المِفتاح.

ها هو...سأجِدُه. ولكن لا، هذا المفتاحُ في صندوق، يجبُ أنْ أذهبَ وهذا المفتاح...المفتاحَ نفسَهُ أجلِب، عفواً... لحظةً واحِدة.((أين ذهب...أعلى حافّةِ النَّافِذَةِ الصّغيرةِ أم على الطّاولة؟ أنا الّذي أحتَفِظُ بالمِفتاحِ دائماً في جيبي...ألِأنَّ....في الواقِعِ هي احتِمالات. حَسَناً، منذُ كُنتُ آتي إلى

البيتِ عندَ الغروبِ لا أخرُجُ منهُ إلى الوقتِ الّذي أكونُ فيهِ مُضطرّاً لِتغييرِ ملابِسي المُرَطّبة. علّني أجِدُ هذا المِفتاحَ بالتّسبيحِ والقدّاحة. حتّى قدّاحة البنزين الألمانية هذهِ لم تعُدْ تعمل . حافَّةُ واجِهةِ المدفأة، تحتَ صورةِ الكولونيل، نعم، صحيح....))

كان نفس المكان. تماماً تحتَ الحِذاءِ الطّويلِ الأسودِ البرّاقِ للكولونيل وبِجوارِ صورةِ محمَّد تقي الّتي تقيسُ سِتَّةً بِأربَعة، الصّورةِ الّتي كانَ أخَذَها بِقصْدِ الحُصولِ على شهادَةِ قيادَةِ السَّيّارة، وها قد مرَّت سنتانِ أو أكثر(رُبّما ثلاثُ سنواتٍ) وهي لا تزالُ في المكانِ نفسِه، بِجوارِ الحِذاءِ الطّويلِ الأسودِ البرّاق تماماً حتّى يعتادَ على رؤيةِ ابنِه.((نعم أُريدُ أن أعتادَ على النَّظَرِ إلى صورةِ ولدي))

حقيقةً فإنَّ هذا التَّصميمَ من جانبِ الكولونيل كان ناشئاً من حسٍّ دفاعيّ. هو حينَ قرّرَ وضعَ صورةِ ابنهِ مُقابِلَ عينيه أرادَ أن يكونَ في مقابلةِ شيء. يُريدُ أن يحميَ نفسهُ من الغفلةِ بكونِهِ مُقابِلَ ذلكَ الشّيء ويتصدّى لذلكَ الموجِ الّذي يرتفِعُ من أعماقِ قلبِهِ ويهجِمُ على رأسِه. كأنّهُ كانَ يعتقِدُ أنَّهُ في الوقتِ الّذي تكونُ فيهِ صورةُ محمّد تقي في مُقابلِ عينيهِ فإنَّهُ لن يغفَلَ عنه. في الواقعِ إنَّهُ قرَّرَ بالمُداومةِ على مُشاهَدَةِ صورةِ محمد تقي أن يجعلَ من نفسِهِ مواجِهاً لِهجومِ شيءٍ يُريدُ أن يفنيَه. وهكذا فإنَّ مقابلةَ الكولونيل لشيءٍ لا يُريدُ أن يكونَ مغلوباً لهُ صارتْ عادَةً له، وكانَ هذا شبيهاً تماماً بِإطلاقِ النَّارِ والمواجهةِ في المناوراتِ العسكريّةِ النّظاميّة: أو ((كالحربِ نفسِها. في الحربِ تحصلُ الضَّربةُ الخطيرةُ في غفلةٍ من المُحارب. بالاستعدادِ المُسْبَقِ فقط تستطيعُ اتّقاءَ الضَّربَةِ ومنعها.))، وكثيراً ما جعلَ مقابِلَ عينيهِ وللسَّببِ عينِه صورةَ الكولونيل الكبيرةَ بتمامِ القامةِ الّتي مرَّ عليها أكثرُ من نِصفِ قرنٍ من الزّمان، وكان يتمنّى بِحسرةٍ لو كان يستطيعُ وضعَ صورةِ زوجتِهِ تحتَ رُهابَةِ سيفِهِ في الزَّاويةِ اليُسرى من إطارِ الصُّورةِ تماماً ليجعلَ لها موضعاً مقابلَ عينهِ ويتمكَّنَ من النَّظرِ إليها.((لكنْ لا أستطيع. إلى الآنَ لا أستطيع)). بينما كان من الممكنِ أن يضعَ صورةَ بروانة بسرعةٍ ويجعلَ لها مكاناً أسفلَ حذاءِ الكولونيل. بعد ثلاثةِ أيّامٍ وثلاثِ ليالٍ من كونِ بروانةَ لن تعودَ إلى المنزلِ مُجدّداً جعلَ لِصورتها موضِعاً في الزَّاويةِ اليُمنى من الإطار بجوارِ صورةِ محمّد تقي والآن مرَّ شهرانِ تقريباً على وفاتِها وهو يسعى ليُعوّدَ نفسَهُ على النَّظَرِ إلى الصُّورةِ الصّغيرةِ لابنته، كما هو الحالُ مع صورةِ مسعود الّذي كانوا

يسمّونهُ في البيتِ **الصَّغير**، ((نعم الصغير. وربما بِسببِ حاجِبيهِ السَّوداوينِ الكثيفَينِ وأنَّ جبينَهُ كانَ قصيراً كانَ الأولادُ يُلقّبونهُ صغير الغابة!...))

. ... خُذْ أتيتُ بالمفتاح، الآنَ وجدتُه. الآنَ أفتحُ الباب، حالاً الآن. عفواً. مساء الخير!

أضاءَ النّورُ القادمُ من مِصباحِ الكهرباءِ من رأسِ الزُّقاقِ وجهَ الكولونيل وجعلهُ يبدو مِثلَ قمرٍ منير. كان النُّورُ يسقُطُ من الخلفِ على أكتافِهِما، وكان يُغطّي كتِفَي كُلٍّ منهما قميصٌ واسعٌ لهُ قبّعةٌ زيتونيُّ اللون، وكان النُّورُ وحبَّاتُ المطرِ شبيهَينِ تماماً بالغُبارِ الأبيضِ الّذي علا أكتافَهُما وحوافَّ قُبَّعتيهما وأنارَ جُزءاً من وجهيهِما، وأدركَ الكولونيل أنّهما شابّانِ وأنَّ كُلاً منهما يحمِلُ سلاحاً على كتِفهِ وأنَّ كُلاًّ منهما...لقد طالَ الوقتُ الّذي لم يسمعْ فيهِ الكولونيل صوتاً يقولُ لهُ مساءَ الخير وقد قالَ بِغيرِ اختيارٍ منهُ **سلام** ووقفَ مستسلِماً مُنتظِراً أن يتكلَّمَ هذانِ الشَّابّان وينطقا بِكُلِّ كلمةٍ لديهما ويقوما بما عزما عليه.

لم يطُلْ سكونُهما وأخرجَ واحِدٌ منهُما مِصباحاً من جيبِ قُبّعتِه، وفوقَ نورِ مِصباحِ عمودِ الكهرباءِ الَّذي كان ينيرُ وجهَ الكولونيل، أسقطَ عليهِ نورَ المِصباحِ السَّريع وأدامَ ذلكَ فترةً ثُمَّ أدارَهُ في الباحةِ المُمتلئةِ بالمطر، وقبلَ أن يتحرَّكَ نورُ سطحِ الحوضِ باللّمعان، سَحَبَ خيطَ نورِهِ وأطفَأهُ على وجهِ حِذاءِ الكولونيل غيرِ المُبَلّل وبقيَ ينتظِرُ تصميمَ وإقدامَ رفيقِهِ على ما يبدو.

كانَ الكولونيل كُلُّهُ سؤالاً. في الواقِعِ كانَ واقِفاً تحتَ المَطَر بكتِفَيهِ البارزتين والانحناءِ الّذي رمى بِهِ الزَّمانُ ظهرَه. وبِنَظَرٍ ثابتٍ ممزوجٍ بالخوف ظلَّ علامَةً على السُّؤالِ الّذي بدا وكأنَّ يدَهُ ترسُمَه. أمّا من حيثُ الكلام فلم يكُنْ على لسانِهِ أيُّ سؤالٍ وكانَ لسانُهُ في الحقيقةِ عاجِزاً عن أيّ كلام. قُلِ التَّرحيب، حتّى التّرحيب، هذا العُرفُ الجاري غابَ عن ذاكِرتِه. كان ينظُرُ فقط، كانَ ينظُرُ إلى الشّابَّينِ الّذَينِ لا يزالانِ واقِفَينِ خارِجَ البابِ في حالَةِ من يبحثُ عن سرٍّ مُبهَمٍ في صمْتٍ وتحتَ ظِلِّ المَطَرِ الّذي يلمعُ في ضياءِ نورِ مِصباحِ كهرباءِ الزُّقاق.

كانا يُفكّرانِ بِكُلِّ ما يُريدانِ من شيءٍ مُبهَمٍ أو معلوم، أمَّا الّذي كانَ يشغلُ فكْرَ الكولونيل . بِصَرفِ النَّظَرِ عنِ الخوفِ الَّذي كانَ مثْلَ نهرٍ دائمِ الجَرَيانِ في عُمقِ وجودِه . فهو عُمْرُ هذينِ الشَّابَّينِ الَّذينَ كانا في السِّنِّ في مِثْلِ سِنِّ ولديه محمد تقي والصغير. كانَ يُفكِّرُ أنَّ مُحمّد تقي فيما لو بقي فإنَّهُ في شهرِ أسْفَنْدْ وفي الثّاني عشرَ من شهرِ أسفند تماماً سنةَ ألفٍ وثلاثِ مئةٍ

وواحِدٍ وستين كان سيُتِمُّ الحاديةَ والعِشرينَ من عمره، ولو بقي مسعود فإنَّهُ سيكونُ الآنَ في حدودِ السَّادِسةِ والعِشْرينَ من العمر.

((...لكن ما كان يجِبُ أن أفعل؟ كان يجبُ أن أفعلَ ماذا؟ ألم يكُن يجبُ...ألم يكُن يجبُ أن أفعلَ شيئاً، كان الأمرُ قد خرجَ من يدي. كان ولداي بالغَين. كُلٌّ منهُما كانَ إنساناً لِنفْسِهِ ثُمَّ لا دليلَ على أنَّهُما كانا ليسمعا كلامي. حديثاً... هل كُنتُ أستطيعُ أن أفرِضَ عليهما بأن لا يهيجا؟ كانت ثورةً، ثورة. في الثّورةِ كُلٌّ يجري خلفَ منفعةِ نفسِه، إلاّ إذا كانَ شابّاً. الشُّبّانُ...الشُّبّان...لا يُقالُ للشُّبّانِ أنّهُم يجرونَ وراءَ منفعةِ أنفسِهم. كُلُّ شابٍّ في الثَّورةِ يسعى وراءَ حقيقةِ نفسِه، وراءَ حقيقَةِ وجودِ نفسِه، في هذهِ الثَّورةِ أعلى أنواعِ الهَيَجانِ للشَّباب، وفي مثلِ هذا الأوجِ من الهيجانِ فللشَّابِ حُكْمُ الحمامَةِ الّتي تطيرُ نحو الشَّمسِ العاليةِ، وتطيرُ إلى أن تحترِقَ بالشَّمس. وهكذا أوجُ حقيقةِ الشّباب! هكذا كان، فكما لو أنَّ الثَّورَةَ حملتْ ولديَّ معها ولا أستطيعُ الآنَ أن أتصوَّرَ في أيَّةِ نُقطةٍ من أوجِ نفسِهِ احترقَ كُلُّ واحِدٍ منهُما أو هو يحترق. آهٍ...آهٍ على الجيرانِ وأهلِ مدينتنا ومواطنينا لو عادَ شابٌّ نصفُ محترقٍ من المناطِقِ والحدودِ الَّتي احترقت وحقيقةُ نفسِه، حقيقَةُ نفسِه...مخدوعٌ مخدوعٌ وعقيدَةٌ أخرى أتت...ذلك الوقت...ذلك الوقتُ حيثُ القِطَعُ المصهورةُ...القِطَعُ المُذابَةُ...هذا السَّيلُ المُذاب...))

. أولادي...أبنائي!...عفواً إلى داخِلِ الغُرفَة، ليسَ من الصَّحيحِ البقاءُ تحتَ المطر.

ماذا يُمكِنُ أن يُقالَ غيرُ هذا؟ حتّى ولو لم يُبرِزا بطاقَتَيهما الشّخصيَّتين للكولونيل فإنَّهُ لن يمنعهما من الدُّخول.

لا يستطيعُ منعَ دُخولِهِما((حقيقةُ هذا أنّني أخاف، من وقتٍ بعيدٍ وأنا أخاف)) رُبَّما كان من المُمكنِ قفلُ بابِ باحةِ الدَّار. من المُمكنِ أن لا يكونَ بابُ باحةِ الدّارِ مُقفلاً في وقتٍ ما. أيَّةُ صُدفةٍ أن يقعَ هذا في عينِ الوقتِ الّذي تُرِكَ فيهِ بابُ باحةِ الدّارِ مفتوحا. قفْلُ بابِ باحةِ الدّارِ شيءٌ ثانويٌّ في طبيعتِهِ بالنِّسبةِ للكولونيل، وهو لم يكُنْ يأتي بِهِ من بابِ الحَذَرِ ولم يكُن يفعلُهُ بقصْدِ الحِفظِ والحِراسة. ولا...بل كان مُجرّدَ عادة، ((أنا أخافُ يا سيّدي العزيز، أخاف. لا أعرِفُ من أيِّ شيءٍ ولا من أيَّةِ قوَّةٍ أخاف. وعنديَ قدرٌ من الإدراكِ لأرى ابن آدمَ شيئاً غير متاعِهِ ولباسِ بدنِه، كما أنَّ ذِهني في كثيرٍ من الأحيانِ يقومُ بالتَّجسيم بغيرِ متاعٍ ولباسٍ وبغيرِ اختيارٍ

مني، ويقعُ لي أن أسمعَ أصواتَ أنينِ جاموسٍ وحشيّ . من تلك الّتي رأيتُها قديماً في السّينما . وتتراءى لي وتصيرُ عيناي مربوطتينِ بها. وفي الواقِعِ فإنَّ عينيَّ تُغلَقانِ من الرُّعبِ إذْ أحسُّ أنَّ أُناساً مثيرينَ للرُّعبِ جدّاً . وجوهُهُم مُغصَّنَةٌ بأغصانٍ عجيبة . من مثْلِ تلك الّتي رأيتُ في السينما . يأتونَ ويدمِّرونَ كلَّ شيءٍ، ومن جُملةِ ما يُدمِّرون أنا، يكسرون العظمَ نِصفَين. كابوس... سيّدي العزيز))

. لكن لماذا لا تتفضّلون بالجلوس، تفضّلوا...رغمَ أنَّ هذِهِ الكراسي ذهبتْ جِدَّتُها وصارتْ جُلودُها كالخُبْزِ اليابِسِ تُؤذي. لكنْ قديماً قيل الموجودُ في البيتِ والضَّيْفُ أيّاً كان...على كُلِّ حالٍ تفضَّلوا اجلسوا.

((لا بُدَّ من الجلوسِ أخيراً...ها؟...نعم، يجلسون...المنديل، نعم...))

من الممكِنِ حملُ منديلٍ وتجفيفُ الشَّعرِ الأبيضِ من المطرِ الّذي دخلَ فيه والتَّخلُّصُ من البلَلِ ومسحُ الوجهِ والحاجِبَين، أمّا ما عداهُ فصارَ بعيدا. بعيداً في تفكيرِه. الآنَ وبالقدرِ المُستطاعِ يُشعِلُ سيجارتَهُ وظهرُهُ إلى المِدفأةِ وهو جالِسٌ على كُرسيٍّ بِلونٍ صنوبري. كانَ يُحسُّ بالرِّضا بل وكانَ يُحسُّ بالاطمئنانِ رغمَ أنَّهُ كانَ مُضطرّاً لِمسكِ قبضَةِ يدِهِ اليُمنى بيدِهِ اليُسرى والسَّعيِ لكي لا تكونَ منها انزلاقةٌ خطيرة. رُبَّما كانتِ السَّيجارةُ الّتي يُمسِكُها بينَ إصبَعيهِ أسوأَ من يدِهِ وهو يتحرَّكُ بلا توقُّفٍ ويهتزُّ بِشَكلٍ ظاهِر. ((مدينتُنا ليست مركَزَ المُحافَظَة، فلا يُمكِنُ للنَّاسِ فيها أن لا يعرِفَ بعضُهُم بعضا. لو تمكَّنتُ من جمعِ حواسّي والسَّيطَرَةِ على أعصابي فأنا مُطمئنٌّ إلى مقدرتي على معرفَةِ ضيوفي، بالقليلِ من العلاماتِ من آبائهم. فأنا وإنْ لم أكُنْ في الأصْلِ من المنطِقة إلاَّ أنَّني أسكُنُ هنا مُنذُ زَمَنٍ طويل، وقد وُلِدَتْ **بروانتي** في هذه البلدة، في تلك السِّنين لم يكنْ عمرُ أكبرِ أولادي أمير أكثرَ من خمسَةِ عشرَ عاماً، وأوسطُ أولادي كانَ في عمرِ الأطفال، ولم يطُلْ بهم الوقتُ حتّى تمكّنوا من النُّطْقِ بِلهجَةِ أهلِ المنطقة، وإذا ما أعانني ذهني فإنَّني أستطيعُ وبِشكلٍ قطعيٍّ أن أكتشِفَ من حديثِ ضيفَيَّ ما إذا كانا يعرِفانِ مسعود ومحمد تقي وما إذا كانا لهُما رفيقَينِ وصديقَين؛ أتخيَّلُ أنَّهُمْ كانوا في صفٍّ واحِدٍ وكانوا يجلسونَ على مقعدٍ واحِد، وفي اللّيالي والأيّامِ المليئةِ بِضوضاءِ الثَّورة لا بُدَّ وأنَّهُمْ كانوا يعرِفُ بعضُهُم بعضا...ها؟.

لا. كانا ساكِتَينِ وكانا يُخفيانِ وجهَيهِما كأنَّهُما في خَجَلٍ في المحضر.

الشَّابُ الَّذي ذكّرَ الكولونيل بمحمّد تقي، أو أنَّهُ أرادَ أن يكونَ هكذا . لم يتحمّل، نهضَ ووقَفَ إزاءَ الصُّورةِ الكبيرةِ للكولونيل وجَعَلَ عينَهُ على عينِ صورةِ محمّد تقي وظلَّ على هذهِ الحالِ ينظُرُ نظراتٍ طويلةً وقُبَّعةُ معطفِهِ مرخيَّةٌ على كتِفَيه، وهذا الّذي كانَ على حَدَسِ وظنِّ الكولونيل مثلَ مسعود في الشَّكلِ والوجه، جالِسٌ مثلهُ واضِعٌ مرفقيهِ على المِنضَدة ويداهُ متقاطِعتان ورُبّما كان ينظُرُ إلى ذلك الجُزءِ الَّذي تظهرُ خيوطُهُ من وجهِ المنضَدة القديم القرمزيّ اللّون، وهو لا يزالُ صامِتاً إلى الآن.

((الشُّبّانُ...الشُّبّان! لكأنَّ الشَّخصَ الشَّابَّ خُلِقَ محجوباً بالفِطرة، لكِنَّ في وجودِهِ قُدرةً واستِعداداً غريبَين، فهو بسُرعةٍ قلَّ نَظيرُها يستطيعُ أن يتبدَّلَ لواحِدٍ من أوقَحِ الأحياءِ على وجهِ الأرض. حيٌّ لم يرتكِبْ جُرماً طوالَ حياتِهِ ولم يعزِمْ عليه، يُمكِنُ لهُ بِناءً على تلكَ القابليَّةِ لديهِ أن تحصَلَ على يديهِ جميعُ الجناياتِ الرَّهيبةِ الّتي حصلتْ في التَّاريخ. الوصيَّةُ الّتي مراراً ومراراً كان توفيقُ الشَّابّ في تنفيذِها ثابِتا. أيُّ عَمَلٍ وأيَّةُ حِرفَة! لكن... نحنُ ماذا؟ نحنُ الّذين كُنّا بِطَلَبٍ وبِدونِ طَلَبٍ نُرسِلُ لُقَمَ الطَّعامِ إلى الزُّقاقِ لِتصيرَ ذخائرَ لهُم ليُقرّروا اختيارَ شقاواتِ الدَّلالِ الأولى، وكُنّا نظلُّ ننتظِرُ إلى أن تُختَطَفَ لُقَمُ الطَّعامِ من أيدينا اختِطافاً وسوفَ تتحوَّلُ إلى سيفٍ مرفوعٍ علينا.

. هذا اِبني محمد تقي كان في السَّنَةِ الأولى من الطِّب...

. أعرفُهُ... أنا أعرِفُه...

لعلّهُ ما كانَ يجِبُ أن يُنطَقَ مِثلُ هذا المقال أو يُسْمَعَ مثلُ هذا الجواب. فالكولونيل من إحساسِ نفسِهِ ومن حالةِ وهيئةِ وقوفِ ذلك الشَّابِّ الصَّغيرِ كانَ استنبطَ ذلك، والآن فهِمَ أنَّهُ كانَ يعرفُ ولده. قلبُهُ كان يُريدُ أن يكونَ مُطمئنّاً إلى أنَّهُ يعرِفُ محمد تقي، رغمَ أنَّ خيالَهُ لم يذهبْ إلى ما الَّذي يُغيّرُ في الأمرِ أن يعرِفَهُ أو لا يعرِفَه، وهي معرفةٌ في الماضي ولا يُعرَفُ ما كانت تلكَ المعرفة. هنا وللحظةٍ قصيرةٍ وسريعةٍ فإنَّ حواسَّ الكولونيل توجَّهت إلى مكانٍ آخَر وشيءٍ آخَر، ذهبتْ بِغيرِ طريقٍ إلى صحراء، رُبَّما من الأمواجِ الهائلةِ الّتي كانَ الكولونيل نفسُهُ قديماً يخوضُها.

((محمد تقي مثلك قليلُ الصَّبر.))

بالنِّسبَةِ للجميع، كانَ من الأكيدِ أنَّهُ لن يبقى مُقابِلَ صورةِ محمد تقي أكثر من ذلك. ولم يكُن الكولونيل يُفكِّرُ أنَّهُ من المُمكنِ أنَّ ذلكَ الشّابَّ يتحوَّلُ بسُرعةٍ إلى مُقابِلِ صورةِ بروانة. لا، جاء وجلَسَ ونَظَرَ إلى صفحةِ ساعةِ معصمِهِ ثُمَّ أدارَ وجهَهُ إلى رفيقِه وبدا للكولونيل وكأنَّهُ مرَّ عليهِ وقتٌ طويلٌ وهو ينتظِر. الوقتُ يمُرُّ وإلى الآنَ لم يتَّضِحْ شيء. وهما وإنْ انتظرا وقتاً، فانتِظارُ الكولونيل كانَ في إبهام، وهو في كلِّ لحظةٍ من اللّحَظاتِ كانَ يُحِسُّ بكُلِّ جُزءٍ من سلوكِهِما البدائي قليلا. حيثُ أنَّهُ إلى الآنَ لا يعرِفُ أين ستقصدُ الضَّربةُ منه، فقط كان يحسُّ أنَّهُ بانتظارِ ضربة، وكانَ في هذا الانتظار. كانَ على يقينٍ من ذلكَ وأنَّ الشَّابَّينِ كقِطَعٍ مُذابَةٍ ومُذيبة((أخالُها راجِعَةً من الشَّمسِ إلى الأرض)) لم يطرقا بابَ دارِهِ حامِلَينِ المرهمَ لِجراحاتِه. يجِبُ الانتِظارُ ودوامُ الانتِظار حتّى يكونَ واحِدٌ منهُما((ولا أعرِفُ مَن منهُما؟)) المُنَقِّذ. قال:

. اقترِبْ منّي خُطوةً واحِدَةً للحُكْم!

. حُكْم؟!

. هناك سيقولونَ لك، يا كولونيل!

((لا، لا يجِبُ أن أتعجَّب. لا يجِبُ أن يظهَرَ منّي سوءُ خلق. أنا...أسعى منذُ مُدّةٍ طويلةٍ لِئلاّ أخرُجَ من الإقليم وأعملُ بكُلِّ وسيلةٍ لِحِفظِ هدوءِ نفسي. وفوق ذلك فأنا منذُ مُدّةٍ أسعى لئلا أندهِشَ من رؤيةِ أيَّةِ واقِعةٍ أو سماعِ أيِّ خبر...لا يجبُ أن أندهش. لماذا؟ إنَّ الإنسانَ إذا اندهشَ من واقِعةٍ ألمَّت بِهِ فإنَّها ستظلُّ جديدةً عليه، وأنا يجبُ أن أقبلَ أنَّ إحساسي مُرتبطٌ بِشيء، بحالةٍ وموضوعٍ من الماضي، بِشيءٍ ليسَ لهُ ارتباطٌ بِحالِنا الحاضِر. رُبّما يرتبِطُ بعملي في جيشِ الشّاه، أو رُبَّما بِذهابِ **الصَّغير** إلى الجبهة...أو رُبَّما بواقِعةِ زوجتي؟و...بروانة؟ لا أعلم. آلافُ الأشياءِ يُمكِنُ أن تكون. لكن...لكن...فقط قلبي يرتجف وليست يدي. اِرتجِفْ أكثرْ، ماذا أعمل! أنا الَّذي لا أستطيعُ أن أفتحَ القِفلَ على بابِ غُرفتي وأهبِطَ الدَّرَج. أخيراً أنا مُضطرٌّ لأقومَ بهذا العمل. أفتحُه. حقّاً، من حُسنِ الحظِّ أنَّني لم أنزعْ قُبَّعتي. هي على رأسي . وهكذا ولحصولِ الاطمئنانِ بوجودِها أرفعُ يدي وألمسُها على رأسي، وفي الحالِ عينِها فإنَّ حواسّيَ تُثْمِرُ إلى المِقدارِ الّذي يجعلُني أعرِفُ أنَّهُ يجِبُ عليَّ أن أرفَعَ ياقَةَ معطفي إلى الأعلى حتّى لا تعبُرَ تحتها قطراتُ سلاسِلِ المطر. إنَّ خاطِراً خَطَرَ لي في سرّي، هو أن أقومَ بِسُلوكٍ ما حتّى لا يلتفِتَ

هذانِ الشّابّانِ إلى وجودِ أمير في قبوِ المنزل. ما منْ سبيل، فقد كنتُ أُحِسُّ إحساساً مُبهَماً بِأنَّ سُلوكَ أمير الَّذي كان مُنزوياً بِنفسِهِ في القبو مُنذُ أكثَرَ من عامٍ يُمكِنُ أن يُثيرَ الشّكَّ والشُّبهَة، ويُمكنُ أن يُحرّكَ البحثَ والتَّحرّي إلى درجةِ أنَّ هذا العمل سينتهي إلى الشّكّ. حيثُ أنَّ العقلَ يحكُمُ على الظّاهر ولا يوجَدُ دليلٌ عقليٌّ على أنَّ هذا السَّجينَ السّابِقَ ينزوي بِنفسِهِ بِبراءةٍ في قبوِ منزلِ والِده، بل حتّى يُمكِنُ القولُ أنَّهُ يحبِسُ نفسَه، وكان يحترِزُ من الحديثِ إلى الحدّ المُمكنِ حتّى إلى أقربِ الأشخاصِ إليه. طبيعيٌّ أنَّ مثلَ هذا السُّلوك من مِثلِ هذا الشّخصِ يبعثُ على سوءِ الظَّنّ، والأفرادُ سيدفعونَ المسؤولينَ للقيامِ بالتَّحقيقِ والتَّحرّي. أمير في الواقِع ليسَ مجنوناً ولا يُسلِمُ فِكرَهُ لِطريقٍ واحِد. انا نفسي سمِعتُ مراراً الصَّوتَ والحديثَ بينهُ وبينَ أُختِهِ فرزانة، وفرزانةُ اعتادت أن تُكثِرَ الكلامَ لِتُعبّرَ عن المشاعِرِ الأخويّةِ بِتِكرارِ الكلمات، وبِما أنَّ عُمرَها قريبٌ من عُمرِ أمير، فقد كانَ يحصَلُ أحياناً المجالُ ليجلِسا على حافَّةِ دَرَجِ القبوِ وتثيرُ غُصَصَهُ بالحديث.))

((لماذا أنت جالِسٌ تحسِبُ النُّجوم أخي حبيبي؟ ماذا سيكونُ غيرَ أنَّ الدُّنيا ستنتهي؟ لستَ وحدَكَ المظلوم، كثيرونَ مثلكَ صاروا بلا عَمَل. ليسَ صحيحاً أن يجلِسَ المرءُ في الزّاويةِ ويستهلِكَ نفسَهُ بالنَّشيج. ماذا حدثَ يا أمير يا روحي يا أخي يا حبيبي! فكّرْ قليلاً بِأبيك. إنَّ أبانا صارَ هَرِماً بعدَ خبرِ محمد تقي. أنت يجبُ أن لا تُسبِّبَ لهُ الموتَ انكِسارا. أبي أصابَهُ كثيرٌ من الألَمِ هذا الزَّمان، أنت تعرِفُ ذلكَ أكثَرَ منّي. حتّى لو لم تكن الأخَ الأكبَرَ في الأسرةِ لكانَ يجِبُ عليكَ التَّفكيرَ أكثَرَ بالأُسرة. بنا. أنا امرأة، ليسَ أمري بيدي. أنتَ الَّذي تعرِف، زوجي هو السَّيّد قُرباني. إنَّهُ يمنعُني من المجيءِ إلى هذهِ الأماكِن. ابني هو الآخَرُ لا فَهْمَ له، وأبوهُ يستنطِقُه؛ وبِنتي أيضا. وطفلٌ صغيرٌ يحبو. قرباني حجّاج يُسيءُ الظَّنَّ بكُلِّ شيءٍ ويخاف، لِدَرَجَةِ أنَّهُ يُمسِكُ ولدي ويستجوِبُه، والولدُ الصَّغيرُ لا يستطيعُ أن يُمسِكَ لِسانَه، وفي النِّهايةِ يتكلَّم. إنَّهُ طِفل، ليسَ عاقِلا. أمَّا قلبي فليسَ بعيداً عنك، ثيابي تشتعِلُ بِجَسَدي. لا حيلَةَ لي أخي حبيبي، أنا مُضطرَّةٌ لِمُداراةِ زوجي، ولِطاعَتِه، رُبّما...رُبَّما لن أستطيعَ مُجدَّدا، رُبَّما لن أستطيعَ مُجدَّداً المجيءَ لِرؤيتِكُم...لأنّ، لأنَّ قُرباني يقولُ إنَّ مجيئي إلى هُنا سابِقَةٌ تُدمّرُه، يُمكِنُ أن تجلِبَ لهُ مُشكِلة. حجّاج قلِقٌ كثيراً على وضعِهِ وعَمَلِه. لكُم، لأُسرتِنا صحيفةٌ سيّئةٌ عندهُم، صحيفةٌ يا أخي العزيز؛ اِسمٌ سيّءٌ، يسقُطُ السَّقفُ على الإنسان ولا يسقُطُ الاسمُ عنه. عزائي ومواساتي ليسا بالمجيءِ

والنِّساءُ لن تنطقَ حرفاً عنكُم. بعضُهُم لهُ لِسانٌ صارِمٌ يا أخي الحبيب. لا أذهبُ حيثُ لا يجب. الإسمُ السَّيِّءُ الّذي حدثَ بهذا الشَّكلِ يجعلُ المرءَ بعيداً عن نفسِه. يبتعِدُ الإنسانُ عن نفسِه وكُلٌّ يُريدُ أن يُكلِّمَ الآخَرينَ بِألفِ لِسانٍ صامتٍ ويصنَعَ حالَةَ أنا نفسي لستُ أنا، أنا نفسي لستُ أنا، أنا لستُ ذلكَ الأنا الَّذي في فِكرِكُم! فأنا مُضطرَّةٌ أخي الحبيب أنّني عنكُم، في الواقِع... عن نفسي أبتعِد. لكنّني أراكَ في كُلِّ وقتٍ أو تمُرُّ بِفِكري، أُفكِّرُ في كُلِّ وقتٍ بِحالِ وعَيشِ أبينا الَّذي ظُلِمَ كفرخِ طير، أورَمَتِ الغصَّةُ حلقي. تضخَّمت غُدَّةُ حلقي. وقلبي يُريدُ أن ينفجِر، يا ليتني أصيرُ ماءً وأنزِلُ في الأرض. أمير...أمير... أخي حبيبي، قُلْ حرفاً من الكلام، قُلْ كلاماً في جوابي. ليتَ بلاؤكَ يصيبُ عيني. أنت الّذي بهذهِ الحالةِ تُسبِّبُ قبلَ أيِّ شخصٍ الموتَ لِوالِدِنا. أخيراً كيف صِرتَ جائراً فجأة، وأنت الّذي كُنتَ حَسَناً حَسَنا، أنت الّذي كُنتَ تنصحُ الجميعَ وتُذكِّرُهُم. طُلاّبُكَ مثل بروانة يتنزَّهونَ بعيداً عنك، إنَّهُم يُحبُّونكَ مثلَ أخٍ كبيرٍ لهُم... شقيقاتُكَ سيشِبنَ يا أمير يا أخي يا حبيبي!))

((كنتُ أسمعُ أصواتَهُما وأنا مُقيمٌ على نفسِ الحالِ أقرأُ لِلمرَّةِ المئةِ قِصّةَ منوشهر وغيرها سلم وتور وإيرج الَّذين صاروا قريبينَ منِّي حتى كأنّني أراهُم وأستطيعُ أن أتصوَّرَ كم تألَّموا. في المراتِ الأخيرةِ الّتي رأيتُ فيها عَينَي أمير بدتا مُضيئتَين، مُضيئتَينِ أكثرَ من السَّابِق، وحالةٌ بين الخَجَلِ والهولِ والشَّكّ، شيءٌ أكثرُ من اليأسِ تفتَّحَ من بُذورِهِما. شعرُهُ الطَّويلُ المُجعَّدُ مرخيٌّ على كَتِفَيه، وفي شعْرِهِ عِرْقٌ أبيضٌ أراهُ في وَسَطِ شعرِهِ تماما. كنتُ أرى ولدي في القبوِ من خلْفِ زُجاجِ النَّافِذةِ الكَدِرِ وهو يضعُفُ ويهرُمُ ولا أستطيعُ أن أعمَلَ شيئا من أجلِه. كانت ليالي كُنْتُ أسمعُ منهُ أصواتاً عجيبةً وكُنتُ أُحسُّ أنَّهُ يرى كابوساً في منامِهِ وأستطيعُ التَّخمينَ في مُخيّلتي أنَّ ابني كان يرى أحلاماً موحِشَة، حُلُمٌ ورؤيا وكابوس، كابوسُ سُقوط، سُقوطُ أُناسٍ من أسْقُفٍ عالية، سُقوطُ حِجارةٍ ثقيلةٍ في الخلاء، سُقوطُ فتيةٍ في أعماقِ اليأسِ الأسود، مسخُ وجهٍ في النَّومِ فيتألَّم، وفقط يتألَّم، حُلُمٌ بِصرخاتٍ موحِشَةٍ يائسة، حُلُمٌ بِرجُلٍ يُسحَبُ أولادُهُ للمسلخِ ويُنتهى منهُم سريعا، نساءٌ يبقُرنَ أرحامهُنَّ كي لا تعلق بها النُّطفةُ وذلك ما يستطِعنَ فِعله...وآهٍ، آه اليأسُ مثلَ قنبلةٍ مخنوقة، وأشياءٌ عجيبةٌ وصُدَفٌ عجيبةٌ أنا هرمتُ حتّى اعتدْتُ على رؤيتها وسماعِها دون تعجُّبٍ كبير، لكنْ أمير لم يُوفَّقْ إلى الآنَ ليتلقّى عجائبَ الزَّمانِ بِشكلٍ عاديّ والإحساسُ بالذّنبِ . وهذا استنباطٌ منّي . هو شيءٌ يؤذيهِ أكثَرَ من جُرحٍ باقٍ في العظم. أمير بالنِّسبةِ لي وأنا أبوهُ لا يزالُ

شابًّا. لكنَّهُ ليس شابّاً إلى ذلك الحدِّ الَّذي أستطيعُ معهُ أن أتحدَّثَ إليهِ بِلِسانِ النَّصيحة، من أجلِ ذلكَ فأنا وولدي نفقدُ شيئاً فشيئاً لُغتنا المُشترَكَة. فأمير لا رغبَةَ لهُ في المُحادثةِ وأنا أيضاً عندي خجلٌ من التَّكلُّم، وأخيراً صرتُ إذا ما حدّثتُهُ عن شيءٍ فإنَّهُ يحفظُ ما أقولُهُ عن ذلكَ الشَّيءِ باعتِبارِهِ كلاما؟ وأنَّ كُلَّ ما قُلتُ كان يجبُ أن لا يُقالَ وأنَّ السُّكوتَ كان واجبا؟ فرزانة فقط، بعيداً عن عينِ زوجِها كانت تسرقُ الفُرصَةَ أحياناً وتحضرُ فجأةً وتُحاوِلُ بِلَحنِها وعاطِفتِها وحنانِها أن تجعَلَ أمير ينطِق، فهي وأمثالُها فقط يستطيعون التَّعبيرَ عن هذهِ المصائبِ الكُبرى بكلماتٍ صغيرةٍ بلا مبالاةٍ بالكمِّ والكيفِ من هذهِ الكلمات. كانت فرزانة تجلسُ عادةً على أسفلِ درجةٍ من دَرَجِ القبوِ كأُمٍّ حنونٍ تحمِلُ طفلها الصَّغيرَ على رُكبَتَيها، تذرفُ الدَّمعَ وتُكلِّمُ أمير، وبتجميعي لِحواسّي أستطيعُ سماعَ ما تقول . ... بي غصَّةٌ وعندي اختناقٌ من ضخامةِ غدَّةِ الحلْقِ يا أخي الحبيب. ارحمني على الأقلِ. لم أعُدْ أستطيعُ أن أراكَ تذوبُ أمامَ عيني. إلى متى نخسرُكَ بهذا الشَّكل. محمَّد تقي الَّذي بذلكَ الشَّكل، مسعود أيضاً الّذي... لا خطَّ عنهُ ولا خبرَ وأنا أفقدُ الأمَلَ شيئاً فشيئا، وأختُنا بروانه... بروانة...أختي الصّغيرةُ يا أمير حبيبي! لا يُعرَفُ شيءٌ...لا يُعرَفُ شيءٌ غيرُ الموت، غيرُ الموت. الموتُ الّذي انتهكَ حُرمَتَها. حين أتخيَّلُ ذلك اليوم الَّذي لابُدَّ أن يأتوا بِهِ بِجنازَةِ مسعود أو بِلَوحَةٍ عنه، وهذا يمُرُّ بِخيالي كُلَّ وقت، لا أعرِفُ ماذا يجِبُ أن أفعلَ فأضحَك. وفي النَّهارِ في كُلِّ وقتٍ يخطرُ لي أنَّهُم قد جاؤوا بجنازةِ محمد تقي ممّا لا أعرفُ معهُ ماذا عليَّ أن أفعلَ فأحبسُ البُكاء. موتٌ وموت، كم من الموت... إخوتي، إخوتي... الإخوة! أُنظُرْ ما جرى، أُنظُرْ كيفَ صارَ أنّني لا أستطيعُ جهاراً ودون مبالاةٍ وخجلٍ أن أنطِقَ حرفاً عن الموت! أختنا ماذا حلَّ بِها، أمير، أختنا الصَّغيرة؟ المدينةُ مليئةٌ بالمناديلِ وفي أزِقَّتِها التَّوابيتُ تسيرُ في طُرُقاتِها، وشوارِعُها الكُبرى مفروشةٌ بالدِّماء، وزوجي من عُمَّالِ الموتِ قد صار، حيثُ أنَّهُ عَزَمَ...ماذا أعرف! وأنا أخي حبيبي، ضخامةُ الغدَّة، ضخامةُ الغدَّةِ أسفَلَ الحَلْقِ أصابتني وتخنقُني وأنت... صامت، صامِت... أنا رُبَّما أقضي من هذهِ الحالةِ المُضطرِبةِ يا أخي الحبيب، أمير... أمير!...أراكَ تضعُفُ وتتلفُ وهذا الألَمُ سيقضي عليَّ أخي روحي. كلِمَةً على الأقل...أمير!))

((لا! لا أستطيعُ أن أتصوَّرَ أنَّ أمير فقد عقله، لا... لا يجِب! إلاّ أن تكونَ تلكَ الأحلامُ المُرعِبة، تلك الكوابيس...))

لم يضِلَّ فِكْرُ الكولونيل كثيرا. حيثُ أنَّهُ لمْ يُرَ أيُّ سلوكٍ عجيبٍ وغريبٍ من أمير حتّى بعدَ نومِهِ المُضطَرب، وبعد مرورِ الكابوسِ كان يجلِسُ هادئاً على حافَّةِ سريرِهِ ويمسحُ العَرَقَ عن جبينِهِ وأجفانِهِ بمنديلٍ قديمٍ كان يحتفِظُ بِهِ نظيفاً دائماً ويُدخّنُ سيجارة. حتّى أنَّهُ سُمِعَ أميرُ يتحدَّثُ إلى نفسِهِ يقول:((أتحمَّلُ، أتحمَّلُ وأحاوِلُ أن أتحمَّل أكثرَ إذا ما تركتْ الكوابيسُ ليَ المجال)) وسُمِعَ، من لِسانِ أمير نفسِهِ سُمِعَ أنْ((عقلي لا يزالُ في مكانِه، أقولُ إنَّ عقلي لا يزالُ في مكانِه)) والكولونيل يعتقدُ أنَّ ولدهُ لا يزالُ يُفكِّرُ بِشكلٍ جيّدٍ ويعتقِدُ أنَّهُ يسعى ليكونَ صابِرا. أمير لم يتوقَّفْ حتّى عن عَمَلِ مُجسَّمِ **أمير نظام** والكولونيل كان قد رأى شَبَحَ تلك التَّماثيل من خلفِ الزُّجاجِ الّذي يعلوهُ الغُبارُ لِنافِذَةِ القبو. فكيفَ يُمكِنُ أن يكونَ يائساً منه؟ ((في المرَّةِ الأولى الّتي أُعرّفُ فيها أمير نظام بنفسي قُلتُ لهُ يجبُ أن يكونَ مظهَرُ وتعبيرُ روحِ الأمَّةِ في روحِنا وعينِنا! ما كان يجِبُ أن أفعَلَ ذلك؟ لماذا ما كان يجب؟ ولكن... في بعضِ اللّحَظات، أُحسُّ بالخجلِ والحياءِ من تعريفِ أولادي بِعالَمِ هؤلاءِ الرّجالِ الأحرارِ عابِدي الوطن، وتأتي لحظاتٌ أحسُّ فيها أنَّني خُنْتُهُم بهذا العمل. شيءٌ حَسَنٌ أنَّ هذهِ اللّحظاتِ تمرُّ بِسُرعةٍ فلا تجِدُ مجالاً لتترُكَ في نفسي صورَةَ أصْلٍ مُسَلَّمٍ بِه، وعلَّتُها أنَّني كُنتُ في الماضي أقومُ بالاستدلال، أستدِلُّ أنَّني يجبُ أن أُنجِزَ وظيفتي كوالِدٍ تِجاهَ ولدي. وأحياناً كُنتُ أذهبُ أبعَدَ من ذلكَ وأُبتَلى بالفخرِ والغرورِ حين أرى أنَّني علَّمتُهُ تاريخَ ماءةِ عامٍ من الرّقيّ والتَّقدُّم. إذا لم أكن عملتُ مثلَ هذا العمل فماذا كان يجبُ أن أعمل؟ كيف تبقى أُمَّةٌ حيَّةً إلاّ بِمِثلِ هذا؟ ذهنُ الشَّابِّ بِحاجةٍ للتَّفكيرِ والموضوعِ الفِكري، وأنا كأبٍ لا يحقُّ لي أن أكونَ لا مُبالياً إزاءَ هذا الاحتياجِ المعقول. إذن لماذا اللّومُ لنفسي، لماذا يجبُ أن ألومَ نفسي؟ ما العملُ الّذي كان يجبُ أن أعملَهُ غيرَ هذا؟ هل كان يجبُ أن أكذب؟ ممّا مرَّ وجدتُ أنّني كُنتُ أكتُمُ الحقيقة، وجدتُ أنّي كنتُ أُلقِّنُهُم لِمَ ولِمَ...من معلوماتٍ لم يصلوا إلى معرِفَةِ حقائقِها؟ وأخيراً ماذا يمكنُ أن نعملَ لِشابٍّ إيرانيّ حتّى لا يقولَ عن اللّيلِ إنَّهُ نهار؟ لا! لا يجبُ أن أكونَ نادِماً وخجِلا. في الواقِعِ لا يجبُ أن أعتقِدَ أنّني خُنتُ ولدي. لماذا يجبُ أن يجِدَ مثلُ هذا الظَّنِّ طريقهُ إلى ذِهني؟ ماذا حصل ، ماذا يحصلُ حتّى يُصابَ الإنسانُ بالخجَلِ من إنجازِهِ أكثرَ الأعمالِ معقوليَّة، أولادي...أولادي!))

رأسي...رأسي...رأسي...تكادُ تنفجِرُ يا أبي!

هذهِ العبارةُ سمعها الكولونيل مرَّاتٍ من لسانِ ولدِهِ من خلفِ جِدارِ ونافِذةِ قبوِ المنزلِ أوقاتَ كانَ أميرُ يئنُّ ويضغطُ على رأسِهِ بيديه. هو يعلمُ أنَّ أمير يُصابُ بالحمّى بعد كلِّ كابوسٍ ويعلمُ أنَّهُ لا يستطيعُ أن يُعطِيَ جواباً لِنفْسِهِ من نفسِهِ ولا أن يأخُذَ جواباً لنفسِهِ من الأحياء، وفي حَدَسِهِ أنَّ ابنَهُ يصيرُ من هذِهِ الحادِثَةِ أعمى حتّى لا يعودَ خاطِرُهُ يُرِيدُ التَّفكير؛ وقطعاً ليس معنى هذا في نَظَرِ الكولونيل أنَّ أمير لا يستطيعُ التَّفكيرَ أصلا، لأنَّ عندهُ اليقينَ أنَّ عقلَهُ في محلِّه، كما عندهُ اليقينُ أنَّ فرزانة مُخطئةٌ إذا كانت تتوهَّمُ أنَّهُ فقدَ عقلَه. ويعتقِدُ أنَّ فرزانة لا يجبُ أن تضعَ رأسَها برأسِ أمير كثيرا. ويعتقِدُ أنَّهُ يجبُ على فرزانة أن لا تأتيَ على ذِكْرِ إخوةِ أمير وأخواتِهِ عنده وتزيدَهُ بلاءً وأسَفاً. حيثُ أنَّهُ كان واثِقاً أو على الأقلِّ كان يظنُّ أنَّهُ كانَ واثِقاً أنَّ أمير لا يُفكِّرُ بإخوتِهِ وأُختِهِ بروانة إلا في لحظاتٍ عابِرة، لحظاتٍ تجعلُهُ غافِلاً فيفقدَ السَّيطَرَةَ على نفسِهِ ليجرؤَ على التَّفكيرِ في هكذا فاجِعة، وأفجعُ منها عَدَمُ اليقينِ فيها وبليَّةُ الشّكّ. والكولونيل يستطيعُ أن يفهمَ هذا وأنَّ الإنسانَ حين يكونُ في خلاءِ العجز، والعجزُ شيءٌ نِسبيٌّ، فلا دليلَ لديهِ على أنَّهُ لن يكونَ ذليلَ الشَّكِّ واليأس. حيثُ أنَّهُ في مثلِ هذهِ الحالاتِ هناكَ ميدانٌ وحيدٌ يستطيعُ فيه أن يجولَ ويجولَ كثيراً هو ميدانُ الحَيرة.

((أنا بِنفْسي أوجَدْتُ لنفسي ما لهُ حُكْمُ سؤال، سؤالٍ ما لهُ في تصوُّري جوابٌ سوى في الموت. صرتُ مُضطرّاً للشّكِّ ليسَ بقوميَّتي ومِلَّتي فقط، بل حتّى بِآدَميَّتي. من أكون، ما أكونُ وأين أكون؟))

يجِبُ أن يكونَ الكولونيل قد سمِعَ هذا الكلامَ من لِسانِ أمير. كثيراً ما ظنَّ هذا. آخِرُ جميعِ الكلامِ الَّذي ليس من الواجِبِ أن يجيءَ على لسان. إلا أن يكونَ الكولونيل قرأهُ لابنِهِ أمير في محضرِ فرزانة؟ فرزانة الّتي كانت تعضُّ على شفتيها وتبكي بهدوء. صارَ نحيلاً، هو الآنَ يستطيعُ أن يُذكِّرَ الكولونيل بوالدتهِ ذاتِ الشَّعرِ اللامعِ الخرنوبيّ والحدقتين المضيئتين المائلتين للخُضرةِ والجبين المزيّن، المرأةِ الشَّديدةِ ذاتِ النُّدبةِ على ذقنِها الظَّريفة والدُّنيا المشوَّشَةِ المُضطربةِ المُخيّبَةِ للآمال والّتي تحكي في وجهِها وفي نظرتِها بِلِسانِ الحالِ صبرَ وتحمُّلَ أمير وكلِّ واحِدٍ من أفرادِ الأسرة.

((أنت ضِعتَ يا أخي، وأنا...أمير، فقدتُ إيماني.))

يعلَمُ أنَّ ابنهُ سيُمسَخ، هذا يعلمُه، لكنَّهُ لا يعلمُ بأيِّ وجه، لأنَّ هذا ممّا لا يُدرِكُهُ مثلُ عقلِهِ القاصِر. أمّا حالةُ مسخِ أمير فيُمكنُ أن يراها في عينيهِ المُشِعَّتَينِ الممزوجتينِ بسكونِهما أو التِهابِهِما مع علامةٍ على الهولِ والنَّدَمِ والحَيرَةِ والضَّعفِ فيهِما. أملُ وسعادةُ قلبِ الكولونيل كانا يأتيانِ فقط من رؤيةِ شَبَحِ ابنِهِ من وراءِ زُجاجِ النَّافِذةِ الكَدِرِ وهو يَصنَعُ تِمثالاً لأمير نظام حيثُ يستطيعُ قلبُهُ أن ينشغِلَ بِشَكلٍ صحيحٍ وسليم، وندامتُهُ كانت لأنَّ السَّيِّد خضر جاويد جاءَ إلى المنزِلِ وذهبَ دونَ أن يتذكَّرَهُ أمير بأيِّ شكل، ممّا أثارَ قلقَهُ من أن تكونَ الفواصِلُ بينَ كوابيسِ أمير تقصُرُ في كُلِّ دورةٍ عن سابِقتِها.

((أما أنا فقد مرَّ وقتٌ طويلٌ وأنا أسعى لِحِفظِ هدوءِ نفسي بأيِّ شكلٍ ولا أخرجَ من الإقليم. وأسعى فوقَ ذلكَ ومنذُ زَمَنٍ ألاّ أندهِشَ أو أتعجَّبَ لرؤيةِ أو سماعِ أيَّةِ حادِثةٍ أو خبر. رغمَ أنَّهُ ،لو أنّي كنتُ ذكّرتُ أمير بخضر جاويد، فمن الممكنِ أن يكون...ربّما يجبُ أن أمنعَ هذهِ الحادثة أو بالأصحِّ أن أؤخِّرَها قليلا؟ لا، فقد مرَّت أربعُ عشرةَ سنةً من عمره، أيُّها السّادة!...لكن...يجبُ أن أتأكَّدَ من أنّي أقفلتُ بابَ الدّارِ خلفي. نعم، أستطيعُ أن ألمَسَ المفتاحَ في جيبِ معطفي بأصابعي. ولكنْ واقِعاً هل قفلتُ الباب؟ رُبّما قفلتُهُ وربَّما لم أقفلْه. لا أعلم. ليتني أستطيعُ التَّأكُّد، ليتني... أنا أتردَّدُ والتَّردُّدُ دائماً إلى دَرَجةٍ تؤذيني.))

السَّيرُ أمامَ هذينِ المأمورَينِ أمرٌ بديهيٌّ في نَظَرِ الكولونيل، لأنَّهُ يعرِفُ القرارَ بأنَّهُ حين يُتَّهَمُ شخصٌ بأيِّ اتِّهامٍ ويُؤخَذُ أمرٌ بإيقافِهِ ويُعتقَل، فيجبُ أن يسيرَ في الطَّريقِ بين كتِفَي المأمورَينِ وأمامَهما قليلاً حتّى يكونَ مسيرُهُ تحتَ أنظارِهِما، وهذا العملُ يُعرَفُ بالحَدَس وهكذا كانَ الأمرُ يجري وعلى نفسِ المنوالِ طوالَ القرونِ والأعصار. ((هذا يعلمُه، أمّا أنا فيجبُ أن أطمئنَّ إلى أنَّني أغلَقْتُ بابَ الدَّارِ خلفي!)) والكولونيل لم يكن شابّاً فيقدِرَ على ممانَعَةِ القوانينِ غيرِ المكتوبة. رأسُهُ كانت للأسفل ونَظَرُهُ مشدودٌ إلى ما بين قدميهِ وظهرُهُ منحنٍ حتّى كأنَّهُ يحسُّ بحافَّةِ قبَّعتِه المدوّرَةِ الرَّماديَّةِ وظلُّها واقِعٌ على ظلِّ نهايةِ أنفِه، كما يستطيعُ أن يحسَّ بجناحَي معطفِهِ وكأنَّهُما صارا أطول، حين كان يُضطرُّ لسحبِ حافَّتَيهِما على ساقَيْهِ بعيداً عن الوحلِ والطّين على وجهِ الزُّقاق.

. من هذه الجهة، كولونيل!

((نعم، بهذا الشَّكل، يجبُ أن أذهبَ في الجهةِ الّتي ينظرانِ إليها.))

قطعوا الزُّقاق وصاروا في الشَّارِعِ الكبير. عندَ رأسِ كلِّ زقاقٍ يتفرَّعُ من الشّارعِ الكبير يقفُ عمودُ كهرباءٍ عليهِ مصباحٌ ينيرُ ضوءُهُ التَّقاطُعَ وجزءاً من الشَّارِعِ الكبير. بعدها وصلوا إلى ساحةِ البَلَديَّة الَّتي تقعُ دارُ القضاءِ في ضلعِها الغربي، وكان يجبُ الصُّعودُ إلى بناءِ دارِ القضاءِ في دَرَج. لكنْ قبلَ الورود يجبُ المرورُ فرداً فرداً بين عمودَين بمصباحينِ مشِعَّين جُعِلا علامتَين على اتِّجاهَينِ للدُّخول. طريقُ الدَّرَجِ كانَ مُطْفَأً الأنوارِ ونِصْفَ مُظلِمٍ إلاّ من شُعلَةٍ للكهرباءِ بلا رَمَقٍ ملتصِقَةٍ بالسَّقْف، تُنيرُ قليلاً الفضاءَ المُزدَحِم، والكولونيل((لستُ على جَهْلٍ بنظامِ التَّوفير))، وباحتياطٍ يتلاءمُ مع السِّنِّ والعُمر، يرفعُ قدمهُ، حيثُ الدَّرْجاتُ عليها الطِّينُ والوحلُ من أقدامِ الَّذين دخلوا عليها وخرجوا عنها، وكانت لا تزالُ رطبةً وموحِلة.

لم يكُن الكولونيل حين كان ضابِطاً في الجيشِ وحتّى إخراجِهِ منهُ. من أهلِ القمارِ والمنشَغلينَ به. ولم يكُنْ من أهلِ الألعابِ الأخرى كالبريج والبليارد لكِنَّهُ يعرِفُ أنَّ هناكَ صالوناً في الطَّبَقَةِ العُليا من البناء كان محلاً لِلَعِبِ البليارد، دون أن يكونَ قد رآه. في شبابِهِ كان يعزِفُ على الطَّنبور وهو لا يزالُ إلى الآنَ راغِباً بالعزفِ عليه. في الأيّامِ الأخيرةِ صارَ عندَهُ زوجٌ من الحَمامِ المنزلي، لم يكُنْ ذاكَ دونَ علاقةٍ بِطائِرِ القُنارى لابنتِهِ بروانة، كان يسعى بدونِ جدوى لِتَخيُّلِ لُعبَةِ البليارد ،الَّتي رُبَّما لم يكُنْ رآها أكثَرَ من مرَّةٍ واحِدَةٍ في عُمُرِه، ورسْمِ صورتِها في خيالِهِ. والآنَ إذْ يرى رجُلاً يجلِسُ على طاولةٍ كبيرةٍ يُغطِّيها نسيجٌ أخضرُ سميكٌ((وكم يُشبِهُ هذا الرَّجُلُ صِهْرَهُ السَّيِّد قُرباني حجّاج!)) وهُناكَ رَجُلانِ يجلِسانِ على الضِّلعِ الأُخرى من الطَّاوِلة، صارَ عندهُ يقينٌ أنَّ هذهِ الطَّاوِلَةَ يجِبُ أن تكونَ واحِدَةً من طاوِلاتِ لُعبَةِ البليارد وقد أُزيلَتْ حوافُّها الجانبيَّةُ المُرتفِعَةُ لتستفيدَ منها دارُ القضاءِ كطاوِلَةٍ مؤقَّتة.

. أنتم ضابِطٌ سابِقٌ، كولونيل؟

. نعم...كُنت.

. إذا كُنتُم ترغبونَ في أخْذِ هذه الجنازةِ والقيامِ بتكفينِها ودفْنِها فعليكم دفعُ مبلغٍ للصُّندوق.

. نعم...نعم...

. المُقدّماتُ أُنْجِزَتْ تماما، سيكونُ معكَ اثنانِ إلى نهايةِ مراسِمِ الدَّفن.

. نعم...نعم... آتي...على عيني...على عيني.

((قُلتُ... قبلَ أن أرى هذا قُلتُ إنَّني ومُنذُ وقتٍ بعيدٍ لا أنتظِرُ أيَّ خَبَرٍ سعيد. ولكنْ للإنصافِ فإنَّهُ خيرٌ من أن يُعطوا هذا الخبرَ السَّيّءَ للإنسانِ في موقعٍ أسوأ. حسناً، في هذا الوقتِ من اللّيلِ أيَّ تُرابٍ سأحثو على رأسي؟ حقّاً...))

الكولونيل يستطيعُ أن يفهَمَ أنَّ عِلَّةَ انتِخابِ مثلِ هذهِ السَّاعةِ ومِثلِ هذا الوقتِ هيَ إنهاءُ الكلامِ في هذِهِ القضيَّةِ قبلَ طلوعِ الشَّمس. حيثُ أنَّكُم تفهمونَ أَنَّهُ ليسَ من اللّازِمِ توضيحُ جميعِ جُزئيَّاتِ الشَّيءِ للإنسانِ وتفهيمُهُ كُلَّ شيء. وأخيراً فالعقلُ شيءٌ حَسَن. المرءُ نفسُهُ يجِبُ أن يكونَ ذكيّاً ويُساعِدَ مأمورَ الدّيوانِ في هذا الجانب ولا يسألُهُ سؤالاً مُعقَّداً في غيرِ مَحَلِّهِ عن شيءٍ يعرفُه. فإنَّهُ كانَ من المفهومِ والمهضومِ للكولونيل أنَّ مراسِمَ دَفنِ بروانة،((مواراة الثّرى يا سيّد!)) يجبُ أن تتُمَّ دونما أَصوات، وأن تتمَّ بصورةٍ خفيَّة، وأوَّلُ طَلَبٍ من المأمورينَ للمُشاركينَ هو الامتناعُ عن إظهارِ الجزعِ واللّطْمِ وأن يسعوا ليبقوا هادئين ومتحمِّلينَ وأقوياء، ممّا يعني في الإصطِلاحِ الانتباه، وهو يعني السُّلوك كما يجب. في الحقيقةِ، الصَّراحةُ في سلوكِ وبيانِ الرِّجالِ محلُّ إبهامٍ وتخيُّلات لا تمرُّ دون أن يبقى منها مزيجُ حُزنٍ وتأثُّر، والكولونيل بكُلِّ حواسِّهِ وحالِهِ ظلَّ مبهوتاً وحيراناً لِلَحظَةٍ طويلةٍ جِدّا، وحيثُ أنَّهُ كان لا يستطيعُ أن يجِدَ غُرفَةَ الصَّندوقِ أو محلَّ الدَّفع فإنَّهُ وبِشَكلٍ طبيعيٍّ جاءَ إلى طَرَفِ الطَّاولة، ومن دونِ أن يلتفتَ إلى مقدارِ المبلغ، أخرَجَ ما وقعَ في قبضتِهِ من العملةِ الورقيَّةِ الصَّغيرَةِ والكبيرةِ ووضعهُ على النَّسيجِ الأخضرِ السَّميكِ الَّذي يُغطّي الطَّاولة. عملُ المَلَفّ كان تامّاً في الظَّاهِر. لكِنَّ أمراً لم يترُكْ ذِهنَ الكولونيل هو أنَّهُ رُبَّما كان مُخطِئاً بِشأنِ لُعبَةِ البليارد. حيثُ أنَّهُ قبلَ ثلاثينَ سنةً تقريباً((أو من الممكنِ أكثرُ قليلاً)) أي في السّنواتِ السّابقةِ لِمُصادَماتِ النِّفطِ الوطنيَّة كان قد ذهبَ إلى صالةِ البليارد بعدَ ظُهرِ يومٍ من أيّامِ الخريفِ مع واحِدٍ من رفاقِه، وكان ذلك بعد الرّمي. كان كُلٌّ منهما برُتبَةِ ملازم وسارا في شارِعِ شقائقِ النُّعمانِ الكبير، وطلبَ منهُ صديقُهُ أن يذهبا إلى صالون البليارد ليلعبا دَورَينِ فقط. الكولونيل لم يكُنْ يعرِفُ شيئاً عن البليارد وقد خسِر. أمّا صالون البليارد فكانَ فيهِ طاولاتٌ عديدَةٌ للبليارد، وجوهُها من نسيجِ الماهوت الأخضر، كُراتُها مُلوَّنَةٌ وجميلة، المُثَلَّثُ مرسومٌ بِشكلٍ دقيقٍ وجميل، عِصيٌّ متينةٌ مبريَّةٌ بشكلٍ جميل، أصواتٌ مزدحِمةٌ مبهَمة، قِطَعٌ من الجصّ وزجاجاتُ

ليموناد فارِغة، ولا يزالُ إلى الآنَ يذكُرُ أنَّ رفيقَهُ كان قد قال((هذه لعبةٌ روسيَّة)). فكأنَّ شيئاً يُشبِهُ الاعتراف بالخطأ للرَّجُلِ الجالِسِ على الطَّاولة قد حصل لديه ممّا جرى فقال:

. اشتبهَ الأمرُ عليَّ... اشتباه...سامِحوني، فكري ذهبَ مني، لعِبْتُ البليارد مرَّةً واحِدةً في عمري!

. نعم يا سيّد؟!

. لاشيء. فداكُم...لاشيء...كأنَّهُ جاءَ على لِساني بِهذا الشَّكل وقلتُه. تعلمون، إنَّ لِساني ليسَ باختياري. أحسَسْتُ أنَّ قلبي يُريدُ أن يتذكَّرَ ذُنوبي لأقولها لِشَخصٍ ما!.

الشَّخصُ الّذي كان يجلسُ خلفَ الطّاولةِ تعجَّبَ وجعلَ ينظُرُ إلى وجهِ الكولونيل نظرةَ إبهامٍ كاملٍ كأنَّما ينظُرُ إلى شيءٍ عجيب، وظلَّ لحظَةً على هذهِ الحال. الكولونيل أعرضَ إذْ أحسَّ أنَّ ذلكَ الرَّجُلَ لا يستطيعُ أن يفهَمَ ما كان يقولُ وكيفَ جاءت على لِسانِهِ تلك الكلماتُ الّتي لا ترتبِطُ بالموضوعِ في الظَّاهِر؛ وفكَّرَ مُستيقِناً أنَّهُ لو قُدِّرَ لذلكَ الرَّجُلِ أن يكونَ في مكانهِ لَمَرَّت بِهِ حتماً تخيُّلات، ووقعَ في فِكْرِهِ أن يمضغَ ماضيهِ ويجلبَ مواردَ ذنبِهِ إلى لِسانِهِ ويتفحَّصَها ويُنقِصَ من قيمتِها أمامَ نفسِه.

((أيُّ دليلٍ يوجَدُ على أنّي أُفكِّرُ في ذنوبيَ الماضيةِ الّتي ارتكبْتُها وأنّي الآنَ أُعاقِبُ نفسي عليها؟! وأيُّ شخصٍ يستطيعُ أن يفهَمَ أنّي في كُلِّ لحظةٍ أعيشُها وفي كُلِّ خطوةٍ أخطوها أُحسُّ بالذّنب، بالذَّنْبِ الثَّقيلِ أو شيءٍ يُغرِقُني فيه، يخنقُني، ولا أعلمُ ما هو بل أُحسُّ بِهِ فقط. فقط أُحسُّ به. كأنّيَ مجبورٌ على الابتِلاءِ بالإحساسِ بالذَّنْب، وفِعْلُ خيالاتي مشدودٌ إلى هُناك، ففي كُلِّ لحظَةٍ وحيثُما كُنتُ أُحسُّ بالمأمورَينِ الغيبيّين يتعقَّبانني ويُراقبانِ سُلوكي وحركاتي. إنَّهُ لَمَحَلُّ شُكْرٍ أنَّني بعدَ إصابتي بقرحةِ المعدةِ والإثني عشر تركتُ المشروب، وكذلِكَ الأمرُ من حيثُ الميل الجنسي، فإنّي بعدَ قتلِ زوجتي صرتُ غيرَ حسَّاسٍ للجِنسِ وغيرَ مُحتاجٍ إليه. بناءً على ذلكَ فإنَّ الخَطَرَ المُتَمثِّلَ في هذا الموردِ من أن أنظُرَ لامرأةٍ وأن أنزلِقَ لا سمحَ الله لا وجودَ له. وأنا لا أعملُ في المُعامَلاتِ التِّجاريَّةِ والبيعِ والشِّراءِ حتّى أُبتَلى في سياقِ التِّجارةِ والكسْبِ بالسَّرِقَةِ والاحتيالِ غيرِ المشروع. ويبقى أمرُ معيشتي اليوميَّةِ الَّذي هو إلى اليومِ مُختَصَرٌ مُقْتَصِرٌ على حاجاتي وحاجاتِ وَلَدِي، وإذا ما أرادَ شخصٌ التَّحقيقَ في جُزئيَّاتِ حياتي فإنَّهُ سيصِلُ إلى هذهِ النَّتيجَةِ من دونِ شكٍّ، فأنا إلى الآنَ لم آخُذْ حتّى عُلبة سجائر واحِدة من يدِ ابنتي زوجةِ السَّيِّد

قُرباني حجَّاج. كذلكَ فإنَّهُ لم يتَّفِقْ إلى الآنَ أنّي لم أدفَعْ ثَمَنَ كوبٍ من الشَّاي **ليوسُف نُقلي** قبلَ أن أخرُجَ من مقهاه . نسيانُ ما اشتريتُ لايجعلُني سعيدا. وبخصوصِ القيثارة...فإنّي لا أسمحُ لِنفسي بِأن يكونَ ذلِكَ وأنا مُتخَفٍّ، فقد كُنتُ أعزِفُ وإلى الآنَ لا أزالُ أرغبُ بالعزف، ولكنْ رَجَفانُ يديَّ، كَفَّيَّ، لا يجعلُ القيامَ بِهذا العَمَلِ باختياري. وها قد مرَّتْ سَنَواتٌ لم أحْمِلْ آلَتي الموسيقيَّةَ بِيدي، وطنبوري في إطارِهِ القديمِ مُعلَّقٌ بالحائطِ ويعلوهُ الغُبار، والمأمورانِ بِنَفْسَيهِما رأياهُ على الحائطِ ولم يكُنْ يظهرُ منهُ أنَّهُ يعمل. أخيراً ماذا؟ بقيَ أمرانِ مُهِمَّان، ذنبانِ عمِلتُهُما عَمْداً في حياتي. أَحَدُهُما قتلُ امرأتي والآخَرُ عِصْيانُ الأوامِرِ العُليا بِشأنِ مأموريَّةِ ظُفار. نعم، قَتَلْتُ زوجتي، هذا صحيح. رفضتُ مأموريَّةَ ظُفار، هذا أيضاً صحيح.))

الشَّخصُ الّذي يجلسُ خلفَ الطَّاولةِ الكبيرةِ المُغلَّفَةِ بالماهوت، نهضَ فجأةً من مكانِه، بطنُهُ باتِّجاهِ الطَّاوِلة، التَفَتَ وقالَ بِلحْنٍ مُختَلِفٍ عليهِ علامةُ المرارة، لماذا لا يتحرَّكون، كادَ اللّيلُ أن ينقضي! والشُّبّانُ تقدَّموا حتّى صاروا قُرْبَ مرفقي الكولونيل. أمسَكَ واحِدٌ منهُم بِعَضُدِهِ النَّحيل ومن حيثُ كان واقِفاً دار نحوه، وآخرُ أدخَلَ وصلَ استلامِ المال في جيبِ معطَفِ الكولونيل وقال:

. كلُّ شيءٍ جاهز، جناب الكولونيل!

. أعرِفُ فِداكَ. أعرِف.

.((مأموريّةٌ مهمّةٌ وقيّمةٌ كولونيل، ظُفار! وسامُ تقديرٍ لكُم من بين الضُّبّاطِ المحبّينَ للوطن أمثالكُم . أباركُ لكُم.))

.((فداكم...))

.((بالتَّوفيق، كولونيل))

.((الموضوعُ هو أنَّني لا أزالُ في حلِّ مشكِلَةٍ أُسَريَّة، فداكم!))

.((لا تشغلوا فكرَكم كولونيل. لا يمكنُ لكم أن تترُكوا...))

.((لكنْ سيادةَ العميد...هم، زوجتي...))

.((يجبُ أن تأخذوا هذهِ الملاحَظَاتِ بالنَّظَر أيُّها الضَّابِط، يجبُ أن يكونَ اِسمُ أُسرتِكُم عندهُم. عليكُم أن تعلموا ضمناً أنَّ زوجَتَكُم يجبُ أن تكونَ من أُسرةٍ عريقةٍ ومعروفة.))

.((لكنْ أنا مُجرَّدُ جنديٍّ واحدٍ... فداكم!))

.((نحنُ جميعاً جُنودٌ أيُّها الضَّابِطُ. أليسَ التَّوضيحُ كافيا؟!))

كانوا يُلقونَ ذلك على الكولونيل في اللّيل. وفي تِلكَ اللّحظةِ أحسَّ بِشيءٍ مُبهَمٍ ممّا يحصلُ عادةً ليلَ الجِناية، إذْ عادةً ما يُنتَخَبُ الظَّلامُ لارتكابِ الجناية. وفكَّرَ بعدَ إدراكِهِ لِهذا الإحساسِ أنَّ مُقدّماتِ الجنايةِ تكونُ في اللّيل، والدِّماءُ تُراقُ في اللّيل وتُغطّى بقايا الجريمةِ بالتُّرابِ ويُسعى لينتهيَ الفِعلُ في اللّيل. فكأنَّ الجريمَةَ تستوحِشُ من النَّهارِ والضّياءِ وكأنَّ الجاني يُريدُ معَ إشراقِ الضّياءِ أن تصيرَ يدُهُ المُلوَّثةُ مغسولةً، وبِحُضورِهِ ما بينَ أكتافِ النَّاسِ يُريدُ أن يستطيعَ أن ينسى وُجدانَهُ بلا إرادةٍ منهُ أو أن يفقدَهُ مؤقّتا. هوَ نفسُهُ،...الكولونيل في مثلِ هذِهِ اللَّحظَةِ من اللّيلِ صَمَّمَ على الجِنايَة، وبِما أنَّ حُكمَ المأموريّةِ هذا لم يتِمَّ إمضَاؤُهُ بشكلٍ قطعيٍّ بعد، فقد قرَّرَ وهو يأخُذُهُ من بينِ الأصابِعِ البيضاءَ والمتورِّمَةِ للعميدِ أن يقتُلَ زوجتَه . حيثُ أحسَّ أنّهُ لا يستطيعُ أن يطير إلى ظُفار ليُلقيَ القبْضَ على مجموعةٍ من النَّاس الجائِعِين والمتمرّدين بحُجَّة ((خطر الاضطرابات))، ولا يستطيع أن يُخفيَ أكثرَ مما اختفى تحت قبَّعةِ رأسِه.

((كانت قبَّعَةَ ديُّوثٍ يا سيِّد! دُرْتُ للخَلْفِ وأنا أحملُ ورَقَةَ الحُكمِ هذه تحت إبطيْ، وأعطيتُ الأمرَ للسَّائقِ بأنْ يخرجَ من المدينةِ ويأخذَني بشكلٍ مُباشَرٍ إلى البيت، ربَّما كنت قد فقدتُ عقلي , أو ربَّما كنتُ قد وجدْتُ عقلي ! أصلاً ما هو العقل ؟)) .

تفضلوا كولونيل!

. نعم.... نعم ...

يعلمُ أنَّ كُلَّ شيءٍ جاهِزٌ وأنَّه عطَّل قدَرَه وأنَّ عليهِ الآنَ أن يسير, سارَ على طول صالون البليارد الخالي ليصلَ إلى بابِ الخروج , خرج من الباب، انحدرَ على الدّرَج الذي تُفضيْ درجاتُهُ في الخارِجِ إلى واحدٍ من عمودَي المصباحَين حيث وقفَ بانتِظارِ سائِقِ سيَّارةِ الإسعاف. وعلى قدر إمكانيَّةِ التَّشْخيصِ فقد رأى الشَّخصَين الّذَين كانا قد جاءا إلى المنزلِ بجانبِ سيَّارةِ الإسعافِ

وكانا واقفَين تحتَ المطرِ يلمعُ المعدنُ في حلقاتِ سلاسلِهِما تحت ضوءِ المصباحِ وقد رفعا قبّعَتَي معطفيهما إلى ما فوق رأسيهما، وحذاءاهما وسروالاهما ابتلّت جميعاً بالماءِ وتلوَّثَتْ بالطِّين، وانتَبَهَ إلى أنَّ ذلك الأفتى منهما قد أزال الشعر الناعم عن وجهه فبان أكثرَ شباباً , وشعرُهُ الأسودُ الجميلُ يغطّي وجنتيه , والكولونيل الآن ينظرُ إلى سيَّارةِ الإسعافِ تحتَ المَطَرِ الَّذي يغسِلُها بانتظارِ أن تبدأَ مرحلةٌ أخرى من العمل .

. أنتم اجلسوا في الخلف .. كولونيل .

السائق، ودون أن يلتَفِتَ إليهِ الكولونيل، كان مستعِدّاً، وهذا يجب ألاّ يفوتَ الكولونيل بسببِ ضعفِ الرُّؤيةِ في عينيه . ربَّما كان هذا مرتبطاً بطبيعةِ السّائقين الشُّبّان ((الذين غالباً ما يتصفون بالسُّرعةِ والحزم)) بعكسِ السّائقين القُدامى الَّذين كانوا يقودون الكميونات التدريبيَّة بعد الحرب وكان سلوكُهم وحركاتُهم _ من ثقلها ووقارها _ على قدرٍ من الرِّياء . فمثلاً حين يوقفون الكميون قرب المقهى، ويترجَّلونَ منهُ يبدو أحدُهُم وكأنه يلقي حمْلاً من ثلاث مئة كيلو عن كتفهِ إلى الأرض. ودائماً يلُّف الواحِدُ منهُم منديلاً من الحرير حول عنقه، وحين يسيرون على أقدامِهِم تكونُ إحدى اليدين وكأنَّها تعقدُ المنديلَ وتتعلَّقُ به. وهكذا كانوا يقودون وبنفس الثقل والوقار بأكعابِهم النّائمةِ, وبعد أن يعطيَ كلُّ واحِدٍ منهم التّعليماتِ لتلميذه يبتعدون عن السَّيَّارةِ ويفرشون حصيرةً على ضفة جدول الماء الذي يمر بجوار المقهى ويجلسون ويغسلون من على أيديهم ووجوههم الزّيوت والدهون ويبتعدون دون أن ينتبهوا لأنفسهم عن السَّيَّارةِ ليهتمَّ بها الطَّالِبُ الّذي يكونُ في طَورِ الاختبار.

أمّا سائقوا اليومِ من الشُّبّانِ فعندهُم أخلاقٌ أخرى وسلوكٌ آخر بنَظَرِ الكولونيل. غالباً ما يبدونَ قُساةً جُهَلاء، حتّى ولو كانوا سائقي سيَّارَةِ إسعاف. وكأنَّ أحدَهُم هِرٌّ يرى الفريسَةَ في مُتَناوَلِ يدِه. هذا يعني أنَّهُم لا يُفكّرونَ في سلامَةِ أنفُسِهِم أصلاً وكأنَّهُم لا يعرِفونَ إلاّ دوّاسةَ البنزين، وحتّى ولو كانت تُمطِرُ أو يسقُطُ البَرَدُ وماءُ المَطَرِ يملأُ الحُفَرَ فإنَّ ذلِكَ لا يشغلُهُم ولا يهتمُّونَ بِه ولا

يُراقِبونَ موضعَ أيديهِم إلاّ قليلاً ولا يُراعونَ حالَ رجُلٍ عجوزٍ يجلِسُ في الخلْفِ وقدِ التَصَقَ بتابوتِ ابنتِهِ على مقعَدٍ ضيّقٍ. الكولونيل يعلمُ أنَّهُم راعوا حُرمَتَهُ بتقديمِهِم سيَّارَةَ إسعافٍ كامِلَةٍ لِحملِ تابوتِ ابنتِه، لكِنَّهُ بالمُقابِلِ يرى أنَّ السَّائقَ لا رِعايَةَ لَدَيهِ وأنَّهُ أحياناً يسوقُ كما لو كانَ لَدَيهِ جُثَّةُ نعجَةٍ يحمِلُها من محلِّ القصَّابِ طَرَفَ البازار. وكان عندهُ اليقينُ أنَّ السّائقَ يضرِبُهُ النَّومُ . على طريقةِ ما اعتادتْ عليهِ الكلابُ في النَّوم . وقبلَ أن يصلوا إلى المغسَلِ وينزلوا التَّابوت جاءتْ على لِسانِهِ مئةُ لفظَةِ فُحْشٍ((بما أنَّني لستُ الأقلَّ ذنوباً بينَ الموجودين. ربّما...)) رُبَّما كانَ ذِهنُهُ يسعى بِلا إرادةٍ منهُ ليَجِدَ محلاًّ من التَّقصيرِ له وأغلب اللّحظاتِ كانَ يذهبُ نحوَ فكْرةِ أنَّهُ لو لمْ تكُنْ زوجتُهُ مقتولَةً لما كانت ابنتُهُ نائمَةً في هذا التَّابوت. لكنَّهُ يعلمُ، يعلمُ جيّداً أنَّهُ لا مفرَّ لهُ من مُقاومةِ هذا الخيال، لأنَّهُ يعلمُ يقيناً أنَّهُ لا يوجَدُ سبيلٌ لأيِّ تغييرٍ فيما حَصَل. حقيقةُ الواقِعِ الَّذي استقرَّ أمامَ وجهِهِ أنَّ بروانة كانت تنامُ في تابوتٍ تفوحُ منهُ رائحةُ الدَّمِ والرُّطوبة، ومعَ كلِّ حَرَكَةٍ غيرِ ملائِمَةٍ من سيَّارةِ الإسعاف فإنَّ جَسَدَها النَّحيلَ وعِظامَها الشَّبيهةِ بِجِسْمِ سَمَكَةٍ نِصفِ حيَّة تتزلقُ هنا وهناك. بروانة كانت صغيرةً والكولونيل لا يستطيعُ أن يتخيَّلَها من دونِ عباءتِها الرَّماديَّة. وحتّى بروزُ عظمَي كتِفَيها فإنَّهُ لا يستطيعُ أن يراهُ إلاّ بلونٍ رمادي. علاوةً على ذلكَ فإنَّ سلوكَ وحرَكاتِ بروانة تتداعى في ذهنِ الكولونيل بسببَ طائرِ القُنارى الَّذي أُطلِقَ عليهِ من اليومِ الأوَّلِ اسم بروانة. ربّما بِسَبَبِ التَّلقين، أو بسبَبِ إحساسٍ خاصٍ من الأبِ تِجاهَ ابنتِهِ الَّتي فقدتْ أُمَّها فصارت محلَّ اهتِمامِه، فكان الكولونيل من ذلِكَ يحبُّ بروانة بإحساسٍ مُختَلَطٍ، أبويٍّ وأموميٍّ معاً، ودائماً يراها كطائرٍ حديثِ الرِّيش يُريدُ أن يتعلَّمَ كيفيَّةَ الطَّيَران. وهو من هذا المنظورِ كان يرى قدومَ ومُغادَرَةَ بروانة للمنزل. وهكذا فإنَّهُ أحسَّ وقتَ فُقِدَتْ بِأنَّ الرِّيحَ حملَتْها وأضاعَتْها.

((الرّيحُ تُضيعُها، تُضيعُها. تربيةُ الحَمامِ ليست حِرفتي. لكنّني أعرفُ منها أنَّ الحماماتِ الحديثةَ الرِّيشِ تضيعُ في الرِّيحِ ، خصوصاً ريحِ الغروب. الرّيحُ تُضيعُها، تُضيعُها، تلُفُّها، وعندَ ذلِكَ إمَّا أن يكونَ ريشُها هشّاً فتكسِرَهُ، أو أنَّها تُضيعُها في طَيَرانِها وترمِي بها بعدَ شِدَّةِ معاناةٍ في مكانٍ ما. الباشقُ والجوارِحُ ليست قليلةً في مُعتَرَكِ الرِّيحِ والطُّوفان)).

فتِلْكَ اللّيلَةَ، وقتَ لم تَعُدْ بروانة إلى المنزل، وَرَدَ على قلبِ الكولونيل أنَّ الرِّيحَ قد حَمَلَتْها وبِغيرِ اختيارٍ منهُ راحَ يُحصي في ذاكِرَتِهِ المرَّاتِ من عُمْرِهِ الَّتي رأى فيها حمامةً مخضَّبَةَ الرّيشِ

بالدِّماء، كان عِدَّةَ مرَّاتٍ وفي سنينَ مُختلِفة. ظلَّ في الانتظارِ وهو العَمَلُ الوحيدُ الَّذي يستطيعُ أن يقومَ بِه. عَمَلٌ ليسَ في الحقيقَةِ عَمَلاً، وهو أكثرُ حالاتِه. الحالةُ الّتي كان الآباءُ وآباؤنا يورِّثوننا إيَّاها بأيدٍ مفتوحةٍ منذُ آلافِ السِّنين من إيمانِهِم بالإرْث. انتظار...انتظار...انتظار وهو الآنَ بانتِظارِ الوصولِ إلى المقبرةِ على أَمَلِ أن يستطيعَ لحظَةَ الدَّفنِ أن يرفَعَ غِطاءَ بروانةَ المُخضَّبِ بالدَّم ويرى وجهَها للمرَّةِ الأخيرة. لأنَّهُ فكَّرَ أنَّهُ فيما لو فَعَلَ هذهِ المُخالَفَةَ في مثْلِ هذا المكانِ داخِلَ سيَّارةِ الإسعاف، فرُبَّما ستكونُ عليهِ مسؤوليَّةٌ، مسؤوليَّةٌ عليهِ وعليهِم أيضا. وفي الحالِ عينِها يعلمُ أنَّ هذه الحاجةَ الظَّاهريَّةَ والعُرفيَّةَ تبدَّلتْ من نفسِها إلى عادةٍ بتأثيرِ التّكرار، وذلك مِنْ رغبَةٍ عميقَةٍ مُتَّصِلةٍ بالعاطِفَةِ اقتضتْ تكرارَ هذا العملِ فصارَ عادةً دونَ أن نحسَّ به. وهكذا كان يرى ابنتهُ المُغطَّاة، ويستطيعُ أن يرى حالَةَ وجهِها وحتّى أنَّهُ يستطيعُ أن يحسَّ إلى أيِّ قدرٍ صارت بروانةُ خفيفةً. أخفَّ من جميعِ من كانوا قبلها. هذا الحسُّ لم يكُنْ ساذَجاً قطعا، ومن المُحتَمَلِ أنَّهُ يستطيعُ في لحظَةٍ واحِدَةٍ أن يُحيلَ هذا الرَّجُلَ العجوزَ مجنوناً. وحيثُ أنَّهُ يعلمُ أنَّهُ مطلوبٌ منهُ أن يُحافِظَ على هُدوئه وثباتِه، فهو يسعى لِعَدَمِ السَّماحِ لِنَفْسِهِ بالتَّفكيرِ بِحياةِ ابنتِه . الأمر الَّذي هو مُحالٌ قطعيّ .. وحيثُ أنَّهُ يعلمُ هذا ومن كثرةِ ما تعلَّمَ من التَّجارِبِ أنَّ الإنسانَ من غمّ فقدِ عزيزٍ يصيرُ مُحطَّماً مُضطرِباً فيتخيَّلَهُ موجوداً حيَّا ويُجسّمَهُ في نَظَرِه. يعني أنَّهُ كان معلوماً أنَّ نظيرَ الجنونِ الَّذي يُبتلى بِهِ أصحابُ المصائبِ من موتِ عزيزٍ ناشِئٌ من تَخيُّلِ لَحَظاتِ حياتِهِ فيتخيَّلونَهُ حيّاً لِلَحظاتٍ في خيالِهِم. وأمّا عمّا يُمكِنُ أن يفعَلَهُ في مُصيبَتِه فلم يرَ طريقاً ولا حيلَةً إلاّ بِعَدَمِ التَّفكيرِ بِلَحَظاتِ حياةِ ابنتِه أو بِأنَّها حيَّة. هذا التّصميمُ ليسَ ساذَجاً ويسيراً قطعاً، لأنَّهُ يستلزِمُ امتلاكَ القُدرَةِ على التَّحكُّمِ بالأعصاب والتَّحكُّمِ خاصَّةً بِمركزِ الأعصابِ . المُخّ . وبالفِكْر. في تلكَ اللّحظَةِ صمَّمَ الكولونيل على أن لا يُفكِّرَ بِكونِ ابنتِهِ حيَّةً أو بِلَحَظَاتِ حياتِها حتّى انتِهاءِ مراسِمِ التَّكفينِ والدَّفنِ واعتِزالِ البعيدِ والقريب. كان يسعى ليرى بروانةَ بصورةِ سَمَكَةٍ انفصلتْ من الماءِ وسقَطَتْ جانباً ولُفَّتْ عَرَضاً بلباسٍ كثيفٍ ومعَ كلِّ اهتِزازٍ من سيَّارةِ الإسعافِ إذْ تميلُ إلى هذا الطَّرَفِ أو ذاكَ فإنَّ الشَّبيهَةَ بالفتيلَةِ تتدحرج.

((لكن...في الواقِعِ أَلَمْ يكُنْ عصياني للأوامِرِ وتوقيفي ودخولي السِّجن باعِثاً لِئلّا أستطيعَ المُثابَرَةَ بنفسي على إنجازِ وإتمامِ وظيفتي بالنِّسبَةِ لبروانةَ الَّتي هي أصغرُ أولادي؟ إذْ كانت أُختُها الكبيرةُ فرزانة مشغولَةً كزوجَةٍ وسارَ كُلُّ واحِدٍ من أولادي الثَّلاثةِ الباقينَ في طريقِهِ الخاصّ. أمير كان

في السِّجن، محمَّد تقي في دراستِهِ واجتِهادِهِ وذهابِهِ للجامِعة، ومسعود أيضاً كان يُعاني كُلَّ القهر. آه...أولادي، أولادي...قليلاً ما كانَ يُفكِّرُ الواحِدُ منهُم بِنفسِه. في النِّهايةِ ليسَ كُلُّ حِمْلِ التَّاريخِ على كتِفَيك!. أنا لا أتحمَّلُ بِقدرِ ما تتصوَّرون. أنتُم أردْتُم التَّسابُقَ بعضُكُم مع بعض؟! آخرُ هذه الأعمالِ مسابقةٌ بالتَّحمُّل، أعزَّائي! . أمّا جوابُهُم لي فكان في مسلَكِهِم وطريقتِهِم.))

. ((نحنُ كُلَّ ما ملكْنا منكَ ملكناهُ يا أبي، أنت نفسُك من الضُّبَّاطِ المعدودين في جيشِ الشّاه الّذين رفضوا مأموريَّةَ ظُفار وفي رأينا لم يكُن أيُّ شخصٍ سواك ليقولَ أيَّ قولٍ أو ينطِقَ بكلامٍ بخصوصِ النِّفط ومصدّق!.))

. ((شُغلي كان إلى جهةٍ معينةٍ يا أعزّائي. أمّا أنتم، أنتم فليشدَّ كلُّ واحدٍ منكم ظهر الآخر وليكُن قتالُكُم إلى جهةٍ واحدة. أنتم ماذا يجري لكم؟ أنتم جميعاً من أصلٍ واحد، لكنْ لكُلِّ منكُم دعواه! أنتم ماذا تريدون وخلفَ أيِّ شيءٍ تسعَون حتّى يُعارِضَ بعضُكُمْ بعضاً ويُجادِلَ بعضُكُم بعضا؟ لكأنَّ لِكُلِّ واحِدٍ منكُم وطناً مُنفصِلا؟!))

((لا ليسَ لهُم أوطانٌ منفصِلَةٌ. فقط كُلُّ واحِدٍ منهم كان يُفكِّرُ بِأنَّهُ قد وجَدَ حقيقَةَ نفسِه. قدَّموا ليَ الاحتِرام، لكنَّهُم في باطِنِ أنفُسِهم لم يُصدِّقوني. في النِّهايةِ هُم يرونني ضابِطاً في جيشِ الشَّاه. مع فرقٍ هو . احتمالاً . امتيازٌ وهو أنَّني لم أذهبْ بشكلٍ ظاهِرٍ للجنايةِ في ظُفار. أمّا عن عملي فلا يُمكنُ ولا يجبُ أن أُغيّرَ إدراكَهُم لِماهيَّةِ نظامٍ يترُكُ أثَرَهُ على كُلِّ فردٍ من أفرادِه فرداً فرداً وبلا تردُّد. إنَّهُم يعرِفونَ النِّظامَ الهَرميَّ لِجيشِ الشّاه لكنَّني لم أستطِعْ أبَداً أن أجعلَهُم يقبلونَ هذهِ الحقيقَة. أولادي لم يكونوا يُحقِّرونني لكِنَّني كُنتُ أُحسُّ بالحقارَةِ في أعماقي. رُبَّما كانوا هُم أعقَلَ منّي وكانوا يتوقَّعونَ المآلَ الّذي سيؤولُ إليهِ أبوهُم عابِدُ الوطن وخُلاصتُهُ أن يجِدَ نفسَهُ في النِّهايةِ في مقامِ رجُلٍ نِظاميّ عاشِقٍ لِحمامةٍ وطنبورٍ لا يقدرُ على العزفِ عليه. ولو أنَّني لم أكن قتلتُ والدتهم فهل كانوا اليومَ ينظرونَ إليَّ حتّى مُجرَّدَ نظر؟! لا أعلم. أمّا أنا فكنتُ قد قتلتُ زوجتي دون مُشكلةٍ جوهريّة. كانَ ذلك بخيالٍ هادئٍ ومرتاحٍ ودونَ تفكيرٍ بما يمكِنُ أنْ يجيءَ في المُستقبلِ وأخذتُ طريقَ السِّجنِ النّظاميّ أمامي))

. ((...يعني واقعاً أنّكُم قتلتُم زوجتَكُم كولونيل؟!))

. ((نعم، واقِعاً!...أنتم تتعجَّبون؟!))

. ((...وظُفار، لم تذهبوا إلى ظُفار؟))

. ((انتُم ماذا ترون!))

. وصلنا كولونيل، تفضَّلوا انزِلوا!

. نعم على عيني، أنزل، الآنَ أنزل.

فُتِحَ البابُ الخلفيُّ لِسيَّارةِ الإسعافِ على مصراعَيه. ومجموعةٌ من الأيدي أخرَجَتِ التَّابوت. كانَ التَّابوتُ خفيفاً، خفيفاً جدّاً. كالرِّيش. أنزلوا التَّابوتَ وقُربَ مقبَرَةٍ لا تغيبُ عنها الظُّلمات فهِمَ بأيَّةِ أُسرةٍ أصيلةٍ من المدينةِ تعلَّق، ساروا على أرضِ المقبَرَةِ الموحِلَةِ ووقفوا بعيداً عن التَّابوت. كانَ المطَرُ يهطِلُ غزيرا، وكانَ السّائقُ دائمَ المُراقَبَةِ والانتباهِ لِسيَّارَةَ الإسعافِ، سحبَ نفسهُ وراءَ زُجاجِها بناءً على قرارٍ وكان رأسُهُ ووجهُهُ يظهرانِ من النَّافِذةِ الصَّغيرة ونادى واحداً من المأمُورَينِ باسمِهِ قائلاً إنَّهُ يجِبُ أن يرجِع. الكولونيل سمِعَ اِسمَ علي سيف وسعى ليحفَظَهُ في ذاكِرَتِه وفكَّرَ أنَّهُ من الطَّبيعيّ أن يطلُبَ السَّائقُ الرُّجوع، بما أنَّهُ أنهى عَمَلَه. فقد كانَ بالخصوصِ لطيفاً جدّاً بانعطافِهِ من الطَّريقِ الرَّئيسِ إلى الطَّريقِ الفرعيّ ودخولِهِ طريقَ الحيّ الّذي كان موحِلاً من أعلى إلى أن صارَ وسطَ أرضِ المقبَرَةِ الوعْرَة. علي سيف لم يقُلْ شيئاً في جوابِ السَّائقِ أو رُبَّما قالَ دونَ أن يسمَعَ الكولونيل الصَّوتَ من هديرِ المَطَر. حرَّكَ السَّائقُ سيَّارةَ الإسعاف والجميعُ يعلمُ أنَّ عليهِ أن يرجِعَ للوراءِ ليخرُجَ من مكانِهِ المحصورِ نسبيّاً، لِيدورَ بعدها نِصْفَ دورةٍ ويمضي في طريقٍ مُستقيم. تحرَّكتْ سيَّارةُ الإسعافِ وهُم ينظُرُونَ إليها دونَ أن ينتبهوا لأنفُسِهِم وكان ذلِكَ بِشَكلٍ عفويّ منهُم، وكأنَّهُم ينظرونَ بِقَلَقٍ خفيّ لِئلا تميلَ العَجَلَةُ الخلفيَّةُ وتنحرفَ فتنزلَ في مستنقعٍ وتعلقَ بِأرضِ المقبرة. ظلُّوا ينظرون هكذا إلى أن وصلت سيارةُ الإسعاف من مكانِها المحصورِ الضيّق إلى مكانٍ محوَّطٍ أوسعَ نسبياً, وبعدَ إشارةٍ من رأسِهِ ويدِهِ، أعطَى السَّائقُ السَّيارةَ الوقودَ وما هيَ إلاّ لحظةً حتَّى ابتعَدَ واختفى عن الأنظار في المنخفضاتِ التي استحالت مستنقعاتٍ. الآنَ يستطيعون أخيراً أن يأخذوا نَفَساً وينظرَ بعضُهُم إلى بعض, لكنَّهُم أدركوا الآن أنَّ المغسلَ يبعدُ مسافةً عن المقبرةِ, وقد كانَ الكولونيل من قبيلِ الحدسِ والظَّن افترضَ أن المقبرةَ, يمكنُ أن تكون عوضاً عن المغسل.

((وقطعاً أنا لا دخلَ لي على الإطلاق في هذا الشغل ولم أكن أبداً قيَّدتُ نفسي بإيداعها جهةً معيَّنَةً من جهاتِ المقبَرَة. وقتَ دفْنِ زوجَتِي كنتُ موقوفاً ووقتَ دفنِ محمّد تقي كان رأسيْ ضَائِعاً فوقَ كَتِفَيَّ ولم أكُنْ أرى أمامَ قدميَّ شيئاً أو شخصاً سوى التُّرابَ والشَّمس. كنتُ كأنّي فقدتُ القُدرةَ على التَّشخيص وفي ظَنّي أني أحسستُ لحظَةً في ذلكَ اليومِ وللمَرَّةِ الأولى أنَّ قلبيَ لا يرغبُ في النَّظَرِ إلى الدنيا)) .

كانوا جلبوا محمد تقي من العاصمة في شهر بهمن من سنة ألفٍ وثلاثمائةٍ وسبعةٍ وخمسين.

. أمير لم يكَن قد صارَ مسنَّاً ولا مبالياً بعد أو قلْ مسنَّاً وغير مندهش بل من الجميل القول أنَّه كانَ منتصباً وثابتاً. فبدونِ أن ينكسِرَ أو يُفلِتَ العِنانَ من يدهِ فيظهرَ تأثُّرُهُ ضربَ على جَانبِ رُكبَةِ أخيهِ فانثنتْ وكأنَّ رائحةَ الدمِ فاحتْ من قميصِ محمّد تقي, نَهَضَ نُهوضَ رُجلٍ، أدارَ وجهَهُ وأخذَ مكاناً بينَ أكتافِ القوم واحتارَ في عَجب، وهذا ما أحسَّ الكولونيل أنَّهُ يتوقَّعُهُ منهُ ولم يكُنْ يتوقَّعُ منهُ شيئاً غيرَه. فرزانةُ كانت كأنها ملقيَّةٌ على النَّار, وبروانةُ تماماً كفراشةٍ تذهبُ للشَّمْعِ في آخر لحظاتِها لِتحترق, تدورُ بعيداً عن أخيها، وقد أحسَّ الكولونيل حقاً هُنا أنَّ ابنتَهُ الصَّغيرةَ احترقتْ. لا يدري لماذا العِشقُ والرَّحمةُ في بلدِنا كالدُّمَّلِ لا ينفتحُ إلّا بعدَ موتِ الأحبَّة, ولا يدري لماذا مثلُ هذا التَّعبيرِ بالعِشْقِ لم يكُنْ مرَّ بذهنِهِ من قبل. ربَّما لأنَّه لم تتوفَّرْ لهُ فُرصةُ النِّقاشِ بكيفَ ولماذا، لأنَّ مسعود الصَّغير أصَابهُ الجُنونُ من شَهَادةِ أخيه. لقد رمى بنفسهِ فوقَ النَّعشِ, بكى ونَهَضَ، شَبَكَ يديه ورفعهما حتَّى تورَّمت العروق في رَقَبَتِه وصرخَ إلهي ي ي ي! كان الكولونيل يسمعُ صُراخَ وبُكاءَ مسعود. ولم يسمعْ أو يفهمْ غيرَ ذلكَ منْ كلمات, لأنَّ الصُّراخَ العاليَ والعجيبَ للجموعِ ابتلعَ صوت الصَّغير والكولونيل فَهِمَ كذلك إلى أيِّ حدِّ كانَ دمُ أولاده قيّماً من قبلِ تكوينه. كان هذا معَ إحساسٍ مُرٍّ بالمسكنة, مسكنةِ أبٍ عزيزٍ قَتَلوا وَلَدَهُ فانكسر بهمّهِ وأعرضَ بوجْهِهِ وانزوى مبتعِداً عن ضجيجِ الجموعِ ولجأَ إلى رُكْنٍ يهرمُ فيه بعيداً عن أعيُنِ النَّاس. أحسَّ بالانكسار في عمودِهِ الفِقْرِيّ ولم يعُدْ يستطيْعُ الوقوفَ والنَّظَرَ مُنْتَصِباً! وأحسَّ ببروانة ملقاةً في حضنِهِ فصارَ الكولونيل مُضطَرّاً لِنسيانِ نفسِهِ لِلحظةٍ لِيتعاهدَ الكتِفَيْنِ الصَّغيرتينِ لابنتِهِ بعَضُدَيْهِ حتَّى لا تميلَ البِنْتُ الصَّغيرةُ بمجموعِها للأمام منَ التَّوتُّرِ والاِضْطِراب.

. يجب أن نأخُذَها للمغسَل أوَّلاً، كولونيل!

. نعم, نعم, وأنا كنتُ أفَكِّرُ بذلك، يجب أن نأخذها, نعم... يجب.... حالاً نذهب....كونوا دليلاً.

التابوتُ كانَ خفيفاً مثلَ ريشِ الحَمَام. الكولونيل كانَ يَقُولُ في فِكْرِهِ ليتَ أمير كانَ هُنا, لَيْتَهُم أحضروا أمير ليسيرَ تحتَ التَّابوتِ مُمْسِكاً بواحِدَةٍ منْ قوائِمِهِ. لأنَّهُ ومهما كانَ التابوتُ خفيفاً فإنَّهُ يحتاجُ إلى أربعةِ أنفارٍ يحملونَهُ على أكتافِهِم. رغمَ أنَّ علي سيف حَلَّ المُشكِلَةَ بأنْ يحملَ الكولونيل والشَّخْص الآخرُ التَّابوتَ من مُقَدَّمِهِ على كتِفَيهِما ويقومُ هوَ بمُفْرَدِهِ بِحَمْلِ مؤخَّرِ التَّابوتِ بينَ يَدَيْهِ وعلى مُقَدِّمَةِ قَفَصِهِ الصَّدري. وبينَ الطِّينِ والوحْلِ راحوا يقطعونَ القُبورَ واحِداً واحِداً باتِّجاهِ المغسَلِ . الَّذي لا يعرفُ الكولونيل أينَ يقعُ على وجْهِ التَّحديد .، ساروا بتواضُعٍ حتّى وصلوا إلى صحْنِ المغسَلِ، وضعوا التَّابوتَ على الأرض، أحسَّ الكولونيل بالعَرَقِ يتساقطُ من جذْرِ أُذُنَيْهِ وأحسَّ أنَّ جميعَ بَدَنِهِ مُبَلَّلٌ بالعَرَقِ علاوةً على كَونِهِ مغسولاً بِماءِ المَطَرِ من رأسِهِ إلى قَدَمَيه، فكأنَّما أُدخِلَ بالماءِ ثُمَّ أُخرِجَ منه.

مرَّةً أُخرى كانوا يقِفونَ بِجانِبِ التَّابوتِ دونَ رهبَةٍ وكُلٌّ ينظُرُ إلى الآخَر، وبِما أنَّ المكانَ تحتَ سَقْفِ المغْسَلِ كانَ مُظلِماً وشبيهاً بالقَبْرِ نفسِه، فلم يكونوا بِأيِّ وجهٍ قادِرينَ على أن يرى بعضُهُم بعضا، كانوا في عَجْزٍ، والكولونيل أحسَّ أنَّ المأمورَينِ مُتعَبان من هذا الحِمْل ومن هذا التَّكليف وأنَّهُما بلا حيلَةٍ ورُبَّما كانا مُشمئزَّين، رغمَ أنَّهُما لا يُريدانِ أن يظهَرَ ذلِكَ على وجهَيْهِما ولا حتّى أن يتخيَّلا أنَّ مِثلَ هذا الإحساسِ موجودٌ في داخِلِهِما. لكِنَّهُما كانا مُتْعَبَينِ، كُلٌّ بِسَهمِ نفسِه، وكانَ لِكُلٍّ منهُما الحُرِّيَّةُ في النَّظَرِ لِلوجْهِ غيرِ المرئيِّ للآخَرِ بما أنَّ العيونَ لا تستطيعُ رؤيةَ الوجوهِ في ظُلْمَةِ ذلك الموتِ ، وكُلٌّ منهُما ينظُرُ للآخَرِ وينتَظِرانِ أن يتكلَّمَ واحِدٌ منهُما أخيرا. خارِجَ المغسَلِ وتحتَ السَّماءِ المُلَبَّدَةِ بالغُيوم يستطيعُ أحَدُهُم أن يُميِّزَ شكلَ الآخَرِ وهيئَتَهُ ويستطيعونَ خُصوصاً تمييزَ حَرَكاتِ الأيدي والرُّؤوسِ والأكتافِ الَّتي لا يُمكِنُ إخفاؤها، أمَّا المغسَلُ فكانَ مُظْلِماً إلى دَرَجَةِ أنَّ كُلَّ واحِدٍ منهُم أحسَّ أنَّهُ أضاعَ بَدَنَهُ من شِدَّةِ الظَّلام ولم يكُنْ هُناكَ من علامَةٍ على الوجودِ غير صَوتِ الأنفاسِ الَّتي كانت تُشبِهُ أنفاسَ المُجْرِمينَ في بِدايَةِ إقدامِهِم على ارتِكابِ الجريمة. فضاءٌ باردٌ وصامتٌ وصوتُ اشمِئزازِ قَطَراتِ المَطَرِ وهي تسقُطُ على صفائحِ زنجارِ سطحِ المغسَل. جِلْدُ البدنِ يفقدُ الإحساسَ والجُدرانُ رطبةٌ لزِجةٌ، ورائحَةُ الرُّطوبَةِ والمكانِ والسِّدْرِ والكافورِ تفوحُ منَ الجُدرانِ الخَرِبَةِ الَّتي فقدتِ الإحساسَ لِكثْرَةِ ما خزَّنتْ بُطونُها من ذكرياتِ الموتى المُخيفَةِ والمُكرَّرَة، ورُطوبَةُ السَّطحِ الدَّاخليِّ للمغسَل تنفَذُ على نحوٍ رَمزيٍّ في الأحذيَةِ ثُمَّ

في جِلْدِ الأقدامِ . بِشكلٍ مُختلِفٍ عن تسرُّبِ الرُّطوبَةِ النَّاتِجَةِ عن الطِّينِ ووَحْلِ المَطَر .، وكأنَّها تسيرُ عدْواً في العَضَلاتِ والأوتارِ ثُمَّ يسري هذا الحِسَّ الخادِعُ المُنَفِّرُ في الأعصابِ والعِظام، وسُكوتٌ، سُكوتُ وهْم...كم أحسَّ الكولونيل أنَّهُ والشَّابّينِ المأمورَينِ على هيئةِ قِطَعِ الثَّلجِ المأخوذَةِ من قالَبِ، قِطَعٍ من الثَّلْج، وكثلاثٍ من علاماتِ التَّعجُّبِ وقفوا بقُربِ التَّابوت، كما كان يُحسُّ بِرُطوبَةِ أنفاسِهِ وبالعَرَقِ اللَّزِجِ على جَسَدِهِ وأنَّ نَظَرَهُ مُحمَّلٌ بالدُّموع ووجْهَهُ يصيرُ أجزاءً من البَرْد، ورُبَّما يتَجَمَّدُ.

. كولونيل ، أنتُم الآنَ ترغبون بالقيامِ بغُسْلِ الدَّفْن، يجِبُ أن يقومَ شخصٌ واحِدٌ بالغَسْل. من الدَّرَجَةِ الأولى من القَرابةِ، أُمٌّ أو أُخْتٌ.

صوتُ علي سيف جاءَ بِشكلٍ مُباشَرٍ في وجهِ الكولونيل ومرَّت لحظَةٌ قصيرةٌ إلى أن انتهى صداه، وفكَّرَ الكولونيل أنَّ المفهومَ من هذا هو أنَّهُ يجِبُ أن يكونَ هو نفسُهُ المُغسِّل، وقد حزِنَ كثيراً لِأنَّهُ لم ينتبِهْ لِهذا الأمْرِ من قبل، ألمْ يكُنْ من الواجِبِ تنبيهُهُ لِذلِك من قبل؟ والآنَ ماذا عليهِ أن يعمَل، وقد ذهبتْ سيَّارةُ الإسعاف. لماذا لم يذكروا لهَ هذا قبلَ الآن؟ هل كانَ بالإمكانِ وهو ضِمنَ سيَّارَةِ الإسعافِ وجنازةُ ابنتِهِ تحتَ نَظَرِهِ وهو لا يعرِفُ إلى أينَ يذهبونَ بِهِ أن يُفكِّرَ بالغُسْل، وأن يكونَ هو نفسُهُ المُغسِّل؟!((أليسَ لِلغسَّالِ مُستلزَماتُ عَمَل؟ ثُمَّ ماذا يحملونَ معهم من المالِ بِهذا الخُصوص؟ خَبَرُ هذهِ الواقِعَةِ يجِبُ أن لا يُعطى بِشَكلٍ فُجائيٍّ وفي غيرِ محلِّهِ للشَّخصِ حتّى يُعطى الفُرصَةَ ليُفكِّرَ في هذِهِ الأشياء. أنا لا أزالُ أعتقِدُ أنَّ خَبَرَ الوقائِعِ الجارِحَةِ لِلْقَلبِ يجِبُ أن لا يُنقَلَ لِلشَّخصِ بعدَ مُنتَصَفِ اللّيلِ بِساعات. لكن...لكن... أنا أيضاً أعلمُ أنَّ طَرْحَ مِثْلِ هذهِ المواردِ في مِثْلِ هذا الموقعِ كما هو الحالُ الآنَ لا مَحَلَّ له، ويجِبُ أن أُفكِّرَ الآنَ في العَمَلِ والحيلَةِ فَقَط.))

. نعم جنابَ الكولونيل، فكِّروا بالحيلَة. نحنُ باقونَ هنا إلى أن تعودوا. اذهبوا وأحضِروا أُختَها. وذكِّروها بالنَّظَرِ إلى ما يلزمُ من أشياءَ أُخرى فأحضِروها معكُم كذلك. نحنُ لا نستطيعُ البقاءَ مُعطَّلينَ إلى الصَّباحِ قطعاً. أنتم أنفُسُكُم تعلمون!

. نعم، أعلم((أنا نفسي أعلمُ أنَّ هذِهِ الغائلَةَ يجِبُ أن تنتهيَ قبلَ انبلاجِ الفجر، لكنْ من يحفرُ القبر؟)) هل أستطيعُ أن أُعطيَ خَبَراً لمن يحفِرُ القبر؟ لِشخصٍ بلا عمل مثلاً...

. خير!

. إذن يجبُ أن يكونَ ممّن يحفرون القبورَ وأن يكونَ جاهِزاً، ها؟

. هذا أيضاً تفكيرُهُ، لكن خير. أنا أُساعِدُ في حفرِ القبر. لكن المِعولُ والمجرَفَة...أين المعولُ والمجرفة؟ أنا لا أعرفُ أينَ المعولُ والمجرفَةُ لِحفرِ القبر؟

. يا ليتني على الأقلّ فكَّرتُ بهذا من قبل، يا ليتهُ كان قيلَ لي. ليتَ حواسّي كانت معي على الأقلّ قبلَ أن تذهَبَ سيّارةُ الإسعاف. أمَّا شُغلُ حواسّي...

... من هناكَ كان الخراب حيثُ كان الكولونيل مُعتاداً منذُ مُدَّةٍ على التَّفكيرِ في الماضي والعيشِ بالماضي. بمعنى أنَّ الفِكرَ بالماضي وتخَيُّلَ الماضي لا يترُكانِه، والحقيقةُ كانت أنَّ ذلِكَ يتمُّ وكأنَّهُ يجري أمامَ عينَيه ، يخافُ أن يُسْلِمَ قلبَهُ ويُفكّر في الحاضِر ، والخوفُ من الحاضِرِ والحياةِ الماضيةِ صارَ يأتيهِ كعادة. رُبَّما كانَ ذهنُهُ وبِشكلٍ ذاتيٍّ وعن طريقِ الفرارِ إلى الماضي يخلُقُ حالةَ دِفاعٍ غريزيٍّ في مواجَهَةِ الوقائع. ولابُدَّ أنَّ كُلاً يستطيعُ في لَحَظاتٍ استثنائيَّةٍ من فراغِهِ أن يُفكِّرَ بِقِتالِ رُستم مع أشكبوس دونَ أن يحسَّ بالتَّعَبِ أو يُبتَلى بالغبنِ أنْ لماذا لمْ يُسَمِّ أولادَهُ بأسماء مثل أشكبوس وبريدخت. على كلِّ حال، التَّفكيرُ بالماضي والكونُ في الماضي بالنِّسبةِ لهُ فعاليَّةٌ ذهنيَّةٌ تقعُ خارجَ اختيارِهِ وإرادتِهِ الواعيةِ ودونَ إدراكٍ منهُ لِكيفيَّةِ ذلك. لِهذا السَّبَبِ يخافُ أن يُضيّعَ طريقَهُ وينسى الأشياءَ الّتي تلزمُهُ ويجِبُ أن يحمِلَها معه. فحتّى لا يُبتلى بِما يُسبِّبُ لهُ النِّسيانَ المُربِكَ لم يكُنْ لهُ شُغلٌ على طولِ مسيرِهِ في المقبَرَةِ نحوَ بيتِهِ إلاّ أن يُردِّدَ بِصوتٍ يسمعُه، معول ومجرفة وكفن وفرزانه. معول ومجرفة وكفن مع فرزانه.

. إذن أيُّها السَّادة...كي أذهبَ وأعود، ابنتي في رعايتِكُم.

الكولونيل خرجَ من بابِ المغسَلِ دونَ أن يكونَ مُقيَّداً بما سيقولونَ في جوابِه. لأنَّهُ يعرفُ أنَّهُم لا يستطيعونَ أن يجيبوهُ بكلام، وحيثُ أنَّهُ كانَ يرجِعُ إلى عقلِهِ أدرَكَ أنَّ ما قالَ لم يكُنْ لازِم القول. لكنْ هل كُلُّ ما يُقالُ من كلامٍ يوزنُ بالعقل؟ لا، مُعظَمُ الكلامِ يجري على اللِّسانِ لإصلاحِ اضطرابٍ مُحتَمَلٍ وللاهتِمامِ بالنَّفس وهذا يصيرُ على هذا الشَّكلِ قليلاً قليلاً عادَةً يوميَّة((تماماً مثلما لو ذهبَ واحِدٌ من أعزّائِنا . كولدي الصَّغير مثلاً . إلى جبهةِ الحربِ فإنَّنا وبِغَيرِ اختيارٍ منّا سنقولُ لهُ انتبِهْ لِنَفْسِك!)) لكن...إذا لم نكُنْ قُلنا هذا الكلامَ لِعزيزِنا أما كانَ لِينتبِهَ لِنَفسِه؟ الأهمُّ

من ذلك، إذا كُنّا ذكّرناهُ بأن ينتبِهَ لِنفْسِهِ فهل هُنالِكَ من معنىً في القولِ انتبِهْ أيضاً لِلحرب؟ لا، لأنَّ دوامَ الانتباهِ لِلحربِ لا يُعهَدُ لِأحَد. فالإنسانُ وفي عينِ معرفتِهِ لِعَدَمِ اعتِباريَّةِ كلامِهِ فإنَّهُ يأتي بِهِ على لِسانِه واعتيادُ الجَسَدِ على مِثْلِ هذِهِ العاداتِ اليائِسَة ناشئٌ من علاقةٍ بالأعِزّاءِ وناشئٌ من حاجَةٍ لرأبِ صَدْعِ الاضطراباتِ والتَّأمُّلاتِ داخِلَ الذَّات. غيرَ ذلك، هل يُوجَدُ كلامٌ يُمكِنُ أن يكونَ أكثَرَ بلاهَةً من قولِ رجُلٍ عجوزٍ كولونيل لِشابَّيْنِ مأمورَينِ أستودِعُكُما ابنتي وهي بِنتٌ مخفيَّةٌ في تابوت، وستظلُّ مخفيَّةً للأبَد؟ وقد كانت حيَّةً من قبلُ عندَهُم، مُستَودَعَةً لديهِم وهُم الَّذين حوَّلوها إلى ما هي عليه؟.

((أحمق، أحمق، إمَّا أنَّ كُلَّ شيءٍ أحمقٌ أو أنا أحمق!))

حين عزمَ الصَّغير على الذَهابِ للجبهة، الكولونيل قالَ لهُ بِشَكلٍ عفويّ ((ولدي، انتبِهْ لِنَفسِك!)) وفي الحالِ عينِها لَدَيهِ اليقينُ أنَّ الحَربَ نباتٌ وحشيٌّ سامٌ وحيوانٌ مُفترِسٌ لاحِمٌ وفيها تُطْلَبُ كُلُّ مسؤوليَّةٍ من الشَّخصِ إلاّ مسؤوليَّةُ الانتباهِ لِنفسِه. الكولونيل يعرفُ ذلكَ بدونِ أدنى شُبهة. بصَرفِ النَّظَرِ عن أنَّ الإنسانَ العاديَّ يُمكِنُ أن يعرِفَ هذا، فإنَّ الحربَ إذا كان يُطلَبُ فيها اعتناءُ الشَّخصِ بِنفسِهِ فهي ليست حرباً بل شيئاً آخَرَ غيرَ الحرب. لكنْ الكولونيل كان ينظُرُ بِشَكلٍ فِطْريٍّ إلى روحِ وَلَدِهِ وكان الحقُّ مَعَه((في الواقِعِ كنتُ مُضطرّاً وما كان عندي كلامٌ آخَر)) إذْ يقولُ انتَبِهْ لِنفسِك، ((لكِنْ أيُّ شخصٍ أبلهٍ لا يعرفُ أنَّ الحربَ لا تُطْلَبُ من الشَّخصِ الخائفِ على نفسِه!)) ثُمَّ هو إذا كان يُريدُ أن يُحَمِّلَ نَظَرَهُ وإرادَتَهُ على مسعود الصَّغير فقد كانَ عليهِ العزيمةُ من قبلِ تلك اللّحظةِ على قولِ كلامٍ آخَرَ لهُ وإيرادِ دلائلَ مُقْنِعةٍ عليه((أمّا أنا فكُنتُ أظُنُّ أنَّ أولادي مستقِلّون عنّي،كُلٌّ من جِهَتِهِ، ولهُم خُصوصيّاتُهُم وعقائدُهُم ومعاييرُهُم الشَّخصيَّةُ والاجتماعيَّة، حتّى أنَّ مسعود كانَ وصلَ إلى اعتِقادِ أنَّ كُلَّ أفرادِ عائلتِهِ نجِسون، ومن جُملَتِهِم أنا أبوه، نعم يا سيّد، أنا أؤمِنُ بموضوعِ الاستِقلالِ الفرديّ لأولادي، ولِتغييرِ مثلِ هذه العقيدةِ الآن . فيما لو فكَّرْتُ به . فإنَّ الأمْرَ صارَ بعيداً جِدّا...ها؟! يعني سِرْتُ في الطَّريقِ بِشَكلٍ مُستقيم؟ بِنَظَري كانَ الاتِّجاهُ مستقيما.))

نعم، مصابيحُ المدينةِ كانت أمامنا وإنَّهُ لَمَحَلُّ شُكْرٍ أن كانتِ المدينةُ حيثُ يسكُنُ الكولونيل بعيدَةً ولا يصلُ إليها إطلاقُ النَّارِ من العدوّ وإلاّ لكانتِ المصابيحُ تُطْفَأُ ليلاً بِمُناسَبَةٍ ودونَ مُناسَبَة، وما أكثرَ ما كانت هذه الحالات، وإذن لكان الكولونيل يُضيعُ الاتِّجاهَ بالنَّتيجة. أمّا الآن فإنَّهُ مُطمئنٌّ

اطمئناناً كامِلاً إلى أنَّهُ يسيرُ مُستقيماً نحو المدينة، وجهُهُ باتِّجاهِ المدينة، إلى فُتْحَةِ الزُّقاقِ الخارجيّة، وبعد الانعطافِ والدُّخولِ عبرَ فُتحَةِ الزُّقاقِ يصِلُ في النِّهايةِ إلى ساحَةِ البلديَّةِ ثُمَّ من هُناكَ في زُقاقٍ وأخيراً يَصِلُ إلى البيت، هذا إذا كان غيرَ مُلْزَمٍ بالسَّير على طَرَفِ السَّاحَةِ للوصولِ إلى منزله. وللوصولِ إلى فُتحَةِ الشَّارِعِ الخارِجيَّة يجِبُ عليهِ أن يصعَدَ أوّلاً للأعلى على مُرتَفَعٍ غيرِ مُنتَظَمٍ ويجِبُ أن يكونَ مُنتبِهاً لِكي لا تَزِلَّ قَدَمُهُ على الأعلافِ الرّطبةِ المُتعفّنة. ثُمَّ ينزِلُ على المُنحَدَرِ حتّى يَصِلَ إلى حُفرَةٍ واسِعَةٍ قليلةِ العُمق مملوءةٍ بالطِّينِ وماءِ المطر وهو عملٌ يجِبُ أن يتِمَّ باحتياط. ويجِبُ المسيرُ حولَ الحُفرةِ حتّى الوصولِ إلى مُقابِلِ فُتحَةِ الزُّقاق، زُقاقٌ يهبُ الرُّوحَ أيَّامَ الرَّبيع حين يأخُذُ الشَّخصُ عصاهُ بيدِهِ بِقَصْدِ النُّزهَةِ وحين يخرُجُ منهُ ترى عينُهُ من الخُطوةِ الأولى الّتي يخطوها خارِجَهُ مُنحَدَراً . مُنخَفَضاتٍ مُتموّجَة . مُغطّىً بالنَّباتاتِ الخضراء المُتَنَوّعة المُختلِفَةِ الألوان، وعزْفُ نسيمٍ عليلٍ يهُبُّ من هذِهِ الأرضِ الخضراءِ المُتموّجَةِ لِيصِلَ إلى أعماقِ رئتَيك . لإزالةِ آثارِ جميعِ هذه السَّجائرِ البيضاءِ الَّتي دَخَّنتَها . وتجد اللّذَّةَ للحظَةٍ واحِدَةٍ في الواقِع. وتكونُ النُّزهةُ كامِلَةً في الأيَّامِ الَّتي لا تكونُ الغيومُ فيها متراكِمَةً ولا الشَّمسُ منزعِجَةً منك، لا كمثلِ الأيّامِ الّتي مَرَّت على الكولونيل وكأنَّهُم دفنوا بها جمالَ الشَّمس وبقيَ وحدَهُ العزْفُ السَّيّءُ للمطر، وكانَ يبعثُ التَّوتُّرَ وهو ينزلُ غزيراً ناعِما.

الكولونيل وهو يدخُلُ الزُّقاق يعلمُ أنَّ عليهِ أن يظَلَّ منتبهاً في مسيرِهِ كي لا يضيعَ ويُجهِّزَ نَفسَهُ لإعطاءِ الأجوبَة لأسئلَةِ الشُّبَّانِ الّذينَ في كُلِّ زاويةٍ وعندَ كُلِّ ناحِيَةٍ يسألون وقلبُهُم يُريدُ اكتِشافَ ما اختبأ وراءَ ذهابِ ومجيءِ النّاس الَّذي هو أكثرُ الأمورِ عاديَّةً. تماماً كأنَّهُم يرونَ ذلكَ تعليماً للكشْفِ والاكتِشاف. تعليمٌ وتمرينٌ يُجَريانِ على النَّاسِ العابِرين، وحتّى تكونَ هذه اللُّعبةُ الخطيرةُ جدّيَّةً وقابِلَةً للتَّصديقِ عِندَهُم فإنَّ من الواجِبِ الافتراضُ أنَّ كُلَّ واحِدٍ من العابِرينَ مُجرِمٌ من نوعٍ ما، بجرائِمَ من مِثْلِ الزّنا والاتّجارِ بالموادّ المُخدِّرة أو إخفاءِ أسلِحَةٍ أو التَّواطؤِ المشبوهِ على القياس، وأقلُّ شيءٍ هو الشَّكُّ في الطَّريقةِ الّتي ينظُرُ فيها النَّاسُ بعضُهُم لبعض، ومن أينَ يأتون وإلى أينَ يذهبون. قطعاً الكولونيل كأنَّما يُغرِقُ نفسَهُ في تصوُّراتِ نفسِه، وهو في حقيقتِهِ شخصٌ لا علاقَةَ لهُ بمسائلِ الغلوّ والإفراط وإذا كان خيالُهُ الآنَ مُبتلىً بالإفراط . الّذي هو مثلَ الابتِلاءِ بالكذِبِ تماماً . فهو يراهُ نوعاً من المرضِ لأنَّ المَرَضَ لا يُمكِنُ أن يكونَ ذاتيّاً على الإطلاق. وقد أحسَّ بما أحسَّ بِهِ وفَعَلَهُ بِتأثيرٍ من المُحيطِ والمسيرِ والقريَةِ والمحلَّةِ الَّتي لهُ عليها ذهابٌ وإياب،

وفي الواقِعِ فإنَّ حُصولَ مِثْلِ هذا الإحساسِ والإدراكِ للخوفِ وانعِدامِ الأمنِ في النَّفسِ يبدو كنَوعٍ من التَّعليمِ الاجتماعي، حيثُ يتمُّ تلقينُ الشَّخصِ وتحميلُهُ بما يُريدُ وما لا يُريد؛ تماماً كالإحساسِ بالخوف. رجُلٌ يخافُ من شيءٍ ولا يعرفُ بشكلٍ مُشخَّصٍ من أيِّ شيءٍ يخافُ، إلى أن يصيرَ ممكناً لهُ في النِّهايةِ أن يتوجَّهَ ذهنُهُ إلى سيفٍ تُبقيهِ مرفوعاً فوقَ رأسِهِ يدٌ خفيَّة، سيفٍ فِعْلُهُ مُجَرَّبٌ في ضميرِ الشَّخص وهذهِ التَّجربةُ نُقِشَتْ في وجودِهِ بواسِطَة، وكأنَّها في كُلِّ لحظَةٍ تُنقَشُ في ذاتِه، وشخصٌ يخافُ مع كُلِّ نَفَسٍ من شيءٍ لا يعرِفُ تشخيصَه. ((تخافُ من أن يُراقِبوك، تُحسُّ أنَّهُم يُراقِبونك. لكنْ إذا لم يكونوا يُراقبونك، إذا لم يكونوا يُراقبونك فلماذا تحسُّ بذلك ومن أينَ جاءَ إليكَ هذا الحسُّ الطَّاحِنُ والمُهرِمُ حتّى تحسَّ على الدَّوامِ أنَّ أرجُلاً وعيوناً تسيرُ خلفَكَ كأنَّ لا حياةَ لها ولا شُغْلَ إلاّ بتعقُّبِك؟!

((نعم يا سيِّد...نعم، أنا نفسي. أُريدُ أن أذهَبَ إلى منزلي لِأُحضِرَ معولاً ومجرفة. قطعاً أنا أخطأتُ في العرض، أوَّلاً إلى بيتِ ابنتي...عفواً، إلى بيتِ صِهري أذهبُ حتّى أقترِضَ المعوَلَ والمجرفة. أنتم يجبُ أن تعرفوهُم جيّداً، آغاي الله قرباني حجّاج.))

صوتٌ آخَرُ من زاويةٍ أُخرى علا في اللّيلِ يقول:((ليمُرّ، ليذهبْ لِشُغلِه، هذا الكولونيل.)) وفي لحنِ صوتِهِ، وخصوصاً عندَ أدائهِ لفظَةَ كولونيل، نغمةُ استِهزاءٍ وسُخريةٍ لاتخفى. حالةٌ من السُّخريةِ والتَّحقيرِ للكولونيل حتّى أنَّكَ تستطيعُ أن تُحِسَّ سُمَّها في لبِّ عِظامِ رأسِك.((نعم حبيبي...لا بُدَّ أنَّ الحقَّ معك. أعلمُ دائماً أنَّ الحقَّ في هذِهِ السُّلطَةِ مع الشَّخصِ الأسرع والأكثر إحكاماً في الإمساكِ بحريَتِهِ في قبضتِه، دائماً!...حق؟ قُلتُ حق؟!...نعم حق!))

في كُلِّ مدينةٍ صغيرةٍ أو كبيرةٍ يوجَدُ فردٌ، موجودٌ مُغايِرٌ للآخرين ومُختلِفٌ عنهُم، وصُدفَةً تراهُ يملكُ اِسماً أو لَقَباً مُختلِفاً. مثلُ هذا الموجودِ غالباً ما يُشَكِّلُ مادَّةً لِتَفكُّهِ واستِهزاءِ وسُخريةِ الآخَرين لأنَّ لهُ من كُلِّ منظورٍ معياراً وملاكاً مُختلِفَينِ عن الآخَرين، ولهذا السَّبب يُلقِّبُهُ النَّاسُ بالبليدِ والظَّريف. أمّا الكولونيل فلم يكُنْ مُختلَّ الوضعِ أو بليداً ولا يُوجَدُ في نغمةِ كلامِهِ انزياحٌ حتّى يظهرَ مُختلَّ الوضعِ أو بليدا. هذا التَّلقّي من قِبَلِ الطَّرَفِ الآخَرِ للكولونيل بدا لهُ عجيباً للحظةٍ. لكنَّهُ لم يكُنْ في حالةٍ تسمحُ لهُ بالتَّفكيرِ بما يُفكِّرُ تِجاهَهُ الآخرون. لذلك وبدونِ أن يُديرَ رأسَهُ وينظُرَ خلفَهُ ظلَّ سائراً في طريقِهِ وكان يسعى بكُلِّ فِكْرِهِ وخيالِهِ أن يحتاطَ في نقلِ قَدَمِه. لأنَّهُ من المُمكِنِ فيما لو غفلَ لحظَةً أن تنزِلَ رِجْلُهُ إلى ما تحتَ رُكبَتِهِ في حُفْرَةٍ مملوءةٍ بالوحْلِ والطِّين.

فبدلَ أن تنحرفَ حواسُّهُ وراءَ الطَّعنِ فيهِ والسُّخريةِ منه سعى أن يكونَ الطَّريقُ والمسيرُ إلى منزلِ صهرِهِ آغاي الله قلي قرباني يمرُّ جُزءاً فجُزءاً في خاطِرِه.

حقّاً لم يكُنِ الوقتُ مناسِبا. هو نفسُهُ يعرفُ هذا، لكِنْ لم يكُنْ لديهِ حيلةٌ إلاَّ أن يقرَعَ جَرَسَ بابِ المنزل. جرس؟ لا، منزلُ السيّدِ قرباني كان مبنيّاً حديثاً وإلى الآن . على حدّ ما يذكُرُ الكولونيل . لم يكُنْ جَرَسُهُ موصولا. فيجِبُ الطَّرقُ بِقِطعَةِ حَجَرٍ أو بالعَقِبِ أو بمطرَقِةٍ على البابِ الحديديّ المطليّ حديثاً باللونِ القرمزي. قطعاً كان معلوماً أنَّ مثلَ هذا العَمَلِ في مِثْلِ هذِهِ السَّاعَةِ من اللّيلِ قبلَ أذانِ الصُّبحِ سيوقِعُ صاحِبَ المنزِلِ بالهَولِ والاِضطِراب وفي عينِ الحالِ فَكَّرَ أنَّ كُلَّ من ينامُ تحتَ سقفِ ذلِكَ المنزِلِ سيكونُ منتظِراً لعلائِمِ هولٍ واضطِرابٍ بشكلٍ لا إراديّ. من السَّهلِ بعدَ أن يُصابَ الإنسانُ بالهَولِ بسببٍ ودونَ سببٍ أن يظلَّ منتظِراً دونَ أن يكونَ مُنتَبِهاً لِهَولٍ واقِعيٍّ يحلُّ بِهِ حتّى يستطيعَ أن ينجوَ من الوسوسةِ واضطِرابِ الخوفِ المُزمِنِ من مُصيبةِ الموت. إحساسٌ ،في نظرِ الكولونيل، بِقدومِ حالةٍ وعلامَةٍ من الموتِ عندَ كُلِّ فردٍ حتّى ولو كانَ هذا الفردُ آغاي الله قلي قرباني حجّاج. وقطعاً كان من الطَّبيعيّ في نَظَرِ الكولونيل أنَّهُ ليسَ كُلُّ شخصٍ ينتظِرُ الموت، لأنَّهُ بنسيانِ الموتِ حتماً نستطيعُ أن نعيشَ لَحَظاتِ الحياةِ أو نتحمَّلَ لَحظاتِ الحياةِ ونحمِلَ على أكتافِنا حِمْلَ الآلام. وفي عينِ الحالِ كانَ يفكِّرُ أنَّ كُلَّ شخصٍ في ضميرِ ذاتِهِ ينتظِرُ الموتَ من دونِ أنْ يجعَلَهُ نُصْبَ وجهِه. على الأقل كان الكولونيل يعتقِدُ أنَّ كُلّ شخصٍ يجبُ أن يكونَ منتظِراً للموتِ في خفايا ضميرِه. فبهذه الصُّورةِ كم من أشباحِ الموتِ،قبلَ أذانِ الصُّبْحِ بلَحَظات، ستطرقُ بابَ هذا المنزل.

. من يكون، من...من؟

كانَ صوتَ ابنتِهِ فرزانة المُرتَجِف. هولٌ واضطِرابٌ لا يُمكِنُ أن يكونا عاديّين. مثلُ هذا الإحساسِ كثيراً ما مرَّتْ بِهِ عائلةُ الكولونيل، وكان يمرُّ بِصورةِ شَكلٍ من أشكالِ الحياةِ اليوميَّة، لكنَّهُ لم يكُنْ عاديّاً أبدا. وكأنَّ هذا الإحساسَ طريقةُ حياةِ الوجودِ الإنسانيّ ولا يستطيعُ أن يبيدَهُ سوى الموت. صوتُ فرزانة، في كُلِّ استِفسارٍ منهُ اضطِرابٌ أشدّ. تماماً كما لو أنَّها قبل سماعِ صوتِ الباب كانت في كابوسٍ ترى فيهِ ما يحصلُ للكولونيل وتبكي. قلبُ الرَّجُلِ العجوزِ يحترِقُ على حالِ ابنتِه ويحسُّ أنّهُ يجِبُ عليهِ أن لا يُبقيَها في الانتِظارِ والاضطرابِ أكثر. لكنْ كانَ يجِبُ أن يُهيِّئَ نفسَهُ للحديثِ مع ابنتِه . مهما كان الحديثُ مُختَصَرا .، أعرِفُ أنَّها تُريدُ سريعاً

النَّجاةَ من هذا الهولِ وهذا الاضطِراب. لكنْ بِأيّ خَبَر؟ هل يوجَدُ خَبَرٌ يستطيعُ إعطاءهُ لفرزانةَ يُهدّئُ روعَها ويذهبُ باضطِرابِ قلبِها؟ لا، بدونِ شكٍّ لا يستطيع. كان يُفكِّرُ وقلبُهُ فارِغٌ أن يا ليتَ هذا البابَ لم يُقْرَعْ. لكنْ ((أينَ ومن أعرِفُ من هو قريبٌ منّي بِهذا القدر؟)) العَمَلُ الآخَرُ فاتَ أوانُه، لكنْ كيفَ يستطيعُ عديمُ الحيلةِ أن يُبْعِدَ مِثْلَ هذِهِ الفِكْرةِ عن خاطِرِه وهو يرى أن لا حيلَةَ لهُ غيرها.

. بابا... بابا...هذا أنتُم؟

. نعم...نعم...يا ابنتي.

. فلماذا لا تدخلون للدّاخِل ؟! لماذا تبقون حائرين بهذا الشَّكل؟!

الكولونيل يستطيعُ أن يُدرِكَ أنَّ معنى ((لماذا)) من فرزانة للوهلَةِ الأولى حين سألَت ((لماذا لا تدخلون للدَّاخِل)) كانَ لِماذا يطرقُ أبوها في هذا الوقتِ غيرِ المُناسِبِ بابَ دارِها، وصارَ يفهمُ ويحسُّ بِشَكلٍ بطيءٍ الحِدَّةَ والأذى في معنى ((لِماذا)) من ابنتِه وأنَّها ترتبِطُ بالقِسْمِ من السُّؤالِ الواقِعِ بعدها والمُتعلِّقِ بوقوفِ الكولونيل بِجانِبِ بابِ المنزِل. لكنَّ هذهِ لم تكُنْ مُشكِلَةَ الكولونيل، لأنَّ الآباءَ مهما كانوا متقدّمينَ بالعمرِ وسريعي التَّأثُّرِ فإنَّ عندهم الاستعدادَ للإغضاءِ والعفوِ عن أبنائِهم مُضافاً إلى أنَّ الكولونيل لم يكُنْ لَدَيهِ مَجالٌ لِيَتَأثَّر. لم تكُنْ مُشكِلةُ الكولونيل في ألَمِهِ من أولادِهِ، مُشكِلتُهُ كانت في موضوعِ حياتِهِ وحياةِ أولادِه، وهو ما كان يصِلُ معناهُ إلى حدِّ نكونُ أو لا نكون((إلهي...نحنُ الشَّعبَ، أيَّ صبرٍ نمتلِكُ لِنحيا حياةً بلا واجِباتٍ ونُحيلُ يومَنا إلى غدِنا...)) وبشكلٍ((مُشخَّصٍ)) فإنَّ مُشكِلَةَ الكولونيل الآنَ هي في طرحِ موضوعٍ بروانة لأولادِهِ الباقين، وكانَ أصعبَ ما أصابَهُ إيصالُ خبرِ ابنتِهِ لابنتِهِ الأُخرى والطَّلَبُ منها في آنِ المجيءَ بِرِفقتِهِ إلى مغسَلِ المقبرة حيثُ جَسَدُ أُختِها لِتقومَ بِغَسْلِها. لم يكُنْ منهُ أيُّ قولٍ لأيّ كلامٍ صريحٍ بِرغمِ ما يُمكِنُ تَصوُّرُه. أصلاً لم يكُنْ صريحاً،((لا أقولُ لها، لا أقولُ لها...)) لكنْ يجِبُ أن يكونَ مالكاً لِأعصابِهِ ليستَطيعَ أن يقولَ شيئاً آخَرَ لِفرزانة. لكنْ أيَّ شيء.

. معول ومجرفة...كان عندكُم معولٌ ومجرفةٌ منذُ وقت...فرزانة حبيبتي هنا، يجبُ أن يكونَ في بيتِكُم معولٌ ومجرفة، ها؟

بنتُ الكولونيل ذهبَ تصوُّرُها أبعَدَ من ذي قبل وبقيَتْ مُتعجِّبَةً تنظُرُ إلى أبيها في حيرةٍ. هيَ بما تحمِلُ من ذكاءٍ ونفاذِ بَصَرٍ كانتْ قادِرَةً على تمييزِ رائحَةِ الفاجِعَة، خاصَّةً وأنَّهُ في فِكْرِ الكولونيل . الَّذي لم يكُنْ مُشوَّشاً إلى هذا الحدِّ . فإنَّ كُلَّ شخصٍ يجبُ أن يكونَ منتظراً بِنفسِهِ لِخبرٍ مَهولٍ ومُترقِّباً لِفاجِعَةٍ ستُلِمُّ بِهِ قريباً أو بعيداً، وفرزانتُهُ لا تستطيعُ أن تكونَ بلا نصيبٍ من هذهِ الصَّدمة. ألم تكُنْ مُنذُ أمَدٍ تتَّقِدُ في نفسِها نارُ الفاجِعة؟ لكن هل تستطيعُ أن تغلِبَ بهتتها وتفتَحَ شفتَها، فكثيراً ما كانت تأخُذُ الحقيقةَ من الكولونيل عند بحثِها عنها. لكِنَّ ثِقَلَ وقعِ حادِثَةِ استيقاظِ السَّيِّدِ قُرباني من النَّومِ منَعَ الكولونيل من فتحِ الموضوع. ففي هذهِ اللّحظَةِ قامَ السَّيِّدُ قرباني على أثَرِ سُعالٍ قصيرٍ باستِحضارِ زوجتِهِ مُنادياً إيَّاها باسمِ الصَّغير . وهو لَقَبُ مسعود ابن الكولونيل في العائلة . وفي أصْلِ لَحنِهِ طَلَبٌ كان معناهُ أينَ أنتِ وأيُّ شخصٍ يقِفُ خلفَ البابِ دونَ شُغلٍ؛ والكولونيل كمن يُريدُ أن يستفيدَ من اللّحظَةِ جعلَ موضوعَ المِعوَلِ والمجرَفَةِ عنواناً لِلمَرَّةِ الثَّانية وذلِكَ قبلَ أن يضَعَ السَّيِّدِ قرباني معطَفَهُ على كتِفِهِ ويخطو إلى الإيوانِ من بيتِهِ حديثِ البناء. خوفُ فرزانة من احتمالِ خُشونةِ كلامِ زوجِها ساعَدَ الكولونيل، حيثُ أجبَرَ ابنتهُ على التَّحرُّكِ بِسُرعةٍ، وقبل أن يصيرَ السُّؤالُ مُعقَّداً بلسانِ السَّيِّدِ قُرباني، أدارتْ وجهَها عن أبيها وسارتْ باتِّجاهِ بابِ القبو وقالت موضِحَةً لِزوجِها أنَّها تُريدُ المِعوَلَ والمجرفة.

((في اللّيالي، أو في أوقاتٍ قريبةٍ من الصَّباحِ كُنتُ أراهُ وهو يعودُ إلى المنزلِ، عَرَقُهُ يفوحُ برائحةِ الدَّم، يا أبي. قميصُهُ وقميصُهُ الدَّاخليّ والشَّعرُ على ساعِدِهِ تفوحُ جميعُها بِرائِحَةِ الدَّم. على حِذائه رأيتُ مرَّاتٍ بُقَعاً من الدَّمِ وأنا بنفسي غسلتُها. ساقا سِروالِهِ، ساقا سِروالِهِ كُنتُ أراهُما أحياناً مُصطبِغَتَينِ بِلونِ الدَّم. رأيتُ ذلِكَ بنفسي وأنا على يقينٍ...أنا على يقين...))

أكثَرَ من مرَّةٍ قالت فرزانةُ هذا الكلامَ لأبيها وكانت تُردِّدُه والآنَ الكولونيل يرى السَّيِّد قُرباني غيرَ مُتعجِّبٍ من طرقِ بابِ منزِلِهِ في مِثلِ هذا الوقتِ غيرِ المُناسِبِ من اللّيلِ أو من طَلَبِ معولٍ ومجرفة، وقد ذهبَ فكْرُهُ إلى أنَّ السَّيِّد قُرباني رُبَّما كان على عِلْمٍ بالواقِعة، خُصوصاً وأنَّهُ حتّى حُضورُ الكولونيل، حُضورُ والِدِ زوجتِهِ بعدَ مُنتَصَفِ اللّيلِ لم يجعلْهُ يُقبِلُ ورَجَعَ من حيثُ كان واقِفاً واتَّخَذَ من بُكاءِ طِفلِهِ الواضِحِ ذريعَةً لِيُقرِّرَ قراراً لا يحتاجُ إلى تأكيدٍ لِتستطيعَ فرزانةُ فهمَ الكِنايةِ فيهِ بِضرورةِ حُضورِها للدَّاخِل، حيثُ تركَ بابَ الدُّخولِ نِصفَ مفتوحٍ أمامَ هذا القادِمِ وجَمَعَ جناحَي معطفِهِ وهو يقول:

. هذا المَطَرُ لا يتخيَّلُهُ خيالٌ ولا ينقطِع، قدرةُ الله!

أمير ماذا كان قالَ ذلكَ اليومَ الماطِرَ لقُرباني الّذي كان بجوارِ المدفأة، جالِساً على أريكةٍ مخمليَّةٍ قديمة ولا بُدَّ أنَّهُ كان يضَعُ رِجلاً على رِجْلٍ يُدخِّنُ الغليون. وقد تحدَّثَ كثيراً وأظهَرَ نفسَهُ دقيقاً وفهِماً وبهذا الشَّكلِ السَّيّد قُرباني ضاعَ فِكْرُهُ ((فِكْرُهُ ضاع؟!)) إذ كان الاجتماعُ على شَرَفِ ولتكريمِ أخِ زوجتِهِ؟ وقد أحسَّ الكولونيل صُدفَةً بالسَّيّد قرباني يخرُجُ من تِلكَ الغُرفَةِ بلا حِسٍّ ولا صوتٍ ومن دونِ أن يُطلِعَ أهلَ المنزلِ جعلَ حُرَّاساً حولهُ لِقُدومِهِ لِرؤيةِ ولدِهِ البطلِ الَّذي ((بعد سنينَ من السِّجنِ والعذابِ والمُقاومةِ هو الآنَ مرفوعُ الرَّأسِ ومُفتخِرٌ ومغرورٌ بالقوَّةِ الخالِدَةِ للشَّعبِ الَّتي حَرَّرَتهُ من سِجنِ الجلاّد ليجعلوا أقدامَ حكومَةِ الجورِ والظُّلْمِ والتَّعسُّفِ في هذا الجُزءِ من الوطنِ ترتجفُ وتسقُطُ بالقوَّةِ الخالِدَةِ لِجميعِ الشَّعب!))

((وأيُّ لحنٍ وكلِماتٍ! ليسَ عنديَ شكٌّ أنَّ السَّيّد قرباني استجمعَ في ذاكِرتِهِ هذِهِ الكلِماتِ الدَّسِمةَ وغيرَ ذاتِ الطَّعمِ من جرائدِ تلك الأيّام وأدارَها من وجهٍ إلى وجه، وكلِماتٍ أُخرى لا أذكُرُ في أيَّةِ جريدةٍ قرأتُها . كتابٍ تافِهٍ .، لأنَّ إدخالَ مثلِ هذهِ الكلِماتِ الجوفاءِ والحمقاءِ في متنِ كتابٍ يجعلُهُ غيرَ ذي شأنٍ في رأيي!))

ولا أُطيلُ فالشَّعبُ ((شَعبٌ ساذَجُ القلبِ ظمآنُ سريعُ التَّصديق)) وكأنَّهُ استيقَظَ فجأةً من نومٍ ثقيلٍ، وبِمَظَلَّةٍ ودونَ مظلَّةٍ، سارَ النَّاسُ تحتَ المَطَرِ باتِّجاهِ منزلِ الكولونيل، والكولونيل حيرانُ وساكِتٌ ومبهوتٌ لرؤيةِ طَبَقٍ من الفاكِهةِ والحَلَويّاتِ يُدخَلُ إلى المنزلِ بتقديمِ السَّيّد قُرباني وشُرَكَائِهِ والنَّاسُ يهجمونَ أكثرَ، ولم يعُد المكانُ يتَّسِعُ لِجلوسِ ووقوفِ النَّاسِ في باحَةِ البيتِ والزُّقاق. ورأى أنَّ أمير قد خرجَ من غُرفَةِ الاستِقبالِ ليقفَ على طَرَفِ الإيوان ويتحدَّثَ إلى النَّاسِ كعلامةٍ على العِرفان. ثُمَّ كأنَّ هذا العَمَلَ المحدودَ في هذا المكانِ لم يروِ عَطَشَ الجمْعِ، حيثُ لا يوجَدُ مكانٌ مناسِبٌ كافٍ لوقوفِ المُستمعينَ إلى الحدِّ اللازِمِ ولم تكُنْ وسائلُ الصَّوتِ مُهيَّأةً، وهو قطعاً لم يكُن مُشكلةً. وحيثُ أنَّ هذهِ الأعمالَ مُرتبِطَةٌ بمقامِ وقُدرةِ السَّيّد قُرباني، وقبلَ أن يستطيعَ الكولونيل أن يجدَ نفسَهُ وأن يجِدَ أميرُ التَّصميمَ النِّهائيَّ ليضبِطَ نفسَهُ، فقد لوحِظَ أنَّ أمير، الإبنَ الأرشدَ للكولونيل الَّذي على روايةِ قرباني ((روحُهُ ومالُهُ وعزيمتُهُ منذورةٌ في سبيلِ الثَّورة!)) . ((ومن هذا الكلامِ من جديد!)) حُمِلَ لِيُنْقَلَ إلى طَرَفِ ساحةِ البلديَّةِ حيثُ أُعِدَّتْ منصَّةٌ للخطابةِ هناكَ وتمَّ توفيرُ سائرِ وسائلِ الكلامِ المُختلِفةِ ووُضِعَ مُرافِقونَ لِخِدمةِ أمير يرفعونَ فوقَ رأسِهِ

المظلاَّتِ حيثُ أنَّ المَطَرَ كانَ يهطِلُ بِشَكلٍ غيرِ آمنٍ وتلتفُّ خيوطُهُ ككلِماتٍ مُكرَّرَةٍ أُخِذَتْ من سُطورِ المجلاّتِ ومن أعمِدَتِها وهي الآنَ تمرُّ تهدِرُ من ثقوبِ المايكروفون:((اختناق... ضابط... تضخُّم... نفط... وطن... عمّال ومعاناة... دكتاتوري... ثوري... ثوري و . طبعاً حرِّيَّة!)) والنَّاسُ، كَمْ أبدَوا من أنفُسِهِم من الاستِعداد للاِستماعِ والإستِماع وأيَّةَ قُدرةٍ أبدَوا على ترديدِ الأصوات. قبضاتُ الأيدي والشِّعارات وطلقاتُ نارٍ مُتفرِّقَةٍ مُثيرةٍ للخوفِ ثُمَّ بعد ذلِكَ فَتَحَ السَّيِّد قرباني ورفاقُهُ طريقاً بينَ الجُموعِ المُتراكِمَةِ وأجلسوا أمير في سيَّارةٍ كبيرةٍ كانت تقفُ بالانتظارِ وقد فُتِحَ بابُها وكانت مُهداةٌ إهداءً مؤقَّتاً من طَرَفِ معرَضِ السَّيّاراتِ الَّذي كان صاحِبُهُ الجديدُ من الأصدِقاءِ المُقرَّبين للسَّيِّد قرباني حجّاج.

في المنزل، فتَحَ الكولونيل عُلبَةَ سجائرِهِ المعدنيَّةِ ليُشْعِلَ سيجارةً ونَظَرَ إلى وَلَدِه. لم ينطِقْ حرفاً، أمّا أميرُ فقلبُهُ يُريدُ أن يرى الصُّورَةَ العابِرَةَ للرِّضا يُرافِقُها شيءٌ من عَدَمِ التَّصديقِ في عينَي والِدِه وقد اطمأنَّ إلى أنَّ كلامَهُ وخِطابَهُ قد أثَّرا أيضاً بالكولونيل الَّذي بدا في النِّهايةِ مُهيَّأً لِتصديقِ ابنِهِ. وكم كانت رغبةُ أمير شديدةً ،لكنَّها مخفيَّةً، ليسألَهُ ((كيف ترى الوضعَ كولونيل؟)) وقد سأل. لكنَّ الكولونيل لم يُعطِ ابنهُ الجوابَ الَّذي يشتهيهِ قلبُهُ، وفقط أغلَقَ عُلبَةَ السَّجائرِ وسعى ليمنعَ الضُّحكَةَ الّتي ارتسمت على وجهِهِ من أن تُمحى، ضُحكَةً هيَّأت أمير لينطِقَ بِشكلٍ عفويّ بِهذِهِ الكلمات ((هي ثورةٌ، أليست ثورةً؟!))

((كانت ثورةً، لماذا كانت ثورة. والآنَ بِخصوصِ إعدامِ بروانة وأنّي لم أقُلْ شيئاً لأُختِها فإنّي لستُ خجِلاً. لأنّي لو كُنتُ قُلتُ لها لكانَ واجِباً عليَّ أن أطلُبَ منها المجيءَ لِتغسيلِ أُختِها وتكفينِها، لكِنَّهُ من الحَسَنِ أنّي لم أُضطَرَّ لِأُحدِّثَها وأطلبَ منها مثلَ هذا الطَّلَب. الآنَ لستُ فقط غيرَ مُستحٍ، بل رُبَّما لَدَيَّ الإحساسُ بالرِّضا، لأنَّ عنديَ اليقينُ الَّذي لا يعتريهِ أدنى شكٍّ أنَّهُ فيما لو كُنتُ قد طَلَبْتُ هذا الطَّلَب فإنَّ السَّيِّد قُرباني ما كانَ ليقبلَ بِهِ بِأيِّ وجهٍ من الوجوه ولكان طلبي يؤثِّرُ على ابنتي ويُسبِّبُ لها نوعاً من الوحشةِ والحَيرةِ. والآن...))

الآنَ يجبُ بعبارةٍ واحدةٍ قصيرةٍ أن أُجهِضَ شكَّ وسوءَ ظنِّ فرزانة. منذُ وقتٍ كانتِ المعاوِلُ والمجارِفُ توضَعُ بالأزواجِ في مجموعاتٍ لكي يكونَ نقلُها إلى الكتِفِ سهلاً. وقد ألحَنَ بِدِقَّةٍ ليبدوَ غيرَ مبالٍ، وقال:

. مع مثْلِ هذا المَطَرِ أليسَ من الواجِبِ أن يكونَ عِنْدَ كُلِّ شَخصٍ معولٌ ومجرَفَةٌ في مُتَناوَلِ يدِه، منذُ زَمَنٍ كنَّا نرى الماءَ ينزِلُ من أسقُفِ المنازِلِ!

قالَ هذا ودونَ انتِظارِ جوابٍ أو نَظَرٍ من قِبَلِ ابنتِه، أدارَ وجهَهُ وسارَ في طريقِهِ وذهب. ولم يكُنْ قد خطا إلا أقداماً قليلةً حتّى كانَ صوتٌ، صوتٌ مُرتَعِشٌ عميقٌ فشَكَّ بارتِجافِ رُكبَتَي ابنتِه وأحسَّ أنَّهُ إذا لم يستطِعْ السَّيطَرَةَ على أعصابِهِ فسينكشِفُ كُلُّ شيءٍ يقيناً. فقط وَقَفَ، وَقَفَ تحتَ المَطَرِ وانتظَر. فرزانةُ لم تنطِقْ حرفاً خاصّاً، حتّى ولم تسألْ شيئاً. وهيَ لم تكُنْ طَلَبَتْ منهُ أن يقف، إلاّ أنَّها من وراءِ ظَهْرِ الكولونيل، وبِصوتٍ مُرتعِشٍ يدُلُّ على أنَّهُ يخرُجُ من فمٍ جافٍّ ومُلتهِبٍ قالت فقط((بابا!)) وهذا الصَّوتُ لم يهُزَّ فقط رُكبَتَي الرَّجُلِ العجوز بل هزَّ كُلَّ بدنِهِ بهزَّةٍ غريبةٍ فَجمُد. ربَّما كانَ هذا النِّداءُ قد سَمَّرَهُ للحظةٍ في مكانِهِ , غير أنها لحظةٌ شبيهةٌ , وإن كانتْ قصيرةً, بقطعِ إصبعِ طفلٍ بجِّد مبراة، فالكولونيل كان يسعى بجهده ليقع عليه وحدهُ حمل مصيبةِ الموت. ومعَ إحساسِهِ وهو إحساسٌ بالتلقين أن حالَتَهُ غير قابلةٍ للتشخيص في ظلامِ هذا الصبح الكاذب, ومن وَهمِ الشَّيخوخةِ وثقلِ السَّمعِ, رمى نفسَهُ بِخَرَسٍ من نقصِ السَّمع وقد أحسَّ أن حالةَ صوتِ هطْلِ المطرِ كانت تساعدُ ميلَهُ ورغبتَهُ بأن لا يسمَعَ بشكلٍ واضِحٍ وقد كان راضياً من ذلك وابتعدَ في الزُّقاقِ والظَّلامِ والمطرِ عن مدى رؤيةِ ابنته. الآن ومرَّةً أخرى إلى أن يصلَ إلى المنزلِ يجبُ عليهِ أن يكرِّر كلمةً على لسانِهِ حتى لا تهربَ من ذاكرتِهِ , وتلك الكلمةُ كانت ((كفن)) , لكنْ بشكلٍ موزونٍ ولحنٍ جاء من نفسِهِ بتكرارِ الكلمة , وشرع بالتِّكرار كفن, كفن, كفن, كفن, كفن, كفن. وعندما أدارَ المفتاحَ في فتحةِ القفلِ فقدَ للحظةٍ الوزنَ واللَّحْن , لكنْ عندما فتحَ البابَ ووضعَ قدمَهُ في الباحة, وبإحساسٍ ساذج , إحساسٍ وحالةٍ شبيهَينِ بِوَقْعِ أنينِ كلبٍ عاجزٍ من البرد , أنَّ بكلمةِ كفن وسعى أن تكون الفاصلةُ بين كلِّ تكرارٍ وتكرارٍ بترنيمٍ واضحٍ يبعثُ على الحزن: كفن.... كفن.... كفن....كف....ن. وهذا أنينٌ ملائمٌ ومحزنٌ طوالَ اللَّحَظَات , ومنْ إنارةِ المصباحِ الكهربائيِّ إلى فتحِ بابِ الصُّندوقِ ورمي متاعِهِ ولباسِهِ النِّظَاميِّ الذي مرَّت عليهِ مدَّةٌ من الزمنِ وهو دونَ صاحبٍ إلى أن وجد أخيراً قطعة خيوط القطن المفتولة في قعر الصندوق وهو يُردِّده. في الواقع فإنَّ هذه الأنَّاتِ كانت ملائِمَةً لمثل هذا المَحْمَل, حتى يستطيعَ أن يَحْمِلَ هذهِ اللَّحظَاتِ الثَّقيْلَةَ والقاسيةَ ويُسْلِمَهَا إلى يدِ الزمان . وهنا كان اهتمامُهُ الوحيدُ ألَّا يظلَّ مُداوماً على هذا الأنينِ النَّاعِمِ المُلَحَّن, عندَ الذَّهابِ نسيَ أن يحملَ المِعْوَلَ

والمَجْرَفَةَ الَّذَيْنِ كانا مركونَين إلى جدارِ الباحةِ بِجِوارِ الباب . وكان يُلقِّنُ نفسَهُ أنَّهُ يجبُ ألّا ينسى شيئاً في هذا المقامِ الحسَّاسِ. فمثلُ هذا النِّسيانِ يقطعُ رأسَه .

((يعني لا أريدُ أن أكونَ ناسياً , لا ! لأنَّني صممتُ على أن أُحافِظَ على هدوءِ نفسي إلى نهايةِ هذهِ اللُّعبَةِ المفجِعَةِ والمنفِّرة . ليس عندي عمل . أخيطُ بقيَّة صرَّة الأقمشةِ كفناً وأجعلها مثل قطعةِ القماشِ الَّتي يُمدُّ عليها الطَّعام, والتي كانَ أهالي القُرى في بلدنا يربطونها بأكتافِهِم من الخلف ويعقدون طَرَفيها حول صدورِهِم, وأربطُها بظهري. أُحكِمُ قُبَّعَتي على رأسي, المعولُ والمجرفةُ على كتفيْ تماماً مثلَ الدَّهاقِنَةِ الخُراسَانييّن الذين رأيتُهُم في بيرجند, أقرِّرُ رفعَ سروالي وأكمامي للأعلى لكي لا تعثر يديْ ورِجْلي, وجناحَي معطفي... وجناحَي معطفي... ولكن يجبُ قبل أيِّ عملٍ أن أتذكَّرَ كبسَ مفتاحِ الكهرباءِ للأسفلِ لإطفاءِ المصباح, وبعدها يجبُ أن أُغلقَ بابَ الغُرفَةِ وأقفلَهُ بالمفتاح. لا حيلة لي, إغلاقُ بابِ الغرفةِ بالمفتاحِ من العاداتِ القديمةِ عندي ويجبُ أن أعملَهُ. لكن ... لا شيء...))

لم يكنْ واضحاً لديهِ لماذا لم يُطِعْهُ قلبُهُ في النَّظَرِ إلى صُورةِ الكولونيل وخصوصاً إلى عينيه والحذاء الطويل. لا يعرف. فقط أحسَّ بإحساسٍ يُشبهُ الخَجَلَ يَمْنَعُهُ من أنْ يرفعَ رأسَهُ وينظرَ إلى صورةِ الكولونيل. ظاهراً, فإنَّ العلَّةَ هيَ أنَّهُ كلَّما صارَ أعقلَ وأحقرَ فإنَّ المسافَةَ الفاصلةَ بينهُ وبينَ الكولونيل تكبُر. إحساسٌ كما لو أنَّ قابليَّةَ الصُّحبَةِ والحديثِ إلى الكولونيل ضاعتْ من يدِهِ, وإنّه من الواضحِ لهُ أنَّهُ إذا جاءَ يومٌ لا يستطيعُ فيهِ الحديثَ إلى الكولونيل ولا يستطيعُ أثناءَ الحديثِ أن ينظُرَ إلى عينيهِ السوداوين واليقظتين فإنه سيموت. ويعرفُ أنَّ الابتعادَ لحظةً بلحظةٍ عن الكولونيل الذي تجسَّمَت كلُّ أمانيّ عمرِهِ فيهِ يعني لهُ تماماً أنهُ يضعُ أقدامَهُ على حافَّةِ الموتِ ((لكنْ يجبُ عليه أن يُدركَ مشاكلي. إذا كان أقربُ الأشخاص إليك لا يستطيعُ أن يفهمَ مشاكِلَكَ فماذا تتوقَّعُ منَ الآخرين؟)) وعبثاً كان يتخيل أنهُ لم يبقَ إلى أذانِ الصُّبحِ إلَّا لحظاتٍ قليلةً لأنَّ الصبحَ الكاذبَ قد عملَ خداعهُ وهاهو الآن يرى أنَّ السَّوادَ لا يزالُ مثل سوادِ اللّيلِ، وكُتلُ الغيومِ لا تزالُ ثقيلةً عابِسَةً, وهذا المطرُ وصوتُ قرعهِ على أسطُحِ الزّنجار لا يزالُ يعملُ على أعصابِهِ وروحِهِ كمبرد؟ ! ((صوتُ أمير؟ هذا صوتُ أمير الذي اسمع؟ أمير... أمير...؟!)) يجبُ أن أرجع وأنزلَ على الدرج إلى القبو. لا أرى حِيْلَةً بغيرِ هذا. آخرَ صوتٍ لأمير بدا لهُ قليلاً قليلاً كفاكهةٍ جاءتْ حديثاً إلى السُّوقِ، وأكثرَ من ذلكَ كانت صدفةً. لأنهُ منذُ

اليوم الذي أعتزل فيهِ أمير في زاويةِ القبو إلى الآن, ربما تكون هذه المرَّةَ الثَّانيةَ أو الثَّالثة التي يسمعُ فيها الكولونيل صوتهُ بوضوحٍ والمرَّةَ الأولى الّتي ينزلُ فيها على الدَّرجِ إلى القبو. ونزلَ ومرةً أخرى نادى أمير وهذهِ المرَّةُ كانَ النِّداءُ مباشَراً. لكنهُ لم يسمع جواباً, لم يسمع جواباً مباشَراً ومشخَّصاً. كانت أصواتاً، لكنَّها أصواتٌ مُتقطِّعةٌ. أصواتٌ كصوتِ شخصٍ يصيرُ فجأةً أبكَماً. صوتٌ على نحوٍ غريبٍ يخرُجُ من أسفَلِ الحَلقِ ويصيبُ المرءَ بالوحشَةِ. والكولونيل من الأسَفِ والحَيرَةِ نسيَ أن يُشْعِلَ الكهرباء. مدَّ يَدهُ إلى المفتاحِ. أضاءَ النُّورَ في القبوِ ورأى وَلَدَهُ في مكانِهِ على سريرِهِ الخَشَبيّ المُتخلخِلِ وعليهِ غِطاءٌ صوفيٌّ عسكريٌّ قديمٌ ملفوفٌ على كتِفَيهِ وهو يرتجِف، يرتجِفُ بِشِدَّةٍ وعيناهُ مركوزتانِ على نُقطَةٍ وكأنَّهُ مبهوتٌ وحيران. أدركَ الكولونيل أنَّ أقوى أجزاءِ ذِهنِ ابنِهِ كانت أسيرَةً لِشَيءٍ آخَر ومكانٍ آخر، سواءً انتبهَ لِوجودِهِ أم لا. لقد كانَ كأنَّهُ غارِقٌ في نَفسِه، لا كأنَّ الكولونيل . أباه . قد وَرَدَ عَلَيهِ وهو واقِفٌ وينظُرُ إليه. العَرَقُ على جَبينِهِ وقد التصَقَ شَعْرُهُ الطَّويلُ المُجعَّدُ بَعضُهُ بِبعضٍ من أثَرِ العَرَقِ وبدا كأنَّهُ يُعاني المزيدَ من العذابِ من حُلُمٍ وكابوسٍ وهو لا يزالُ هكذا يرتجِفُ ويرى الكولونيل أنَّ هذا الرَّجَفانَ الخطيرَ ناجِمٌ عن دوامِ توالي الكوابيس، إنَّها مُعاناةٌ ومقاومةٌ في الكابوس. وهذا البُهتُ والحيرةُ الباقيةُ معلَمٌ على شيءٍ عجيبٍ في العالَمِ يتصَرَّفُ بِذِهنِه، ولا أحَدَ غيرَ أمير يستطيعُ أن يُشيرَ. ولو مُجَرَّدَ إشارةٍ إلى . تلك الآلامِ والعذاباتِ الغريبةِ المُتمازِجَةِ المُتراكِمَة. لكنْ كيف للشَّخصِ في مثلِ هذهِ الحالةِ أن يكونَ قادِراً على الكلام؟.

جلسَ الكولونيل، ليكونَ جالِساً لِلحظَةٍ واحِدَةٍ فقط، أشعَلَ سيجارتَهُ وقرَّبَ الكُرسيَّ الصَّغير، كان ظهرُهُ إلى بَدَنِ المُجسَّمِ غيرِ المُكتَمِلِ الَّذي كانَ أمير مشغولاً بِصُنعِه، مقابِلَ صدغِ وَلَدِه. مدَّ يَدَهُ بِسيجارةٍ نحوَ أمير. يعلمُ أنَّهُ كان من الأنسبِ أن يمُدَّ لهُ أوّلاً كأسَ ماء، لكنْ هذا ما حَصَلَ، وأمير أخذَ السَّيجارةَ من بينِ أصابعِ الكولونيل وكأنَّهُ يختطِفُها اختِطافاً. أخالُهُ فاقِدَ الإحساسِ وفمُهُ وشفَتُهُ كانا كقطعةِ الخَشَبِ اليابسةِ وهو يبتلعُ دُخانَ السَّيجارَةِ. يأخُذُ نَفَسَ الدُّخانِ ويحبسُهُ في رئتيهِ ثُمَّ يُطلِقُهُ ليفقِدَ الدُّخانُ غلظتَهُ ويصيرَ مثلَ دُخانِ النَّفَس. لم يقُلْ حرفا. والكولونيل لم يستطِعْ أن يورِدَ حرفاً على لِسانه. كان يرى بشكلٍ واضحٍ أنَّ ولدهُ الآنَ رجُلٌ مُختلِطٌ مكسورٌ وقد خطَّ البياضُ في شعرِهِ خطوطاً وأحوالُهُ غيرُ عاديَّة. ليسَ فقط عيناهُ ووجهُهُ بل كامِلُ وجودِهِ كان يصرُخ ممّا يُلِمُّ بِهِ ويؤذيه، نحيلٌ وعليلٌ وفي اليقظَةِ يبكي من الكوابيسِ الَّتي لا تنتهي. شفتاهُ لا

ترتجفانِ ولا يرتجِفُ وجهُهُ لكنَّ صوتَهُ . الصَّوتَ الَّذي خرُبَ كاملاً ومُسِخَ . صارَ يُسمعُ وكأنَّما يتكلَّمُ بِصوتِ عِظامِه:

. ((...المجنونُ، المجنونُ نفسُهُ الَّذي كُنتُ قد رأيتُهُ في بير جند. لهُ عينُ صوتِهِ ولا شخصَ يعرِفُ كيفَ جاء من هُناكَ إلى هنا. وجهُهُ نيليٌّ وعيناهُ نيليَّتانِ والشَّعرُ في وجهِهِ نيليٌّ، ويُقالُ أنَّهُ لا يصيرُ في أيِّ وقتٍ أعمَرَ ممّا هو الآن، ويقولونَ أنَّهُ لا يوجَدُ في أيِّ وقتٍ من هو أكثرُ منهُ شبابا، ويقولونَ أنَّهُ يجبُ على من يمُرُّ بِجانِبِهِ أن ينذُرَ نَذراً وأن يدفَعَ صَدَقَةً لِدفعِ أذى عينِه، ويقولونَ أنَّ النَّظَرَ إليهِ يجلبُ النَّحسَ وأنَّ نَفَسَهُ سُمّيٌّ، لقد كانَ هو بِعينِه. مرَّةً كانَ جالِساً يبولُ دماً. كان يبولُ دماً في عينَيَّ ولا أقدِرُ على إغلاقِ أجفاني وكان الدَّمُ يسيلُ إلى صوارِ شفتيَّ ويسيلُ ما بين جذورِ أسنانيَ المفتوحَةِ إلى فمي ويأخُذُ الطَّريقَ إلى حلقي وصرتُ أشعُرُ أنَّني أختنقُ وفي عينِ الحالِ رأيتُني مُجبَراً على النَّظَرِ إلى حشفتِهِ الّتي جُعِلتْ شرائحَ بِحدِّ شَفرة. كنتُ رأيتُ هذا المنظَرَ بِنفسي. كُنتُ قد رأيتُهُ يوم كنتُ صغيراً. كانَ رأسُ حشفتِهِ منقوشاً بِصورةِ رأسِ آدَمي. وكانَ يُشقِّقُها بِشفرةٍ. أنا نفسي كنتُ قد رأيتُهُ والشُّرطَةُ يصبّونَ عليهِ الماءَ ثمَّ ألقوا بِهِ في عَرَبَةٍ يجُرُّها جوادان وقالوا إنَّهُم يحملونهُ إلى المستشفى وكنتُ أتخيَّلُ أنَّهُ سيموتُ من نزفِ الدَّم. وبعدَ أسبوعٍ رأيتُهُ مرَّةً أُخرى جالِساً على المنصَّةِ نفسِها وهو يمسِكُ بِشفْرةٍ بيدِهِ ويذرفُ الدَّمعَ كأنْ لا حيلةَ لهُ إلّا القيامَ بِهذا العملِ، وكان يمسحُ دمعَ عينِهِ بِمِنديلٍ نظيفٍ وكان يُسدي النَّصيحَةَ بِلحنٍ مُحرِقٍ للقلبِ وقد نَصحني. أنا نفسي رأيتُ في طفولتي هذهِ أو في طفولةٍ أُخرى، رُبَّما في الأنسالِ السَّابقةِ لوجودي، رأيتُ هذا المنظر، لا أعلم. أمَّا الآنَ فأرى، ولا أستطيعُ القيامَ بِأيِّ عَمَلٍ ولا أستطيعُ استِحضارَ طاقتي وروحي تُقتَلَعُ من الألَمِ والجِراحِ والاختناقِ وقلبي يُريدُ الموت، لكن... إلى الآنَ لم ينتهِ شُغلي. خليفَتُهُ انتقلَ إلى قطعةٍ من الصَّخرِ الأسودِ من صخرةٍ قبرٍ وبِحدِّ قِطعةٍ من صخرةٍ أُخرى...آخ!، وأنا الَّذي جُمجُمتي تُريدُ أن تترُكَني، وأنا أصرخُ وأصرخُ، والخليفةُ بِتلكَ الصَّخرةِ الحادَّةِ يطرُقُ على رأسي ويطرقُ حتّى صرتُ لحماً على هيئةِ دولابٍ وأنا لا أزالُ أُطلِقُ الصَّرخاتِ، وأُطلِقُ الصَّرَخاتِ، وأشُدُّ الخيطَ الَّذي كان مربوطاً على رَقَبتي، على حلقومي، ولم أكُن قادِراً على أن اشربَ الكأس، حيثُ أنَّني صرتُ مسحوقا. لكن كُنتُ أرى وأحسُّ أنَّ الخليفةَ يطرقُ على رأسي وبَدَني وكُلِّ عِظامي بتلك القِطعةِ من صخرةِ القبر المقطوعةِ من قبرٍ في غارٍ، ويطرقُ ويطرقُ وأنا...كان فمي مملوءاً بالدَّمِ وعفِناً ولا أستطيعُ الصُّراخ، وأسمعُ صدى

صرخاتي من كلِّ الأزقَّةِ والشَّوارِعِ الكبيرةِ والبيوت، ومن الحلْقِ المملوءِ بالدَّمِ لِكُلِّ النَّاسِ الّذينَ يُطرقونَ بالحدِّ القاطِعِ لِقِطْعَتَي الصَّخرِ الأسودِ من القبر، وأسمعُ... وأسمعُ...وقد فقدتُ الكثيرَ من الدَّمِ وكان يأتيني كثيرٌ من الدَّمِ من أعلى، كأنّي كُنتُ أغشُّ، وكنتُ أتعجَّبُ كيفَ لم أمُتْ!...ها؟ ألم أمُتْ أنا، كولونيل؟!))

. ((لا، إلى الآنَ لا يا ولدي!))

رُبَما الكولونيل أجابَ ابنهُ الَّذي صارَ هرِماً بِصوتِ عِظامِه. إذ كان الكولونيل آنذاكَ يجلسُ صامتاً ومبهوتاً وكانت أسنانُهُ مُغلَقَةً، ولم يكُنْ يبدو قادِراً على لفظِ حرفٍ واحِد. إلَّا أن يُتَصَوَّرَ أنَّ هذا الجوابَ لولدِهِ كانَ حصلَ منهُ في خيالِهِ. فالكولونيل الآنَ مُبتلىً بِصِراعٍ داخِليٍّ وعليهِ أن ينتبِهَ ولا يُفلِتَ الزِّمامَ من يده. ومن نفسِ المنظورِ كان يُلقِّنُ نفسَهُ ألّا يتعجَّب، لا يتعجَّبَ من أيَّةِ صُدفةٍ أو حادِثة. وبما أنَّ أمير لم يكُنْ يعرفُ أنَّ هذا أبوهُ فقد كان يتحدَّثُ بلا خوف، وكان يأتي بِكلِماتٍ جدِّيَّةٍ على رغمِ السُّرعة. كلِماتٍ مُستهجَنَةٍ على لِسانِه. وهكذا صارَ في نَظَرِ الكولونيل منظوراً ومفهوماً أنَّ وقوعَ أعجبِ العجائبِ مُمكِنٌ وكأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ لِكُلِّ شيءٍ وسيقضي عُمُرَهُ بِمِثْلِ هذهِ التَّجارِبِ تمُرُّ على رأسِهِ ثمَّ يموتُ وعيناهُ مفتوحتانِ من التَّعجُّبِ وسيكونُ فخوراً من أنَّهُ لم يتعجَّبْ طيلَةَ حياتِهِ من أيَّةِ حادِثَةٍ عجيبة...! فلماذا عليهِ أن يستغرِبَ وهو يرى بِعينِهِ ولدَهُ. ولدَهُ الأرشدَ الَّذي رأى قتلَ والِدتِهِ وتَحمَّلَهُ كرجُلٍ كما لو كانَ شريكاً لوالِدِه. وهو يسقُطُ بتلكَ الحالِ بالحالةِ الَّتي سقطَ فيها. فكَّرَ لِلَحظَةٍ بِأخذِ أمير للمستشفى لِتذهَبَ فِكرةُ مُلازَمَةِ الفِراشِ من ذِهنِه، ولكنَّهُ على الفورِ استنتجَ أنَّها فِكرةٌ عقيمةٌ حيثُ تذكَّرَ أنَّ المستشفى متوقِّفٌ عن قبولِ المرضى وأنَّ الطَّبيبَ الوحيدَ الإختِصاصيَّ بالأمراضِ النَّفسيَّةِ والرُّوحيَّةِ في المدينةِ قد جُنَّ وهو الآنَ في إحدى غُرَفِ مستشفى المجانين ومُتَّهَمٌ بالتَّجسُّسِ وموضوعٌ تحتَ المُداواةِ والتَّأهيل. ثُمَّ تراءى لَهُ أن يُطلِعَ أمير على خَبَرِ إعدامِ أُختِهِ لَعلَّهُ بهذِهِ الطَّريقةِ يستطيعُ أن يورِدَ عليهِ ضربةً جديدَةً وبإيرادِ هذهِ الضَّربَةِ الجديدَةِ عليهِ وإصابتِهِ بها يتحرَّرُ ذهنُهُ من مخالبِ الكابوس. لم يكُن هناك تقصيرٌ من الكولونيل لِعَدَمِ أخذِهِ للطَّبيبِ النَّفسيِّ أو الرُّوحيّ. هو يرى بِعقْلِهِ أنَّ الصَّدمَةَ الجديدَةَ يُمكِنُ أن تُبْطِلَ الآثارَ القويَّةَ للصَّدمةِ السَّابِقَةِ وتُعطِّلَها. وفي عين الحالِ كانت هُناكَ عِلَلٌ وأسبابٌ أُخرى ساعدتِ الكولونيل على الإقدامِ على مثلِ هذهِ الخطوة، أوَّلُها أنَّ اللّيلَ يقترِبُ من نهايتِهِ وهولا يستطيعُ تعطيلَ عَمَلِهِ أكثَرَ من هذا حيثُ كان يرى أنَّهُ يجِبُ أن يصِلَ حتماً على الوقت

ليتولّى أمرَ دفْنِ ابنتِهِ، لأنَّهُ إذا لم يصِلْ بِنَفسِهِ إلى الموقعِ في الموعدِ فما أكثَرَ ضياعَ ابنتِه. والثّاني أنَّهُ رأى أن يأخُذَ أمير معه، وكان ينظُرُ لِهدفينِ من أخذِ أمير برفقتِه. الأوّل أن لا تكونَ يدُهُ وحيدةً عند التَّغسيلِ والتَّكفين، والثَّاني أن لا يَدَعَ أمير وحدهُ في البيتِ بل يُخرجُهُ منهُ عسى أن يكونَ ذلِكَ سبَبَاً ليبرُدَ قلبُه. لأنَّهُ كان يُحِسُّ بعُمْقٍ وأكثَرَ من أيّ وقتٍ مضى بقَلَقٍ من وحدَةِ أمير وكان مُتيقّناً من أنَّهُ إذا لم يستطِعْ أخذَ أمير معهُ فإنَّ قلبَهُ سيظلُّ حائراً ومُشوّشاً طوالَ الدَّفن. فكَمَنْ يرمي بِقَلْبِهِ إلى البحرِ قال:

. أُعْدِمَتْ بروانة!

. أُعدِمَتْ؟!

أمير سألَ فقط ثمَّ بعد ذلكَ نَظَرَ إلى أبيهِ وكأنَّهُ تثلَّج، واستطاعَ الكولونيل أن يُلاحِظَ أنَّ عينيهِ وحالةَ نظرتِهِ قد تغيَّرَت فجأةً تغيُّراً هائلاً وصارَ وجهُهُ هادئاً كوجهِ رجُلٍ عجوز. دامَ السُّكوتُ لَحَظَاتٍ طويلةً والكولونيل ساكتٌ وجالِسٌ وكأنَّهُ ينتظِرُ أثَرَ خبرِ الحادِثَةِ على أمير وردَّةَ فِعْلِه. أخيراً رَفَعَ أمير نظَرَهُ عن والِدِهِ، طأطأَ رأسَهُ، وبقيَ بعدها بلا تأثُّرٍ ظاهِرٍ، تماماً كما لو كانَ في حلِّ مسألَةٍ هندسيَّةٍ عمليَّة، استفسَر قائلاً:

. ألم تكُنْ صغيرةً جدَّاً على الإعدام؟!

الكولونيل أحسَّ أن لا جوابَ لَدَيهِ يُعطيه؛ فنهض، أخرَجَ ساعَتَهُ من جيبِ صدرتِهِ وقرَّبها من عينيهِ وجعلَ يُراقِبُ حَرَكَةَ وسكونَ عقارِبِها بِدِقَّةٍ ليعرِفَ بِدِقَّةٍ كم بقيَ من الوقتِ إلى أذانِ الصُّبح. وبعدَ أن أعادَ السَّاعَةَ إلى جيبِهِ، تلمَّسَ بِأصابِعِهِ عُقْدَةَ قِطعةِ القِماشِ المعمولَةِ كفناً والمعقودةِ تحتَ كتِفِه، وبعنوانِ آخِرِ كلامٍ لهُ وكأنَّهُ يُتِمُّ الحُجَّةَ على ولدِهِ بِمِثْلِ هذا الكلامِ، قال:

. أريدُ الذَّهابَ إلى المقبَرَةِ لِتكفينِ ودَفْنِ بروانة، أريدُ الذّهاب، ألا تأتي معي؟

أمير مرَّةً أُخرى كانَ مبهوتاً وحائراً وكأنَّ وجهَهُ وشفتاهُ قد تثلَّجَت وامتلأت لوناً وتحجَّرَت، وفجأةً بدأ يرتجِف. ارتِجافٌ كاهتِزازةٍ شديدةٍ لا تتوقَّف. وحالةٌ تشبِهُ حالةَ الارتِجافِ من نوبةِ حُمّى إلى درَجَةِ أنَّ الأسنانَ بدأت بالاصطكاك، الأسنانُ تتصادَمُ لا إرادياً وتُصدِرُ صوتاً ويداهُ كأنَّهُما ترتعِشانِ وأصابِعُهُ الّتي لم تكُنْ تعملُ بإرادتِهِ تبحثُ عن جانِبَيِ الغطاءِ الصُّوفيّ فلا تجدُه، حتّى

إذا وجدت أصابِعُهُ الغِطاءَ لَفَّهُ حولَ بَدَنِهِ النَّحيلِ وأخفى نفسَهُ داخِلَه وأبقى نفسَهُ مُختفياً. وفي نَظَرِ الكولونيل فإنَّ حالَ وحركَةَ ولدِهِ تُعبّرانِ، علاوةً على رَجَفانِ البرودةِ، عن الهَول، عن الهولِ والرُّعبِ والخوفِ الّتي تخرُجُ من ملاذِها فلا يجدُ إلا ذلكَ الغِطاءَ الصُّوفيَّ القديمَ ليُغطِّيَ ويكتُمَ جميعَ كوابيسِهِ فيه، وهو حين وضعَ نفسَهُ في الغِطاءِ ولفَّهُ على نفسِهِ فلم يظهَرْ منهُ وجهُهُ ولا حتّى بَصَرُه تحوَّلَ إلى مُجسَّمٍ مُرتعِشٍ من الهول. ومن خلفِ النَّسيجِ والخيطانِ الرّطبَةِ للغطاءِ الصُّوفيّ القديمِ سمعَ الكولونيل:

. لن آتي... لا؛ أنا لستُ أخاً لأحد. أنا أصلاً لستُ أيَّ شخص. أنا أصلاً لستُ شخصاً... أنا غيرُ موجود. أصلاً أنا غيرُ موجود!

كان الكولونيل في طريقِ الدَّرَج حينَ جاءَ في فِكْرِهِ أن لماذا لم يلتفِتْ أمير إلى رسول خضر جاويد؟ ولم يجد قساوةً في الأمرِ أو يراهُ صعباً هذِهِ المرَّة. ويرى الكولونيل أنَّهُ كان مُستطاعاً وكان حقيقاً بهِ أن يستصعِبَ الأمر. فالمنزلُ كانَ باسمِ الكولونيل وهو لم يمُتْ بعدُ حتّى لا يكونَ لهُ حقٌّ الاعتراضِ على تردُّدِ المشكوكِ بِهِم إلى المنزل:((لكن...لكن...كلماتُهُ . أمير . لم تكن دونَ أثر؟ أيَّ معنىً كان يقصِدُ حين قال أنا لستُ أخاً لأحَد؟ أمن منظورِ الجنونِ فقط قالَ هذهِ الكلماتِ أم منظورٍ آخر؟ أيُريدُ أن يشتُمَني؟ هل يُريدُ رُبَّما تحقيري لأصيرَ أعقَلَ ممّا أنا عليه الآن؟ إشارتُهُ..كُنهُ معنى كلامِه...أليسَ سُمُّ كلامِهِ موجَّهاً إليَّ؟ ألا يُريدُ أن يقولَ كنايةً أنَّ أولادي، أنَّني... أنَّني لستُ أباً لِجميعِ أولادي؟ هو... ولدي أنا، أهوَ إلى هذا الحدِّ قاسٍ وشقيٌّ حتّى يرمي زوجتي بالزِّنا، يصِفَ أُمَّهُ بالعاهِرَةِ في وجهي؟ أنا الَّذي قتلتُها؛ أنا الَّذي قتلتُ فروز؛ أمامَ عينَي أمير وبشهادتِهِ كان قتلي لزوجتي، وبعد ذلك...فمن المُتَّفقِ عليهِ أنَّ كُلَّ شيءٍ بِنَظَرِهِ، على الأقلّ بِنَظَرِ أمير، يجبُ أن يكونَ قد غُسِلَ وطُهِّر؛ لا؟ لماذا ... لماذا... وأنا لا أشُكُّ في موردِ كونِ أولادي من حلال؛ لا! لو لم تكُن فروز تحتاجُ العنايةَ ما كانت تنامُ في حَملَينِ على سريرِ الجراحة. وغيرَ ذلك، كان يجبُ أن أشعُر على الأقلّ؛ من طريقِ عواطِفي كان يجبُ أن أشعُر، العواطِفُ والغريزةُ لا تقولُ كَذِباً للإنسان. لا؛ أنا كُنتُ أُحبُّهُم جميعاً وأنا الآنَ أُحبُّهُم، لكن لماذا أنا متأسِّفٌ بشأنِ خضر جاويد كيفَ لم يلفِتْ انتباهَك؛ ولماذا أحسُّ بِأنَّني أحبُّ ابنتي الصَّغيرةَ بروانة هذا القدْرَ من الحُبّ، إلى حدِّ أنَّني أحسُّ أنّني سأموتُ إذا لم أصِلْ إلى المقبرةِ لأراها وأدفنَها. أخيراً لا تجعلوني أشقى أكثرَ من هذا القدرِ إلى هذا الحد!))

ذهب الكولونيل في المطرِ والطِّينِ والوحلِ في الزُّقاقِ ويدُهُ وأصابعُهُ النَّحيلةُ تُمسِكُ بالمعولِ والمجرفةِ بإحكامٍ وتضغطُهما على ميزابَةِ كتِفِه وفِكرُهُ لا يبتعدُ لحظةً عن خضر جاويد. كان يحسُّ أنَّ خضر جاويد يعبُرُ في الظُّلُماتِ ويراقبُهُ ويسيرُ خلفهُ ويستهزئُ بهِ دونَ أن يظهَرَ لهُ ولو للحظَةٍ واحدة. كان يحسُّ بحوافِ معطفِهِ الواقي للمطَرِ مرفوعَةً ويحسُّ بأطرافِ قبَّعتِهِ الفرنسيَّةِ وقد ثُنيت على جبينه، والحزامِ الجلديّ لمعطفه وقد عُقِدَ من فوقِ سُرَّتِهِ وكأنَّ البرقَ يضربُ دائماً على حذائهِ معَ أنَّ عليهِ المطرُ والطِّينُ والوحل؛ لكنْ واحدةٌ من رموزِ ومسيرِ خضر جاويد أنَّهُ كان كأنَّما يسيرُ في السَّماءِ ولا يبتلُّ نعلُهُ بالماءِ أبدا. ولا يصيبُهُ المطرُ رغم أنَّهُ يسيرُ في المطر، وفي المرَّاتِ القليلةِ الّتي رآهُ فيها الكولونيل وهو قادمٌ إلى منزلهِ، رآهُ ولم يكُنْ على لباسِهِ قطرةُ ماءٍ واحدةٍ. لقد كان شيئاً عجيباً ولم يكُنْ في خيالِ الكولونيل في أيِّ وقتٍ أنَّ هذا يُمكِنُ أن يحدُثَ في الواقِع! وتلك اللّيلةَ أيضاً . وهي اللَّيلةُ قبلَ الأخيرةِ من اللَّيالي الّتي كان الكولونيل قد رأى فيها خضر جاويد . كانت الدُّنيا تُمطِرُ.

كان الكولونيل خلف النَّافذةِ جالساً على كرسيِّهِ الخشبيّ وينظُرُ عبر زُجاجِ النَّافذةِ إلى المطرِ وقد أعطى سمعَهُ لأصواتِ حبَّاتِ المطرِ الكبيرةِ تسقطُ على سطحِ ماءِ الحوض ولاحظَ أنَّ الهرَّةَ السَّوداءَ الّتي غالباً ما تكونُ على حافَّةِ الحوضِ ليست هناك، وظنَّ أنَّ الحيوانَ انسحبَ من تحتِ المطرِ والتَجأ إلى زاويةٍ أو ركنٍ، هذهِ المرَّةُ فتحت بروانةُ البابَ بوجهِ خضر، إذ كانت بروانةُ في الخارجِ وتحتَ المَطَرِ وكانَ وجهُها إلى السَّماءِ لِتسقُطَ قطراتُ المطرِ الثَّقيلةُ الكبيرةُ على ناصيتِها ووجنتيها وتذوبَ وتسيل. كانتِ البنتُ الصَّغيرةُ تحسُّ بالسَّعادةِ من هذه اللُّعبةِ الطُّفوليَّةِ المسلِّيةِ وكانَ الكولونيل يستطيعُ الإحساسَ بالاضطِرابِ الطُّفوليّ لابنتِهِ وأحسَّ أنَّهُ بدورِهِ يُشارِكُ بنفسِهِ في هذا السُّرورِ البسيط. وهكذا فحين طرقَ خضر جاويد البابَ فتحت بروانةُ البابَ في وجهِهِ ودونَ أن تنظُرَ للرَّجُلِ سحبتْ نفسَها وراءَ البابِ وأعطتِ الطَّريقَ لِخِضر ليمُرّ. خضر مرَّ وكما هي الحالُ دائماً سارَ نحو دَرَجِ القبوِ ونزلَ عليه، ألقى الكولونيل نظرةً أخيرةً عليهِ ثمَّ توجَّهَ بِنَظَرِهِ إلى ابنتِه، كان البابُ مُغلَقاً وقد وضعتْ راحَتَيها على جبهتِها وراحت تسحبُهُما معاً على وجنَتَيها فَذَقنِها ثمَّ بعد ذلكَ على رَقَبَتِها وموضِعِ حلقِها. ومن آخِرِ سِماتِ خِضر جاويد الَّتي بقيتْ في خاطِرِ الكولونيل من تلكَ اللّيلةِ، يداهُ ضمن جيبِ معطفِه وبروزُ كتِفَيهِ والحُفرةُ اللّوزيَّةُ الشَّكلِ على قُبَّعَتِهِ الصُّوفيَّة وهو يغيبُ عن نظرِهِ على دَرَجِ القبو.

الآنَ بروانة تجيءُ إلى غُرفَةِ الأبِ وهي تمسحُ وجهَها وشعرَها بمنديلٍ جاءتْ بِهِ معها من غُرفَتِها. أطفأ الكولونيل سيجارتَهُ بالرَّمادِ ونظرَ إلى ابنتِه. بروانةُ كانت تقفُ إلى جانبِ المدفأةِ وقد رَفَعتْ غِطاءَ الإبريقِ وراحت تشتَمُّ رائحَةَ الشَّاي لِتطمئنَّ إلى أنَّهُ ليسَ قديماً. وبعدَ أن تفحَّصتْ ماءَ الإبريقِ الفِضّيّ صبَّتْ كوبَينِ من الشَّايِ وحَمَلَتهُما ووضَعَتهُما على الطَّاولَةِ وجلستْ، واحدٌ لأبيها وواحدٌ لها. عُلبَةُ قِطَعِ السُّكَّرِ دوماً على الطَّاولة.

. ((أبي...هل تشربُ الشَّاي؟))

. ((لماذا لا أشرب؟ حياةُ رجُلٍ عجوزٍ مُتعلِّقةٌ بهذهِ الألطاف الصَّغيرة. لعلَّها لا تعرف. لماذا، تعرف.))

. ((الآنَ أملأُ المدفأةَ بالنِّفط.))

. ((أعرفُ، كان هذا عملُ بروانة كُلَّ ليلة. لكِنْ لُطفُ صوتِ ابنتي يُعطي روحاً جديدَةً لهذا العملِ البسيط، صبِّ النِّفطِ في المدفأة. تقدَّمتُ وتملَّقتُ وقلتُ لو أرَدْتُ لاستَطَعْتَّ صبَّ النِّفطِ في المدفأة. لكنَّها لم تلتفِتْ إليَّ وقالتْ أطلُبُ الإجازَةَ بِحَمْلِ الشَّاي لأخي وضيفِهِ في الأسفل من قبلِ أن تصيرَ يدايَ مُلوَّثَتينِ بالنِّفط؛ وكذلكَ قُرصِ الدَّواءِ اللّيليّ لأمير.))

. ((لِأحمِلْ... لِأحمِلْ الشّاي؟))

. ((اِحملي... أنتِ تعرِفينَ وقتَ وعيارَ قُرصِ أخيكِ؟))

تعرف. وضعتْ إبريقَ شايٍ وعُلبَةً من قِطَعِ السُّكَّرِ وكوبينِ على طبقٍ معدنيٍّ كما وضعت بِضعَةَ أقراصٍ كذلك، وقبلَ أن تَخرُجَ من الباب، وضعتْ غِطاءَ رأسِها وجعلتْ منديلاً على الإبريق حتّى لا يبرُدَ قبلَ أن تَصِلَ إلى القبو. حينَ وصلت إلى القبو كان خضر جاويد قد خلعَ معطَفَهُ وعلَّقَهُ على حمَّالةِ الثِّيابِ الخشبيَّة ورأت بروانةُ الحِزامَ الجلديَّ لِحمائلِهِ على كتِفِه، وصارت تنظُرُ إليهِ كأنَّها تتفحَّصُه. ولم يكُن خضر جاويد يبدو راغباً في ذلك حيثُ أنَّهُ استدارَ إلى جِهةِ الحائطِ حينَ وقعَ نَظَرُهُ على البنتِ الصَّغيرةِ وهي تضعُ الطَّبَقَ على الطَّاولةِ الصَّغيرة، واحتارَ فجأةً، رغم أنَّهُ سيطرَ سريعاً على نفسِهِ وحَرَفَ نَظَرَهُ عنها واستنتجت من نَظَرِ أخيها الّذي كان ينظُرُ إليها أنَّهُ ما كان يجبُ الدُّخولُ بدونِ إذن. وهذا كان كافياً ليؤذيَها، وعليها الآنَ الخُروجُ

سريعاً من تحتِ النَّظَراتِ الثَّقيلةِ لأخيها والضَّيفِ الَّذي كان يُحسُّ أنَّهُ أجنبيّ. فبسُرعةٍ وخِفَّةٍ خرجتْ من البابِ الصَّغيرِ للقبو وحينَ كانت تضعُ قدمَها في صحنِ الدَّارِ سمعت صوتَ خضر جاويد، كأنّها تسمعُهُ للمرَّةِ الأولى يقول:

((لا تزالُ صغيرةً جدَّاً وضعيفةً. لم يكُنْ صحيحاً منكَ جرُّها إلى وَسَطِ العَمَلِ الثَّوريّ والسِّياسةِ ولُعبةِ المؤسَّسات. هذا خطيرٌ بالنِّسبةِ لها؛ خطيرٌ جدَّاً!))

بروانة انتبهتْ الآنَ إلى أنَّها الآن تقفُ على رِجْلٍ واحِدةٍ. أي أنَّها بِمحضِ سماعِها لِصوتِ خضر جاويد بقيت واقِفَةً ثابِتَةً على رِجْلٍ واحِدَةٍ وكانت رِجْلُها اليُمنى الّتي وصلتْ إلى حافَّةِ آخرِ دَرجةٍ من دَرَجِ القبو تحفظُ توازُنَها. ولم تستطِعْ أن تتنفَّسَ بحُرّيَّةٍ إلا حينَ فهمتْ أنَّ خضر جاويد أتمَّ كلامه، لأنَّ إحساسَها بأنَّهُما يتحدَّثانِ عنها حبسَ أنفاسَها في صدرِها. والآنَ قدماها على الأرضِ وهي تقفُ خلفَ الحائطِ تُصغي إلى جوابِ أخيها على خضر جاويد، وحينَ كان المطرُ يُعطي المجالَ، كانت تسمع. كلامٌ معناهُ أنَّ هناكَ انقلاباً ظاهراً في الأحاسيسِ والمشاعِرِ الثّوريَّةِ عند بروانة، ويجبُ أن لا يتوقّفَ عملُها وأن تأخُذَ بيعَ الجريدةِ بشكلٍ جدّيٍّ وأن لا تسحَبَ نفسَها إلى جهةِ المُجرياتِ السِّياسيّة. بروانة كانت تحسُّ أنَّ أخاها كان يضِجُّ في الواقِع، وكان كأنَّهُ يلتمِسُ من خضر ويرجوهُ أن لا يجعَلَ أُختَهُ مثْلَ دودةِ القزّ!

. ((... أخيراً هو مُحطَّمٌ جدّاً. في الحقيقَةِ هو خادِمُ ومُمرّضُ الكولونيل. أنت الَّذي تتوجَّهُ من الأرضِ إلى السَّماءِ مع محمد تقي وأنتم...أنتم...صراحةً...أريدُ... أرجو أن...))

كأنَّ أمير كان وحدَهُ في القبو، لأنَّ خضر جاويد لم يكنْ يرُدُّ عليه، فكان يُحَسُّ أنَّ أمير كان يتحدَّثُ إلى نفسِه. بعد لَحظاتٍ انقطَعَ صوتُ أمير وبروانة سمعت أصواتَ الشَّخيرِ المتناوبةَ لخضر وأحسَّتْ أنَّ النَّومَ قد أخَذه، ولم تشأ التَّفكيرَ في أنَّ مُصاحِبَ أخيها نامَ من وقعِ صوتِهِ الَّذي تجاوزَ سَعَةَ احتِماله وكانت تُحسُّ بِذِلّةِ ضعفِ نفسِها وأخيها. ذلِكَ الحين دخَلَت غُرفَةَ الكولونيل وكأنَّ دلواً من ماءِ الثَّلج قد صُبَّ عليها ،ثمَّ كأنَّها أدركتْ بعدَ لَحَظاتٍ أنَّ مجيئها إلى عندِ أبيها لم يكُن واجباً بل كانَ الواجِبُ أن تذهبَ إلى غُرفتِها لِتُخفيَ وجهَها بينَ ذِراعَيها وتبكيَ إلى الصَّباح.

((بروانةُ نسيتْ حتّى كلامَها لي بِأن تملأ المدفأةَ بالنِّفط، نسيَتْ! وكأنَّها لم تقُلْ حرفاً من ذلكَ وكأنَّها لم تكُنْ لها عادةً أن تملأ مدفأتي بالنِّفطِ وأن تُسوِّيَ سريرَ نومي وتُرتِّبَهُ لإسعادي. الموتَ والخَجَلَ وحدَهُما ما رأيتُ تلكَ اللّيلةَ على الوجهِ الصَّغيرِ لابنتي الصَّغيرة. وجنتاها صارتا قرمزيَّتينِ من الخجلِ وشفتاها ابيضَّتا من هولِ الموتِ وعيناها، تلكَ اللّيلَةَ لم أرهُما أصلاً إذ لم تنظُرْ إليَّ إلّا بعدَ أن خرجتْ من الباب.))

صباحَ تلكَ اللّيلةِ وقتَ الأذانِ تقريباً نهضَ خضر جاويد وتهيَّأ للخروج. حالةُ عينيهِ ووجهِهِ كانت بحيثُ لا تترُكُ مجالاً لِأمير ليتكلَّم، وقبلَ أن يُهيِّئ أمير نفسَهُ للكلامِ فإنَّ خضر كان قد صعَدَ على الدَّرَجِ ليغسِلَ يديهِ ووجهَهُ وظلَّ أمير في مكانِهِ جالساً على الأريكة. وكأنَّ خضر جاويد كانَ يُريدُ من أمير أن يصمُتَ، وأمير ظلَّ صامتاً ؛ صامتاً وفي داخِلِهِ هولٌ يسحقُه. وأستطيعُ التَّخمينَ أنَّ بروانة نهضتْ بعدَ أذانِ الصُّبحِ تماماً وصلَّتْ صلاتَها، ومعلومٌ أنَّ بروانة ككُلِّ صباحٍ تريدُ أن تأتيَ لرؤيتهِ قبلَ خروجِها، لكنَّها لا تستطيع، لا تملكُ القُدرَةَ والاستطاعةَ للصُّعودِ على الدَّرجِ لتوضِحَ لأختها أنَّها ستبقى اليومَ في المنزل. استطاعتْ فقط النُّهوضَ والجلوسَ على حافَّةِ سريرِ النَّوم وبوجودِ طعمِ حموضةٍ في فمِها أشعَلَتْ سيجارةً وهي جائعة ورأسُها قد اختفى عنّي حيثُ جَعَلتْهُ بينَ يديها وظلَّتْ على هذهِ الحال. بروانة تحتَ نَظَرِ والِدِها الَّذي ينظُرُ إلى المَطَرِ من خلفِ زُجاجِ النَّافِذة جاءتْ إلى الباحة من دَرَجِ الإيوانِ ، نزلتْ على دَرَجِ القبو، وقد وصَلَتْ بعدَ أن أشعَلَ أمير سيجارَتَهُ الثَّانيةَ تماماً فأخَذَت السَّيجارَةَ من يدِهِ وأطفأتها.على بَدَنِها ثوبُها الرَّماديّ وقد ألقَتْ على كتِفِها مِحفَظَتَها الكُحليَّةَ وأميرُ يستطيعُ أن يعرِفَ ما احتوتْ هذهِ المحفظةُ المملوءةُ بالصُّحُفِ والجرائد، وخضر جاويد يستطيعُ أن يعرِفَ بِطريقٍ أولى. شيءٌ وحيدٌ مُبهَمٌ بينهما هو الَّذي جعلَ بروانة تأتي إلى القبو بعدَ هكذا ليلةٍ مرَّتْ عليها. لم يكُنْ عندَ أخيها شكٌّ في أنَّها لم تكُنْ قد سمِعَتْ كلامَه. لأنَّهُ لو كانَ يعتقِدُ أنَّ حصولَ ذلكَ لكانَ عليهِ أن يتعجَّبَ كيف لم تعُدْ بروانة ثانيةً وهي تغلي لتُعانِدَهُ وتتمرَّدَ عليه. أمّا عن بروانة نفسِها ولِمَ عادَت ونزلتْ إلى القبو بعدَ تلك اللّيلةِ المُضطرِبَةِ الَّتي قضتها وسألتْ أخاها عمَّا يُريدُ من الخارِجِ لِتجلِبَهُ له فإنَّ هُناكَ لُغزاً رُبَّما يُحسُّ بِهِ الكولونيل أكثرَ من البنتِ الصَّغيرةِ نفسِها. ذلك أنَّ البنتَ على أثَرِ المُجادَلَةِ الطَّويلةِ الَّتي دامت طوالَ اللَّيلِ في نفسِها سيطَرَتْ على نفسِها وتغلَّبَتْ على خوفِها من الموتِ فهيَ لذلِكَ كانت تهدفُ من مُقابَلَتِها لأخيها أن تجعَلهُ يتغلَّبُ على أوهامِهِ بِشأنِها؛ وأن

يُراقِبَ الضَّيفَ بانتباهٍ أيضاً. ورُبَّما بنيَّةِ التَّحدِّي أظهَرَتْ هذا الخُلُقَ السَّيِّئَ لِخضر جاويد إذ ظلَّتْ في القبو إلى أن جاء خضر إلى القبو نازلاً عن الدَّرَج وحينذاك سألت:

. ((وصديقك، هو أيضاً لم يتناول الفطور؟))

. ((لا؛ وأنا لا رغبةَ لي في الطَّعام.))

خضر جاويد، دونَ أن ينظرَ إلى بروانة، سار مستقيماً نحو حمّالةِ الثِّيابِ الخشبيَّةِ ليلبَسَ معطفَهُ وبروانة تنظُرُ إلى الحمائلِ على كتفهِ في تفحُّصٍ جسور. لكنَّ أمير خفضَ رأسَهُ؛ كأنَّهُ لا يردُ أن يجعَلَ في خاطِرِهِ محلّاً لأحدثِ صورةٍ لأختِه وكان يُفكِّرُ في نهايةِ آخِرِ عبارةٍ كان خضر جاويد قد أكَّدَها.

. ((خطيرٌ عليها؛ خطيرٌ جدّاً!))

صوتُ خضر راحَ يتردَّدُ في قحفِ رأسِ أمير وقد أحسَّ أنَّ بروانةَ خفيفةٌ وهي تصعدُ الدَّرَجَ إلى الأعلى وعلاوةً على خفَّةِ صوتِ أقدامِها، كان يسمعُ صوتَ احتِكاكِ محفَظَتِها الكُحليَّةِ، وقد كانت بلاستيكيَّةً، على بَدَنِها وفي نفسِ الَّحظَةِ أحسَّ أنَّ خضر صارَ جاهِزاً ويتهيَّأُ للذهاب، وبكلِّ ما كانَ في الأمرِ من صعوبةٍ رفعَ رأسَهُ فرأى خضر جاويد وهو يضعُ قدمَهُ على أوَّلِ درجَةٍ من الدَّرَج ليعقِدَ خيطَ حذائه.

صوتُ بابِ المنزل، دليلٌ على أنَّ بروانة قد خرجت وأمير أمسكَ حافَّةَ سريرِهِ بيديهِ ونهض. خضر سوَّى معطفَهُ وصعَدَ على الدَّرَج. وضعَ أمير معطفَهُ المطريَّ على كتفَيهِ وسارَ خلفَ خضر في الباحةِ وفتحَ لهُ البابَ نِصفَ فتحةٍ ليخرُجَ وخَرَجَ خضر وأمير استطاعَ إلقاءَ نظرةٍ للحظَةٍ في الزقاق. وفي تصوُّرِهِ أنَّ أقدامَ بروانة كانت سريعةً رغمَ أنَّها ناعِمةٌ وقصيرة. جعلَ أمير الزَّنجيرَ خلف الباب وأرادَ الاتِّجاهَ إلى جانبٍ من القبو؛ لكنَّهُ توقَّفَ لحظَةً في مكانِه. ارتجافٌ غريبٌ بدأ من داخلِه، ارتعاشٌ ناشئٌ عن الهَولِ، الهولِ الَّذي يستحيلُ أن يكونَ أخرسا. المطرُ الَّذي ظنَّ للحظَةٍ أنَّهُ توقَّفَ عاودَ الهطْلَ من جديد، وقد ظلَّ واقِفاً تحتَ المَطَرِ مَحنيَّاً ومصدوماً بالموت. لِأيَّةِ مُدَّة؟ هو نفسُهُ لا يعلم. فقط كان يحسُّ أنَّ الكولونيل واقفٌ خلفَ زُجاجِ نافِذَةِ غُرفَتِه وينظُرُ إليهِ من وراءِ الزُّجاجِ الّذي كان يُغطِّيهُ غبارُ الدُّخان وينتظِرُ عودَةَ أُختِه، وكان يحسُّ بِأُبَّهَةِ الكولونيل كحالةِ أمير نفسِهِ تماماً حين كانَ واقِفاً خلفَ النَّافذةِ نفسِها وهو ينظُرُ إلى

الكولونيل إذ يدخُلُ الباحَةَ بعدَ قتلِ أُمِّه وسيفُهُ يقطرُ من دمِها وهو واقفٌ تحتَ المطر. مع فرقٍ هو أنَّ الكولونيل لم يكُنْ محنيّاً مصدوماً بالموت ولم يكن يريدُ إخفاءَ جنايتِهِ الَّتي اقترَفَها عن أحد ولم يكُنْ بِهِ خَجل. أمير أيضاً لم يكُنْ خجلاً ولم يكُنْ يريدُ أن يكونَ خجِلاً ، لأنَّهُ يعلمُ أنَّ الخَجَلَ حسٌّ ناشئٌ عن سلامةِ الرُّوحِ وهو لم يكن يحسُّ بالخجلِ تلك اللّحظة، لكنَّهُ لم يكن قادراً على رفعِ رأسِهِ كذلك، محالٌ أن تقعَ عينُهُ على عينَي الكولونيل اللّتينِ لم يكن قادراً على أن يفهمَ بماذا تحسَّانِ وما هي حالتُهُما لأنَّهُ على كلِّ حالٍ سيرى فيهما تجدُّدَ وميضِ ألفِ كابوسٍ من الكوابيسِ الَّتي تدورُ وتسحقُ في قحفِ رأسِه، لتقولَ أنَّ بروانة لا تُريدُ أن تعودَ ولن تعود!

((أستطيع... أستطيعُ أن أتدخَّل. أستطيعُ أن أقسوَ، أستطيعُ أن أُنجزَ الأمرَ بقسوة. كان الحقُّ معي لأكونَ قاسيا. كانَ عليَّ أن أكونَ قاسيا. في النِّهايةِ هم كانوا أولادي. أرى أنَّ كُلَّ واحِدٍ منهم كان شخصاً لنفسِه... أرى أنَّ...ها؟ مُرَّ لأفتِّشَ مرَّةً أُخرى. كفن، معول، مجرفة وكفن. طريقٌ وزقاق...الزُّقاقُ المستقيمُ الَّذي نهايتُهُ وختامُهُ في المقبرة. ما الوقتُ وكم السَّاعة؟ ليسَ مثارَ قلق. إلى الآنَ لم ينطلِقْ صوتُ أذانِ الصُّبْحِ من المناراتِ العاليةِ للمساجِد. المطرُ فقط...المطر...))

المطرُ ينصبُّ انصِباباً وفي نهايةِ الزُّقاقِ، على الكولونيل أن يكونَ مُنتبِهاً مُراقِباً للطَّريقِ الّتي سيسلُكُها. يجبُ النُّزولُ بِحَذَرٍ في المنطقةِ الوعرةِ خارِجَ فمِ الزُّقاق، وعبورُ الحفرةِ المليئةِ بالطّينِ والوحلِ وصعودُ المنطقةِ المُرتفِعةِ كأنَّها تلَّةٌ وهناك، على التَّلَّةِ يأخُذُ نَفَساً ثُمَّ يسير مُستقيماً باتِّجاهِ المقبرةِ والمغسَلِ حيثُ المأمورانِ بانتظارِهِ ولا بُدَّ أنَّهما قد تعبا وتألَّما كثيراً ويجبُ أن يكونَ مُتجهّزاً قبلَ أن يقومَ علي سيف وربّما ذاك الآخرُ أيضاً بسؤالِهِ عن سببِ تأخُّرِه، وسوفَ يوضِحُ لهما ((حبيبي، ولدي، أنا صرتُ عجوزاً والطَّريقُ فيهِ الكثيرُ من الوعورةِ، والمسافَةُ ليست قصيرةً حتّى...)) وسوفَ يصِلُ في النِّهايةِ إلى إفهامِهِما أنَّ مثْلَ هذا العملِ ومثْلَ هذه الصُّعوباتِ ليست سهلةً لشخصٍ في عمرِهِ بل شاقَّةٌ جدَّاً ((أمَّا بخصوصِ أمير فلن أتكلَّمَ معهُما، أيَّةَ كلمة! رغمَ أنَّ التَّكلُّمَ عنهُ لا يجبُ أن يخلُقَ إشكالاً، لأنَّ أمير موجودٌ انفِعاليٌّ عمليّاً. لكنْ الخوف، الخوفُ والمَيلُ للاختفاءِ والابتعادِ عن الألسُنِ والأنظارِ، يصيرُ لي طبيعةً شيئاً فشيئاً، لقد صار.)) خوفٌ خفيٌّ ومخفيٌّ، كان تجسُّمَ أمير. إنَّهُ شيءٌ أسوأُ من تآكُلِ الرُّوحِ يجعلُ المرءَ أجوفاً، إلى حدٍّ أن يجعلهُ، وبِمُجرَّدِ تنفُّسِهِ والإحساسِ بِبَدَنِهِ، يحسُّ أنَّهُ مُتَّهَمٌ ومُقصِّرٌ وحتّى مُجرم. وبعبارةٍ أوضَحَ كما لو كانَ مُجرماً، لكنْ مُجرماً ينتظِرُ أن لا يثبُتَ عليهِ الجُرمُ، وهو في داخِلِ نفسِهِ يسعى دائماً

خلفَ موردٍ أبسطَ من الجُرمِ الَّذي سوفَ يُتَّهَمُ بِهِ يوما. وهكذا فإنَّ الكولونيل كان يحسُّ أنَّ أمير في نفسِهِ مُجرم؛ مهما ظلَّ مُختبئاً في زاويةٍ وضائعاً في انفعالاتِه. أمّا أمير، فهو نفسُهُ كان يحسُّ أنَّهُ متَّهمٌ بجُرمٍ، مُجرمٌ بِجُرْمٍ لابُدَّ وأنَّهُ ارتكبه. فلماذا لم يُقرِّرْ أن يجعلَ نفسَهُ على واحدةٍ من تلكَ النَّقَّالاتِ الَّتي تحملُ إلى جِهَةِ الموتِ أمثالَهُ مُعَبَّأً في قماش. أو يخرُجَ على نقَّالةٍ تُثبِّتُهُ عليها حبالٌ مفتولةٌ وهو الَّذي يضمحلُّ تدريجيَّاً في رطوبةِ القبو من منزل والدِه. فهو مجرمٌ بأيِّ وجهٍ ولا بُدَّ من أن يكون هناكَ تكفيرٌ ملموسٌ واقعيٌّ عينيٌّ لجُرمِهِ المبهَمِ في مستقبلِ عمرِهِ في يومٍ ما ولو حتّى بقتلِ نفسِه. والكولونيل يحسُّ بنفسهِ مجرماً أيضا. مُجرِمٌ بالتَّمهيدِ لأولادِهِ لتشخيصِ **تكونُ أو لا تكون.** هو يحملُ جرمَ وإجرامَ أولادِهِ واحداً واحِداً على كتفه، وفي حالةِ أمير عليهِ علاوةً على الأبوَّةِ جُرمٌ آخرُ هو تقصيرُهُ وتركُهُ لابنهِ ليعتزِلَ في القبوِ ويقيمَ فيه. فهو. رغم أنَّه كأبٍ لم يرتكبْ مخالَفَةً. يتآكَلُ داخِلَ نفسِهِ ويبكي لأنَّهُ ساهَمَ بِشَيءٍ في المسيرِ المُعاكِسِ وكان ينتظِرُ لحظةَ المجازاةِ لنفسِهِ بلا إرادةٍ منه، ولم يكن يخفي ضياعَ نفسِهِ لاحتمالِ أن ينفَدَ تحمُّلُهُ لِشِدَّةِ التَّعَبِ والعناء وأن تحينَ لحظَةُ المُجازاةِ لِنفسِه، سواءً بخنقِ وَلَدِهِ أو خروجِهِ من البيتِ عُرياناً وأن يدورَ حولَ المُستشفى الوحيدِ في المدينةِ الَّذي كان سيُفتَحُ أخيراً والَّذي طبيبُهُ النَّفسيُّ الوحيدُ موجودٌ في مستشفى المجانينِ ومُتَّهَمٌ ببيعِ الوطنِ وهو تحت العلاجِ والتَّأهيل. وحتّى هذهِ اللّحظةِ فقد كان موفَّقاً للمداراةِ بِشأنِ أمير ومعضلته وكان قد جعلَ ذِهنَهُ مُهيَّأً في التَّصادُماتِ المُحتَمَلَةِ مع الآخَرين، مهما كانت خرساءَ وصامتةً، ليعتبِرَ أمير غيرَ مرئيٍّ وغيرَ موجود، وأهمَّ من ذلكَ أن يُقدِّمَ لِنَفسِهِ سلوكَ ورُدودَ فِعلِ أمير وكأنَّها غريبةٌ عنهُ وبعيدةٌ منه. وأحياناً وفي منطقةِ النُّفوذِ من هكذا ذهنيَّةٍ كم حدثَ واتَّخذَ قراراً فيهِ عداوةٌ وخُصومةٌ مع ولدِه، ولو توقَّفَ وتأمَّلَ في مثلِ هذِهِ الحالةِ الرُّوحانيَّةِ لَوصلَ إلى نتيجةٍ مفادُها أنَّ عِلَّةَ مثلِ هذهِ الحالةِ الرُّوحانيَّةِ تكمنُ في حبِّ النَّفس، حبِّ الذّات، ومن كشفِ مثلِ هذهِ الطَّبيعةِ والغريزةِ البشريَّةِ بِشكلٍ كاملٍ في نفسِهِ، كان يضحكُ فجأةً، وكم من المرَّاتِ كانَ يضحكُ في خلوتِه بقهقهَةٍ واضحةٍ ولا يستطيعُ الآنَ تذكُّرَ جميعِ تلكَ المرَّات بشكلٍ دقيقٍ وقطعي. وبعدَ المرورِ بتلكَ اللّحظاتِ كان يسألُ نفسهُ عمّا يطلبُ بحفظِ حبِّهِ لنفسِه، أنجاةَ نفسِه أو نجاةَ شيءٍ في نفسِه؟ وكان يأخذُ الجوابَ عقليّاً وعمليّاً أنْ لا شيء، أمَّا غريزيَّاً فكُلَّ شيء. وهذه النَّظرةُ الغريزيَّةُ كانت توحي لهُ أنَّ الأسيرَ عندهُ الاستعدادُ دونما قواعد واعتباراتٍ لرؤيةِ نفسِهِ والإحساسِ بغُربتِهِ عن كلِّ ما عدا نفسهِ وهو ما يقوّي ثباتهُ وعزيمتَهُ إلى حدِّ الجنون ((أنا أصيرُ كلَّ شيء وقتَ كلُّ شيءٍ لا يأخذُ منّي شيئاً. أنا أصيرُ دنيا

وقتَ الدُّنيا تطلُبُني. أنا أصيرُ تلكَ النَّملةَ الَّتي تخبطُ بيديها ورجليها في الماءِ وتصرُخُ جَرَفَ الماءُ الدُّنيا، وإلى أن أصلَ إلى حدِّ العَدَمِ فإنَّ كُلَّ عَمَلٍ منّي مُجازيّ، حتّى خنقُ ولدي وخروجي عُرياناً من بيتي وسعيي بجانبِ المُستشفى الوحيدِ للمجانينِ في مدينتنا الّذي... لكن... أبداً لن أفقِدَ السَّيطَرَةَ على أعصابي. لا، أنا سوف أسيرُ بأقدامِ أولادي إلى نهايةِ الطَّريق، أنا سوفَ أتحمَّلُ الألم. ولن أنسى أبداً أنَّني جُندي.))

. ((نعم، أنا جنديٌّ واحدٌ، فداك!))

. ((نحنُ جميعاً جنودٌ أيُّها الضّابط، أليسَ التَّوضيحُ كافياً؟!))

أمير كان مستيقِظاً حين وصلَ الكولونيل إلى المنزل. لم تكنْ زوجتُهُ قد أتتْ بعد. تأخُّرُ عودةِ فروز إلى المنزلِ كان بحُكْمِ عادةٍ ثانويَّةٍ واضِحةٍ في الواقِع، عادةٍ كان من المُمكنِ أخيراً للكولونيل ومع تقدُّمِ عُمُرِهِ أن يراها بصورةٍ عادةٍ مُعتادة. إدراكُ هذا الخَطَرِ، خطرِ أن يصيرَ كلُّ شيءٍ عاديّاً، رُبَّما لم يكنْ دونَ تأثيرٍ في التَّصميمِ النِّهائيّ للكولونيل. لكنَّهُ ينتظر. كانت فروز تظهرُ طِبْقَ العادةِ بعدَ منتصفِ اللّيلِ بقليلٍ وهي غالباً ثمِلَةٌ وتسقُطُ في فراشِ النَّومِ مثلَ نعشٍ غريب، وكأنَّها على يقينٍ من أنَّ أيَّ سرٍ من حياتِها اللّيليَّةِ لا يخفى على زوجِها. فقط بعضَ اللَّيالي كان الكولونيل ينتبهُ إلى أنَّها تمدُّ يدَها تحتَ وسادَتِها وتأخُذُ زُجاجَةً صغيرةً فيها أقراصٌ، ولم يكُنْ واضحاً كم قُرصاً كانت تبتلِعُ لتنام.

تلكَ اللَّيلةَ المطيرةَ وفي آخِرِ اللَّيلِ كان الكولونيل قد شربَ إلى حدِّ الموت. أمير كان جالِساً خلفَ طاوِلَةِ الكتابةِ الصَّغيرةِ الخاصَّةِ بهِ وهو يقرأُ كرَّاساتِ دروسِهِ والكولونيل جالِسٌ على حافَّةِ سريرٍ لِشَخصٍ واحدٍ وهو يصبُّ كأساً بعدَ كأسٍ ويفرغُها في حَلْقِهِ وهو نفسُهُ لا يفهمُ ما يعمل، أو بالأصحّ كما يُقالُ يفهمُ ولكنَّهُ يرمي نفسَهُ بِأنَّهُ لا يفهم. يعني أنَّهُ يُلقِّنُ نفسَهُ أنَّهُ لم يفهَمْ شيئاً. لأنَّ الحقيقةَ في ذلك أنَّهُ في مثلِ هذهِ الحالاتِ فإنَّ الإنسانَ يُخفي حدَّ الفهمِ عن نفسِه، وبألفِ حيلةٍ يُحاولُ أن يجعَلَ نفسَهُ تعتقِدُ . ويستطيعُ ويجعلُها تعتقِدُ . أنَّ الاِختيارَ والإرادةَ العقليَّةَ فُقِدا من نفسِه. وهذا في حالةِ ذلكَ العمل، الجنايةِ الّتي صمَّمَ على القيامِ بها وإنجازِها، إمضاءٌ مُسبَقٌ لهذا العَمَلِ في ذِهنِه، وكأنَّهُ قد وضعَ نُقطَةَ النِّهايةِ لِهذِهِ الجناية.

كان الكولونيل يبكي وهو نفسُهُ لا يعرفُ متى وفي أيَّةِ لحظَةٍ بدأ بُكاؤهُ. كان يحسُّ أنَّ عينَيهِ من تأثيرِ الكحولِ وشِدَّةِ مسيلِ الدَّمعِ صارتا مُلتهبتينِ ورُبَّما حمراوَين. صارَ يرى الأشياءَ من حولِهِ غيرَ ثابتةٍ ولا يستطيعُ التَّشخيصَ بِشَكلٍ دقيقٍ، أكانَ أمير ذلكَ الَّذي يجلسُ خلفَ طاولَةِ الكتابَةِ الصَّغيرةِ بجانِبِ النَّافِذةِ أم شخصاً آخر. كذلك لم يكُنْ يستطيعُ تشخيصَ ما إذا كان أمير ينظُرُ إليهِ أو أنَّهُ ينظُرُ فقط في خطوطِ الصَّفَحاتِ أمامَ وجهِه وفقط أُذُناهُ تُصغيانِ لِتسمعا كلامَ والِدِهِ الحادِّ والسَّريع. تلك الكلماتِ المُضطرِبَةَ المُتحيِّرَةَ الّتي كأنَّ شخصاً آخرَ داخِلَ الكولونيل هو الَّذي ينطِقُ بها .. كان الأكثرَ غموضاً من أيِّ شيءٍ آخَرَ بالنِّسبةِ للكولونيل وما لا يستطيعُ أن يتصوَّرَهُ هو بماذا يُفكِّرُ أمير. فقط هو يعرفُ أنَّ أمير يستطيعُ أن يتفهَّمَ وضعَ والِدِه، أو هذا ما يأملُ أن يكون، لأنَّ الكولونيل كان على يقينٍ من أنَّ أمير يعرفُ والدتَه ويستطيعُ أن يعرفَ اضطِرارَ والِدِهِ للسُّلوكِ الَّذي كان قد قرَّرَهُ من قبل. وفي ظنِّ الكولونيل أنَّهُ من الطَّبيعيِّ أنَّ التَّشنُّجَ والفِتنةَ الموجودَينِ في داخِلِهِ وخارِجَهُ ينتقلانِ لأقربِ شخصٍ إليهِ وفي عينِ الحالِ أقربِ وَلَدٍ يتحرَّكُ أمامَ عينيه. ولماذا لا يجبُ أن ينالَ أميرُ سهمَهُ من هذهِ الفاجعة؟ ففي الحالِ نفسِها كانَ إحساسٌ أبكمٌ ينقلهُ للكولونيل شعرُ ولدِهِ المُصفَّفِ المُزيَّنِ وهذا الحسُّ الأبكمُ كان يقولُ أنَّ أمير في قلبِهِ مع أبيهِ وأنَّهُ مواسٍ لأبيهِ ويتمنّى لو كان يستطيعُ مُساعَدَتَهُ في عملِهِ المُقرَّر. هكذا كان يتخيَّلُ الكولونيل ولا يستطيعُ أن يفتَحَ طريقَ ذهنِهِ لخيالٍ آخرَ فقد أحكَمَ العزم. فقد كان يرى كُلَّ قوى الكونِ المخفيَّةِ منها والظَّاهرةِ إلى جهةٍ وفي خدمةِ الجنايةِ الّتي يميلُ ذهنُهُ كمالَ الميلِ لإنجازِها. فدونَ أن يسمحَ لِلَحظَةٍ أو ذرَّةٍ من تفكيرِهِ عن ذِهنِ أمير وفِكرِهِ بأنْ تفتَحَ طريقاً للشَّكِّ إلى قلبِهِ، كان في فِكرِهِ يرى أنَّ أمير يُمكِنُ أن يُعدَّ شريكاً في الجنايةِ إلَّا أنَّهُ يُبقيهِ بعيداً عنها. لأنَّ الكولونيل بِذاتِهِ ليس إنساناً غيرَ مُنصِفٍ وهو من حيثُ حُبُّهُ لِذاتِهِ وغرورُهُ لا يصِلُ إلى دَرَجَةِ الإرضاءِ الكامِلِ لِنفسِهِ فيتوقَّعَ أنَّ ابنهُ في ميلِ قلبِهِ لأبيهِ ومواساتِهِ لهُ تصيرُ يدُهُ مُلوَّثَةً بقتلِ والِدتِه، وهو عَملٌ ليسَ سهلاً للإنسان وحتّى أنَّ تصوُّرَهُ يجعلُ الفِكْرَ يتلاشى. تحتَ نظَرِ الكولونيل كانَ أمير جالساً على كُرسيّ، كان يابِساً وكأنَّهُ قد جمُد بانتظارِ رؤيةِ ما سيحدُث. هذا السُّكونُ نفسُهُ لهُ معنىً منطقيٌّ هو أنَّ أمير كان يُريدُ أن يبقى جانباً ويُراقِبَ ما يجري أمامهُ حتّى ينتهيَ أبوهُ من حلِّ المُعضِلَةِ الماثِلَةِ أمامه.

أخيراً، نهضَ عن حافَّةِ سريرِهِ وبِصعوبَةٍ استطاعَ حِفْظَ توازُنِه وشيءٌ . ربَّما كان كوباً فارغاً . سقطَ وانكسر، والكولونيل ركلَهُ بِقَدَمِه. لا يزالُ واقفاً حُرَّاً بلا قيد وعيناهُ تزدادانِ اسوداداً، مسحَ عَرَقَ جبينِهِ بِكفِّه، وبخُطوةٍ طويلةٍ انتقلَ إلى أمام المدفأة، وضعَ يدهُ على حافَّةِ رفٍّ صغيرٍ أمامَ المدفأةِ وكطِفلٍ لجوجٍ امتلأَ غيظاً بكى. كان يُحِسُّ أنَّهُ لا يملكُ الجُرأةَ على النَّظَرِ إلى عينَيِ الكولونيل في الصُّورة. لأنَّ عينَيِ الكولونيل السَّوداوَينِ تحتَ حاجبيهِ الخشِنَين الأسودَينِ ستكونانِ مُسَلَّطَتَينِ عَلَيهِ عبرَ زُجاجِ إطارِ الصُّورةِ الَّذي لا يعلوهُ الغُبارُ أبداً، ومن العتابِ والتَّوبيخِ فيهما سيحسُّ ليس فقط بالخجلِ بل بالوحشَةِ أيضا. إلى دَرَجَةِ أنَّهُ يستطيعُ أن يضعَ جبهتَهُ على ساقِ حِذائِهِ العسكريِّ وينادي بِأنينٍ كولونيل... كولونيل...

بعد ذلكَ . ولا يعرِفُ بِكم دقيقَةً . كان أن وجدَ نفسَه، أخذَ قُبَّعَتَهُ النِّظاميَّةَ من على سريرِهِ ووضعها بإحكامٍ على رأسِهِ وأخرَجَ السَّيفَ المُعلَّقَ على المِسمارِ من غِمْدِ حمائلِهِ، وتراجَعَ خُطوَةً للوراء، ونظرَ في عَينَيِ الكولونيل غيرِ القابلتَينِ للنَّفاذِ وقالَ بِشَكلٍ مُحكَمٍ:

. ((أقتُلُها، أقتُلُ اللّيلَةَ!))

((لا أعرف، ما أكثرَ ما كانَ منهُ بعدَ تلكَ اللّيلةِ وما كان من أمير من صعودٍ ونزول؟ كم كانَ عندهُ تلكَ اللَّيلةَ من دافِعٍ ليجرحَ جِلْدَهُ ثُمَّ لا يستطيعُ أن يجِدَ ضِمادا. يجِبُ أن يكونَ بعدَ هذا الَّذي كانَ قد حصلَ أنَّ أمير ذَهبَ، تَنَظَّمَ، صارَ إلى مجموعةٍ ثوريَّةٍ، فقدَ زوجَتَهُ، دَخَلَ السِّجْن، وأخيراً ألقى بنفسِهِ في الماءِ والنَّارِ علَّهُ يستطيعُ أن يولَدَ مرَّةً أُخرى ويستطيعُ أن يجِدَ نفسَهُ. وهذا ما لم يحصَلْ بل رُبَّما عكسُهُ ما حَصَلَ وأضاعَ نفسَه. أوَّلاً زوجَتَهُ وبعدَها نفسَه. كم من الظُّروفِ لا يجبُ أن تحصَلَ للإنسانِ في هذهِ الحياة. أظُنُّ أنَّني وولدي بعد ذلكَ رأى أحدُنا الآخَرَ مرَّةً أُخرى في السِّجْن.

الكولونيل وأمير وجدا الفُرصَةَ في السَّنَةِ الأخيرةِ قبل فتحِ بابِ السجونِ ليُحْبَسَ أحدُهُما بِجوارِ الآخَر. أمير كانَ مُشخَّصاً كسجينٍ سياسيٍّ ومُصنَّفاً ضمن ((التَّهديدِ الأمنيّ)). أمّا الكولونيل فجُرمُهُ مُشتَرَكٌ جنائيٌّ وسياسيّ، وفقَ تحقيقِ المخابراتِ العسكريَّةِ . لذلكَ فحتّى مرحلةِ خلعِ رُتبتِهِ وتثبيتِ مُدَّةِ حُكْمِهِ . خَرَجَ الكولونيل من تلقاءِ نفسِهِ من الجيش . ولم يُحولوهُ إلى سجينٍ سياسي. وبعدها صارَ الكولونيل وأمير جنباً إلى جنب وصار الكولونيل يستطيعُ أن يرى ولدَهُ ويعرِفَه على

نحوٍ آخَرَ. نحوِ مُختلِفٍ عن الشَّرائِطِ العاديَّةِ وليسَ فقط كولد، بل في مقامِ رجُلٍ مُستقِلٍّ ولهُ حقٌّ واختيارٌ وإرادةٌ ومصيرٌ خاصٌّ بِه؛ وحقُّ اختيارِ المصيرِ شيءٌ يستحسِنُهُ الكولونيل وليسَ عندهُ أيُّ أسف بشأنِ مُمارَسَتِهِ، حتّى من أصغَرِ أولادِهِ، يعني بروانة. والآنَ صارَ قلبُهُ مشغولاً بدونِ انقطاعٍ بِفِكرةِ هل النِّهايَةُ المُفجِعَةُ لحياةِ كُلِّ واحَدٍ من أولادِهِ كانتْ مُحصَّلَةً لِمسلكِهِ وطريقتِه؟ ولكنْ لا، لا يُمكِنُ أن يُلقى هذا على الرَّجُلِ العجوز. لأنَّهُ مُتيقِّنٌ ويعتقِدُ أنَّهُ نَقَلَ أكثَرَ الحُقوقِ طبيعيَّةً لأولادِه، يعني حقَّ اختيارِ حياتِهِم؛ ولم يكُنْ يعملُ ليفرِضَ عليهِم أحكامَ حياتِهِم وكانَ يُريدُ من كُلٍّ منهُم أن يختارَ حياتَهُ بِنفسِهِ وهذا في نَظَرِ الكولونيل لم يكُنْ بِمعنى لا أُبالي، ولا هُم كانوا لامُبالين. وفي النِّهايةِ فإنَّ باعثاً في داخِلِ الكولونيل جعلهُ يحسُّ بنوعٍ من ردَّةِ الفعلِ داخلَهُ على الحياةِ الَّتي أحسَّ أنَّهُ يُحمَّلُها. حيثُ كان لديهِ اعتقادٌ ممزوجٌ بالغُبنِ أنَّهُ لم يكُنْ لهُ أيُّ اختيارٍ في حياتِهِ أبدا. بل كان مُسَيَّراً ومحكوماً منذُ أن وُجِدَ وللسَّبَبِ عينِهِ يرى أنَّ الإنسانَ ناقِصٌ أيضا. وبما أنَّهُ في خلقِهِ محكومٌ فهو نصفُ إنسانٍ ولن يستطيعَ أن يعرِفَ نفسَهُ حتّى يكونَ حاكماً ومُختاراً، ولن يستطيعَ أن يعرِفَ وظيفَتَه، ولن يستطيعَ من قابليَّةِ نفسِهِ وظروفِها أن يعرفَ شيئاً؛ لأنَّ الإنسانَ المحكومَ في الواقِعِ إنسانٌ ناقِصٌ، ولا يُمكنُ إطلاقِ اِسمٍ وعنوانٍ مُعتَبَرَينِ على شيءٍ ناقِصٍ وليسَ لهُ وظيفةٌ كاملة. وكذلكَ الإنسانُ فإنَّهُ، في حياتِهِ وموتِهِ سواءً، غيرُ معروفٍ ما كانَ وما يكون؛ فيُمكِنُ أن يكونَ شيئاً لا يقعُ في التَّصوُّر. فالكولونيل كان مُطمئنّاً إلى أنَّهُ نفسَهُ ليس هو نفسَ ذلكَ الشَّخصِ الَّذي يُفكِّرُ والَّذي سيصدُرُ بِشأنِهِ الحُكم. وحيناً كان يحسُّ أنَّهُ نفسَهُ هو الَّذي حَكَمَ على نفسِه، فكيفَ يستطيعُ أن يخفي حقيقةَ نفسِهِ عن نَظَرِ الآخرين، وأخيراً كيفَ يستطيعُ أن يعرِفَ من هو ذلكَ المحكومُ عليهِ في الواقِعِ وقد صارَ على كتِفِهِ حِمْلُ حُكْمِ آلافِ السِّنين. لكنْ لماذا عليهِ أن يفسِحَ المجالَ لِهذا الظَّنِّ المؤذي وأنَّهُ بنقلِ أكثرِ الحُقوقِ طبيعيَّةً لِأولادِهِ صارتْ يدُهُ داخِلَةً في الجنايةِ الَّتي سمحَ لهُم بها؟ لقد كان من السَّهلِ أن يسعى في رعايةِ أولادِهِ بما أمكنَ ليصيروا ناضِجين وأن يعملَ في مُراقَبَتِهِم إلى حدِّ الإفراطِ في ذلك، لكنَّ ذلكَ مضى.

((...على الأقلِّ يصيرُ أحدُهُم يُفكِّرُ بنفسِه. أخيراً ليسَ كُلُّ حِمْلِ التَّاريخِ على كتِفَيك! أنا، أنا لا أستطيعُ التَّحمُّلَ إلى هذا القدرِ الّذي تتصوَّرون.))

لكن جلبوا خَبَرَ أمير إليهِ من السِّجْنِ وهو في السِّجنِ مع مَلَفٍّ ضمنَهُ سكِّينٌ عليها دم.

((سكّين؟! سكّين عليها دم؟ يعني أمير قتلَ شخصاً بهذه السِّكّين؟))

((نعم كولونيل. ألستُم على عِلْم؟))

. ((السِّكّين، هذه السِّكّين تعرفُها؟!))

نعم يعرف. كانت السِّكينُ وعليها آثارُ الدِّماءِ مُقابِلَ عينَي أمير موضوعَةً على طاولةٍ معدنيَّةٍ رصاصيَّةِ اللّون. بجانبِ الطَّاولةِ كان يقفُ السَّيِّد رسول خضر جاويد وإلى جانِبِهِ يقفُ رجُلٌ آخرٌ يُشبِهُ الإنسانَ الآليَّ وكانت أسنانُهُ الصّناعيَّة كأنَّها تتصادَمُ في فكِّهِ وتصطكُّ وتتقدَّمُ تارةً وتتأخَّرُ تارةً. وكان طويلاً وسميناً وقويَّاً وأحدَبَ الظَّهْرِ قليلاً وشكْلُ وجهِهِ مُكَعَّبٌ وشعرُهُ قصيرٌ تُرابيٌّ وعيناهُ ضيّقتانِ وغيرُ مُضيئتين وكان في مجموعِ صِفاتِهِ على هيئةٍ هي بنظرِ أمير كما يُتصَوَّرُ الشَّيطان، ورُبَّما كانت الحُمّى الّتي تُلهِبُهُ منه. رُبَّما لم يكُنْ قصدُ ذلكَ الشَّيطانِ أن يرعبَ أمير أو أن يسخَرَ منهُ، غيرَ أنَّ التَّهديدَ بِعينِهِ كان موجوداً في ما كان يصنعُ من تقديمِ وتأخيرِ أسنانِه الصِّناعيَّةِ وحالةِ فكِّهِ وفمِهِ دونَ أن يكونَ هناكَ من حاجَةٍ لذلك لأنَّ ذلكَ الشَّيطانَ بِأكمامِهِ المرفوعةِ ويَدَيهِ الضَّخمَتَينِ المُصابَتَينِ بالبُهاق والمليئتينِ بالبُقَعِ وبِجبهتِهِ القصيرةِ ونظرةِ عينِهِ الزُّجاجيَّةِ وقامتِهِ الطَّويلةِ الَّتي تصِلُ إلى جوارِ السَّقفِ وكتِفَيهِ الَّتَينِ تكادانِ تملآنِ فضاءَ الغُرفَةِ وتحجُبانِ النَّظَرَ، كانَ على قدرٍ كافٍ من المهابةِ والسُّخرية. لم يكُنْ معهُ سَوطٌ بِيدِه، رُبَّما لأنَّهُ لم يكُنْ مُحتاجاً إليه. لكنَّ أمير كان يرى سوطاً يُشبِهُ حيَّةً بَشِعَةَ اللّونِ مُعلَّقَةً على مسمارٍ على الجدارِ قُربَ السَّرير. وهو قد انقطَعَ نَفَسُهُ وتورَّمَ بطنُهُ وكأنَّ صخرةً ثقيلَةً تضغطُ على صدرِهِ وعرقُهُ اللّزِجُ جعلَهُ يحسُّ بالاختناق وكان قلبُهُ يتمنّى لو يستطيعُ النَّظَرَ إلى الخارِجِ من كوَّةٍ في الجِدارِ أو من فُتحةٍ في السَّقفِ ولو بمقدارِ نَفَسٍ قصيرٍ ليعرِفَ كم هو الوقتُ من اللّيلِ أو النَّهار. ولكنَّ الغُرفَةَ لم يكُنْ بها كوَّةٌ ولا فُتحَةٌ كما أنَّها لم تكُنْ تملكُ باباً بنظرِ امير. وهي قطعاً لها بابٌ ولكنَّ أمير لا يستطيعُ أن يراهُ أو أن يُشَخِّصَهُ. حيثُ لم يكن هناكَ إلا مصباحٌ واحدٌ مُضاءٌ وكان ضوءُهُ مُسلَّطاً على أمير وسريرِه؛ وذلك الشَّيطانُ الرَّهيبُ كان وحدهُ المُمكِنَ الرّؤيةِ بوضوحٍ تحتَ ضوءِ ذلكَ المِصباح. كان منبَعُ النُّورِ مُركَّزاً أكثَرَ على تلكَ السِّكّينِ المُلطَّخةِ بالدَّمِ الموضوعةِ على الطَّاولةِ المعدنيَّة حتّى يستطيعَ أمير أن يرى جميعَ جُزئيَّاتِها وهيئتَها، وكان يرى، حتّى كأنَّهُ كان يرى محلَّ بَصَماتِ منصور سلامي على مقبضِ السِّكّينِ العظميّ النِّيليّ اللّون! وإن كان

إدراكُ مثلِ هذهِ الجُزئيّاتِ أو تشخيصُها يُمكِنُ أن يكون ناشئاً عن تلقين، تلقينٍ للنَّفسِ تحتَ ضغط التَّعذيبِ والهول.

. ((السّكّين... سألْتُ! هل تعرِفُ هذهِ السِّكّين؟))

. ((لماذا...كنتُ رأيتُها.))

.((أيَّ وقت؟ ليلاً، نهارا، أيَّ زمان؟))

. ((لا أعرف. لا أعرف. فقط أتذكَّرُ أنَّني كنتُ قد رأيتُها...هذا فقط.))

. ((أين وبيدِ من ؟))

. ((في يدِ واحِدٍ من أترابي كان شابّاً))

. ((ما اسمُه، ذلكَ الّذي هو من أترابِك؟))

كأنَّ ذلكَ الشَّخصَ المهيبَ يريدُ إعطاءَ فرصَةٍ للتَّأمُّلِ لأمير إذ قامَ بنفسِهِ بإشعالِ سيجارتِهِ الذَّهبيَّةِ من نوعِ ونستون ثمَّ وضعها في زاويةِ شَفَتَيهِ وجلسَ على كُرسيٍّ معدنيٍّ بجانبِ الطَّاولة وشرعَ بِأخذِ الأنفاسِ من سيجارتِه. وبينَ كلِّ نَفَسٍ ونَفَسٍ كان يُقدِّمُ ويؤخِّرُ أسنانهُ المصنوعةَ دونَ أن يرفعَ نظرهُ الزُّجاجيَّ والمُستهجَنَ (كما كان يحسُّ أمير) عن وجهِه. وكانَ قلبُ أمير يشتهي واحدةً من تلكَ السَّجائر كسيجارةِ تعارُفٍ لتكونَ في تلكَ الحالةِ أفضلَ سيجارةٍ حصلَ عليها في عمره، ولكنَّ هذا لم يحصلْ وأمير بعدها فهمَ أنَّ المُحقِّقَ يرغبُ في أن يصيرَ الملفُّ واضِحاً قبلَ أن يعطيَ السَّيجارةَ للمُتَّهَمِ وأنَّ ذلكَ الوقتَ كان وقتَ إيذاءِ أمير لإيضاحِ الملف. أمير كان مُحطَّماً تماماً ولا يعرِفُ كيفَ يستطيعُ إيضاحَ هذا الملفّ. الرَّجُلُ المُرعِبُ المهيب لم يكن قد استهلك أكثرَ من نِصفِ سيجارتِهِ حينَ أظهرَ ميلاً لإعطاءِ الجزءِ الباقي منها لأمير ليُكملَه، لكنَّهُ وضعَها تحتَ أخمصِ حِذائِهِ الكبير وسألَ مُجدَّداً:

. ((ما اسمُهُ ذلكَ الَّذي هو من أترابِك؛ اِسمُهُ؟))

أمير أجابَ وقال: ((منصور سلامي)) ودون توقُّفٍ استفسَر ((خمامي، نور أقدس خمامي... زوجتي؛ لماذا اعتقلوها؟ الآنَ قولوا لي أخيراً!))

ذلك الرَّجُلُ المهيبُ لم يُعطِ جواباً، وأمير بعد أن أفشى اِسمَ منصور سلامي، أعطى لنفسِهِ الحقَّ بالسُّؤالِ عن مصيرِ زوجتِه، لكنَّهُ لم يسمعْ جواباً على سؤالِه، كما لم يُشاهِدْ غضباً لِذلِك. بعدها أدركَ أنَّ المُتَّهَمَ لا يحقُّ لهُ أن يسألَ، عليهِ فقط أن يُجيب. أمَّا لماذا لم يغضبِ الرَّجُلُ المهيب فالسَّبَبُ أنَّهُ نفسُهُ لم يكنْ قادراً على التَّفكيرِ فيما كانَ قد سمعهُ أو أن يتَّخِذَ قراراً لذلِكَ تغافَلَ عن أنَّهُ يجبُ أن يكونَ عصبيَّاً مع المُتَّهَم، ولأنَّ حواسَّهُ كانت قد ذهبتْ إلى مكانٍ آخَرَ، إلى شخصٍ آخَرَ لا بُدَّ وأنَّ فِكرةً لاحتْ لَهُ بِشأنِهِ في التَّحقيقِ واتَّضَحَ لهُ الأمرُ أكثرَ وصمَّمَ على اتِّخاذِ إجراءٍ ما((وأنا قد رأيتُ ذلكَ الرَّجُلَ وقد تمعَّجَتْ جبهتُهُ كأنّما يضغطُ على تفكيرِه)) ورأيتُ الأتلامَ في جبهتِهِ القصيرةِ تزدادُ عُمقاً وعينيهِ تضيقانِ حتّى صارَ من الصُّعوبةِ بِمكانٍ رؤيةُ بياضِ عينيه. كان مفهوماً أنَّ ذلكَ الرَّجُلَ لا يستطيعُ التَّفكير، وأميرُ على ما بِهِ من الحُمّى والضَّعفِ والألَمِ وتَعَبِ حِملِ الموتِ يستطيعُ أن يفهَمَ أنَّ ذلكَ الرَّجُلَ يضغطُ على مُخِّهِ الثَّقيلِ ويضغطُ بِقوَّةٍ ليستطيعَ أن يتذكَّرَ شيئاً بِأمرٍ ما ولا يُوفَّقُ لذلك؛ وكانَ عندهُ اليقينُ أنَّ ذلكَ الرَّجُلَ لا يستطيعُ بتفكيرِهِ معرِفَةَ ما إذا كان المُتَّهَمُ واقفٌ على ما يدورُ في عقلِهِ وليسَ عندهُ أمَلٌ في أنَّ مُتَّهَمَهُ يستطيعُ أن يجيبَ عن سؤالِه. هنا أخرَجَ سيجارةً طويلَةً أُخرى من عُلبةِ السَّجائرِ الذَّهبيَّةِ ودونَ أن ينطقَ بِكلمةٍ أو يبدي عداوةً خرجَ من بابِ الغُرفَةِ الَّذي كان غارِقاً في الظَّلامِ المحض، وبما أنَّ أمير لم يكنْ سمِعَ الصَّوتَ الخشِنَ للباب ((فمن المِمكنِ أنَّهُ كما أستنبِطُ كانَ قد دَخَلَ في زاويةٍ مُظلِمَةٍ حتّى يكونَ في وضعيَّةٍ غيرِ مرئيَّةٍ وينظُرَ إليَّ وقد سَقَطْتُ كالمشلولِ على السَّريرِ الفِضِّيّ)) لأنَّ بقيّةَ أجزاءِ الغُرفَةِ ما خلا هذا الجُزءَ كانت مُضاءةً. أمّا الصَّوتُ الخشِنُ للبابِ الَّذي لا أعرِفُ إلى أيَّةِ جِهةٍ يفتحُ ((لأنّي كُنتُ قد ضيَّعتُ الجِهاتِ الأصليَّة)) فكان يدلُّ على خروجِ رجُلٍ منهُ للخارِج. وحينَ سمِعَ بعد دقائق ذاتَ الصّوتِ الخشِنِ للبابِ صارَ على يقينٍ كامِلٍ أنَّ المُحيطَ الَّذي هو فيهِ ليسَ خلاءً كاملاً وأنَّهُ يتَّصِلُ بالعالَمِ الخارِجيّ بواسِطَةِ باب ((وهمٌ آخرُ، وهمٌ، كأنَّهُ كان مُغلَّفاً بالوهمِ وإلّا فكيفَ كان مُمكِناً لهُ أن يتصوَّرَ غُرفَةً بلا باب؟))

الآنَ شخصانِ كانا يقفانِ بجانِبِ السَّريرِ الفِضّيّ، في جِهَةِ النُّورِ، قُبالةَ عينَي أمير. أحدُهُما خضر جاويد والآخَرُ ذلكَ الرَّجُلُ المهيبُ الَّذي ألقى أمير في الحالةِ الَّتي هو فيها، ومعلومٌ أنَّهُ يمتلِكُ اِسماً أيضاً. وكم كانَ هذانِ الاثنَانِ مُختلِفَينِ أحَدَهُما عن الآخَرِ من حيثُ القدُّ والشَّكلُ. كلاهُما كانا في الضَّوء، كان وجهُ خضر جاويد أكثرَ وضوحاً، ووجهُ الوكيلِ السَّابِقِ . السَّيّد

رمضاني . أكثرَ إبهاماً. ((لأنَّهُ كان أعلى من القُبَّعَةِ المعدنيَّةِ للمصباح)) وأمير كان يحسُّ وهو ينظُرُ إليهما أنَّهُما ممسوخانِ وكان ينظُرُ إليهما بِعينَيهِ وهو يتوهَّمُ أنَّهُما يلعبانِ لُعبَةَ الإبطِ والقوس على مرأىً منهُ ويستطيعُ أن يُدرِكَ بِأيِّ قصدٍ توجَّهَ السَّيِّد رمضاني إلى الخارِجِ وجاءَ بخضر جاويد معه كما كان يحسُّ أنَّ خضر جاويد سيكونُ عصبيَّاً جِدَّاً، حيثُ أنَّهُ كمجنونٍ من المجانينِ أخذَ السِّكّينَ المُلَطَّخَةَ بالدَّمِ عن الطَّاولةِ ووضعَ زُهابَتَها على جذرِ حلقومِ أمير وقال:

((في هذا المكانِ أقتُلُكَ يا امرأةَ الكلب؛ أعطِني اِسمَ الرَّجُلِ يا ابنَ العاهِرة؟!))

((مرَّةً أُخرى لم يكُنْ ذنبي أنَّهُم قتلوا منصور سلامي أو شخصاً آخَرَ بِهذا الإسمِ منذُ أحدَ عشرَ شهراً أو لم يقتلوه. فأنا غيرَ ما كنتُ قد قُلْتُ لا أعرفُ شيئاً.)) أمّا ما كان يعرفُهُ أميرُ وقالهُ فلم يكُنْ شيئاً يستطيعُ أن يجلبَ الرِّضا لِخاطِرِ رسول خضر جاويد؛ فقامَ بِرَشِّ قافِلَةٍ من ألفاظِ الفُحشِ في الهواءِ وراءهُ، وسلَّمَهُ مرَّةً أُخرى إلى يدِ السَّيِّد رمضاني ليُخرِجَ الحرفَ من لِسانِه؛ وخرَجَ مُسرِعاً مثلَ كلب ((أيَّ خيالٍ ساذَجٍ كنتُ قد فكَّرْتُ بِهِ بِأنّي أستطيعُ مُقابِلَ إفشائي لِإسمِ منصور سلامي أن أعرفَ أشياءَ بِخصوصِ إلقاءِ القبضِ على زوجتي وشيئاً عن إلقاءِ القبضِ عليَّ كذلك. !... مرَّةً أُخرى . لا بُدَّ أنَّ . السَّيِّد رمضاني سيبدأُ بالعَمَلِ لأنّي رأيتُهُ يطوي أكمامَهُ من جديدٍ ويرفعُها إلى أعلى، وبقوَّةٍ وسُرعَةٍ تنمُّ عن نفادِ الصَّبرِ رفعَ يدَهُ الكبيرَةَ كأنَّها طَبَقٌ وصَفعَني بها على وجهي فكأنَّ عينَيَّ تداخلتا إحداهُما بالأُخرى، وبقدرِ ما كنتُ أستطيعُ التَّفكيرَ علمتُ أنَّها البدايةُ إذ نادى وراءَهُ عاملَيْ ظُلْمٍ في الخارِجِ وسمعتُ وقعَ أقدامِهِما المُسرِعَةِ وهما يشتُمانِ رمضاني قاطي وسمعتُ رمضاني خطَّاب يقولُ لهما "اربطوهُ بالجِهاز، ابنَ العاهرةِ هذا!" ولم تبقَ مُهلةٌ لأمير ليُفكِّرَ بِأيِّ جوابٍ آخَرَ يُمكِنُ لهُ أن يُعطيَهُم إيَّاه فقد أُلقِيَ بِهِ كجُثَّةٍ من لحمٍ وعظمٍ على وجهِ السَّريرِ الفضّيِّ في جِهازٍ كان قد سمِعَ بِوصفِهِ سابِقاً من قِبَلِ مُعتَقَلينَ جرَّبوه، وقد كان عندهُ تصوُّرٌ مُبهَمٌ عنه، وحاليَّاً يستطيعُ الإحساسَ بِشكلٍ جيِّدٍ أنَّ الجِهازَ فَنِّيُّ المواصَفاتِ بِشَكلٍ كامِلٍ وقد صُنِعَ حديثاً ليورِدَ الضَّغطَ الكامِلَ على المكانِ المُحدَّدِ من نقاطِ الجِسْمِ المُختلفةِ والشَّخصُ في داخِلِهِ مزمومٌ ومربوطٌ بشكلٍ لا يستطيعُ بِهِ التَّحرُّك ((وقبلَ أن يضعوا على رأسي قُبَّعَتَهُ، تلكَ القُبَّعَةَ المعدنيَّةَ الَّتي تصِلُ إلى أسفَلِ الذّقن، استطعتُ مرَّةً أخيرَةً سماعَ صوتِ ذلكَ الرَّجُلِ المهيبِ يقول"السّكّين، السّكّين، هذهِ السّكّين ...هذه السّك..." وبعدها لم أعُدْ أسمعُ كلامهُ أصلاً، لكنَّني من حركاتِ شِفاهِهِ وفتحِ وإغلاقِ فمِهِ كنتُ أستطيعُ أن أفهَمَ أنَّهُ يتكلَّمُ عن السِّكّينِ وهو يضرِبُ

على أخمَصَيْ قَدَمَيَّ بِحبلٍ فِضّيٍ. كنتُ أصرُخُ، أصرُخُ...ولا يصِلُ إلى أُذُنَيَّ إلا صدى أصواتِ صُراخي الَّذي يعودُ ويرتطِمُ بِأُذُني، وهو أكثرُ إيذاءً وإثارَةً للجنون، والأصعبُ أنَّني كنتُ لا أستطيعُ القيامَ بأيَّةِ ردَّةِ فِعْلٍ تحتَ الضَّرَباتِ القاسيَةِ للحبلِ المعدنيّ إلّا بالصُّراخِ الَّذي يذهبُ ثُمَّ يعود إلى أغشيَةِ أُذُني. لأنَّ أيديَ معدنيَّةً كانت تُثَبِّتُ ذِراعَيَّ في الجِهازِ وتبقيهِما مربوطتَينِ ومفتولَتَين، وكذلكَ وبنفسِ التَّرتيبِ كانت ساقايَ من الجانبين مربوطَتَينِ بِحلقاتٍ معدنيَّةٍ ومفتولَتَينِ وكُلُّ حَرَكَةٍ مهما كانت صغيرَةً تبعثُ المزيدَ من الضَّغطِ على لُبِّ عظامِ ساقَيَّ وساعدَيَّ حيثُ أنَّ الأشرطَةَ النَّسيجيَّةَ الشّكلِ من أمامِ عضُدَيَّ وفوقَ صدري كانت تُلصِقُني من الخَلفِ بالجِهاز ولم يكُنْ لي تحتَ ضرباتِ الحبلِ المعدنيّ أن أتحرَّكَ من جانبٍ إلى جانبٍ ولا حتّى أن أهتَزَّ وما كانَ لي إلّا أن أصرُخَ إلى أن تُخرَقَ أغشيَةُ أذني؛ وكيف لي أن أستطيعَ أن لا أصرُخ؟!))

((السِّكِّين...السِّكِّين... هذه السِّكّينُ المُلَطَّخَةُ بالدَّم!))

هذهِ هي الكلماتُ الَّتي كانت تَطِنُّ في بئرِ خاطِرِ أمير ولم يكُنْ يحسُّ في ذهنِهِ بأيِّ مفهومٍ مُشَخَّصٍ سواها، لأنَّ كُلَّ قوى المُخِّ العصبيَّةِ عندهُ كانت مصروفَةً لتحمُّلِ وامتِصاصِ الضَّرَباتِ الَّتي كانت تنهالُ على قَدَميه ((بل قُلْ على كُلِّ ذرّاتِ بَدَنِه)) وكان عطشاناً وفمُهُ يابِساً ولا يعرِفُ السَّاعةَ أو الزَّمانَ من اللّيلِ أو النَّهارِ ولا يعرِفُ في أيَّةِ دُنيا أمكنَ حُصولُ مثلِ هذهِ الوحدةِ والغُربةِ ممّا حصلَ له... وتلكَ الحيرة...حيرةٌ واضطرابُ عقل، حالةٌ مثلَ حقنٍ بالمورفين لعذابِ ألمٍ لا يقبلُ النِّهاية. شيءٌ، حالةٌ تُشبِهُ إصابةَ مُعظَمِ خلايا المُخِّ بالشَّلَل. ورُبَّما تكونُ حالةَ نزعٍ، لأنَّهُ في النِّهايةِ حتّى صوتُهُ لم يعُدْ مسموعاً لهُ وصارَ لا يسمعُ إلا صدى الضَّرَبَات، صوتاً كضربٍ بالخشبِ على كيسٍ من الخَيشِ معَ طنينٍ خفيفٍ ((مثلَ ضيفٍ كان. نهايةُ ضيفٍ عاديّ. كانَ عزاءً أو عُرْساً؛ لا أعلم. كنتُ لا أملكُ ساعَةَ معصم. لم أكنْ أملكُ؟ رُبَّما؛ وإذا كانت السَّاعةُ في معصمي فعقاربُها كانت نائمةً؛ فقط أستطيعُ التَّخمينَ بالحدسِ أنّها كانت قُربَ مُنتصفِ اللَّيل وكنتُ منتبهاً لِطقْمِ لباسي المُحاكِ حديثاً والَّذي ألبسُهُ لأوَّلِ مرَّةٍ. رُبّما من أجلِ هذا كنتُ قد جئتُ إلى طهران لأرى زوجتي . زوجتي أو مُرَشَّحي؟ نور أقدس الَّتي كانت مشغولَةً بالتَّحصيلِ العلميّ وكانت قد استأجَرَتْ غُرفةً مع مطبَخٍ صغيرٍ في منزلِ خالَتِها. كنتُ حائراً، مثلَ أكثرِ الأوقاتِ كنتُ حائراً وعلى أعلى درجةٍ من دَرَجِ دهليزِ منزلٍ قديمٍ مفروشٍ من جوانِبِهِ بفَرشٍ رخيصِ الثَّمَنِ كنتُ واقِفاً إذ رأيتُ منصور سلامي وكأنَّهُ يريدُ الدُّخولَ إلى المنزلِ ورفعَ السِّكّينَ

المُلطَّخَةَ بالدَّمِ الّتي كانت في يدِهِ للأعلى يُريدُ أن يرميَ بها على حُفرةِ الأوداجِ في جذرِ رَقَبَتي، ولم أتعجَّبْ أصلاً من حالةِ رميِهِ السِّكّينَ عليَّ وهو يقفُ على أسفَلِ دَرَجَةٍ من الدَّرَجِ وأنا على أعلى دَرَجَةٍ منهُ وقد التصقَ ظهري بالجدارِ من الخوف؟ تماماً إلى حُفْرَةِ أسفَلِ رقبتي! لأنَّ كسرَ المسافاتِ والأبعادِ في نظَري أمرٌ عاديٌّ. وكذلكَ لم أتعجَّبْ حينَ رأيتُ اثنَينِ من منصور سلامي، ورأيتُ أنَّ منصور سلامي أمسكَ بمعصمِ يدِ منصور سلامي ورفعَهُ فوقَ كتِفِهِ وعصرَهُ بقوَّةٍ إلى درجةٍ سقطَتْ معها السِّكّينُ من قبضةِ منصور سلامي ووقعَتْ أمامَ قدميّ، تماماً على أعلى دَرَجَة. منصور سلامي كان سكراناً بِنَظَري، ومرَّ بإزائي وقد صارَ لوني شبيهاً بالجِصّ على الجِدار، وكان منصور سلامي الآخرُ يتحرَّكُ خلفهُ كأنَّهُ يُراقِبُه، وحين ارتدَّ من قبالةِ صدري نظرَ إليه وأظهرَ الموافقةَ بوجهِهِ وأشارَ إلى منصور سلامي ذاكَ ليَذهبَ في طريقِهِ إلى أن اختفى خلفَ بابٍ قديم، قال" عُوِّضَ تعويضاً حَسَناً من قلبِ ذلكَ اللّئيمِ وسحقَ أُختَه!" وكأنّي سألتُهُ "أُختَ من" قال لي وهو يبتعد "رئيس الشُّرطة!".

أميرُ ظلَّ في مكانِهِ زَمَناً وهو ينظُرُ إلى منصور سلامي الَّذي يسيرُ مبتعداً عنهُ حتّى اختفى عن نَظَرِهِ خلفَ البابِ القديم. بعدَ ذلكَ، هو نفسُهُ لم يفهم كيفَ وبأيَّةِ سُرعةٍ هبطَ الدَّرَجَ من الخوفِ والرَّغبةِ بالابتعادِ عن مُحيطِ الحادِثةِ، لكي يتمكَّنَ من الوصولِ إلى منزلِ نور أقدس. كان يخافُ أن لا يجدَ وسيلةَ نقلٍ لأنَّهُ يعلمُ أنَّ حافلاتِ المدينةِ تظلُّ تعملُ حتّى السَّاعةِ الحاديةِ عشرةَ ليلا، ولا يوجَدُ الكثيرُ من سيَّاراتِ الأجرةِ في مثلِ هذهِ السَّاعة. فكان أن خَرَجَ من ذلكَ الزُّقاقِ الضَّيّقِ من حيِّ الأميريَّة سيراً على الأقدامِ حتّى نِهايتِه، عَبَرَ ساقيَةَ وجَدوَلَ الشّارِعِ الكبيرِ وسارَ على رصيفِهِ باتِّجاهِ الأعلى إلى جِهَةِ تقاطُعِ الجيش، على أملِ الوصولِ إلى موقِفِ الحافلاتِ وهو ينظُرُ إلى الشَّارِعِ المُظلِمِ أسفَلَ منه علَّهُ يرى سيَّارةَ أُجرةٍ مُقبِلَةً فيرفَعَ لها يدهُ عالياً عساها تنقُلُهُ وتوصلُهُ سريعاً إلى المنزل ((وهكذا على هذا النَّحوِ كنتُ، قدمايَ تسعيانِ للأعلى وعينايَ تنظُرانِ للأسفل، أو بقولٍ آخر قدمايَ تسيرانِ نحوَ الحافِلةِ غيرِ الموجودةِ وعيناي تنظُرانِ نحو سيَّارةِ الأُجرةِ الّتي لا تأتي.)) لم تأتِ سيَّارةُ الأُجرةِ، وتلكَ السَّيَّارةُ القادمةِ المُتَّجهةُ إلى أسفلَ والَّتي رفعَ لها أميرُ يدهُ لم تكنْ سيَّارةَ أُجرةٍ، وفي هذا الوقتِ فهِمَ أنَّها على بُعدِ أقدامٍ أسفَلَ منهُ توقَّفت ((أي تماماً قُبالَةَ رأسِ الزُّقاقِ القديمِ الَّذي كنتُ قد خَرَجتُ منه)) وأمير رأى أنَّها سيَّارةٌ بلونٍ عجيبٍ، مزيجٍ من أخضرَ وزئبقيٍّ ونُحاسيٍّ، تركيبةٌ من ألوانٍ لم يكُنْ أمير قد رآها في عمرِهِ. انفتَحَ البابُ

الخلفيُّ للسَّيَّارةِ واشتعلَ في نفسِ الوقتِ ضوءٌ في داخِلِها ، واستطاعَ رؤيةَ امرأةٍ تترَجَّلُ من السَّيَّارةِ وتسيرُ إلى جهةِ الزُّقاقِ الَّذي كان قد خَرَجَ منهُ منذُ لَحَظات، واستطاعَ أن يرى أربعةً من الرِّجالِ الشُّبَّانِ جالسينَ في السَّيَّارةِ وهم يضحكون. أمير لا يريدُ أن تضيعَ من يدِهِ هذِهِ الفُرصَةُ المُحتَمَلَةُ فاتَّجَهَ إلى جِهةِ السَّيَّارَةِ الَّتي لم تكنْ قد تحرَّكتْ بعد ليُعطيَهُم علامةَ المنزلِ الَّذي يبحثُ عنهُ ولا يعرفُ أينَ هو ويرجوَهُم أن يوصلوه؛ لكنَّهُ بمحضِ تقدُّمِهِ نحوهُم وقبلَ أن يُحرِّكَ شفتَهُ بكلمةٍ، واجَهَتْهُ قهقهةٌ وقِحَةٌ من الشُّبَّان وكأنَّهُ صارَ هدفاً للسُّخريَةِ لهُم. ومرَّتِ السَّيَّارةُ أمامهُ تكادُ تحفرُ الأرضَ وتجاوزتهُ وابتعدتْ، وأمير، تراجعَ للخلفِ بشكلٍ لاإراديّ ونظرَ إلى المرأةِ الَّتي تسيرُ على قدمَيها إلى الزُّقاقِ لتدخُلَ فيه، وتذكَّرَ أنَّهُ وقتَ نزولِ المرأةِ من السَّيَّارةِ رآها امرأةً ناضِجَةً مُكتمِلَةً، على رأسِها غِطاءٌ حليبيُّ اللّون وكانت تبدو مُمتلئةً نوعاً ما وبيدِها محفظَةٌ، وكان مسيرُها يُوحي لأمير بشكلٍ أكيدٍ أنَّها ذاهبةٌ نحو المنزلِ الَّذي كان قد خَرَجَ منه، ولم تكنْ تُشبهُ نور أقدس خمامي في شيء.

((بقدرِ ما يسعفُني الخيالُ تخيَّلتُ أنَّ هؤلاءِ الشُّبَّانَ الأربعةَ كانوا يكيدونَ للمرأةِ كيداً وها هُم الآنَ وقد أنزلوها قريباً من منزلِها. إنَّ ضحكاتِ الشُّبَّانِ المُستهزئةَ هي الّتي أعطتِ القوَّةَ لهذا الخيالِ ولولاها لما مرَّت بذهني مثلُ تلكَ الفِكرةِ ولو لواحِدٍ بالألفِ من الثَّانية. لا تعجبوا من قولي واحداً بالألفِ من الثَّانية. فإنَّ سُرعَةَ عملِ المُخِّ تصلُ إلى حدٍّ تستطيعُ بهِ في أقلَّ من واحدٍ بالألفِ من الثَّانية التَّفكيرَ في أشياء مُختلفةٍ وقياسَ أبعدِ المسافات. وإذا ما أخذنا قوالبَ مُعيَّنَةً لنقودَ تفكيرَنا بها ونُدخِلَ مفاهيمَنا فيها فذلِكَ من بابِ الضُّرورةِ الصِّرفة، ونحنُ مُضطرُّونَ لنقودَ زمامَ الأفكارِ من أنفُسِنا العاجزة ونقومَ بتنظيمِها وترتيبها ونضعَها في قوالبَ عقليَّةٍ يقبلُها العُقلاء، لكنَّنا في الحقيقةِ إلى الآنَ لا نزالُ لا نملكُ الظُّروفَ والقوالبَ اللازِمَةَ لربطِ المفاهيم ولا لرسمِ الفعاليَّةِ الذّهنيَّة ولا نملكُ القُدرةَ للرَّبطِ بين مجموعاتِ الأفكارِ والخيالاتِ الدَّائمةِ الجريانِ في ذِهنِنا بلا نهايةٍ والّتي تسيرُ جميعاً. لهذا أرجو منكم أن تقبلوا منّي قولي إنَّ فكرةَ عَمَلٍ قبيحٍ لتلكَ المرأةِ لم تكُنْ لِتَرِدَ في ذِهني لواحِدٍ بالألفِ من الثَّانية. رُبَّما كانوا يسخرونَ منّي فقد ثارتْ حربٌ في داخلي، وجلٌ ووهمٌ وهولٌ واضطرابٌ وظنٌّ بالسُّوءِ . وكم كنتُ أحمقاً . إذ رُحتُ أُفكِّرُ في تلكَ الحالِ بإمكانيَّةِ تنظيمِ جدولٍ لسيَّاراتِ الأُجرةِ حتّى يكونَ في إمكانِ المُسافِرِ وتحتَ اختيارِهِ دائماً تأمينُ

سيَّارةِ الأُجرةِ. وأنا أعلمُ أنَّ هذا العَمَلَ لا يرتبطُ بي بأيَّةِ رابطةٍ ولم يكُنْ عندي شكٌّ أنَّ نور أقدس يجبُ أن تكونَ قلقَةً من تأخُّري.))

إلى تلكَ اللّحظَةِ فإنَّ أمير كان لهُ، أكثرَ من مرَّةٍ، لقاءٌ قصيرٌ مع وجهٍ من وجوهِ الخَطَر الصِّرفِ دونَ أن يُضطرَّ للذَّهابِ إلى شُرطةِ الأمنِ؛ لكنَّ عندهُ خوفاً مُبهماً ومُعقَّداً من الشُّرطة وكانَ نفسُهُ يظنُّ أنَّ ذلكَ ممّا يسمعُه، فالآخرون يُفرطونَ فيما يروونَ عن الشُّرطة، فصارَ في وجودِهِ حِمْلُ وهمِ الخوف، وكان يحسُّ أنَّهُ سيُرافقُهُ إلى حافَّةِ قبرهِ. راحَ يُفكِّرُ في حالِهِ تلكَ اللّيلةَ، وفي جميعِ أولئكَ الأشخاصِ الَّذين لم يكونوا موجودين في الشَّارَع، وفي ذلكَ الضَّيفِ المُثيرِ للشَّكّ، وفي تلكَ السِّكِّينِ المُلطَّخَةِ بالدَّمِ الّتي لا يعرفُ أيَّةَ رابِطَةٍ بينهُ وبينها، وكانَ يحسُّ بالشُّرطَةِ وبالخوفِ من الشُّرطَة. حسٌّ رُبَّما كانَ ناشئاً عن القبولِ الضِّمنيِّ بجُرمٍ خفيٍّ لم يرتكبْهُ، جُرمٍ موجودٍ بالقوَّةِ وبِصِرفِ إمكانِ وقوعِ الجُرم؛ إحساسُ ارتكابِ الجُرمِ كان يجري عندهُ على نحوٍ غريزيٍّ وكان يسعى ليُدخِلَ نفسَهُ في حدودٍ معقولةٍ من الإجرامِ دون أن يذهبَ أبعدَ من ذلك، لكنَّ قبولَهُ حدَّاً ومقداراً من جُرمٍ لم يرتكبْهُ بعيدٌ جدَّاً في نَظَرِهِ عن الشُّعورِ بأنَّ السِّكّينَ المُلطَّخَةَ ستظلُّ باقيَةً في يدِه، لِذلكَ كان يسعى بكُلِّ طاقَةِ ذِهنِهِ وروحِهِ ليُبعِدَ هذِهِ السِّكّينَ عن نفسِهِ ويُبعِدَ نفسَهُ عن هذهِ السِّكّين، وعبثاً كان يسعى ولم يُوَفَّقْ لِذلك.

وسَطَ هذا الإبتِلاءِ ظهرَ فجأةً شُرطيٌّ على دَرَّاجَةٍ ناريَّةٍ في قلبِ الظَّلامِ وراحَ يقترِب، وأمير من أجلِ رفعِ كلِّ شُبهَةٍ وشَكٍّ وسوءِ ظنٍّ رَفَعَ لهُ يَدَهُ فتوقَّفَ الشُّرطيُّ السَّائقُ أمامَ أمير. أمير بِخوفٍ ضمنيٍّ من إمكانِ واحتِمالِ سوءِ ظنِّ الشُّرطيّ وبتظاهُرٍ غيرِ لازمٍ بالبراءةِ من ذنبٍ لم يرتكِبْهُ سألَ عن موقعِ موقفِ خطِّ الحافِلات، وهو كان يعرفُ يقيناً أنَّ موقِفَ خطِّ الحافِلاتِ واقعٌ إلى الأعلى قليلاً، كما شكى من زيادةِ تعطيلِ عملِ سيَّاراتِ الأُجرةِ في مدينةٍ بِهذا الحجمِ الكبير، وأدركَ فوراً أنَّ الشُّرطيَّ السَّائقَ هو شُرطيُّ سير. وقطعاً لم يخجلْ أو يندمْ من إحساسِهِ والحالةِ الّتي وقعَ فيها، لأنَّهُ في جميعِ الأحوالِ، الشُّرطَةُ هي الشُّرطَةُ والخوفُ هو الخوف. كان شرطيُّ السَّيرِ شابَّاً ويبدو أنَّهُ كانَ من أهلِ القُرى، قال لذلِكَ الشَّابِّ القادِمِ من المُحافَظَةِ والغريبِ في مُنتَصَفِ ليلِ طهران، من الأفضلِ الإستِعجالُ للَّحاقِ بآخِرِ حافِلةٍ ستمُرُّ من أمامِ الحديقَةِ الوطنيَّةِ لأنَّهُ في مِثلِ هذا الوقتِ من اللّيلِ قد تحصلُ مُشكِلةٌ من ركوبِ سيَّارةِ الأجرة. وانتبَهَ أميرُ إلى أنَّهُ لا يملكُ تذاكِرَ للحافِلة. كانَ الشُّرطيُّ يحملُ تذاكِرَ، وأخرَجَ من جيبِهِ رُزمَةً منها. اشترى الشَّابُّ ابنُ

المُحافَظَةِ ثمانيةَ أو تِسعَةَ تذاكِرَ بعدَ وسوسةٍ، وشرعَ بالرَّكضِ إلى جِهَةِ الموقفِ وفجأةً رأى حافِلَةً تصلُ وآخرُ المُسافِرِينَ يصعدونَ إليها تحتَ سقفِ محطَّةِ الحديقَةِ الوطنيَّةِ تماما، والآنَ يرى أمير أنَّ جِهَتَها في أوهامِهِ قد تغيَّرتْ من شماليَّةٍ جنوبيَّةٍ إلى شرقيَّةٍ غربيَّةٍ، وكي يصِلَ بِنفسِهِ إلى الحافِلَةِ راحَ يجري إلى الطَّرَفِ الغربيّ لِشارِعِ الجيشِ وإلى جِهَةِ سلسبيل وتلكَ الأماكِنِ الَّتي سيكونُ مسارُ الحافِلَةِ يمُرُّ عليها والَّتي ستكونُ بلا شكٍّ في جِهَةِ سلسبيل وجي، وحيثُما كانَ المنزلُ الَّذي يجبُ عليهِ الذّهابُ إليهِ من المدينةِ ((وأنا لا أعرفُ أين يكون)) فيجبُ أن يكونَ في نواحي خوش وجي وسلسبيل. لكنْ هل يختلِفُ الأمرُ وفقَ وُجهَةِ الحافِلة؟، وأميرُ راحَ يجري من جديدٍ إليها. كان المُهِمُّ في نَظَرِ أمير هو الإبتِعادُ عن ذلكَ المحلِّ ولم يكُنِ المُهِمُّ إلى أينَ يقصِدُ. وهو يجري كي يلحقَ بالحافِلَةِ ويصعَدَ إليها ولم يصِلْ وفي اللّحظَةِ الَّتي أوشَكَتْ فيها يدُهُ على الإمساكِ بِمقبَضِ مصعدِ الرُّكَّابِ تماماً انطلقتِ الحافِلَةُ من مكانِها وبقيَ أميرُ في مكانِهِ فكأنَّهُ لأوَّلِ مرَّةٍ في حياتِهِ يذوقُ طعمَ اليأسِ المُطلَق.

بائسٌ يائسٌ ومُضطربٌ، ظلَّ واقِفاً لَحَظَاتٍ في مكانِهِ حتّى عادَ إلى نفسِهِ وسارَ جانباً وراحَ يصعدُ بِشَكلٍ تلقائيٍّ على دَرَجِ مبنىً بدا وكأنَّ هندسَتَهُ المعماريَّةَ ألمانيَّةٌ وإذا هو مبنى البريد، صعدَ ووقفَ بِجانبِ الجدار، وفي طرفَةِ عينٍ، وكأنَّ النّاسَ يخرجونَ من الأرض، جموعٌ إثرَ جموعٍ اجتمعتْ بعيداً ولم يمُرَّ وقتٌ طويلٌ ليفهَمَ أمير أنَّ علَّةَ اجتماعِ هؤلاءِ النَّاسِ هيَ أنَّهُمْ لا بُدَّ وأن يكونوا يقصدونَ صالةَ مبنى البريدِ والتّلغراف، إذ جاؤوا ووقفوا جميعاً على الدَّرَجِ وظنَّ أمير أنَّ ذلكَ لِعَدَمِ وجودِ صالةِ شاي تتَّسِعُ لهم ((كانوا جميعاً من أهلِ الحيِّ والبازار أقبلوا آحاداً وجماعاتٍ والعجيبُ أنَّهُم كانوا ينظرونَ إليَّ وكأنَّهُم يعرفونني وقد راحَ القريبُ والبعيدُ منهُمْ يهزُّ لي رأسَهُ ويرفعُ يدهُ بالسَّلام وهم يقولون السَّلامُ عليك وكانوا يبدونَ عاديّيْنَ حتّى ظننتُ أنَّ ذلكَ من هندامِيَ الجديد والَّذي كان مُزيَّناً بِأشرِطَةٍ وقد خجلتُ كثيراً من ذلك. لباسُهُم كان على منوالٍ واحِدٍ تقريباً وكان قديماً أعادني إلى ذكرياتِ سنين 25 إلى 30 حيثُ أذكُرُ أنّي رأيتُ نماذجَ من هذا اللّباسِ على التّلفازِ في التَّظاهراتِ السّياسيَّةِ الّتي كانت تجري في الشَّوارِعِ يومها. كانوا رجالاً بِمعاطِفَ جميلةٍ وياقاتٍ بيضاء وكان الشَّعرُ منهُم مرخيَّاً على الياقات وكانَ شَعْرُ مُعظَمِهِم مفروقاً إلى جِهَةِ اليسارِ وأمَّا الشَّواربُ فكانت ضيّقَة.))

كان حيراناً ومُتعَباً وعطشاناً وذهبَ تفكيرُهُ إلى أنَّهُ كانَ يجبُ أن يكونَ قد وصلَ إلى بيتِ نور أقدس الَّذي لا يعرفُ أينَ هو. كانَ قلبُهُ يشتهي أن يذهبَ إلى زاويةٍ ويقعُدَ ولم يكُنْ هناكَ من موضعٍ خالٍ وسَطَ هذا الإزدحامِ العجيب وكأسُ الشّاي، أو حتّى الماء، الَّذي يُحتَمَلُ وجودُهُ في مثلِ هذهِ المناسباتِ لم يكنْ موجوداً. الإحساسُ بانعدامِ الأمنِ في ذلكَ الإزدِحامِ والقلْبُ المُهتاجُ المُضطربُ والياقةُ الّتي تضغطُ على أسفلِ رَقَبَتِهِ، كلُّ ذلكَ كان يخنُقُهُ، وكأنَّ عقلَهُ لم يكُنْ يُدركُ أنَّهُ يستطيعُ أن يفتحَ زرَّ ياقتِه وبَدَلَ ذلك، كان يرفعُ رَقبتَهُ ويميلُ إلى هذا الطَّرَفِ وذاكَ الطَّرَفِ ويأخُذُ في كُلِّ انحناءةٍ نَفَساً وهناكَ وقعتْ عينُهُ على سيَّارةِ شُرطةٍ وقد دخلتْ في جهةٍ مفتوحةٍ من التَّجمُعِ كانت ناحيةَ أمير وتوقَّفتْ وكان وقوفُها على حافَّةِ جدولِ الشَّارِعِ تماماً ونزلَ منها فوجٌ من المأمورينَ المُسَلَّحين في عجلةٍ وحيرةٍ وكانَ أفرادُ مجموعةٍ منهُم يتبادلونَ الإشاراتِ بالأيدي والتّعليماتِ الَّتي لم يسمعْ أمير شيئاً منها وفقط كان يحسُّ أنَّ هذا الاِضطرابَ مرتبِطٌ بمناسَبَةٍ لا علمَ لهُ بها وأنَّ المراسِمَ لا بُدَّ وأن تبدأ قريباً.

((لم يكن ظنّي في غيرِ محلِّهِ فلم يطُلِ الوقتُ حتّى أقبلتْ جماعاتٌ مختلفةٌ يرتدي أفرادُها لباساً جديداً مُرتَّبا، كان اللّباسُ أسوداً وكانت الأحذيةُ سوداءَ لامعةً، كانوا حليقيّ اللِّحى أمَّا شعورُ رؤوسِهِم فكانت نظيفةً ومُرتَّبةً ومرخيَّةً على أكتافِهِم. اجتمعوا بعيداً عن رجالِ الشُّرطة وصارَ عددُهُم يزيدُ شيئاً فشيئاً وصعدوا على الدَّرَجِ الواقِعِ في صدرِ البناءِ المُجاوِرِ لبناء البريد والَّذي يكادُ يكونُ ملاصقاً لهُ وواجِهتُهُ الخارجيَّةُ تواجِهُ واجهةَ مبنى الأعيانِ، وكنتُ عطشاناً وأهلكُ وكأنّي نسيتُ أنّي أهلك.))

تحرَّكتِ الجموعُ باتّجاهِ واجِهَةِ المجلسِ من حيثُ كانت واقِفَةً على الدَّرَجِ وصارت حركتُها تشتدُّ لحظَةً بلحظَةٍ واضطُرَّ أمير للرُّجوعِ للوراءِ درجَةً دَرَجَةً لأنَّهُ كان يُساقُ مدفوعاً للخلفِ بلا إرادةٍ منه إلى أن صارَ بجوارِ بابِ الدُّخولِ وانتهى تحتَ ضغطِ جماعةٍ كانت تقصدُ الدُّخولَ للعمارةِ دَفَعتهُ إلى جهةِ البابِ ومرَّةً أُخرى قاومَ أمير وحينَ كان يقاومُ ويسحبُ رَقَبَتِهُ للخروجِ وقعتْ عينُهُ على تلكَ السَّيَّارةِ الّتي كان قد رآها سابقاً، ولونُها معجونٌ غريبٌ من أخضرَ ونحاسيٍّ وزئبقيّ، كانت متوقِّفَةً قُربَ حافَّةِ الجدولِ الجنوبيّ للشَّارعِ ومُنحرفَةً كأنَّها تعرَّضَتْ لِضَغطِ قوَّةٍ خارجيَّةٍ، قسمُها الأماميُّ الأيسرُ ملتصِقٌ بالجدولِ، وفيما عدا بابَ السَّائقِ فإنَّ أبوابَها الثَّلاثةَ الباقية كانت بينَ مفتوحةٍ بِشَكلٍ كاملٍ إلى نصفِ مفتوحةٍ، وسقفُها كأنَّما ضُرِبَ بقُنبُلَةٍ يدويَّةٍ أو ما يُشبهُها

فانشقَّ من الإنفجار، وجوانبُها مثقَّبَةٌ وكانَ فوقَ مقاعِدِها غُبارُ مئةِ عامٍ من الموتِ ولا أثرَ للشّبَّانِ الأربعةِ الَّذين كانوا جالسينَ فيها قبلاً، وكانَ زيتُ المُحرّكِ يسيلُ من جانبِ المقعدِ الخلفيّ ويسقُطُ على الإسفَلتِ بهدوء.

. ((ماءاً...ماءاً... جرعةَ ماءٍ واحدة. لساني... لساني صارَ يابساً كالآجُرّ... فمي تشتعِلُ بِهِ النَّارُ، النَّار. جرعةَ ماءٍ واحدة... قطرةً واحدة.))

يجبُ عليهِ أن يُعمِلَ كُلَّ فِكرِهِ بشكلٍ حَسَنٍ ليستطيعَ أن يجدَ حلاً لهذهِ القضيَّةِ المجهولة. قضيَّةٌ بدأت ككابوسٍ من سكّينِ منصور سلامي الملطَّخَةِ بالدَّم، وكيما يصلَ إلى غُرفةِ نور أقدس في الطَّبْقةِ الثَّانيةِ من منزلِ خالتِها يجبُ عليهِ المُداومةُ على المسيرِ الَّذي لن يُطوى إلّا بِعُصارَةِ روحِ أمير. لأنَّهُ لحظَةً بلحظَةٍ تجرُّ حادثَةٌ حادِثَةً أعقَدَ إلى أن نصلَ إلى مُسَلْسَلٍ مُترابِطِ الحَلَقاتِ، ونحنُ ننتقِلُ من تعقيدٍ إلى تعقيدٍ آخرَ حتّى نصِلَ إلى نُقطَةِ النِّهايةِ الّتي لا بُدَّ أنَّها الموتُ ولا شيءَ سوى الموتُ وقُضِيَ الأمر. وأيَّةُ حالةٍ تلكَ الّتي تخنقُهُ وهو جائعٌ وعطشانٌ وكأنَّهُ لا يُتصَوَّرُ لهُ أيُّ علاجٍ وتلكَ الجماعةُ الَّتي تدفعُهُ في صدرِهِ إلى داخِلِ العَمارَةِ لا تستطيعُ بالفِطرةِ أن تُدرِكَ العَطَشَ الزَّائدَ المُبتلى بِهِ هذا الشَّابُ الغريبُ عن المدينة.

أيَّةُ عمارةٍ! المناظِرُ الدَّاخليَّةُ للعمارةِ كانت مزيجاً من مجموعةِ مظاهِرَ عُمرانيَّةٍ من أبعادٍ زمنيَّةٍ مُختلِفةٍ ترتبطُ بها تأثيراتٌ روحانيَّةٌ من جميعِ الوجوه ويسودُ قاموسُ الطَّبيعةِ في بنائها وشكلِها المعماري. سقفُ العمارةِ قائمٌ على أعمِدَةٍ ضخمةٍ مُدوَّرةٍ منحوتَةٍ بشكلٍ ظريفٍ وعموديَّةٍ، أشكالٌ شبيهةٌ بالأعمدةِ الرومانيَّةِ، واليونانيَّةِ والإيرانيَّةِ تملكُ عينَ الظَّرافةِ والمهابَةِ والمتانةِ والقاطِعيَّة المعماريَّة المُغريَة، ولها مهابةُ وجبروتُ الكنائسِ الَّتي كانَ أمير قد رآها من قبلُ في أصفهان ورضائيّه أو يتخيَّلُ أنَّهُ رآها ولا يزالُ في خاطِرِهِ أنَّهُ رأى نظيراً لها من حيثُ الأبعادُ في مسجدِ وكيل شيراز. أرضُ القاعةِ مُغطَّاةٌ بسجَّادٍ قرمزيّ اللّون، وأحسَّ أنَّ هذا السَّجَّادَ غيرُ مُمكِنِ الصُّنعِ يدويَّاً من قِبَلِ الصُّنَّاعِ والفنَّانينَ عندنا، فلا يوجَدُ نقشٌ ولا علامةٌ من الرُّسومِ الظَّريفَةِ لأساتِذَةِ السَّجَّادِ الماهرينَ في هذا الفنّ في كاشان، وأمير لم يكُن قد رأى وجوهَ سجَّادِ تبريز أو أصفهان فهو لذلكَ لا يستطيعُ تشخيصَ المدينةِ الَّتي صُنِعَ بها هذا السَّجَّاد. كان هُناكَ في نهايةِ القاعةِ الَّتي لم تكُنْ مُضاءةً شكلُ محرابٍ لا نظيرَ لهُ في معابِدِ البوذيّين والزرادشتيّين الّتي كان قد رآها أو الَّتي يتصوَّرُها في خيالِهِ، لم يكُنْ قد رأى كنيساً يهوديَّاً واقِعاً، ولا حتّى في الأفلامِ، كي

يستطيعَ مُقايستَها بِه. كان يحسُّ أنَّهُ لا يستطيعُ أن يجِدَ لها شبيهاً، حيثُ لابُدَّ من وجودِ فرقٍ مع مثلِ هذا السَّقفِ المرفوعِ إلى مثلِ هذا العُلوّ والإرتفاع وهذهِ الأعمدَةِ القائمةِ الشَّامِخَة. ولم يكُنْ للقاعةِ التَّرتيبُ والتَّزيينُ المعهودُ ضمن الكنيسة، فالكنيسةُ في ذِهنِ أمير تُعتِّمُ بالألوانِ الأُرجوانيَّةِ وفيها منصَّاتٌ صغيرةٌ عاريَةٌ وليست بهذا الوجهِ الفسيحِ والمُضيءِ والحيّ. فهذهِ العمارةُ لم تكُنْ تُشبِهُ أيَّةَ عمارةٍ أخرى مُشخَّصَةٍ في ذِهنِهِ؛ لكنَّها وفي عينِ الحالِ تملكُ وجوهاً من الشَّبَهِ بكُلِّ تلكَ الأبنيَةِ الَّتي كان قد رآها أو يستطيعُ أن يتصوَّرَها أو سمِعَ بها. والوجهُ الرَّئيسُ الشَّاخِصُ للتَّشابُهِ هو في مظهَرِ القُدرةِ الحاضِرةِ في كُلِّ جُزءٍ من أجزاءِ بنائها ممّا جَعَلَ يتداعى في فِكرِ أمير المسجِدَ والكنيسَةَ وتصوُّرَ قاعةِ معبدِ النَّارِ والمعبدَ وأمير مرعوبٌ من تلكَ القُدرةِ الَّتي يحسُّ بحضورِها في كُلِّ مكان. بينَ أفرادِ الجموعِ الكثيرةِ في ملابِسِهِم الرَّاقيةِ ودونَ أيِّ وجهِ معرفَةٍ محسوسةٍ بينهُ وبينهم وجدَ نفسهُ وحيداً وتائهاً كغريبٍ من الغُرباءِ ويائساً وعاجِزاً ويدورُ بِعينَيهِ علَّهُ يجدُ صُدفَةً من يعرفُهُ قبلَ أن يتلاشى كالمذبوح، ولم يكُنْ يرى إلّا وروداً مستمرّاً لأشخاصٍ يرتدونَ الثِّيابَ السَّوداءَ عبرَ المدخل، ولم تكُن لهُ حيلةٌ في وسيلةٍ للنَّجاةِ من تلكَ الوحدةِ الخطيرةِ المليئةِ بالإضطرابِ إلّا بالاتِّكاءِ كُلَّما سَنَحَتْ لهُ الفُرصَةُ على عمود، وكي لا يثيرَ الشَّكَّ لدى الآخرينَ كان يتَّكِئُ على ظهرِ العمود، فبذلكَ يستطيعُ أن يحميَ نفسَهُ من العيونِ الأجنبيَّةِ ويجعَلَها تُحسُّ بالأمانِ حتّى يرى ما تكونُ عاقِبَةُ هذا العَمَل. لذلكَ كان يُريدُ فقط إبعادَ هذهِ اللّحظاتِ المليئةَ بالتَّشويشِ عن رأسِهِ ونقلَ تفكيرِهِ خارِجَها علَّهُ يجدُ الطَّريقَ لِنفسِهِ إلى خارجِ هذهِ الجهنَّمَ النَّظيفة. فهل يا تُرى هُناكَ حُرَّاسٌ لامرئيّونَ على بابِ الدُّخولِ في طَرَفِ القاعةِ يُراقبونَ ويُنظِّمونِ الأشخاصَ الدَّاخلينَ لابسيّ السَّواد؟ أولئكَ الَّذين بدوا وكأنَّهُم يعرفُ بعضُهُم بعضاً وكأنَّهُم في هذا الوقتِ من اللَّيلِ مدعوُّونَ لاجتماعٍ فوقَ العادة، وطِبقَ مُشاهَدَاتِ ومحسوساتِ أمير فهو بخُصوصِ قتلِ وجهٍ من الوجوهِ، وقد اتَّفقَ قتلُ رئيسِ الشُّرطَةِ في اللّيلةِ نفسِها عندَ مُنتَصَفِ اللَّيل.

أيَّةُ أغوالٍ، أيَّةُ أغوال!

واردونَ جُدُدٌ أشكالُهُم عجيبةٌ ومظاهِرُهُم عجيبةٌ كأنَّ كُلَّ واحِدٍ منهُم غولٌ، قاماتُهُم طويلةٌ يمكنُ مُقايَسَتُها بِأعمِدَةِ القاعة وأجسامُهُم عريضةٌ وعرضُ أحَدِهِم يزيدُ عن قُطْرِ العمود؛ كانوا أربعَةَ أشخاصٍ ثلاثةٌ منهُم يرتدونَ أرديَةً طويلَةً ويضعونَ معاطِفَ واسِعَةً على أبدانِهِم وعلى رأسِ كُلِّ

واحِدٍ منهُم قلنسوةٌ ، وجوهُهُم سمينَةٌ مُكتنزةٌ باللّحمِ كأنَّها بلا عظمٍ وكأنَّها مُلوَّنَةٌ وكأنَّ العينينِ مرسومتانِ وكذلكَ الأنفُ والفم، ولو نظرتَ إليهم من أسفَلَ لَشبَّهتَهُم بثلاثِ مناراتٍ، وهم من حيثُ الأبعادُ كبيرٌ ومتوسِّطٌ وصغيرٌ، والصَّغيرُ بقياسِ صاروخٍ، والآنَ يستطيعُ أمير أن يفهَمَ فلسَفَةَ بناءِ هذا السَّقفِ بهذا العلوّ. الرَّابعُ كان **مرد اسلاو** بِقدّهِ وشكلِهِ وحجمِهِ وعليهِ لباسٌ روسيٌّ. قميصٌ طويلٌ أبيضُ حاشيتُهُ محيكَةٌ وحزامٌ جلديٌّ رفيعٌ وسروالٌ ملتصِقٌ بالبدن وحذاءٌ بلونِ القهوةِ يصلُ إلى تحتِ الرُّكبةِ وساقا سروالِهِ داخلتانِ في الحذاءِ تحتَ الرُّكبةِ، كان وجهُ مرد اسلاو مُكعَّباً وعظميَّاً وكانَ طويلَ الشَّارِبِ طويلَ الشَّعرِ كثيفَهُ وكانت جدائلُهُ مرخيَّةً على جبهتِه.

ويدخُلُ واردٌ جديدٌ هو الأكبرُ بغرورٍ ونخوةٍ، كان لائقَ المظهرِ ويردُّ على لابسيّ السَّوادِ الَّذين تواضعوا أمامهُ وخضعوا لهُ بهزِّ رأسِهِ وهو يأخُذُ الطَّريقَ غيرَ مُبالٍ إلى أعلى القاعةِ إلى المكانِ الَّذي تخيَّلَهُ أمير شبيهاً بالمحرابِ، ويتابِعُ المسيرَ والجموعُ في صحنِ القاعةِ تفتحُ الطَّريقَ لهُ ولمُرافقيهِ باحترامٍ؛ مرد اسلاو وضعَ يَدَهُ على صدرِهِ وأظهرَ التَّواضُعَ بمظهرِهِ النَّفيسِ المُرتَّبِ وتراجَعَ نِصفَ خُطوةٍ للوراءِ عن الهياكِلِ الثَّلاثةِ، وحينَ مرَّ قُبالةَ عينَي أمير المتوقِّفَتَينِ اضطُرَّ أميرُ ليرفَعَ بَصَرَهُ إليهِ فكأنَّهُ كان ينظُرُ إلى منارةِ أصفهانَ المُتحرِّكة. كانت شرَّابةُ غطاءِ الرَّأسِ الشَّبيهِ بالطَّربوشِ للوارِدِ الجديدِ الأكبرِ تكادُ تصِلُ إلى السَّقفِ والعينانِ المرسومتانِ وكأنَّ كُلّاً منهُما بيضةُ بطَّةٍ تنظُرانِ إلى الأمامِ فقط بِغيرِ اعتناءٍ بصفوفِ وأعمدةِ البشَرِ المُطيعينَ والمؤدَّبين والواقفينَ في تواضُعٍ ساكتينَ وقد أفسحوا لهُ ولمُرافقيهِ الطَّريق . إلّا مرد اسلاو الَّذي كان يقومُ بتنظيمِ التَّعظيمِ والتَّكريم . وسار السَّائرونَ في العرضِ على العزفِ وكأنَّ تحتَ أرجُلِهِم عجلاتٍ تسيرُ على سكَّةِ قطارٍ لا مرئيَّةٍ.

قالوا إنَّهُ سيدخُلُ مجلسَ العزاء ونظَرَ أمير فرأى خمسةً إلى ستَّةِ أشخاص، امرأةٌ ورجُلٌ، وبنتٌ وولدٌ يافِعانِ، وشابٌّ بالغٌ يلبسُ هنداماً جميلاً مُرتَّباً وكان مظهرُ شعرِهِ يوحي بأنَّهُ في عزاءِ أبيه؛ تقدَّمَ مرد اسلاو ولا علامةَ ولا أثرَ للرَّحمةِ والشَّفَقَةِ على وجهِهِ وهو يحملُ طَبَقاً معدنيّاً مُدوَّراً مطليَّاً بماءِ الذّهَبِ عليهِ إبريقٌ وكأسٌ مُلئتْ إلى نِصفِها بالشَّاي إلى أمامِ هذا الشَّابِّ القادِمِ من المُحافظة. تذكَّرَ أمير عطشَهُ من جديدٍ وكم كان عطشاناً. رفعَ يدهُ ليتناولَ كأسَ الشَّاي ومرد اسلاو أدارَ الطَّبَقَ ليستقِرَّ أمامَ يدِ أمير وقال خُذِ الكأسَ بلهجةٍ لها حُكمُ التَّكليف فرفعَ الكأسَ وتحتهُ الطَّبَقَ وقد أحسَّ أنَّهُ نسيَ العطَشَ ولم يعُدْ عندَهُ للعَطَشِ أيَّةُ أهمّيةٍ وصارَ المُهِمَّ عندهُ

الإختباءُ في زاويةٍ بحُجَّةِ شُربِ كأسِ الشَّاي، الآنَ كأسُ الشَّايِ في يدِهِ ويُمكنُ أن يُعطيَهُ القوَّةَ ليظهرَ عاديَّاً ويوجِّهَ نفسَهُ تحتَ هذهِ الأعيُنِ الغريبة الَّتي كان يتخيَّلُ أنَّها تُراقِبُهُ لحظَةً بلحظَةٍ. وفي سَيرٍ بدا موجَّهاً وصلَ إلى نهايةِ الضِّلْعِ الشَّرقيّ لِقاعَةِ البناء وفي زاويتِهِ الشِّماليَّةِ بابٌ صغيرٌ لِغُرفَةٍ صغيرةٍ وكانَ مفتوحاً وظنَّها فارغَةً وظنَّ نفسَهُ وصلَ إلى رحمةِ الله بعثورِهِ على ملجأٍ يدخُلُ فيه، وقد دخلَ الغُرفَةَ بشكلٍ لاإراديّ، لكنْ...وبنفسِ الشَّكلِ اللاإراديّ وقف بجوارِ عتبةِ الباب وشيئاً فشيئاً بدتْ لهُ الغُرفةُ كأنَّها مكانُ الوضوءِ من مسجدٍ ورأى ستَّةً إلى سبعةٍ من الرِّجالِ متوسِّطيّ الأعمار جالسينَ صفَّاً على كراسيَ جلديَّةٍ بلونِ القهوةِ وكانَ مظهرهُم ناعماً جميلاً ومُرتَّباً ولباسُهُم فاخراً تماماً، ولم تنفذْ عينُ بصيرَةِ أمير إلى معنى هذا الحُضور، وقد لاحظَ أنَّ أحدَ هؤلاءِ الرِّجالِ هو رسول خضر جاويد الَّذي راحَ يجعلُهُ تحتَ نَظَرِه، وظنَّ أنَّهُ رُبَّما كان قد رأى ثلاثَةً ممَّن كانت ظُهورُهُم إليه. لم يكُنْ لديهِ حيلَةٌ وعليهِ البقاءُ واقفاً في مكانِهِ بجوارِ البابِ القديمِ وقد وقف. لأنَّهُ من المُمكنِ أن يُثيرَ شكَّاً أكبرَ إذا ما رَجَع، ذلك الشَّكَّ الَّذي لهُ جذرٌ في الوهمِ قطعاً ويجبُ عليهِ أن يفهمَ أين يقعُ جذرُ وهمِهِ ((سلَّمْتُ ونظرتُ بشكلٍ طبيعيٍّ قَدَرَ الإمكانِ وقرَّرتُ في نفسي شُربَ بقيَّةِ الشَّاي)) وقطعاً عيناهُ تدورانِ على وجوهِ الرِّجالِ الَّذينَ تظاهروا عمداً بأنَّهُم لم يروه وهم الآنَ لا يُبدونَ أيَّ اعتناءٍ بِحُضورِهِ وبدوا مشغولينَ بالكلامِ والحديثِ إلّا خضر جاويد الَّذي كان ينظُرُ إليهِ من حينٍ لآخر؛ رجُلٌ كأنَّ أمير قد رأى صورَتَهُ آلافَ المرَّاتِ على الغلافِ من أعدادِ مجلَّةِ **المرأة اليوم**، ورأى نفسَ تلكَ الصُّورةِ في تحقيقٍ قصيرٍ معهُ تمَّ بِسُرعةٍ وكانت خلفَ الطَّاولةِ وهي لا تزالُ في خاطِرِهِ وأحسَّ أنَّ الرِّجالَ الثَّلاثةَ الَّذين كانت ظهورُهُم إليهِ كانوا ممّن رآهُم وصارَ ظَهرُهُ يرتجِف. ولحقَ بهِ من ذلك من الهولِ والرُّعبِ مثلما لحقَ بهِ في تمامِ عمره ممَّا يستحيلُ معهُ نقلُ صورتِهِ العجيبةِ الغريبةِ من نفسِهِ إلى الآخرين فهو الآن واقعٌ بين يدي شُرطَةِ الأمن، وقلبُهُ يرجو أن يكونَ رسول خضر جاويد قد عرفَهُ لأنَّهُ بذلِك سيحصلُ لهُ الإطمئنانُ بوجودِ شَخصٍ يعرفُهُ في ذلِكَ الوضعِ وإنَّهُ لمن الأفضلِ أن يكونَ ذلكَ الشَّخصُ مأمورَ شرطة. في الحقيقةِ هو في ذلكَ المكانِ العجيبِ والغريبِ يحتاجُ إلى شخصٍ يعرِفُهُ حتّى يقدِرَ على الأقلِّ أن يوضِحَ لهُ كيفَ حصلَ ودخلَ هذهِ القاعَةَ العجيبةَ بِسَبَبِ دفعِهِ في الزّحام فقد كانَ يُريدُ طوالَ هذه المُدَّةِ الثَّقيلةِ والمؤذيةِ أن يرى شخصاً يشرَحُ لهُ كيفَ حصلَ دخولُهُ وَسَطَ هذهِ الجماعةِ الغريبة. لكنَّ رسول خضر جاويد لم يُظهِرْ المعرفَة وهنا أدركَ أمير أنَّهُم مأمورونَ أمنيُّونَ وأنَّهُم جالسونَ هُنا في حالةِ الإستعدادِ لِطارئٍ، وقطعاً فإنَّ إدراكَ هذا المطلبِ زادَ من قلقِ

أمير لأنَّهُ فهمَ بِشكلٍ أعمقَ مدى الهولِ والخطَرِ في ذلكَ المحيطِ الَّذي اضطُرَّ للتَّواجُدِ فيه وهو المكانُ الَّذي يتوجَّهُ إليهِ خوفُهُ الأصليُّ بشكلٍ مُشخَّصٍ ويتصوَّرُ أنَّهُ سيكونُ مورِدَ اتِّهامٍ موهوم، كتمَ بُغضَهُ وشرعَ في البُكاءِ على حالِهِ وهو في مكانِهِ، ولعلَّ قلبَهُ كان يُريدُ بِذلِكَ استجلابَ رحمةِ هؤلاءِ السِّتَّةِ أو سبعةِ أشخاصٍ لهُ وأن يفهموا هذهِ الحقيقَةَ ويتيقَّنوا أنَّهُ في الواقِعةِ الَّتي جرت ((أنا نفسي لا أعرفُ جزئيَّاتِها في عينِ الحالِ الّتي أرى نفسي مُتَّهَماً فيها!)) يجبُ أن لا يُوجَّهَ لهُ الاِتِّهامُ بالتَّقصيرِ وأولئكَ الرّجالُ يجبُ أن يفهموا أنَّ ((روحي لا تعرفُ شيئاً عن سكّينِ منصور سلامي المُلطَّخَةِ بالدَّم)) ودونَ كلامٍ، وفقط بنظراتِهِ إلى المأمورين كان كمن يلتمسُ منهُم وفقَ وظيفتِهِم وشُغلِهِم أن يسألوهُ بعضَ الأسئلةِ ليُخبِرَهُم بعينِ الواقِعِ ويُفرِغَ قلبَهُ، ولكنَّهُم كانوا كأنَّهُم لا علاقَةَ لهُم أصلاً بالسُّؤالِ والتَّحقيقِ وكشفِ الواقِعَةِ أو على الأقلِّ أظهروا أنَّهُم لا علاقةَ لهُم بذلك، ثُمَّ بدا منهُم الظَّنُّ وسوءُ الظَّنّ وشرعوا بالسُّخريةِ، وصاروا ينظرونَ إلى هذا الَّذي كان غريباً ويعاني الغُربَةَ واقفاً أمامَهُم وعلى شفاهِهِم ضحكاتٌ مؤذية. ويلعبون ((وأخيراً وحين صارَ بُكائي أوضحَ أشارَ واحدٌ منهُم إلى الآخرين وقال"السَّيّد واقف"! وقالَ لي "ثمَّ ما هذا البكاء؟!" وأمير بدأت رأسُهُ تهتزُّ وقلبُهُ يحترقُ وقال بصعوبةٍ:

. ((من أجل... من أجل... جناب الضّابط العميد...المرحوم))

وهنا اندفعتْ الضَّحكاتُ من الجميعِ كالطَّلَقات وارتفعتْ وأمير صارَ ماءً من الخجل، لكنَّ هذا الاِستهزاءَ بِهِ والخَجَلَ الَّذي أصابهُ ليسَ فقط لم يمنعا بُكاءهُ بل زاداهُ شِدَّةً وظلَّ يعتقِدُ أنَّهُم على أصواتِ بُكائهِ...وإذا فجأةً ضجيجُ أصواتِ طلقاتٍ ناريَّةٍ دوّى في الفضاء وفوراً أخذَ المأمورونَ أسلحتَهُم بِأيديهِم من الأحزِمَةِ الَّتي كانت مُغطَّاةً بقمصانِهِم الَّتي تصلُ إلى منتصَفِ البدن ودفعوا أمير عن طريقهم واندفعوا خارجاً يركضون، وهو أيضاً ركضَ في القاعةِ ووقفَ ينظُرُ إلى المُشكِلَةِ الحاصلةِ والتَّقاتُلِ الَّذي بدا وكأنَّهُ بدأ في الشَّارِعِ وهو الآنَ في الضِّلعِ الجنوبيِّ للقاعةِ المُتَّصِلِ بالشَّارِعِ بِطريق. وأمير يستطيعُ أن يرى أطرافَ الاِضطراب ويعرِفَ أنَّهُم كانوا أولئكَ النَّاس الَّذينَ اجتمعوا أمامَ بناءِ البريدِ والتِّلغراف وكانوا كأنَّهُم يقيمون احتفالاً وكانوا يملؤونَ الشَّارِعَ، وأمير وقف لامرئيَّاً في جوارِ حائطٍ وكان يستطيعُ رؤيةَ تقاتُلِ أولادِ سكَّةِ الحديد وتقاطُع عبَّاسي سنين 30–25 وهو ينتظِرُ مع جماعةِ لابسيّ اللّباسِ الأسودِ الفخم ويستطيعُ أن يرى أيضاً نِظامَ تلكَ القاعةِ الّتي امتزجَ فيها العجيبُ بالمُعجِز وهو الآنَ قادرٌ على النَّجاةِ بنفسِهِ من

الهلاك. فقد نسيَ بُكاءَهُ وشرعَ في الرَّكضِ من عمودٍ إلى عمودٍ ومن جُزءٍ من القاعةِ إلى جُزءٍ آخرَ وهو لا يعرفُ أينَ يقصِدُ ولا يعرفُ ما سوفَ يفعلُ، إلَّا أن يكونَ بحثاً عن مَفَرٍّ وكأنَّهُ يُريدُ إلقاءَ نفسِهِ خارجَ تلكَ القاعةِ المهولةِ وأن يسرِقَ روحَهُ ورأى الجميعَ في حيرةٍ مأسورينَ في الزِّحامِ وقد راحَ كُلٌّ يجري إلى جِهةٍ وأميرُ بينهُم وقد وصلَ قُربَ ذلكَ المكانِ الَّذي كان فيهِ أولئكَ الرِّجالُ الرَّاشدونَ العجيبون الغريبون ولم يكنْ من علامةٍ أو أثرٍ لأولئك الَّذين كانوا موجودينَ في مجلسِ العزاء وكأنَّهُم اختفوا في الزّحام، أمير كان في جوارِ دَرَجٍ عريضٍ لا بُدَّ أنَّهُ يوصِلُ إلى القبو. عادَ وجرى جِهَةَ الدَّرَجِ وإذا أصواتُ قعقعةِ حرابٍ وخناجِرَ تصلُ من فُسحَةِ الدَّرَج، نَظَرَ فرأى الحرابَ والخناجِرَ وقد ملأتِ المعابِرَ وكأنَّها شوكٌ نابتٌ ولا يُمكنُ العُبورُ من بينها وهو لا يستطيعُ البقاءَ فراحَ يجري يسرقُ رأسَهُ وكان يسيرُ بشكلٍ غيرِ مُنتظَمٍ علَّهُ يرى فُتحَةً، وفجأةً وجدَ نفسَهُ أمامَ حربتَينِ يرفعُهُما ولدانِ يافِعانِ وقد جعلاهُما كمقراضٍ أمامَ وجهِه، ورأى الشُّبَّانَ الَّذين كانوا يرتدونَ على أبدانِهِم السَّوادَ في العزاءِ وقد حزَّموا رؤوسَهُم بما يُشبهُ العِقالَ العَرَبيَّ وراحوا ينظرونَ إلى أمير وكأنَّهُ مُجرِمٌ وقعَ في شباكِهِم . ومُجرِمٌ عجيبٌ أيضاً! . لكنْ صراحةً فإنَّ ذلِكَ لم يكُنْ يصدُقُ عليهِم من حيثُ سنُّهُم وعُمرُهُم، سألوا:

. ((أين تريدُ الفرار؟))

((إعتَقَلَ لِساني وكنتُ أُريدُ أن أقولَ أنَّني لا أقصدُ الفرار وأنَّني أصلاً لا أعرفُ ما هو الموضوع؟ ولكنَّني صرتُ كالأخرسِ ولم يعُد يخرُجُ صوتي.))

الشَّابّانِ اليافِعانِ لم يطلُبا منهُ توضيحاً وأنزلاهُ على الدَّرَجِ العريضِ للأسفل؛ كأنَّهُ كان ينزِلُ إلى حوضِ منزلٍ مُظلِمٍ وأمير خلفَ أوَّلِ حاجِزٍ صارَ أسيراً وهو الآنَ أمامهُما ويسيرُ للوراءِ القهقرى. وعند آخرِ درجَةٍ أحالاهُ إلى شابَّينِ يافِعَينِ آخَرَينِ 15–16 سنة وجهاهُما غضَّانِ بريئانِ والشَّعرُ في وجهَيهِما نابتٌ حديثاً ويرتديانِ معطفَينِ عليهِما طبعاتٌ زيتونيَّةُ اللّون. أخذهُ الشَّابَّانِ ونقلاهُ إلى القبوِ نصفِ المُظلِمِ لِتسليمِهِ إلى يدِ المُشرِفِ على عَمَلِهِما وهناكَ انتبهَ أمير إلى أنَّ رسول خضر جاويد واقفٌ يُراقِبُ عَمَلَ عريفٍ كان يربطُ شخصاً إلى جِهازٍ، وكان هناكَ أشخاصٌ آخرون واقفونَ إلى جوارِ الحائطِ في القبوِ معاطفُهُم قصيرةٌ ونصفُهُم الأعلى في الظَّلامِ إلى رؤوسِهِم فكانوا لا تُرى وجوهُهُم لأنَّ النُّورَ كان مُسَلَّطاً موضعيّاً على الجهاز وعلى الرَّجُلِ المربوطِ إليهِ وجبهتِهِ الَّتي يعلوها العَرَق، سَحَبَ الحَدَثانِ أمير إلى جهةِ الجهازِ والسَّعادةُ تبدو عليهِما كمن

حلَّ عُقدةً وكشف لُغزا. أحدُهُما ولد رمضان كلاه مال قال: ((حسناً... ضمن الأزقَّةِ المُظلِمةِ كان أحدُكُم يُعطي الإشارةَ للآخَرِ بالتَّصفير!)) أمير صارَ مرَّةً أُخرى أخرساً. أجلسوهُ على الجهازِ كأنَّهُ أحدُ المطلوبينَ المُهمّين يوضَعُ تحتَ الإختبار وربطوهُ بأحزمةٍ من قماشٍ مُتَّصِلَةٍ بِأجزاءِ الجهازِ ووصلوا نهايَتَينِ لِسِلكَينِ من الجِهازِ إلى رُكبتِهِ فكانت رعشَةٌ سريعةٌ غريبةٌ هزَّتْ كُلَّ كيانِهِ وأجبرتْهُ عُضواً عُضواً على الارتعاش؛ اهتزازٌ وارتعاشٌ بين قطعٍ ووصلٍ وهو في حالةِ خُرسٍ وقد أدركَ وهو في عينِ تلكَ الحالِ أنَّ حواسَّهُ جميعاً لم تُفقَد فقد كان يستطيعُ تذكُّرَ أشياءٍ سمعها عن الصَّدمةِ الكهربائيَّةِ وكان لذلكَ أثرُهُ في تشديدِ حالةِ خَرَسِهِ فهو أُصيبَ بالخَرَسِ في أثناءِ نزولِهِ الدَّرَج والعجيبُ أنَّهُ تحتَ هذا الجهازِ اللّعينِ أحسَّ بحاجةٍ عجيبةٍ ليستطيعَ أن ينطِقَ حرفاً، أن يُطلِقَ صرخَةً و... لكنَّهُ كلَّما حاولَ أن ينطِقَ حرفاً أو أن يُطلِقَ صرخَةً باءَ بالفشَلِ ولم يستطِع، ولم يخرُجْ صوتُهُ أصلاً. أُغلِقَ حلْقُهُ وصدرهُ ولسانهُ ولم يعد يستطيعُ الإتيانَ بِصوتٍ سوى صوتٍ يُشبِهُ الشَّخيرَ الضَّعيف، صوتٍ كصوتِ ذُبابَةٍ في أصلِ حلقِه. لكِنَّ هذا الصّوتَ لم يوضِحْ شيئاً لرسول خضر جاويد والآخرين. ورُبَّما لم يسمعوا هذهِ الأصواتِ الممسوخةَ أصلاً لأنَّهُم لم يُبدوا أيَّةَ ردَّةِ فعلٍ حيالها وكُلَّما فتَحَ أمير جفنَيهِ رأى يداً تُمسِكُ السِّكِّينَ المُلطَّخَةَ بالدَّمِ أمامَ وجهِه وهو مُختنقٌ ولا يستطيعُ الكلام، مُختنِقٌ ومُستوحِشٌ من هذا الَّذي من المُحالِ أن يُتَخيَّلَ حُصولُه، إذْ لم يعُدْ يسمعُ أيَّ صوتٍ ولم يعُدْ يستطيعُ حتّى أن يسمَعَ صوتَ نفسِهِ وقد وصلَتِ الفاجِعةُ أوجَها حينَ ظنُّوا أنَّ المُتَّهَمَ يُريدُ المُقاوَمَةَ ويرفُضُ أن يتكلَّمَ إليهِم ولم يكُنْ ليخطُرَ ببالِهِم لحظَةً أنَّهُ صارَ أخرساً ((أنَّني صرتُ أخرساً!)) لذلِكَ فإنَّ صاحبَ الجهازِ الَّذي كان أمير في ظِلِّهِ، وأيُّ ظِلٍّ مهيب، كان يُمسكُ بالسِّكّينِ قبالَةَ وجهِهِ ويصرُخُ بِغضَبٍ

. ((هذه السّكّين... هذه السّكّين الملطّخةُ بالدّمِ ما هي؟ أصابِعُ مَن على مقبَضِها؟ مرَّةً أُخرى لا تُريدُ أن تنطِق؟!))

وهو لا يستطيعُ أن يقولَ إنّي أخرسٌ! ولا يستطيعُ حتّى أن يقولَ إنّي عطشان! ((أسفاهُ لعدمِ القُدرةِ على لفظِ كلمةِ ماء!))

خضر جاويد واقفٌ بجوارِ السَّريرِ الخشبيّ فوقَ رأسِ أمير وفي يدِهِ كأسُ ماءٍ وكانَ يبتسِمُ لأمير. كانَ يُخيَّلُ لأمير أنَّهُ في النَّومِ وأنَّهُ يُعاني من كوابيسَ عجيبةٍ تُصيبُهُ ولم يُوفَّقَ ليستطيعَ تحديدَ موقعِ خضر جاويد في الخارج ولا متى نزلَ إلى القبوِ ولا يستطيعُ أن يتصوَّرَ ضحكاتِ السُّخريةِ

الَّتي ترتسمُ على وجهِه. صُداعٌ، صُداعٌ، صُداعٌ، فمُ أمير صارَ مثلَ الآجُرِّ المطبوخِ، وكان مُستعِدّاً ليدفَعَ ثَمَناً لكأسِ ماءٍ واحِدَةٍ كُلَّ ما كانَ امتلَكَ في حياتِه. نهضَ نِصفَ نهوضٍ وأمسَكَ بِكأسِ الماءِ من يدِ خضر وأخذَ نَفَساً وبقي حائراً كمن لا يعرفُ محلَّهُ من الدُّنيا. وفي كابوسِ وعذاباتِ مُعضِلتِهِ المُستحيلَةِ الحلِّ كانت كُلُّ أعصابِهِ قد صُعِقَتْ وهو في عينِ الحالِ يبحثُ بحثاً غريباً ليُنهيَ الكابوسَ بسُرعةِ البرقِ أو الرِّيحِ وينتقِلَ إلى اليَقَظَةِ لينساه. ومن ذلكَ الحينِ وذلكَ الوجهِ ظَهَرَ الكابوسُ كجُزءٍ ملازمٍ لفعاليَّاتِهِ الذِّهنيَّة. ظلَّ على تلكَ الحالِ إلى أن صارَ مُدرِكاً لِحُضورِ رسول خضر جاويد في ذلكَ القبوِ نصفِ المُظلِمِ، ثُمَّ بِشَكلٍ عفويٍّ رَفَعَ رأسَهُ للأعلى ونَظَرَ إلى خِضر.

الآنَ خضر جاويد يجلسُ على كُرسيٍّ صغيرٍ وينظُرُ إلى أمير وأنفُهُ لا يزالُ ضخماً غليظاً ومن المعلومِ أنَّهُ صغُرَ بعدَ الجراحةِ البلاستيكيّة. لم يكُنْ أكثرَ نشاطاً وسروراً من ذي قبل، وإن كان يبدو الآنَ أنحفَ قليلاً. لكِنْ كان يُرى في عُمْقِ عَينَيهِ نوعٌ من الاِعتمادِ على نَفَسٍ جديد. خصوصاً وأنَّ السُّكوتَ والاِتّزانَ في حديثِهِ وفي مسلَكِهِ كانا مُعبّرَينِ عن نوعٍ من الاِطمئنانِ والهدوءِ الخفيِّ في داخِلِه. وكان تعجُّبُ أمير أكبرَ وقتَ تَكَلَّمَ خضر دونَ مُقدّماتٍ كما لو أنَّهُ كانَ يُريدُ أن يصفَعَ بها أمير بعدَ أوَّلِ نَفَسٍ من سيجارتِهِ قائلاً:

. ((كنتُ في السِّجن!))

. ((في السِّجن؟!))

ضحِكَ وقالَ: ((أتعجَب!)) ولم يقلْ أمير شيئاً لأنَّهُ أحسَّ بالنَّصرِ في صوتِ خضر جاويد الَّذي كان يتلاطَمُ موجُه، وكان أمير خائفاً من موجِ صوتِه؛ فقد أعادَهُ ذلكَ بشكلٍ دقيقٍ إلى ذكرياتِ اللّيالي الّتي كانَ يقدِمُ فيها خضر بعدَ مُنتَصَفِ اللّيلِ سكرانَ ولكنَّهُ بكامِلِ قوَّتِه إلى السِّجْنِ يُرافِقُهُ أصواتُ وقعِ قَدَمَيهِ الَّتي تترافقُ دائماً مع أصواتِ قِفلٍ ومصراعِ البابِ الحديديِّ الكبير للسِّجن فينهضُ مُعظَمُ الأفرادِ في غُرَفِ السِّجن، حتّى ولو كانوا نائمينَ ينهضون ويجلسونَ القرفصاءَ إلى الأرضِ ويبقون هكذا ينتظرونَ ليروا بابَ أيَّةِ غُرفَةٍ سيفتحُ خضر وإلى أيَّةِ غُرفةٍ سيدخُلُ وماذا سيقول؟ وخضر يخفي قصْدَهُ ويُفكِّرُ بالكلامِ الَّذي سوفَ يوصِلُهُ بِشَكلٍ غيرِ مُباشَرٍ إلى أُذُنِ مُتَّهَمٍ، وبأيِّ نحوٍ سيفتَحُ بابَ الغُرفَةِ ويدخُلُ فيها، وكيف سيجعلُ يَدَيهِ على حزامِهِ أو يُمسِكُ بِهِما

بالحائِط، ويقفُ لحظَةً هكذا ويُفكِّرُ بالكلامِ اللّازِمِ لكُلِّ مُناسَبَةٍ وباللّحنِ المُناسِبِ لينطِقَ بِهِ كلامهُ كذلك ثُمَّ بعدَ ذلكَ يُلقي واحِداً أو اثنَيْنِ من أعقابِ السَّجائرِ أمامَ رِجلَي المُتَّهَمِ ثُمَّ يسيرُ في دِهليزِ السِّجن وينظُرُ في الفُتحةِ الموجودَةِ في البابِ الصَّغيرِ لِكُلِّ غُرفةٍ ويُلقي بواحِدٍ أو اثنينِ من أعقابِ السَّجائرِ في الغُرفَة ويقولُ وهو على تلك الحالةِ بصوتٍ عالٍ في دماغِه ((زَرْ... زَرْ...خَرْ...زَرْ را خَرْ الحمارُ يُدخِّنُ ذهباً)) وفي النِّهايةِ حينَ يحسُّ أنَّ عُلبةَ سجائرهِ المُذهَّبَةَ قد فَرَغَتْ يعصرُها بيدِهِ ويُلقي بها على الأرضِ ويدوسُها ويضغطُ عليها بِقَدَمِهِ وينقلبُ من عُمقِ السِّجنِ باتِّجاهِ البابِ الحديديّ، وإلى أن يصلَ إليهِ ويخرُجَ منهُ كان يقولُ وهو سكرانٌ كلاماً من كلامِ السُّكارى يذمُّ بِهِ المسجونينَ ويُحقِّرُهُم ويلعنُهُم حتّى يختفيَ صوتُهُ شيئاً فشيئاً ويذهب. بعد ذلك كانت تُسمَعُ أصواتُ أصابعِ المساجينِ تدُقُّ بِقِطَعٍ معدنيَّةٍ على الأبوابِ الصَّغيرَةِ للغُرَفِ تطلبُ الكبريتَ، كان ذلكَ مرَّةً في أوَّلِ نوبةِ حراسَتِهِ داخِلَ السِّجن وقد دخلَ يبدو عليهِ النُّعاسُ وهو يُردّدُ على لسانِهِ بِغَضَبٍ ((خفَّه...خِفَّه...)) لأنَّ جميعَ الغُرَفِ وقتَها كانت تطلبُ الكبريتَ وعلى الحارِسِ أن يمُرَّ عليها غُرفَةً غُرفَةً ويقِفَ خلفَ بابِ كُلِّ غُرفَةٍ ومعهُ الكبريتَ ليُشعِلَهُ ويخرِجَ كُلُّ مسجونٍ طَرَفَ سيجارتِهِ من الفُتحةِ الموجودَةِ في البابِ الصَّغيرِ إلى الخارِجِ ويأخُذَ نَفَساً وينفُخَ إلى أن تشتعِلَ السَّيجارةُ بالكبريت، وفي تلكَ الحالِ لم يُفكِّرْ أحدٌ لماذا اختارَ خضر جاويد، بِصَرفِ النَّظَرِ عن هَدَفِهِ، هذا الوقتَ من اللّيلِ للمرورِ فجأةً ولمنحِ السَّجائرِ؟ ((هل كان هذا العملُ لِعَرضِ القوَّةِ فقط؟ عرضُ قوَّةٍ محضٍ؟ أم أنَّ هناكَ بواعثَ أُخرى وراءه، بواعثَ من قبيلِ الخوفِ من المُستقبَلِ مثلاً؟ أم ميلٌ ورغبةٌ لرحمةِ من هُم تحتَ يدِهِ بسبَبِ إحساسٍ بنوعٍ من النَّدَمِ الخفيّ ناشئٍ عن الإحساسِ بالذّنبِ الّذي برزَ ظاهراً فجأةً؟ وهل من غيرِ المُمكِنِ لخضر جاويد في مثلِ هذا الوقتِ من مُنتصَفِ اللّيلِ أن يُبتلى بخوفٍ خفيّ من المُستقبَلِ من نفسِهِ ويميلَ للرَّحمةِ على من هُم تحتَ يدِه . وبعضُهُم وصلَ إلى حدِّ الهلاكِ من التَّعذيبِ ولا يزالُ يُعذَّب . فيعطِفَ عليهِم ولو بنَفَسٍ من سيجارةٍ أو زيارةٍ بدونِ عصا، رحمةٍ استيقظتْ فجأةً في داخِلِه؟)) لا، لا أحَدَ يُفكِّرُ بِمِثْلِ هذهِ الأفكارِ وليسَ هناكَ وقتٌ ولا مجالٌ لمثْلِ هذا العَمَل.

((أنتم عذَّبتموني بلا معنىً ولا حقٍّ لأنَّهُ لا أثَرَ لي في أصلِ أو فرعِ تلكَ الواقعة.))

خضر جاويد كان فقط ينظُرُ إلى أمير وأخذَ منهُ الكأسَ الّذي كان صبَّهُ لِنفسِهِ ورفعهُ إلى شفتِهِ وشربَهُ بِدمٍ باردٍ. بعدها أمسَكَ بِعلبةِ سجائرِهِ أمامَ يدِ أمير ليأخُذَ منها سيجارةً وكأنَّ أمير لم يجرؤ على الرَّفضِ فتناوَلَ سيجارةً. خضر جاويد أشعلَ قدَّاحَةً وأمير أطلَقَ دُخانَ سيجارتِهِ وقال:

. "نور أقدس، نور أقدس خمامي. قلبي يريدُ أن يعرفَ مصيرَها وأينَ أخذوها؟"

بلا رهبةٍ ومن دونِ تأكيدٍ أيضاً أطلقَ هذهِ الكلمات. خضر بالمقابلِ عبَّرَ بضُحكةٍ عابرةٍ وخفضَ نظَرَه، وأمير أحسَّ أنَّهُ كان ينظُرُ إلى قعرِ الكأسِ وربَّما كان يبحثُ عن كلماتٍ ليُغيّرَ الموضوع. بقي خضر على تلكَ الحالِ لحظَةً ثمَّ بعدها راحَ ينظُرُ إلى أمير وأمير مُضطَرٌّ لتدخينِ سيجارتِه، وبتلكَ الذَّريعةِ يستطيعُ أن يسرِقَ نظرةً من عينَي خضر جاويد. وسريعاً فهمَ أنَّ خضر لم يبدِ رغبةً في الدُّخولِ في مثلِ هذهِ المواضيع وقد استنبطَ أنَّ خضر مشغولُ الفكرِ في الحالِ وفي المُستقبَلِ وليس لديهِ رغبةٌ في ذهنِهِ للدُّخولِ في فوضى الماضي رغمَ أنَّهُ لم يُظهِرْ أيَّ حسٍّ بالنَّدَمِ من ماضيه. وحتّى تلكَ المرَّةَ الأولى الّتي نزلَ فيها خضر جاويد إلى القبو عندَ أمير وكانَ الجرحى في الشَّوارِعِ فإنَّ خضر جاويد، عمداً أو كعادةٍ، كان يُظْهِرُ في حالتِهِ وسلوكِهِ قوَّةً وثقةً بالنَّفسِ وفعاليَّةً ولم يكُن فكرُهُ مشغولاً بشيءٍ سوى التَّحقيقِ ولم يكُن يتردَّدُ إلّا لمعرِفَةِ الطَّريقِ وانتخابِ الشَّكلِ المُنطبِقِ على الشَّرائطِ والتَّعليماتِ الجديدةِ وطبعاً فإنَّ أثرَ التَّردُّدِ والإنشغالِ على وجهِهِ أصغرُ من أن يُصيبَهُ باليأس . وتلكَ اللّحظَةَ انتبهَ أمير من مغزى وهيئةِ كلامِهِ إلى أنَّهُ واحدٌ من المسؤولينَ عن تشكيلِ هيئةِ الإجتماعِ لمأموريّ الأمنِ أمامَ الوزيرِ الأوَّلِ لدولةِ الثَّورة, وتعجَّبَ أكثرَ وهو يحسُّ أنَّ الإحساسَ بالثِّقةِ والإطمئنانِ عندَ خضر جاويد لا يُمكنُ أن يكونَ من نفسِهِ وشخصيَّتِهِ بشكلٍ صِرْفٍ بل رُبَّما أيضاً من اعتمادِهِ على دعمٍ كاملٍ واقعيٍّ خارجيٍّ. ولذلِكَ لم يكنْ لديهِ جُرأةٌ ليطلِبَ منهُ شيئاً أو يسألَهُ عن شيءٍ صراحةً، حتّى بخصوصِ زوجتِه، إلّا بشكلٍ نادرٍ وغيرِ مباشَرٍ وبكلماتٍ فيها تضرُّعٌ وخضوع. الآنَ ومثلَ كُلِّ مرَّةٍ نهضَ وذهبَ فأحضَرَ غالونَ المشروبِ ووضعَهُ بجانبِ يدِ خضر ووضعَ بِضعَ حبَّاتٍ من الزَّيتونِ من أجلِهِ كذلك ورمى الرَّمادَ وأعقابَ السَّجائرِ في المكانِ المُخصَّصِ، وخضر جاويد ملأ كأسَهُ مرَّتينِ وقبلَ أن ينتهيَ من شُربِ الكأسِ إلى آخِرِها، أدخلَ يدَهُ في جيبِهِ وأخرَجَ منها ورقةً إعلاميَّةً وجعلَها في يدِ أمير وقال بلهجةِ تحقيرٍ واضِحَة:

. ((شغِّلْ رِفاقَكَ! عمِّمْ هذهِ اللائحة!))

وبالتَّحقيرِ نفسِهِ ودونَ انتظارٍ لردِّ فعلِ أمير استمرَّ قائلاً باستهزاء:

. ((نحنُ أيضاً عمَّمناها، أكثرَ من تسعةِ آلافِ اِسْم!))

أمير لا يستطيعُ رفعَ رأسِه، وقد طالَ خفضُهُ لرأسِهِ أكثرَ من الحدِّ المعمول وكأنَّ ثِقَلَ التَّحقيرِ كان أكثرَ ممَّا تستوعبُهُ روحُه، خضر جاويد بخُيلائهِ واستهزائهِ لم يسحقْ أمير فقط بل ربَّما أرادَ أيضاً الاستهزاءَ بالأُمَّة. وهنا ظنَّ أمير أنَّهُ قد ضاعَ ولقد كان ظنُّهُ وشكُّهُ . فجأةً . صحيحَينِ فكأنَّما غاصَ إلى رأسِهِ في بركَةٍ من الطِّينِ وأحسَّ أنَّهُ يتجمَّد. ثُمَّ لم يعُدْ يُعطي مجالاً في فِكرِهِ للتَّحليلِ وبلا رهبةٍ رجعَ إلى اللّحَظَاتِ البارزةِ لخضر جاويد بذلِكَ الأنفِ الضَّخمِ وعينَيهِ الحِمَّصيَّتَينِ في مسيرةِ حياتِهِ من السِّجنِ إلى هذهِ اللّحظَة، من لحنِ ذلكَ الشَّاعِرِ الَّذي صوتُهُ مثلَ صوتِ ديكٍ مخصِيّ وهو يجلسُ على كرسيٍّ صغيرٍ خارجَ السِّجنِ ليُقرقِرَ نشيدَ الثَّورة، إلى قالَبِ رجُلٍ صيَّادِ سَمَكٍ جائعٍ في الصَّباحِ يُدخِّنُ سيجارةَ أشنو . ويجه، إلى عَينَي ويدَي ذلكَ القائدِ الَّذي يملكُ حزباً يرسِلُ إلى مسلَخِ الموتِ ويهدي لليأسِ أرواحَ الشُّبَّانِ لمُدَّةِ أربعينَ عاماً، وأخيراً... في داخِلِ نفسِهِ، في ظِلِّ وفي رفقةِ نفسِه. والآنَ فكَّرَ أنَّهُ بعدَ إلقاءِ هذهِ الأحاسيسِ والانفعالاتِ من خاطِرِهِ جانباً يستطيعُ أن يتذكَّرَ تلكَ اللّحظَةَ المليئةَ بالخوفِ حين تُفتَحُ أبوابُ السِّجن وبأيَّةِ هيئةٍ كان خضر جاويد يقفُ وبأيِّ شكلٍ وفي أيِّ ميدان: وكان في فكرِهِ أنَّ خضر رُبَّما كان يبقى بعيداً عن الأنظارِ في لَحَظَاتِ الإضطرابِ والغوغاء، أمَّا في المواقِفِ الحرجَةِ فيجبُ أن يكونَ موجوداً وليسَ من الإلزامي ظهورُهُ في هيئةٍ واحدةٍ ومظهرٍ واحدٍ دائماً بل ربَّما كان العكْسُ وأن يظهَرَ كُلَّ مرَّةٍ بالهيئةِ المناسبةِ والمظهرِ المناسب. والآن...

. ألا تُريدُ أن تسيرَ خطوةً واحدةً إلى المقبرة؟ أخيراً يريدونَ دفنَ أُختِك... وأنا مُتعَبٌ... أريدُ أن أنامَ ساعةً أو ساعتَين... ألا تريدُ الذَّهاب؟ أنا أوصي بالذَّهاب! كم للشَّخصِ من أخٍ وأخت؟!))

((لا، هذا الرَّجُلُ المُختفي ضمنَ معطفِهِ المطريّ البالي، هذا الرَّجُلُ النَّحيلُ بِشَعرِهِ الطَّويلِ المُبلّلِ الَّذي يتحرَّكُ وسطَ المقبرةِ المُظلِمَةِ وبينَ قبورِها، لا يُمكنُ أن يكونَ أمير... أمير الَّذي كان يخفي نفسَهُ تحتَ لحافِهِ إلى هذا الحدِّ لا يُتَصَوَّرُ منهُ أن يخرُجَ بهذهِ السُّرعة، ولكنْ هذا الرَّجُلُ وَسَطَ المقبرةِ الَّتي يسقُطُ المطَرُ عليها، هو أيضاً يقيمُ مراسِمَ الدَّفْنِ في هذا الوقتِ المتأخِّرِ من اللّيلِ ويدورُ كمن يبحثُ عن شيءٍ فلا يجدُه والَّذي لا يُمكِنُ أن يكونَ أمير يُمكِنُ أيضاً أن يكونَ أمير.

هذا الرَّجُلُ ليسَ أميري ولكنَّهُ ليسَ عجيباً أن لا يكونَ واحداً غيره. هو يظُنُّ أنَّهُ كابوسُ أمير. ولكنْ لماذا وكيفَ لا أستطيعُ أن أرى كابوسَ ولدي أو أرى ولدي في الكابوس؟ ربَّما؟... ربَّما لا يملك. شطَّ خيالي. أخيراً عليَّ أن لا أذهبَ وراءَ خيالاتي! في هذهِ الحادثةِ الصَّغيرةِ أستطيعُ في الواقعِ البصريِّ أن أحسَّ وأن أقبلَ أنَّ هذا هو ظلُّه. لكنْ... هذهِ حادثةٌ تفصلُها فراسِخُ عن مَرَضِ الجنون، وإذا كان غيرُ ذلك فكيفَ لي أن أفهمَ وأدركَ معنى الخيالاتِ الَّتي تحصلُ لي؟ وكيفَ ليَ الفصلُ بينَ هذهِ الحادثَةِ والقولُ بالجنون؟ ...لكنْ في جميعِ الأحوالِ فإنَّ الرَّجُلَ الَّذي يقومُ بمراسِمِ الدَّفنِ بينَ القبورِ وتحتَ المطَرِ لا يشبِهُ شخصاً غيرَ أمير. يجبُ أن يكونَ أمير نفسَهُ، أمير نفسَه...))

يوماً عندَ الغروبِ والمطرُ يسقطُ، فرزانةُ أختُ أمير جاءتْ لرؤيتِه حاملةً لهُ معها مقداراً من الشَّمْعِ والجِصِّ وسائرِ وسائلِ العملِ الأخرى. كان الكولونيل واقفاً خلفَ نافذَةِ غرفتِهِ يدخِّنُ سيجارةً وينظُرُ إلى المطر، ومرَّةً أُخرى استطاعَ أن يسمعَ جزءاً من مُحادثتِهِما. هذهِ المرَّةَ فرزانةُ لم تكنْ تبكي وأطفالُها لم يكونوا معها. ((لا أظنُّ أنَّ أمير كان قد طلبَ منها وسائلَ وموادَّ صُنعِ المُجسَّمات)) لأنَّهُ وحَسَبَ علمِهِ فإنَّ عَمَلَ المُجسَّماتِ من قِبَلِ أمير لا علاقةَ لهُ بالموادِّ الطَّبيعيَّةِ. لذلك ففرزانةُ يجبُ أن تكونَ من نفسِها شخَّصتْ وهيَّأتْ بفِكرِها الموادَّ الطَّبيعيَّةَ الضَّروريَّةَ لعَمَلِ المُجسَّمات من محبَّتِها له ((وربَّما كانت حيلةً للتَّحدُّثِ إلى أقربِ إخوتِها إليها)) فإنَّ فرزانةَ وُلِدَتْ بعدَ أمير بسنتَين، وهذهِ المُقابَلَةُ بينَ الأُختِ وأخيها كانت بنَظَرِ الكولونيل عقلانيَّةً بشكلٍ كاملٍ ودقيق. لأنَّ فرزانة لم تكُنْ تبكي ((مثلَ كلِّ مرَّةٍ)) وكان أمير يتحدَّثُ إليها في عَينِ حالِ إدراكِهِ لكُلِّ ألوانِ التَّأثُّرِ العاطفيِّ الّتي كانت تبديها فرزانة: . ((أنت ضائعةٌ يا أُختي وأمَّا أنا...أنا منفيٌّ. في كلِّ دورٍ من أدوارِ اللّعِبِ هناكَ جماعةٌ . الجماعةُ الّتي تذهبُ لتعرِفَ هويَّةَ ذاتِها وتتمسَّكَ بها تُنفى، كأسماكٍ منفيَّة. أبونا، لكي يستطيعُ حِفظَ ميزانِ ذِهنِه، يُديمُ النَّظَرَ ذلكَ المِقدارَ إلى صورةِ الكولونيل ضمنَ الإطارِ حتّى يشيبَ شعرُه، وأنا إذا كُنتُ أعملُ هذا المُجسَّمَ بيدي فذلكَ لِأُشغِلَ قلبي بالنَّظَرِ إلى شيءٍ وأتصَوَّرَ أنَّهُ يمتلِكُ هويَّةً. مُشكلَتي يا أُختي مُشكِلةٌ مُرعِبَةٌ، مُشكِلَةُ غريبٍ في بيتِه! وكلُّ تاريخِ وطنِنا حكايةٌ مُفجِعَةٌ لها نفسُ المعنى، حكايةٌ مُفجِعَةٌ لِغريبٍ في بيتِهِ. لكنَّهُ عجيبٌ. عجيبٌ أن لا تصيرَ هذهِ الفاجعةُ لنا عاديَّةً، أن لا يصيرَ التَّأسُّفُ لنا عاديّاً. لكي تصيرَ مُعتَبَراً وتتعرَّفَ على قِيَمِ الطَّبَقَةِ المُتعاليةِ فالشَّرطُ الأوَّلُ لذلكَ أن لا يكونَ المرءُ نفسَه وأن لا يكونَ

من أهلِ هذا التُّراب، أمَّا إذا أردتَ أن تكونَ وطنيّاً ومُعاهِداً نفسَكَ أن تبقى معَ نفسِكَ ووطنِكَ وشعبِكَ ومُرتبِطاً بذلِكَ وأن تبقى وفيّاً لذلك، فذلكَ الحينُ سيكونُ أقلُّ جزاءٍ لكَ أن تكونَ الغُربَةُ نصيبَك. لكنَّكَ تصيرُ موجوداً وفريداً وفدائيّاً ومعروفاً إذا كنتَ صدى شيءٍ آخر، إذا كُنتَ شيئاً آخَر. أنا يا أُختي أريدُ أن أكونَ صدى وطني، أنا أُحبُّ وطني بقلبي يا أُختي، ولكنَّني لستُ كالآخَرينَ صدى حزبي، لذلكَ أنا غريبٌ، غريبٌ في بيتي. وكلُّ تاريخِ وطني حكايةٌ مُفجعةٌ لها نفسُ المعنى. أنا منفيٌّ عن هويَّتي يا أُختي، لذاكَ أنا ضائعٌ. هذا معناهُ في الفِكْرِ موتُ نفسي. لكنْ...لكنْ موتٌ ليسَ من منظورِ أنَّهُم أبعدونا جميعاً. أنا لا أريدُ أن أُقتَلَ بيدِ واحدٍ من أُخوتي، رغمَ أنَّهُ من المُمكِنِ أن تكونَ يدايَ مُلوَّثتينِ بدماءِ إخوتي، وهُما مُلوَّثتان! أنا نفسي أُريدُ أن أقتُلَ نفسي، وبقتلِ نفسيَ الضَّعيفَةِ أهبُهُم إيَّاها كغُصْن. مهما يكُنْ، رُبَّما يكونُ هو نفسُهُ جزءاً من مهزلَة، لكنْ في عينِ الحالِ هذا هو الإقدامُ المُستقِلُّ الوحيدُ الَّذي أستطيعُ القيامَ به، لأنَّهُ على كُلِّ حالٍ نحنُ جميعاً ضائعونَ أو أنَّنا سوفَ نضيع، ولِذاكَ السَّبَبِ كنتُ قد شرعتُ بالعودةِ إلى نفسي وهذا معناهُ أنَّهُ يجبُ عليَّ أن أتحمَّلَ دفعَ غرامةٍ ثقيلةٍ وأعانيَ انتقاماً شديداً. إذ كانوا يُلقِّنوننا أنَّ هناكَ حيَّةً في ثيابنا، وأن أمسِكوها، حيَّةٌ أبناؤنا أيضاً، إخوانُنا، الجارُ والمواسي، أمسِكوها! أمسِكوا أولادَكُم، أمسِكوا كُلَّ نسلِكُم، أمسِكوا الحياة، أمسِكوا المُقاوَمَة! أنتم لا تعرفونَ خَطَرَها؟! اسمُهُ على اللّسانِ! أمّا أنا ففي مجرى أحداثِ هذا الإنتِقامِ المُريع، وإلى لحظَةِ الموتِ سيكونُ شُغلي الوحيدُ أن أبكي. أعلمُ أنَّ أُختي ستضيعُ، أعلمُ أنَّهُم سيمُرُّونَ بجنازةِ أخي أمامَ عيني. أعلمُ أنَّ أبي سيُصابُ بالجنونِ في نهايةِ المطاف، أعلمُ أنَّكِ ستصيرينَ تحتَ الأسنانِ الصَّفراءِ المُنتِنَةِ لحجَّاج بن يوسف، وأعلمُ أنّي سأقتُلُ نفسي بنفسي، لأنَّني قرأتُ دفترَ الضَّياعِ خطّاً خطّاً ولكنَّني لا أُريدُ أن أبكي. كما لا أريدُ أن أكونَ مسروراً، لا أُريدُ أن أقبلَ ضياعاً في فَرَحٍ مُضحِكٍ، ولا أريدُ أن أصيرَ مُهرّجَ الميدان، وقد كانت مهنتي إلى الأمس، ولكنَّني لا أُريدُ أن أبكي. سكوتٌ، وسكوتٌ فقط، وبسيفِ السُّكوتِ أستطيعُ أن أجعَلَ العالَمَ كُلَّ العالَمِ ينظُرُ إلى الضَّياعِ الَّذي أُعانيهِ والَّذي لا نظيرَ لهُ أبدا. أيَّةُ ضريبةٍ وأيُّ انتقامٍ مهولٍ يا أُختي!))

لم يسمعِ الكولونيل صوتَ فرزانة. لا بُدَّ أنَّها كانت في تعجُّبٍ وعجز، وحائرةً في عينَي وفمِ أخيها، وقد بقيتْ جامدةً ساكتة. ما تستطيعُ فرزانةُ أن تقولَ وعن أيِّ شيءٍ تستطيعُ أن تكونَ مسؤولةً؟ إنَّها تستطيعُ أن تقفَ مبهوتَةً وأن تسكبَ الدّمعَ وهي ترى أخاها بهذا الشَّكل: ربَّما مرَّت

ساعةٌ أو أكثر إلى أن سمِعَ صوتَ أقدامِ فرزانة وهي تصعدُ على درجِ القبو؛ وحين خرجتْ من القبوِ كان الكولونيل واقفاً خلفَ زُجاجِ النَّافذةِ ورآها وقد جلستْ على حافَّةِ الحوضِ تغسِلُ دمعَها. رجعَ الكولونيل عن النَّافذةِ وذهبَ في عُمقِ الغُرفةِ ثُمَّ رجعَ وأشعَلَ مصباحَ الكهرباءِ وجلسَ على كرسيٍّ جلديٍّ خلفَ الطَّاولةِ وأشعَلَ سيجارةً أُخرى بانتظارِ ورودِ ابنتِه. هو يعلمُ أنَّ فرزانةَ لن تُغادِرَ المنزلَ دونَ رؤيتِه مهما تكنْ قد اضطربت وتشتَّتتْ من رؤيةِ أمير وحديثِه. ويعلمُ أنَّ فرزانةَ بمجيئِها إلى بيتِ أبيها تخلقُ الظُّروفَ الملائمةَ للخصومةِ والإهانةِ والمُشاكَسَةِ مع قرباني حجّاج وهي تعرفُ ذلك و((أنا أعلمُ أنَّها غالباً ما تأتيني بالقُرصِ المُهدِّئ)) وقطعاً الكولونيل يُلقي بأقراصِهِ في حوضِ غسلِ الأقدامِ أنْ ((لماذا يجبُ أن أكسِرَ قلبَ ابنتي؟!))

((لا، هذا الرَّجُلُ المُختفي في معطفِهِ المطريِّ البالي، هذا الرَّجُلُ النَّحيلُ بشَعْرِهِ الطَّويلِ المُبَلَّلِ الَّذي يتردَّدُ بينَ القبورِ تحتَ المطرِ لا يمكنُ أن يكونَ أميرَنا. أمير...أصلاً أيُّ دليلٍ هُناكَ غير كوني مُقيَّداً بالوهمِ ومشغولاً بِه؟ أليسَ أمامي شُغْلٌ وعليَّ القيامُ بِه؟ عَملٌ اضطراريٌّ ولهُ وقتٌ مُعيَّنٌ لإنجازِه. لذلكَ لا يجوزُ أن أُضيّعَ الوقتَ بِمشاغِلٍ غيرِ ذاتِ علاقة. المغسَل، نعم... المغسَلُ واقِعٌ في الجهةِ الّتي يذهبُ فيها الكولونيل تماماً، إلّا أن يكونَ مائلاً قليلاً إلى اليمين. المكانُ أمامَ المغسَلِ مكانٌ موحِشٌ في نظرِ الكولونيل. أكثرُ وحشَةً من المقبرةِ نفسِها. تصوُّرُ مُحيطِ المغسَلِ، وفي اللّيلِ خاصَّةً، يوقِفُ شَعرَ الرَّأس. هذهِ حكايةٌ لم تكنْ تُسمَعُ قليلاً فالكثيرُ من أنصافِ اللّيالي مرَّتْ على أُناسٍ في المغسَلِ واضطرّوا للتَّركِ من الرُّعب. ((فكيفَ لي في هذهِ اللّحظَاتِ ويدايَ في عينَيَّ من البُكاءِ أن لا يكونَ التَّفكيرُ بالخوفِ عندي طبيعيّاً؟)) لكنْ في نَظَرِ الكولونيل ما أكثَرَ ما كانَ لهذينِ الشَّابَّينِ في تمامِ هذهِ اللّحظَاتِ الّتي مرَّتْ من قلقٍ، واحدٌ من وجوهِه الخوفُ الطَّبيعيُّ من الميّتِ والمغسَل. في وجودِ هذهِ الزّيادةِ اليوميَّةِ في الموتِ والقتلِ فإنَّ للشُّبّانِ أثراً واضِحاً فيها كُلٌّ بمُقتضى موقعه. فقط وحدها هيجاناتُ الموتِ حرفَةٌ لا تستوحِشُ من اللّيلِ والميّتِ والمغسَلِ إلى ذلكَ الحدّ، وحقيقةُ ذلكَ في نَظَرِ الكولونيل أنَّ الشُّبّانَ مهما كثُرَ تعليمُهُم عن الدَّمِ والموتِ والقتلِ فلا تزالُ أمامهُم مسافةٌ ليصلوا إلى هَيَجانِ الموتِ الواقعيّ. هؤلاءِ الشُّبَّانُ الَّذينَ لم تصِرْ أسنانُهُم بعدُ صفراءَ ومتوحِّشَةً ((كما أتصوَّرُ من هم قديمون في حرفةِ الموتِ وانتخَرَتْ عظامُهُم على هذا العَمَل)) وإن كانت أسنانُهُم الذِّئبيَّةِ بيضاءَ وقويَّةً، لذلكَ فإنَّهُ من الطبيعيِّ أنَّ الذّئابَ تخافُ من اللّيلِ والميّتِ والمغسَلِ . وإن لم يكُنْ بشكلٍ واضحٍ ..

الآنَ أسمعُ أصواتَ أقدامِهما، ثمَّ وأنا أقتربُ منهما أكثرَ أستطيعُ رؤيتَهُما يمشيان. تحتَ أغصانِ الشَّجَرَةِ بلا أوراقٍ وبملاصَقَةِ جذعها الرّطب، وقف ليأخذَ نَفَساً دونَ أن يلقيَ نظرةً على الوجهِ الخارجيّ للمغسل. الآنَ يرى المأمورَينِ الشّابَّينِ ووجهاهُما غيرُ قابلَينِ للتَّشخيصِ بعدُ وهما يمشيانِ غيرَ مُطمئنَّين، وكتِفُ أحَدِهِما إلى كتِفِ الآخر. وكما يبدو للنَّظَرِ فإنَّهما يمشيانِ دونَ أن يتحادثا، كأنَّهُما يريدانِ أن يمضيَ الوقت ((ربَّما أُصيبا بالخوف، خوفٍ من جنازةِ البنتِ النَّحيلة، خوفٍ من روحِ الطِّفلةِ الّتي هي في كلِّ الأحوالِ بلا ذنب)) و ((ربَّما هما غاضِبانِ عليَّ فقد أكونُ قد تأخَّرتُ بنَظَرِهما. وقطعاً معهما الحقُّ. لأنَّهُ في النِّهايةِ متى يُنجَزُ العملُ الّذي لابُدَّ وأن يُنجَز؟ فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهما جاءَ في عمل، وهما جاءا في هذهِ اللّيلةِ المطيرةِ ليساعدَانِني في جنازةِ ابنتي عمليّاً! فضياعُ الوقتِ مدعاةُ ألمٍ وحيرَةٍ لهما من جهةِ تفكيرِهما بوضعِهِما.)) أمّا من جهةِ كونِهِما مُضطربَينِ وغيرَ هادِئين وهما يمشيان فذلكَ بنظَرِي لأنَّهُما لا يُريدانِ أن يفسحا مجالاً لِنَفسَيهِما للتَّفكيرِ بوضعِهِما. ظاهراً لم يكونا يُدخِّنان رغمَ وجودِ موقعٍ مناسبٍ تحتَ حاشيةِ سقفِ المغسَلِ حيثُ يُمكنُهُما الوقوفُ في ملجأٍ والتَّدخينُ حتّى تمضيَ السَّاعاتُ من اللّيل ((وأنا نفسي كان عندي ميلٌ غريبٌ لتدخينِ سيجارةٍ لو كان يسمحُ لي المطرُ الّذي كان ينهمر، ولم يسمح.)) لا، يجبُ أن أذهبَ وأنهيَ عَمَلَ هذهِ اللّيلةِ ثمَّ أُشعِلُ سيجارةً، كما كان الحالُ بعد مراسِمِ دفنِ محمّد تقي، حين عادَ إلى المنزل، وأخذ نفساً من سيجارةٍ أشعلَها بعد شُربِهِ لفنجانٍ من القهوةِ وقد كان مذاقُها لذيذاً بِشكلٍ غريب ((كأنَّها المرَّةَ الأولى الّتي يضعُ فيها سيجارةً بِفمِه)) ذلك اليوم كانت عينا أمير تركِّزانِ في حيرةٍ على نُقطةٍ وقد بدا للكولونيل أنَّهُ يرى عينَي وَلَدِهِ للمرَّةِ الأولى بشكلٍ دقيق. وفي ذلكَ اليومِ لمعتْ فكرةٌ غريبةٌ في ذهنِهِ للحظةٍ ((أولادي... ليتَ أنّي لم أحصلْ عليكُم منذُ البداية!)).

لا يزالُ أمامي طريقٌ لأقطَعَه، وذانكَ الشّابّانِ غيرُ النّاضجَين يكادانِ يخرجانِ عن طورِهِما من التَّشويشِ والاِضطراب ((وإنَّهُ لمحلُّ شُكرٍ أنَّهما لا يستطيعانِ أن يرَيا الكولونيل بعُيونِ رأسَيهِما، وإلّا لكانا أُصيبا بالسَّكتَةِ في مكانِهِما)) لأنَّ الكولونيل كان يقفُ في ذلك الجانبِ على صخرةِ قبر، وكانت قامتُهُ تبدو طويلةً جدّاً. وكان حذاؤهُ الطَّويلُ يلمعُ وكأنَّ الوحلَ والطِّينَ في طريقِ المقبرةِ لم يؤثِّرا أيَّ تأثيرٍ على هذا الحذاءِ الأسودِ البرَّاقِ للكولونيل، لا بل يُمكِنُ القولُ أنَّ المطرَ والطِّينَ والوحلَ زادتْ من لمعانِ وبريقِ حذاءِ الكولونيل الّذي صارَ مُلفتاً للأنظارِ بِشكلٍ لا نظيرَ

له ((يجبُ أن لا يروا حُضورَ الكولونيل وجهاً لوجه)) كيفَ يُمكنُ أن يكونَ ذلكَ ممكناً؟ هذانِ الشَّابَّانِ سيريانِ هذا الرَّجُلَ العجوزَ مجنوناً؟ لا، اقتربَ وأَسنَدَ المعوَلَ والمجرفَةَ إلى حائطِ المغسَلِ ومسحَ عرقَ جبهتِهِ المُمتزِجَ بماءِ المطر وبعدَ **سلام** لمرَّةٍ واحدةٍ وجوابٍ قصيرٍ وعليلٍ من الشَّابَّين، كان من المناسبِ الإعتذارُ عن التَّأخُّر

. تريانِ كم عندَ ابنِ آدمَ من المشاكِلِ أيُّها السَّيِّدان، تريان؟!

((أنا مجبورٌ مرَّةً أُخرى أن أتصالحَ مع زوجتي مع زوجتي فروز.))

زوجةُ الكولونيل، وكأنَّها علمتْ أنَّ السَّيِّد قرباني لم يُعطِ إجازةً لغَسْلِ ابنتِها لفرزانة، فجاءت قبلَ الجميعِ ووقفتْ بجانبِ المغسَلِ بانتظارِ عودتِه، والآنَ فمن غيرِ الإنصافِ أن يُلقيَ الكولونيل بنَظَرِهِ إلى الأرضِ ويمنعَها من القيامِ بالعمل، ففروز جاءتْ لِغَسْلِ ابنتِها في الواقِع. لكنَّها قبلَ البدءِ بالعملِ أرادتِ الإطمئنانَ لِعَدَمِ وجودِ مانعٍ من جانِبِ الكولونيل. في الحقيقةِ لم يكنْ مانِعٌ من قِبَلِهِ لإحسانِ زوجتِه، خصوصاً وأنَّهُ من الظُّلمِ منعُها من غسْلِ ابنتِها وخاصَّةً معَ وجودِ هذا الإلحاحِ من طَرَفِها، وذلكَ يُعتَبَرُ في حضورِ الكولونيل نوعاً من التَّجاسُر ((وأنا لا أرى أيَّةَ قيمةٍ للجسارةِ من نفسي لأُسبِّبَ لها الألم وأكونَ كولونيلاً)) فكانَ أن دلَّها على بابِ المغسَل كما لو كان هناكَ اتِّفاقٌ بينهما.

وجهُ زوجةِ الكولونيل كان مثلَ القمر، بعضُ شَعرِها أبيضٌ وشفاهُها بيضاءُ مثلُ كَفَنِها. فقط عيناها كانتا تبدوانِ حمراوينِ تحتَ نورِ السِّراجِ الزَّيتي الموضوعِ على عمودٍ ملاطيٍّ في المغسَل. بدتا حمراوَينِ ككأسَينِ من الدَّمِ. ولو لم تكُنْ عينا فروز حمراوَينِ لكانت في كَفَنِها الطَّويلِ الأبيضِ شبيهةً بجناحِ غمامةٍ تتبخترُ على وجهِ الأرض. لأنَّها لم تنطق بكلمةٍ ولم تنظُرْ أيَّةَ نظرةٍ. فروز كانت في أكثرِ لحَظَاتِ عُمُرِها طاعةً ((وهي أندرُ لَحظاتِ عمرها))، وراحت زوجتُهُ تخطو خُطوةً خُطوةً في دلالٍ إلى جهةِ مصطبَةِ المغسَلِ وكان سُلوكُها هادئاً لطيفاً ((كأنَّها كانت تطلبُ منّي الحلالَ وتجعلُ قلبي صافياً من جهتِها. أيُّ انتقام!))

((أقتُلُها، قبلَ أن أّذهبَ إلى هذهِ المأموريَّةِ الثَّقيلَةِ أقتُلُها!))

واقفاً كان. فجأةً واقفاً كان وأمير بغيرِ اختيارٍ منهُ ظلَّ ينظُرُ إليهِ في حيرة. رُبَّما لم يكنْ فكرُهُ حاضِراً وكان غريباً جدّاً عليهِ وبعيداً عن الخيالِ أنَّ الكولونيل الَّذي هو أبوهُ يقتُلُ أُمَّهُ ويُعلنُ ذلكَ

بِصوتٍ عال. ربَّما كان قلبُ أمير يريدُ مساعدَةَ أبيهِ بشكلٍ ما، لكنَّهُ لا يستطيعُ أن يقومَ بأيِّ عَمَل. لا، هو لا يستطيعُ منعَ تصميمي ((الَّذي كنتُ قد عقدتُهُ)) كما لا يستطيعُ مساعَدَتي في العَمَلِ ((الَّذي كنتُ أقصدُ القيامَ به)). أمير كان يستطيعُ الوقوفَ جانباً والإنتِظارَ حتّى يُنهيَ والدُهُ المُشكِلَةَ. ((أنا،أنا مرَّةً أُخرى بكيتُ وانكسَرت)) ورُبَّما كان أمير يتمنّى أن يمُرَّ هذا الإنكسارُ بسُرعةٍ ليصرِفَ الكولونيل النَّظَرَ عن قتلِ والدَتِه. لكنَّ الكولونيل ((بقصدِ منعِ هذهِ الرَّغبةِ وإجهاضِها)) نهض، ألقى بقُبَّعتِهِ النِّظاميَّةِ بعيداً، وخرجَ من المنزلِ حاسِرَ الرَّأسِ، عَبَرَ الباحَةَ أمامَ المنزلِ وخرجَ من بابِها للخارِجِ ثُمَّ وقفَ وسَطَ الزُّقاقِ تحت المطرِ بانتِظارِ زوجتِه.

. تريانِ ابنَ آدَمَ أيَّةَ مشاكلٍ لديهِ أيُّها السَّيِّدانِ، تريان؟! الآنَ أنا في خدمتِكُم. سَلَّمَ قطعَةَ القماشِ الكَفَنَ إلى فروز ويجبُ عليهِ الآنَ أن يأخُذَ المعولَ والمجرفةَ من أسفَلِ الجدارِ العَفِنِ للمغسَل. ويرفَعُ المعولَ والمجرفةَ وهو يقولُ بأسَف:

. ما هذا المغسَلُ أخيراً؟ حتّى أنَّهُ بلا كهرباء، أذلكَ حقُّ مدينةٍ تزدادُ احتياجاتُها يوماً بعدَ يوم. مع كلِّ أولئكَ الشُّجعانِ والمُهاجرينَ والإخوةِ والأخواتِ المُلتجئينَ إليها وكُلِّ هذهِ الحربِ المُشْتَعِلَةِ والقتْل ...

المطَرُ والسَّهَرُ والانتظارُ لم تذهبْ بِقلبِ ودماغِ الشَّابَّينِ المأمورَين، لأنَّ واحداً منهُما واسى الكولونيل ومنّاهُ بقُربِ بناءِ مغسَلٍ حديثٍ مُجهَّزٍ يستطيعُ تلبيَةَ احتياجاتِ المُحتاجين من جميعِ السَّاكنين وقد وجَّهَ مجلسُ وهيئةُ الأُمَناءِ والوكلاءِ المحتَرَمينَ للمدينةِ بإمضاءِ المُناقَصَةِ والشُّروعِ بمُقدّماتِ العمل. والآخرُ منهما صَرَخَ ((أتباعُ الطَّاغوتِ أولادُ الكَلْبِ كيفَ صحَّ في فِكْرِهِم ألّا يكونَ لكُلِّ هؤلاءِ الموتى من الشَّعبِ إلّا مغسَلٌ واحدٌ في العاصِمة!)) والكولونيل عندما كان سائراً في الطَّريقِ أحسَّ بِمعطفِهِ بعيداً عن ساقَيهِ كما لو كانَ المعطفُ واسِعاً على بَدَنِهِ وأحسَّ أنَّهُ يختفي في معطَفِه. رُبَّما نحُفَ وصارَ نحيلاً وهو لا عِلمَ لهُ بذلك. أو ربَّما من شدَّةِ التَّعَبِ المُفرِطِ اعوجَّت رُكبتاهُ وتقوَّسَ ظهرُه. وأيَّاً يكُنْ فهو نفسُهُ لم يلحظْ شيئاً غير أنَّهُ أحسَّ أنَّ معطَفَهُ صارَ واسِعاً. لكنَّهُ لم يُعطِ الأمرَ أهمّيَةً فهو لا يريدُ أن يُظهِرَ ضعْفَ نفسِهِ، حتّى لِنَفسِه. ((هذا الحسُّ القديمُ بحفظِ الغرورِ كعادةٍ قديمةٍ لجُنديٍّ لا يزالُ باقياً عندهُ)) أيَّةَ حال، هو نفسُهُ لا يعلم ((عادةٌ أُخرى، عادة)) ذلكَ الوقتِ أشاروا للكولونيل بمحَلٍ ليحفِرَ فيهِ القبرَ، راحَ يُدخِلُ رأسَ المعولِ في

الطّينِ كدهقانٍ ومسحَ كفَّيهِ وأمسكَ بمقبضِ المجرفةِ كما يفعلُ العاملُ دونَ أن ينظُرَ إلى الشَّابَّين، قال:

. في الشَّبابِ حفرنا الكثيرَ من الخنادِقِ الحربيَّةِ، لا تقطعوا الصِّلَةَ بِشَعريَ الأبيض! علي سيف كما يبدو لي ضحكَ أمَّا ذلكَ الآخرُ . عبدالله . فكأنَّهُ أمسَكَ ضُحكَتَهُ أو حسَبَ الاِصطلاحِ ظلَّتِ الضُّحكَةُ داخِلَ شفاهِه. ولا أدري لأيَّةِ علَّةٍ أمسكَ الضُّحكة. من المُمكِنِ أنَّهُ كانَ مُتعباً كما أنَّهُ لم ينَم، ((لكنَّ أحدَهُما كان مع الآخَرِ خُطوةً بِخُطوة، فلماذا لا يبدو علي سيف حزيناً ومُتأثِّراً بالبردِ والمطر؟)) رُبَّما في خلالِ المُدَّةِ الَّتي ذهبَ فيها الكولونيل وإلى أن عادَ وجَدَ عبدالله الفُرصَةَ للتَّفكيرِ في وضعِ نفسِه، لكنْ هل يُمكِنُ للتَّفكيرِ في وضعِ شخصٍ وحتّى الإحساسِ بِعدمِ الرِّضا عن هذا الوضعِ أن يؤثِّرَ تأثيراً فوريَّاً سريعاً على الشَّخص ؟ ((حديثاً ... علمْتُ أنَّ هذا يحصل، حسناً ... أيُّ تأثيرٍ لهذا في حالي ووضعي؟)) الكولونيل يعرفُ نفسَهُ جيّداً ويعلمُ أنَّهُ ليسَ منهما من يحتجُّ بذريعةِ البلوغِ الَّذي هو شيءٌ جميلٌ وحَسَنٌ ((يمكنُ أن يكونَ سيِّئاً ونحساً)) ليخدعهُ ((لكن أيُّ تأثيرٍ لذلكَ في وضعي؟ أنا الَّذي أعلمُ أنَّهُ في كُلِّ زمانٍ يجبُ أن تحصَلَ جناياتٌ بصورةٍ ما، وهذهِ الجناياتُ ليستْ إلّا على البشرِ ولا يمكنُ أن تحدثَ إلّا على يدِ البشر.)) والآنَ الجنايةُ على أولادِهِ حصلتْ على أيدي شُبَّانٍ هم مثلَ أولادِه، أيَّ شيءٍ يريدونَ أن يجعلوا أنفسَهُم تقتلُ بِإلهابِ الأوهامِ من قبيلِ التَّعالي الإنساني. وهل يمتلكُ خيالُ رجُلٍ عجوزٍ ذلكَ المقدارَ من القُدرةِ ورأسَ المالِ من حُسْنِ النَّظَرِ ليستبعِدَ احتمالَ الخيرِ الإنسانيِّ من جنايةٍ، من جناياتٍ عاريةٍ واضحةٍ؟ ((وإذا كان عندي مثْلُ هذا الاستِعدادِ والمقدرةِ على التَّخيُّل فهل أجدُ نفسي جانياً جنايةً عاليةَ المرتبة؟)) لذلك، إذا كان من المُستَطَاعِ بتمامِ السَّعيِ تبرئةُ الشَّابِّ الحَدَثِ من جناياتٍ ارتكبها وندمَ عليها، فهل من المُستَطاعِ محوُ آثارِ هذهِ الجناياتِ من روحِهِ وحياتِه؟ ((وفي تلك الصُّورةِ هل أريدُ أن أستطيعَ مع وافِرِ الشَّوقِ والذَّوقِ ِ أن أعملَ قبرَ ابنتي؟ لا... لا.)) للأسفِ لم يبقَ مكانٌ للتَّخيُّلِ بخصوصِ إمكانِ رفعةِ وسعادةِ الإنسان. لأنَّهُ وفقَ تجربَةِ الكولونيل، كلُّ شيءٍ، أو لنقُلْ كُلُّ عناصِرِ الوجودِ والعدمِ تجتمعُ لتُبعثِرَ كُلَّ ما جمعهُ الإنسانُ وكُلَّ إرثِهِ وتجعَلَهُ بغيرِ اعتبار ((قِيَمَ الآباءِ والأمّهاتِ الَّتي أورثونا إيّاها أو أنَّني أتخيَّلُ أنَّهم أورثونا إيَّاها وأوصلوها إلينا)) وجعلوها لنا ثابتةً. ومعها بذورُ سوءِ الظَّنِّ وعدَمُ اليقينِ والشَّكُّ بكلِّ شيء. بذرةٌ تُستنبَطُ مع الرُّشْدِ فوقَ العادةِ يجدُها الواحدُ في وجهِه، ثُمَّ سريعاً تصيرُ إلى الغابةِ كلُّ العلاماتِ والإشاراتِ

الّتي لا قيمةَ لها وتُنفى، في الغابةِ الَّتي لن تجدَ وَسَطَ تجمُّعاتِها الجُرأةَ لِحَمْلِ اسمِ الخيرِ والحقيقةِ والإنسانيَّة. ((الجنايةُ الَّتي حَصَلَتْ لنا ليست في ضياعِ جَسدٍ فحسب، وليست في أنَّنا الآنَ نقبرُ أولادَنا بأيدينا، بل في مُستَقبَلِ هذهِ الجنايةِ الَّذي هو أكثرُ هولاً، مُستَقبَلٍ لا يستطيعُ النَّاسُ فيهِ أن يحملوا اِسمَ حقيقةٍ وشعب. لماذا لا يوجَدُ شخصٌ لديهِ الجُرأةُ لقولِ هذا البيان ((فيا جميعَ أولادِنا ... اعلموا أنَّنا بقرارٍ قاطِعٍ وحُكْمٍ جازِمٍ نحفِرُ قبوراً لنا في المُستَقبَل، انقلوا هذا الكلامَ فلا يبقى مخفيَّاً!)).

عبدالله احترقَ قلبُهُ لحالِ هذا الرَّجُلِ العجوزِ وجاءَ لمُساعَدَتِهِ في رفعِ التُّراب إذْ رآهُ غارقاً بالعَرَقِ من رأسِهِ إلى قدميه. أعطى سلاحَهُ لعلي سيف وحملَ المجرفَةَ ونزلَ في القبرِ وراحَ يرفعُ التُّراب. الآنَ الكولونيل واقفٌ في الأسفلِ في القبرِ وكان متردِّداً بينَ أن يمسحَ العَرَقَ عن جبهتِهِ أو أن يُشعِلَ سيجارتَهُ الأولى. وفي تلكَ الحالِ وهو يرفعُ يدهُ اليُسرى وكُمَّهُ للأعلى ليمسحَ عَرَقَ جبهتِه كانت يدُهُ اليُمنى تبحثُ عن عُلبةِ السَّجائر ضمن جيبِ معطَفِهِ الَّذي بدا لهُ أوسَعَ من العادةِ، لكي تُخرِجَها أخيراً. الآنَ يجبُ عليهِ أن يرفَعَ ياقَةَ معطفِهِ للأعلى ويخفِضَ حافَّةَ قُبَّعَتِهِ للأسفلِ ويُديرَ ظهرَهُ إلى المطر ويشعِلَ سيجارتَهُ قبلَ أن تبتلَّ بالمطر. قامَ بالعملِ كما ذُكِرَ وانتظَرَ أن ينتهيَ رفعُ التُّراب ثُمَّ أخذَ المعولَ بيدِهِ ليستمرَّ في حفرِ القبر. ((أليسَ حفرُ نظائرِ القبورِ من قبلُ يجعلُ العَمَلَ أكثر وضوحاً أيُّها السَّادة؟))

عبدالله أدرك ذلَّ الكولونيل إدراكاً عميقاً وضاقَ صدرُهُ من عملِ الكولونيل بالحَفْرِ فأمسكَهُ بعضُدِهِ وأخرَجَهُ من القبرِ باحتِرامٍ. ((يجبُ أن أُقدِّرَ مُساعَدَتَهُ)) لأنَّهُ كان في الحقيقةِ مُتعَباً وعاجِزاً ولو أنَّهُ اضطُرَّ لِحَفْرِ القبرِ كُلِّهِ ورفعِ التُّرابِ منهُ بنفسِهِ، فمن المُحتَمَلِ أنَّهُ ما كانَ لينتهيَ قبلَ طلوعِ النَّهارِ مهما كان هوى المطرِ معهُ ويُطيلُ المُدَّة. لذلك، حقيقةً يجبُ عليهِ أن يكونَ شاكراً مُمتنَّاً للشَّابِّ الَّذي ساعَدَهُ ويجبُ أن يُظهِرَ العِرفانَ من نفسِهِ ويُبيِّنَهُ بشكلٍ ما. ((مهما يكُنْ لَمَعانُ حذاءِ الكولونيل يحرفُ ويُضلِّلُ حواسّيَ بشكلٍ كُلِّيٍّ ويسحبُني بغيرِ اختيارٍ منّي إلى جانبِ نفسي، وكأنَّهُ ليسَ معهوداً لي ولا واجِباً عليَّ حفرُ قبرِ ابنتي.))

((تريانِ أيَّةَ مشاكل توجَدُ عندَ الكولونيل؟ لكنْ أنتُما لماذا في هذا المَطَرِ وفي هذا الوقتِ من اللَّيلِ تُزعِجانِ نَفسَيكِما؟ تصوُّري كانَ أنَّكُما جئتما لتشريفِنا، لكنْ في عينِ الحالِ زوجتي معي أمامَ بابِ المغسَل فلا أُريدُ أن أُسبِّبَ لها الخجلَ بحضورِكُما وإنَّني أعرِضُ هذا بأدَب. فقد كان تصوُّري

أنَّكُما جئتُما لإلقاءِ نظرةٍ على المكانِ والمُغادَرَة، لا أنْ ...جناب الكولونيل، ... أنتُما لا زلتُما تتعذَّبانِ! ... في الواقِعِ أنا خجلٌ. تفضَّلا بالبقاءِ في المنزل. أنا سأسيرُ في الأعمالِ وسوفَ آتيكُما بنفسي لأوضِحَ لكُما. العَمَلُ مُحزنٌ وغيرُ جميلٍ ولكنَّهُ سيصِلُ إلى تمامِهِ أخيراً. أنا أُفكِّرُ بإفراغِ رأسي سريعاً. لأنَّهُ في الواقِعِ لم يبقَ لي واحدٌ من أولادي. الصَّغير قرَّروا جلبَهُ من الجبهةِ لنقومَ بِأمرِ دفنِه. قطعاً فإنَّ عمليَّةَ دفنِ الصَّغيرِ ستكونُ أسهل. لأنَّهُم أنفُسَهُم يقومونَ بِمُعظَمِ أعمالِ مراسِمِ الدَّفن. في أثناءِ مراسِمِ دفنِ محمد تقي كنتما شاهدين... اليومَ تُدفَنُ بروانة. بقيَ لي أمير وفرزانة، وفرزانة مدفونةٌ من نفسِها في منزلِ السَّيّد قرباني، وأمير على نفسِ الطَّريقِ وغداً يموت. إنَّهُ يموتُ في كُلِّ يومٍ عشرَ مرَّاتٍ ويحيا ليعودَ فيموت. لكنْ أخيراً لن يستطيعَ أن يتَحَمَّلَ أكثَرَ من هذا وسينتهي الأمر. في الواقِعِ صعوبةُ عملي هذهِ اللّيلةُ وليلةٌ أُخرى احتمالاً. كما تريانِ جريانُ العَمَلِ بهذا الشَّكلِ ليسَ جميلاً، وتحتَ المطرِ وفي الطِّينِ والوحل، هل تُريدانِ الإنتقالَ للمغسَل؟ لا يبدو أنَّ هناكَ مُستقبَلاً جميلاً للكولونيل، لكن ... بروانتي كانت ستُتِمُّ الرَّابِعَةَ عشرةَ من عمرِها هذهِ السَّنة. دَمَ رَقَبَتِكَ كولونيل، دَمَ رَقَبتِكَ ... أخذوا معهم. أخيراً كم سنةً، رُبَّما كم قرناً بقي ذلكَ العزيزُ الغريبُ على حافَّةِ نافذتِهِ الصَّغيرة؟ أنا أعرفُ قدرَ ذلكَ العزيز ، أعرفُ قدرَهُ كولونيل)).

على حافَّةِ مصطبَةِ المغسَلِ وقفت فروز بِشَعْرِها الأبيضِ وعينيها الحمراوينِ فوق رأسِ بروانة ورأى الكولونيل يديها وعليهما الدَّمُ إلى المرفقين. ظنَّ الكولونيل أنَّ الأُمَّ كانت تغسلُ جِسْمَ بروانةَ النَّحيلَ بدمِ عينَيها. لاحظَ الكولونيل أنَّ الدَّمَ موجودٌ على كامِلِ بَدَنِ ابنتِه ثُمَّ لاحظَ أنَّ الدَّمَ يسيلُ من جوانبِ المصطبةِ الأربعةِ إلى الأسفلَ ويأخُذُ طريقَهُ إلى بركةٍ أسفلَ المصطبةِ وهو الآنَ يسيلُ في تماسٍّ مع رأسِ الحذاءِ الأسودِ البرَّاقِ للكولونيل. ((أسيرُ للأمامِ وأقفُ إلى جانبِ كتفِ زوجتي لأستطيعَ رؤيةَ وجهِ بروانة عن قُرْب)). رأى يَدَي فروز الممدودَتَينِ وأصابِعَها النَّحيلة وكأنَّها غُمِسَتْ بِدَمٍ زلالٍ وهي على بَدَنِ بروانةَ الغضِّ اليافِع. ((أَخفضُ رأسي إلى جِهةِ وجهِ ابنتي فأرى بدقَّةٍ أكبرَ من ذي قبل. عينا بروانة تُفتَحَانِ في متنِ وجهِها الدَّامي، وبِضحكةٍ فكِهَةٍ إليَّ تنظُران، وثانيَةً تُغلَقَانِ في طُمأنينةٍ. لم أُصدِّقْ، أستندُ بيديَّ إلى حافَّةِ المصطبةِ، وأتأمَّلُ وجهَ ابنتي حتّى أستطيعَ أن أرى عينَيها، لكنْ المجال ...)) لم يحصلْ، لأنَّ اليدَ الطَّويلَةَ العظميَّةَ للمرأةِ استقرَّتْ بِحرَكَةٍ لا مرئيَّةٍ على وجهِ بروانةَ وبِهيئةٍ تَعبٍ وإعياءٍ، مثلَ من يُريدُ الوصولَ إلى نهايةِ العملِ،

سحبت شعْرَ الرَّأسِ إلى ما تحتَ الذَّقْنِ الظَّريفةِ للبنتِ الصغيرة، وحينَ رَفَعَتْ يَدَها عن وجهِها تداخَلَتْ أهدابُها وانغلَقَتْ شِفاهُها وكانَ وجهُها كأنَّهُ مُحنَّطٌ بالدِّماء ...((بروانةُ جوهَرَةٌ خالِصَةٌ ضاعتْ منِّي، أرفعُ يدي عن حافَّةِ المصطَبَةِ وبِصُعوبةٍ أسعى لأستطيعَ الوقوفَ بِشَكلٍ ثابتٍ على قدميَّ.)

الحِذاءُ الأسودُ البرَّاقُ للكولونيل كان قد بدأ يسيرُ بِثِقَلٍ ووقارٍ وصارَ وقعُ الأقدامِ يُسْمَعُ تحتَ سقْفِ المغسَلِ الصَّامت. تلوَّنَ نعلُ الحذاءِ ومُقدَّمُهُ بالدَّمِ ومعَ كُلِّ خُطوةٍ كان الدَّمُ ينتقِلُ إلى مكانٍ جديد وكان صوتُ كُلِّ ضربةِ قَدَمٍ يسيرُ معَ ضربَةٍ من ضرباتِ قلبِ الرَّجُلِ المُتعَبِ وبنفسِ القساوةِ حتّى كأنَّهُما شيءٌ واحدٌ ، وقفَ إلى جوارِ حافَّةِ المصطبةِ من جديدٍ وكأنَّهُ جمُدَ وراحَ ينظُرُ فقط. في النِّهايةِ كانَ الحذاءُ واقفاً إلى جوارِ حافَّةِ المصطبةِ وهو بشكلٍ لاإراديٍّ قال: ((ليس القلبُ وحدهُ يكفي لكي ترى يا كولونيل، أخذوا سِراجَ رأسِكَ معهُم!)) وكان لصوتهِ طنينٌ تحتَ سقفِ المغسلِ وقد انعكسَ عائداً إلى أُذُنَيهِ فكانَ كما لو أنَّ شَخصاً آخَرَ هو الَّذي نَطَقَ بهذِهِ الكلمات. لم تظهرْ حالةٌ جديدةٌ. زوجةُ الكولونيل الّتي كانت تُمسِكُ بيدِ بروانةَ تُنزلُها الآنَ باحتياطٍ تامٍّ للأسفَل من على حافَّةِ المصطبةِ تماماً كما لو كانت تتعامَلُ مع بروانةَ كمرآة، كمرآةٍ مكسورةٍ تماماً. بروانةُ أيضاً كانت مُحتاطَةً . كانت تمُدُّ قَدَمَيها النَّاعمتَينِ الصَّغيرتَينِ والخفيفتَينِ على سطحِ المغسَلِ البارد، وكانَ الدَّمُ يقطرُ من قميصِ نومِها النَّاعِمِ قطراتٍ من النَّدى الأحمرَ على بَدَنِها، يدُها في يدِ أُمِّها الشَّبيهةِ بالغمامةِ البيضاءِ وهي تمرُّ تخطرُ في مشيتِها، وقد ذهبتا معاً، والكولونيل ينظُرُ إلى آثارِ الدِّماءِ الباقيةِ لخُطواتِ ابنتِهِ على سطحِ المغسَلِ الرَّطب وكأنَّهُ غابَ عن فِكْرِهِ للَحظَةٍ أنَّهُ كان يجبُ عليهِ أن يذهبَ مع ابنتِهِ وزوجتِه.

أمامَ بابِ المغسل، رَفَعَتْ فروز رأسَها ونَظَرَتْ لحظَةً إلى الكولونيل بعينيها اللَّتَينِ يملؤهما الدَّمُ كأنَّها تطلبُ منهُ الحُضور. الكولونيل عادَ إلى نَفسِهِ فجأةً ورفعَ قدماً عن قَدَمٍ وسارَ إلى الأمامِ ووقفَ بجانبِ زوجتِهِ ((كما لو كُنتُ جاهزاً لإنجازِ عملٍ ولديها اقتراحٌ)) ونظَرَ إليها. قرَّبتْ فروزُ رأسَها من صدغِ الكولونيل وقالت عندَ أُذُنِهِ بهدوءٍ وأسف:

((أتوقَّعُ أن تكونَ حفلةُ عرسي اللَّيلَةَ وأنا أدعوكَ، يجبُ عليكَ القدومُ خلفي!)) فكأنَّ مِسماراً راحَ يُضرَبُ في رأسِ الكولونيل وفمُهُ توقَّفَ من الذُّهول. والحقيقةُ أنَّهُ لم يتمكَّنْ من فهْمِ الموضوعِ الَّذي تتحدَّثُ عنهُ زوجتُهُ كما لم يتمكَّنْ أن يفهَمَ كيفَ قرَّرَتْ ذلك. فقط كان يُحسُّ أنَّهُ حيرانٌ وبقي مبهوتاً أمامَ زوجتِهِ الَّتي هي الآنَ ترفعُ طُرَّةَ شعْرِها الأبيضِ بأصابِعِ يدِها اليُسرى عن عينِها وجانِبِ أنفِها وترفَعُ جناحَ كَفَنِها بينَ أصابِعِها باحتياطٍ للأعلى، وتذهبُ لِتخرُجَ من بابِ المغسَلِ وتخرُجَ منهُ بِقامتِها الَّتي تصيرُ أطوَلَ لحظَةً بِلحظَةٍ، وكغمامةٍ بيضاء وعاليةٍ تبتعدُ تاركةً ابنتها كوردةِ شقائقِ النُّعمان والكولونيل واقفٌ وَسَطَ المغسَلِ ونظَرُهُ على رأسِ وعضُدِ بروانة الَّتي كانت كأنَّ تحتَ شفاهِها كلاماً: ((أنتم أيضاً سمعتُم كولونيل؟ هي تتحدَّثُ عن عُرس، كلامٌ عن عُرس ... كولونيل!)) لم يعُدْ الكولونيل يُحسُّ، حذاؤهُ الأسودُ البرَّاقُ صارَ كأنَّهُ مصنوعٌ من بولاد، وبِثِقَلٍ وصَمْتٍ سارَ حتّى كأنَّ المغسَلَ والمقبرةَ واللَّيلَ والطِّينَ ابتعدتْ عنهُ وهذا هو الشَّيءُ الوحيدُ الَّذي كان الكولونيل يستطيعُ الإحساسَ بِهِ ولا شيءَ سِواه.

أحسَّ الرَّجُلُ العجوزُ بِنفسِهِ مُخدَّراً ومشلولاً وأحسَّ كما لو أنَّ رأسَهُ كان مُتورِّماً، وسمِعَ أصواتاً عجيبةً وغريبةً تئزُّ في رأسِهِ وتذكَّرَ أنَّهُ إذا لم يتحرَّكْ فمن المُمكِنِ أن يُضيّعَ مكانَ القبرِ ومن المُمْكِنِ في هذا الوحلِ والطِّينِ والمطرِ الَّذي يسقُطُ أن يبقى إلى الصَّباحِ يبحثُ عن القبر. بعدها أتتهُ الفِكرةُ بأنَّهُ يجبُ أن يخرُجَ وينجوَ من جمودِ الموتِ هذا.

((كنتُ أُحسُّ بالمطر، بالمطرِ الَّذي يهطِلُ بغزارةٍ وأنا سكرانُ مُمتلئٌ بالغضبِ حاسِرُ الرَّأسِ مفتوحُ الياقةِ واقفٌ في وَسَطِ الزُّقاق، أنظُرُ إلى السَّيفِ المُجَرَّدِ الَّذي سأُمزِّقُ بهِ قلبَ زوجتي بعدَ بِضْعِ لَحَظَات.))

في تلكَ اللّيلةِ كانت المرَّةُ الأولى والأخيرةُ الَّتي يشربُ فيها الكولونيل إلى حدِّ الموت. أمير كان قُربَ النَّافِذَةِ جالسٌ خلفَ طاولتِهِ الصَّغيرةِ يقرأُ دروسَهُ، والكولونيل جالسٌ على حافَّةِ سريرِهِ ويُفرغُ كأساً بعدَ كأسٍ في حلقِهِ الخالي. هو نفسُهُ لا يفهمُ ما يصنعُ أو بالأصحِّ ((كان يفهمُ ويتَّهِمُ نفسهُ بِعَدَمِ الفهم.))

الكولونيل كان يبكي ولا يدري متى وفي أيَّةِ لحظَةٍ شَرَعَ في البُكاء. عيناهُ من تأثيرِ الكحولِ ومن شدَّةِ البُكاءِ احمرَّتا والتهبتا. صار يرى الأشياءَ حولهُ مُتحرِّكَةً ولم يعُدْ يستطيعُ التَّشخيص، أذلكَ

الَّذي يجلسُ خلفَ طاولةِ الكتابةِ الصَّغيرةِ هو أمير أو شخصٌ آخرُ غيرُه. كما لم يعدْ يستطيعُ التَّشخيصَ أكانَ أمير ينظُرُ إليهِ أم كانت عيناهُ غارقَتَينِ في خطوطِ صفحاتهِ وهل ((إذْ تسمعُ أُذُناهُ كلامي)) كلماتيَ المُعذّبَةَ الَّتي كأنَّ شخصاً آخرَ من داخِلِ الكولونيل هو الَّذي ينطقُ بها تألمان. ولم أكنْ أستطيعُ في تلكَ اللّحظَةِ أن أفهمَ بِأيِّ شيءٍ مُشخَّصٍ كان يُفكِّرُ أمير. لكنَّهُ يعلمُ عِلمَ اليقينِ أنَّ أمير يستطيعُ تفهُّمَ وضعِ أبيه. لأنَّهُ على يقينٍ من أنَّ أمير يعرفُ أُمَّه ويستطيعُ على نحوٍ ما معرفَةَ سلوكِها كما يستطيعُ إدراكَ رفضِ أبيهِ لمثلِ هذا السُّلوك. فكانَ من الطَّبيعي أن ينتقلَ تشنُّجُ الكولونيل لأمير الَّذي هو أقربُ شخصٍ إليهِ وفي عينِ الحالِ أقربُ فردٍ حاضِرٍ إليه. لكنَّ أمير لم يقلْ كلاماً ولم ينطِقْ بكلمةٍ واحدةٍ للكولونيل تجعلُهُ يحسُّ هذا الإحساسَ المُبهَمَ الَّذي يهبُهُ القوَّةَ، إحساسَ أنَّ ولدهُ يدعمُهُ في العملِ الَّذي هو مُقبِلٌ عليه ((أمير داخِلَ نفسِهِ يتألَّمُ لألَمي)) وقلبُهُ يتمنَّى لو يستطيعُ الاشتراكَ في عملِ أبيهِ، وأن يساعدَه. ولكنَّ الكولونيل لم يكنْ رجلاً غيرَ منصِفٍ ولم يكنْ يأخُذُ كُلَّ الأخذِ بهذا القياسِ فيتوقَّعَ أنَّ ولدهُ سيُساعدُه وسيلوِّثُ يدهُ بقتلِ أُمِّه. لأنَّ الكولونيل يفهمُ أنَّ القتلَ، وهو هنا قتلُ الأمِّ، عملٌ غيرُ سهلٍ على الإنسانِ ((في الواقعِ ليسَ سهلاً. حتّى أنَّ فِكْرَ الإنسانِ يتلاشى لتَصَوُّرِه.)) فبنظَرِ الكولونيل كان طبيعيَّاً أن يجمُدَ أمير على كُرسيِّه ليرى ما سيحصل، كما يُمكنُ أن يكونَ هناك معنىً منطقيٌّ آخرُ لذلكَ هو أنَّ أمير كان يُريدُ أن يُبقيَ نفسَهُ جانباً حتّى ينتهي أبوهُ بمُفرَدِهِ من تلكَ المُعضِلةِ الّتي ظهرت له.

عندما نهضَ عن حافَّةِ سريرِهِ ولا قيدَ يُقيِّدُ رِجلَيهِ ويمنعُهُ من الحركةِ مسحَ عَرَقَ جبينِهِ بِكفِّهِ وخطا خُطوةً طويلَةً إلى الأمامِ إلى أمامِ المدفأة، أمسَكَ بِرفٍّ صغيرٍ ومرَّرَ جبهتَهُ عليهِ إزاءَ الحِذاءِ الأسودِ البرَّاقِ للكولونيل أمامَ المدفأة، وكطفلٍ لجوجٍ مملوءٍ غيظاً راحَ يبكي. كانَ يحسُّ أنَّهُ لا يمتلكُ الجُرأةَ للنَّظَرِ إلى عينَيِ الكولونيل لأنَّ عينَيِ الكولونيل السَّوداوَينِ تحتَ حاجبَيْهِ الخشِنَينِ الأسودَينِ ستنظُرانِ إليهِ من خلفِ الزُّجاجِ في إطارِ الصُّورةِ، وهو من العتابِ والتَّوبيخِ فيهِما . لن يخجَلَ فحسب . بل سيستوحشُ أيضاً. ثُمَّ أسنَدَ جبهَتَهُ إلى ساقِ الحذاءِ الأسودِ البرَّاق ولفظَ بِضعَ مرَّاتٍ اسمَهُ على لسانِهِ قائلاً في بكاء: كولونيل ... كولونيل ...

بعد ذلكَ ((ولا أعرفُ كم مرَّ من الوقتِ حتّى وجدْتُ نفسي من جديد، أخذتُ قُبَّعَتي النَّظاميَّةَ الّتي كنتُ قد وضعتُها فوقَ رأسي بإحكامٍ بعدَ أن تناولتُها عن السَّريرِ، ورميتُها بعيداً ومددتُ يدي

فأخذْتُ السَّيفَ المُعلَّقَ على مسمارٍ في الجدارِ وأخرجتُهُ من حمائلِهِ ورجَعْت خُطوةً إلى الوراءِ ونظرْتُ بشكلٍ مباشَرٍ في عينَي الكولونيل غيرِ القابلتَينِ للنَّفاذِ وقُلتُ بِشكلٍ مُحكَمٍ أقتُلُها!))

كان يحسُّ بالمطرِ وكانت تُمطِرُ بغزارةٍ وكان يقفُ وسَطَ الزُّقاقِ وهو سكرانٌ ومُمتلئٌ من الغيظِ وحاسرُ الرَّأسِ ومفتوحُ الياقةِ وينظُرُ إلى سيفِهِ المُجرَّدِ الَّذي سوفَ يُمزِّقُ بهِ بعدَ بِضعِ لَحَظَاتٍ قلبَ زوجتِهِ: السَّيفُ المُجرَّدُ يُبرقُ في الضِّياءِ الأخرسِ للنُّورِ والمطَر. لا شخصَ في الزُّقاقِ ((إلّا أنا وكلبٌ شاردٌ)) يأخذُ نَفَسَهُ من بينِ رجليهِ وقد تبلَّلَ بالمطر. الكولونيل لا يُعيرُ انتباهَهُ إلّا إلى أصواتِ أنينِ السَّيَّاراتِ الَّتي تسيرُ في الشَّارعِ الكبير وتعبُرُ من أمامِ فمِ الزُّقاقِ وتمضي، وذهنُهُ يسعى خلفَ سيَّارةٍ سوفَ تتوقَّفُ عندَ رأسِ الزُّقاق، وتترجَّلُ منها فروز الّتي ستسيرُ في وَسَطِ الزُّقاقِ باتِّجاهِ المنزل، بعدَ أن تفتَحَ مظلَّتَها الصَّغيرَةَ فوقَ رأسِها، وستمضي السَّيَّارةُ كذلكَ في طريقِها. ((أنا لم أكن فكَّرتُ يوماً وفي أيّ وقتٍ بذلكَ الرَّجُلِ الَّذي كان يجلسُ خلفَ مقودِ السَّيَّارةِ ولم أكن حاولتُ أن أُجسِّمَ وجهَهُ وحالتَهُ في نَظَري. لأنّني كنتُ على يقينٍ من أنَّ الشَّخصَ الَّذي سيوصِلُها للمنزلِ يجبُ أن يكونَ سائقاً عاديَّاً . لأنَّهُ غالباً ما كانت فروز غيرَ مُمكِنةِ الرُّؤيةِ للسَّائقِ في المرآةِ أو هكذا كانت تُريدُ أن تكونَ وهي تجلسُ على الكُرسيّ الخلفيّ للسَّيَّارة كما لم تكُن في حقلِ نَظَرِهِ الجانبيّ بشكلٍ دقيق، وقد اعتقدتُ ذلكَ من لحظةِ نزولِها من السَّيَّارةِ وأنَّها دائماً كانت تضعُ قدَمَها اليُسرى أوَّلاً على الأرض عند النزول. وبِشأنِ مسير فروز قادمةً إلى المنزلِ في جوارِ حائطِ الزُّقاق فقد كانت تعبرُ من التَّقاطُعِ الَّذي يقطعُ الزُّقاقَ من الشِّمالِ إلى الجنوب ثمَّ بعدها تدخلُ في مدخلِنا المُغلقِ النِّهاية؛ وهكذا فإنَّها كانت تسيرُ في تلكَ اللّيالي خافضَةً رَأسَها ولا تنظُرُ جانباً، حتّى ولو كانت سكرانةً، فقد كانت تتحكَّمُ بنفسِها وطريقِ مسيرِها، ...وعمّا كانت تشغلُ زوجتي فِكرَها بِهِ في مثلِ تلكَ اللّحَظَاتِ فقد فكَّرتُ وحتّى اعتقدتُ أنَّها كانت تموتُ ألفَ مرَّةٍ وتحيا لكي تصِلَ من فمِ الزُّقاقِ إلى المنزل ولكن ...لكنْ لم أكنْ أجدُ من وسيلةٍ لي وفروز تدخُلُ باكيةً وتسعى لتستحضِرَ خيالها وقبلَ أن أتكلَّمَ معها بكلامٍ حادٍّ يُثيرُها، إلّا أن أُصوِّبَ رُهابَةَ سيفي إلى ما بينَ أضلاعِها اليُسرى وأضغَطَ حتّى الوصولِ إلى عُمقِ قلبِها. وكنتُ قد أنجزتُ هذا العَمَلَ في ذهني أكثرَ من ألفِ مرَّةٍ لكي لا يُخطِئَ مُخّي أو تُخطِئَ يدي ولكي يذهبَ سيفي بِشَكلٍ صحيحٍ ودقيقٍ إلى قلبِ زوجتي فيثْقُبَهُ وأنا لرفعِ أيِّ احتمالٍ من أيِّ نوعٍ كان من جهةِ عدمِ إتمامِ العملِ فإنَّني سوفَ أُديرُ سيفي دورةً كاملَةً في قلبِها وحين تميلُ فروز لتسقُطَ

سأضربُها ضربَةً أُخرى وضربةً أُخرى وأُكرّرُ الضَّرَباتِ وأخيراً سأجعلُها مُعلَّقةً على الجدارِ مثلَ **شِغاد**.

. ((قبلَ أن تصدِمَ الآخَرين، أنت سوَّدتَ حياتَكَ كولونيل**!**))

. ((أنا أُدركُ هذا الأمر، حضرةَ رئيسِ المحكمة**!**))

كان يحسُّ بالمطرِ الَّذي يسقطُ وكان يحسُّ أنَّهُ يجبُ عدمُ التَّأخُّرُ بهذا القدر. زوجتُهُ ضمنَ القبر واقفةٌ ولا يُرى منها خارجَ القبرِ إلّا كتفاها وشعرُها الأبيضُ المرخيُّ على كتفيها. بروانةُ كانت على شفيرِ القبرِ تنتظِرُ دونما خِبرة. رَفَعَتْ فروزُ يديها النَّحيلتَينِ للأعلى إلى جهةِ ابنتها. وقفَ الكولونيل إلى جانبِ بروانة ليمُدَّ يَدَ العونِ عندَ اللُّزوم، كأنَّهُ لم تكُنْ هُناكَ حاجةٌ لِمُساعَدَتِه. بروانةُ استقرَّتْ في يدَي أُمِّها كمرآةٍ مكسورةٍ وأمُّها وضعَتْها باحتياطٍ تامٍّ في عُمقِ القبرِ وبالدِّقَّةِ ذاتِها والاِحتياطِ ذاتِهِ أنامتْها في القبرِ ثُمَّ نامت إلى جانبِها وقد وضَعَتْ يديها حولَ الكتِفَينِ الصَّغيرتَين لابنتِها وألصَقَتْ رأسَها بِصدرِها حتّى صارتا واحِداً ثُمَّ أنامت رأسَها على أرضِ اللّحدِ وهادئةً مُطمئنَّةً سلَّمَتْ نفسَها للتُّرابِ بانتِظارِ أن يُهالَ عليها وأغلَقَتْ أجفانَها.

الكولونيل كان واقفاً كأنَّهُ قد جمُد وعبدالله إحسان أنجزَ العَمَلَ إلى تمامِهِ، يأخُذُ التُّرابَ بالمجرفةِ ويرميهِ في القبرِ إلى أن أغلقَ فُتحَةَ القبرِ تحتَ عينَي الكولونيل المبهوتَتَينِ وكان ذلِكَ لحظَةَ سماعِهِ لنداء **الله أكبر** لِأذانِ الصُّبحِ وقد أدركَ أنَّهُ أقلُّ قَلَقاً من جِهَةِ ضياعِ الوقت، فيما بقي لهُ من اللّحَظات. سوّى عبدالله وجْهَ القبرِ بظَهْرِ المجرفةِ وعلي سيف سارَ بِأقدامِهِ على سطحِ القبرِ وأعادَ المِعوَلَ للكولونيل وسوّى حمائلَ سلاحِهِ على كتِفِهِ وقال:

. بعد هذا كولونيل ... أنتم أنفسُكُم تعلمونَ أنَّهُ يجبُ أن لا تكتبوا شيئاً على صخرةِ القبر؟.

. نعم ... نعم ... أُدرِكُ ذلك.

ذهبوا، والكولونيل أحسَّ بِذهابِهِم بعدَ أن صارَ وحيداً، أيَّةُ وحدةٍ عجيبةٍ؛ لا بُدَّ أنَّهُ يجبُ أن يسيرَ في الطَّريقِ ويتوجَّهَ إلى المنزل؛ كان يُفكِّرُ في ذلكَ الرَّجُلِ الَّذي كان يسعى وسَطَ المقبَرَةِ ويتردَّدُ بينَ قبورِها تحتَ المطر، وكان يجبُ عليهِ أن يرضى على جميعِ الأحوالِ بحَمْلِ ذلكَ الحِمْلِ الثَّقيلِ على كتِفَيه؟

((أُريدُ الذَّهابَ إلى المنزل، لكنْ كم أنا مُتعبٌ وذليل، وكم أنا غريب ... إلى أيِّ حدٍّ! مثلَ مقبرة!))

((ما كانت حيلتي؟ أيَّةُ حيلةٍ؟ الأقدامُ أقدامي، المنزلُ منزلي، المُشكِلَةُ مُشكِلَتي، وطيُّ الطَّريقِ كان عليَّ. رأسي!)) رأسُهُ حائرٌ وأحسَّ بِما يُشبِهُ الخِداعَ، وذئبُ السَّحَرِ وشاتُهُ يلُفَّانِهِ برداءِ الحيرة، كيفَ أنَّ هذا الفضاءَ والمُحيطَ من حولِهِ في إبهامِهِما الأزليّ، ((وهذا المطر!)) لكنَّهُ بكُلِّ مشقَّةٍ وعذابٍ شديدَينِ سار في الطَّريقِ ولم يكنْ خوفُهُ من إمكانِ أن يُضيِّعَ طريقَ المنزل. يجبُ أن يتمكَّنَ من حِفظِ هدوئِهِ ويسيرَ نحوَ المنزلِ ((تماماً على الطَّريقِ نفسِهِ الَّذي جئتُ عليه.))

((من هذا الجانبِ كولونيل. صارَ مثلَ ذُبابةٍ في الماء!))

((لا يا كولونيل، الطَّريقُ من ذلكَ الجانب!))

الكولونيل سألَ ((أخيراً من أيِّ جانبٍ يا أولادي؟)) لكنَّهُ لم يسمعْ جواباً من أحد. فقط كان يسمعُ من الأبوابِ والجُدرانِ في المدينةِ أنَّ تاريخَ المُحاكَمَةِ سيُعلَن، لأنَّ هذا الأمرَ موجودٌ في الدُّستور اليوم. ((ليس عجيباً جدّاً؟ تمامَ التَّاريخ؟)) بهذا التَّرتيبِ يُمكِنُ أن يجريَ تشييعُ الجنائزِ ومن جُملَتِها تشييعُ جنازةِ مسعود الإبنِ الصَّغير للكولونيل الَّذي كان أوصَلَ خبرَهُ السَّارَّ للكولونيل السَّيِّد قُرباني، محاكَمَةٌ علنيَّةٌ في النُّورِ ستُعرّي التَّاريخ. رغمَ أنَّهُ لم يكُنْ بعيداً عن الإحتمالِ أن يُدمَجَ العَرضانِ معاً لتقويةِ ودعمِ التَّأثيرِ المُتبادَل، لكنْ في كُلِّ الحالاتِ وسواءً اتَّفقَ ذلكَ أم لم يتَّفِقْ، فإنَّ ذلكَ كان زائداً على ظرفيَّةِ ذهنِ الكولونيل، وكأنَّهُ لا حيلَةَ لهُ إلّا أن يتحمَّل ((وأصلاً أنا لا أتعجَّبُ)) لأنّني كنتُ أُفكِّرُ أنَّهُ إذا كان الإنسانُ مبتلىً بالتَّعجُّبِ ويتعجَّبُ عادةً فإنَّهُ يُبتلى في خلالِ حياتِهِ الطَّبيعيَّةِ والعاديَّةِ بمظاهِرَ عجيبةٍ وعلى غير قاعِدة. أمّا حين يعيشُ على غيرِ قاعدةٍ وبِشكلٍ خارقٍ للعادةِ فإنَّ ابتلاءهُ بالتَّعجُّبِ مدعاةٌ للتَّعجُّب. لكنْ في مثلِ هذا الوضعِ لا حيلةَ للشَّخصِ إلّا أن ينتبهَ لئلّا يفقُدَ عقله، وقطعاً فإنَّ الكولونيل يعتقِدُ أنَّ عقلَهُ محفوظٌ بِشكلٍ كاملٍ وفكرُهُ يعملُ بِشَكلٍ دقيقٍ ومُنَظَّمٍ ((على الرَّغمِ ممّا يقولونَ خلفَ ظهري)).

لا يذهبُ إلى منزلِ السَّيّدِ قرباني ((لسبَبَين))، الأوّلُ أنَّهُ لا يريدُ أن يراهُ، وخاصَّةً بعدَ ما علمَ بما حلَّ به، الكولونيل ظنَّ أنَّ المسؤوليَّةَ الثَّقيلَةَ يجبُ أن تُلقى على عاتقِ السَّيّدِ قرباني ولا جَرَمَ أنَّهُ مشغولٌ بتدارُكِ الأمورِ ولن يكونَ سعيداً لرؤيةِ والدِ زوجتِهِ مع هذهِ الأحوالِ الّتي مرَّت على رأسِه.

الثَّاني أنَّهُ في منزلِ الكولونيل هناكَ احتياجٌ أكثرُ لمعوَلِ ومجرفَةِ السَّيِّدِ قرباني ((كأنَّ أجدادَ أجدادي كانوا يعملونَ في حفرِ القبور)). لذلك، يجبُ على الكولونيل السَّيرُ بِشكلٍ مستقيمٍ إلى منزلِهِ وفي ذِهنِهِ أن يُنشِّفَ متاعَهُ ويُنَشِّفَ جسدَهُ وبدنَهُ ويُنَشِّفَ عِظامَهُ فقد كان يحسُّ بالرُّطوبةِ تصلُ إلى مُخِّ رأسِهِ وكأنَّهُ كان يتخيَّلُ أنَّهُ إذا لم يتنشَّفْ فسوفَ يتعفَّن.

عندما وصلَ إلى المنزلِ رأى خلفَ زجاجِ نافذةِ غرفةِ الجلوسِ عيني أمير المُشِعَّتينِ تنظرانِ إليه وكأنَّهما عينا بومٍ مريضٍ. ((لكن أوَّلاً يجبُ أن أُسنِدَ المِعوَلَ والمجرَفَةَ إلى الحائطِ، وأجمعَ قدراً من حواسّي لأستطيعَ أن أجِدَ الطَّريقَ إلى المستراحِ في المنزل.)) لكنَّهُ يدورُ حولَ نفسِهِ على غيرِ هدىً، هو لا يزالُ يعلمُ أنَّ مُستَراحَ المنزلِ غالباً ما يكونُ في باحتِهِ ولا دليلَ لديهِ على أنَّ المُستراحَ في منزلِهِ ليسَ في باحةِ المنزل. سارَ تحتَ السَّقفِ القصيرِ لزاويةِ الباحةِ وصارَ خارجاً وأحسَّ أنَّهُ صارَ خفيفاً والشَّيءُ الثَّقيلُ الوحيدُ على بَدَنِهِ كان لباسُهُ المُحمَّلُ بالمطر. وكان يحسُّ بالبردِ وأحسَّ أنَّهُ صارَ في ((مثلِ حجمِ فأرٍ)) صغير وجالَ في فكرِهِ أنَّهُ إذا لم يكنْ نفطُ المدفأةِ قد انتهى وكانت المدفأةُ لا تزالُ تعملُ فستكونُ تلكَ أكبرَ نعمةٍ من نِعمِ الدُّنيا عليه. وفكَّرَ أنَّ أميرَهُ إذا كان مُتحرِّراً من كوابيسِهِ للحظةٍ ((تلك اللّحظَة)) وكان قلبُهُ ودماغُهُ لا يزالانِ قادِرَينِ على القياسِ فإنَّهُ الآنَ يستطيعُ أن ينظُرَ من خلفِ زُجاجِ نافِذتِهِ إلى أعجَبِ صورةٍ مُضحِكَةٍ لأبيهِ، لأنَّ أمير كان يجلسُ خلفَ النَّافِذَةِ نفسِها في مُنتَصَفِ تلكَ اللّيلةِ المطيرةِ وينظُرُ في الباحةِ إذ دَخَلَ الكولونيل بسيفِهِ المُجرَّدِ ((الَّذي يقطرُ منهُ دمُ قلبِ أُمِّهِ)) وهو ينقلُ أقدامَهُ كعائدٍ من الفتحِ وحقيقَةً كانَ يُحسُّ برَقَبَتِهِ وهامتِهِ مرفوعتَين أكثرَ من جميعِ الآخَرين. سيفُ الكولونيل الحاملُ للدَّمِ يلمعُ في النُّورِ النَّافِرِ والهطْلِ الدَّائمِ للمَطَر وكان يحسُّ أنَّ حَملَ حمائلِ سيفِهِ في طولِ مسيرةِ حياتِهِ وأيَّامِهِ في الجيشِ والقوَّاتِ المُسَلَّحَةِ ((بالقياسِ إلى ما فعلَهُ بِقلبِ زوجتِهِ)) كان غيرَ ذي فائدةٍ وأنَّهُ بَدَّلَ تاريخَهُ الَّذي لا معنى لهُ بتاريخٍ ذي معنىً عمليٍّ. كان مُنتصِراً ورشيداً ومُفتخِراً ورافِعاً كتِفَيهِ وهو يصعدُ الدَّرَجَ ويضعُ قَدَمَهُ في الغُرفةِ ثُمَّ يضعُ سيفَهُ المغموسَ بالدَّمِ السَّاخِنِ على رفٍّ صغيرٍ أمامَ المدفأة، وفي قُبالةِ صورةِ الكولونيل في إطارِها تماماً، ودونَ أن يخُصَّ أحداً بالخطابِ قالَ بِصوتٍ مُحكَمٍ: ((أنا جنديٌّ، جنديٌّ. فلتعلَمْ كُلُّ الدُّنيا هذهِ الحقيقة!))

الآن، كان يصعدُ الدَّرَجَ مثلَ مُجرِمٍ محكومٍ بالموت، وحينَ وضعَ قدمَهُ داخِلَ الغُرفة، لم يُجِبْهُ قلبُهُ إلى النَّظَرِ إلى ابنِهِ أمير، رغمَ أنَّ أمير هو الآخَرُ لم يكُنْ ينظُرُ إليه وإن كان بدا كذلكَ بوجهِهِ

وعينَيهِ المُسمَّرَتينِ خلفَ زجاجِ النَّافذة. ((لا شُغلَ لي بِشُغلِه)) ومِثْلَ كلبٍ مضروبٍ بِعصاً انسَحَبَ إلى خلفِ المدفأةِ الَّتي كانَ لا يزالُ فيها بقيَّةٌ من دفءٍ وانشَغَلَ بفتْحِ عُرى ثيابِهِ المُلوَّثَةِ بالوحلِ والطِّينِ ورائحةِ الموتِ والموتى، وفي عينِ الحالِ جاءت فكرةٌ مؤذيةٌ والتَصَقَتْ بِذِهنِهِ كذُبابَةٍ ولم تعُدْ ترفَعُ يداً عن رأسِهِ ((أريدُ أن أسألَ أمير هل كان قد فكَّرَ في حالةِ موتِهِ أم لا)). فإنَّ حالةَ أمير حين كانَ خارجاً من القبوِ كانت توحي بهذا المعنى في نَظَرِ الكولونيل وأنَّ تغييراً لا بُدَّ وأن يكونَ قد حَدثَ في حالتِهِ الروحيَّةِ، وهو تغييرٌ لا يُمكنُ أن يكونَ ((بِظَنِّي لِغَيرِ جِهَةِ الموت)). رغمَ وجودِ احتمالٍ بِكونِ أمير غادرَ القبو وصَعَدَ للأعلى بِفِعْلِ شِدَّةِ الضَّغطِ الرُّوحيّ النَّاشئ عن الكوابيسِ المُتَّصِلَة. وفي كُلِّ صورةٍ وحال، كُلُّ شيءٍ مُمكنٌ ومُحتَمَلٌ في نظرِ الكولونيل إلّا تصوُّرُ حصولِ تحسُّنٍ في حالةِ أمير الروحيَّة. ((لماذا، بأيِّ دليلٍ وأيَّةِ عِلَّةٍ أمكنَ وقوعُ مثلِ هذا؟)) وعادَ فتذكَّرَ أنَّ أمير كان يُريدُ أن يكونَ مُهندِساً مِعماراً وأن يكونَ مُطَّلِعاً على الأمورِ التَّاريخيَّةِ في هذا المجال ((الشَّبابُ، الشَّباب ... لحظَةً بِلحظَةٍ فإنَّ الشَّبابَ دفترٌ مفتوحٌ للاِمتِحانِ والخَطَأِ الأسودِ، والحافِزُ المانِعُ لتوقُّفِ الشَّبابِ وتراجُعِهِم هو الطُّموحُ، وهو الآمالُ البعيدةُ والكبيرةُ والجميلة. وحتّى أنَّهُ يُمكِنُ للشَّابِّ أن يظلَّ واقفاً عندَ الأجزاءِ المُستحيلَةِ من آمالِهِ وأحلامِه، وهو لا يسعدُ أبداً أصلاً بتسليمِ قلبِهِ إلى مرارةِ الوقوف. وفي هذهِ الدَّورةِ من العُمرِ فإنَّ الشَّابَّ إذا كانَ واضِعاً في نَظَرِهِ أن يعملَ بالطِّبِّ فمنَ المُمكِنِ أن ينسُجَ نسيجَ الآمالِ في خيالِهِ ويحلُمُ أن يستطيعَ بِطِبِّهِ أن يحرقَ جذورَ الأمراضِ الجلديَّةِ في أقصى المناطِقِ الجنوبيَّةِ الرَّديئةِ الماءِ والهواءِ إلى أبعدِ الحدودِ. أو أنَّهُ إذا ما كان معهوداً إلَيهِ المرورُ بدورةٍ تعليميَّةٍ لمُهندسي الطُّرُقِ والبناء، تراهُ يحلُمُ أن يستطيعَ عَمَلَ رسمٍ جامِعٍ في مُخطَّطِ شَبكةِ ارتِباطاتِ الطُّرُقِ ويقومَ بتنفيذِه. فقط الواقِعيُّونَ من بينِ هؤلاءِ هُم الَّذينَ يُفكِّرونَ من بدايةِ الخطِّ بالعيادَةِ وبمبنى عملِ المُقاطَعَةِ وهُم يجلسونَ على مقاعِدِ الجامعة. لكنَّهُ لا يليقُ بالمرءِ، بناءً على التَّجارِبِ الَّتي مرَّ بِها، أن يخدشَ ويُكدِّرَ أحلامَ الإنسان الشَّابّ. لأنَّهُ من غيرِ الصَّحيحِ ولا يجبُ أن يكونَ الإنسانُ يائساً. هذا يعني أنَّ عليهِ أن يسكُتَ ويهزَّ رأسَهُ بالتَّأييدِ . ولا يعطي لِنَفْسِهِ الحقَّ بِطَرْحِ سلسِلَةِ الحقائِقِ الَّتي اكتسَبَها بالتَّجرِبَةِ فيقمَعَ اندِفاعَ الشَّابِّ ويمنَعَ عنهُ القوَّةَ الَّتي يولِّدُها الثَّناءُ والاِستِحسانُ ويجعلَ منهُ أبلهاً. فعليهِ على حَسَبِ قُدرتِهِ توفيرُ الإمكانِ والميدانِ لنموِّ الشَّابِّ والقيامُ ببقيَّةِ الأعمالِ الأُخرى ذاتِ العلاقةِ في عُهْدَتِهِ من تأمينِ شروطِ وظروفِ الحياةِ المُناسِبَة. بِجميعِ هذهِ الدَّلائلِ، كنتُ أعملُ وفقَ القواعِدِ متمسِّكاً بِتحقيقِ مطالبِ أولادي. أمَّا عندما التقيتُ

صُدفَةً بِأمير في السّجنِ فإنَّني لاحظتُ أنَّ نظرَتَهُ إلى الحياةِ، قياساً إلى بِضع سِنينَ خلت، قد تغيَّرَتْ تغيُّراً كاملاً، بما في ذلكَ التَّحصيلُ ومسيرةُ التَّحصيلِ والمُستقبلُ وغيرُهُ وغيرُهُ ... . لقد صارَ حادَّاً وجديداً أكثرَ مما يجب. حادَّاً ممّا مرَّ على رأسِهِ طيلةَ اعتِقالِهِ وسَجْنِه، وجديداً من جهةِ ارتباطِهِ بالمُستَقبَلِ العامّ للوطن. رُبَّما كانَ هذا نوعاً من الواقِعيَّةِ ظهرتْ فيه، وكان واقعُ يومِهِ شديدَ المرارةِ كشِدَّةِ آمالِ أمسِهِ المُضطرِبِ العذب. وهكذا، فبعد انقضاءِ السّجنِ كنتُ أتعجَّبُ من الإستحسانِ البسيطِ للوحاتِهِ الَّتي كانت تبدو فجائيَّةً وسريعةً بنظَري. هل كانت تلكَ الأمواجُ من التَّشنُّجاتِ الَّتي تُفاجئُهُ وتستغفِلُهُ في الدَّاخِلِ من نفسِهِ هي الَّتي تجعلُهُ قليلَ الكلام؟ لماذا أخيراً، لماذا! حين يلتفِتُ إلى نفسِه، يرى أبوابَ الجامعةِ موصَدَةً في وجهِهِ وهو مشغولٌ بتدريسِ التَّاريخِ والرَّسم، وبصراحةٍ فإنَّني لا زلتُ أذكُرُ أنَّهُ من جهةِ إغلاقِ أبوابِ الجامعاتِ لم يظهرْ عليهِ أيُّ قلقٍ أو اضطرابٍ وحتّى أنَّهُ قالَ لم يكُنْ هُناكَ من سبيلٍ غيرِه. وأنا لا أعرفُ الشَّيءَ الَّذي كان يشغلُ أمير بِشَكلٍ مُشخَّصٍ، لكنَّني أذكُرُ يومَ طردِهِ من العَمَلِ بِشَكلٍ دقيقٍ تماماً، وبِشَكلٍ واضِحٍ كأنَّما نُقِشَ في ذِهني نقشاً.))

ذلكَ اليومَ كانت تُمطِرُ وكانت السَّاعةُ التَّاسِعَةَ وثمانيةَ عشرَةَ دقيقةً تماماً. الكولونيل كان في مقهى نُقلي، كان جالساً خلفَ قارورةِ النَّرجيلةِ وقد انبهتَ لرؤيةِ أمير عائداً على قدَمَيهِ مُتوحِّلاً من المدرسةِ الثَّانويَّةِ. كانَ أمير رافِعاً ياقَةَ معطفِهِ المطريّ للأعلى ويُمسِكُ مظلَّتَهُ القديمَةَ مرفوعةً فوقَ رأسِهِ وهو ينقلُ أقدامَهُ في الطِّينِ والوحل. وحينَ وصلَ إلى قُبالةِ مقهى نُقلي أبطأ مسيرَهُ إلى أن توقَّف. الكولونيل كان يراهُ، أمَّا أمير فبصعوبةٍ يستطيعُ تمييزَ الموجودينَ داخِلَ المقهى ومنهم أبوهُ الجالسُ خلفَ قارورةِ النَّرجيلةِ والمقهى مُمتلئٌ بالدُّخانِ والبُخار. ((رُبَّما كان يرغبُ بالدُّخولِ إلى المقهى وشُربِ كأسٍ من الشَّايِ وتدخينِ سيجارة)) لكنْ لا، انصرفَ وراح، اعتَقَدَ الكولونيل أنَّهُ انصَرَفَ لأنَّهُ احتَمَلَ مواجَهَةَ الكولونيل داخِلَ المقهى، فإنَّ أمير يعلمُ أنَّ مقهى نقلي مكانٌ يجتمعُ فيهِ أبوهُ وآخرون وكان يعرفُ من جُملةِ المُرتادينَ الدَّائمين كربلائي رمضان كلاه مال الَّذي كان يضعُفُ بصرُهُ أخيراً وكان يجلسُ قربَ جهازِ الشَّايِ الدَّافئِ بجوارِ الحائطِ وينظُرُ عبرَ نظَّارتِهِ إلى بقيَّةِ الشَّايِ في كأسِهِ دونَ أن ينظُرَ إلى أيّ مكانٍ آخر. لكنَّ هذهِ وحدها لا يُمكِنُ أن تكونَ علَّةَ عزوفِ أمير عن دخولِ المقهى، أي كونُ المقهى مكانَ اجتماعِ والِدِهِ، ويُرجِّحُ أنَّ العِلَّةَ الأساسَ أنَّ أمير كان في حالةٍ من العجزِ والإنكسارِ لا يُريدُ معها الإلتِقاءَ بِشَخصٍ يعرفُهُ أو هُناكَ احتمالٌ

في أن يتعرَّفَ عليه. مهما يكُنْ فإنَّ أمير راحَ من قُبالةِ المقهى وابتعدَ عن نَظَرِ الكولونيل وذهبَ إلى المنزل. ومن جُملةِ ما بدا عجيباً في نَظَرِ الكولونيل أنَّهُ على خلافِ المطرودينَ من العَمَلِ الَّذينَ يعملونَ من طردِهِم رأسَ مالٍ للتَّباهي بِأنفُسِهِم والاِفتِخار ويقومونَ ببعضِ مظاهِرِ الحياةِ الرُّوحيَّةِ بِضْعَ صباحاتٍ متواليةٍ، فإنَّ أمير ودونَ التفاتٍ منهُ لكلامٍ أو نظرٍ هذا وذاكَ انسَحَبَ إلى الدَّاخِلِ وانزوى بنفسِهِ واعتزَلَ في القبو. أمير صارَ فاقِدَ الرَّغبةِ ولم يكُنْ يُخفي إحساسَهُ، كما لم يكُنْ يُصِرُّ على إظهارِ إحساسِهِ بِشكلٍ واضِحٍ. معظَمُ الأفرادِ ومن جُملتِهِمْ أختُهُ فرزانة يرونَ معاييرَ سابِقَةً يسَّرَتْ حصولَ ذلكَ عن طريقِ القياس، أمَّا الكولونيل فيرى الواقِعَةَ بِشكلٍ آخر ((أنا أرى أنَّ أمير وصلَ إلى مُعتَقَدٍ جديدٍ وأنَّ انفصالَهُ التَّامَّ ورفضَهُ الجامِعَ مظاهِرُ لذلكَ حيثُ أنَّهُ خرجَ من ميدانِ الجامعة.)) فإنَّهُ من تقويمِ الكولونيل ومُحاسباتِهِ لأولادِهِ لا يستطيعُ أن يقبلَ أنَّ الطَّردَ من العملِ يستطيعُ أن يؤثِّرَ مثلَ هذا التَّأثيرِ السَّاحقِ على أمير. ((لأنَّني أعرفُ ولدي)) وأعلمُ بحدودِ مُتطلَّباتِهِ وحياتِهِ ومُحيطِهِ الاِجتماعيِّ. لذلكَ فإخراجُ أمير من مهنةِ التَّعليمِ والتَّدريس كان صُدفَةً ساهمت في منعهِ من التَّحصيلِ، ولكنَّها وجدتْ حملاً آخرَ ومعنىً آخرَ عنده. حملاً ومعنىً وراءَ حدودِ التَّوقُّعِ الطَّبيعيِّ لكُلِّ فردٍ عن العملِ والحياةِ اليوميَّةِ. ((استنتاجي من نوعِ ردَّةِ فِعلِ وسلوكِ ولدي الغريبَين أنَّهُ كان يجِدُ مهانةً وتحقيراً شديدَين. رُبَّما لا أستطيعُ التَّعبيرَ بشكلٍ دقيقٍ عمَّا أُحسُّهُ، لكنَّني سأسعى لأجدَ اللَّفظَ والبيانَ لعَرضِ إحساسي. نعم، ولدي وجدَ نفسَهُ منفيَّاً وغريباً، وفي وضعٍ لم يكُنْ قد توقَّعَهُ بِأيِّ وجهٍ من الوجوهِ أبداً من قبل، أو أنَّهُ نادراً ما تنبَّأَ بِهِ لنفسِهِ، ورُبَّما لنفسِ السَّبَبِ قبلَ أن يشتدَّ مسلكُهُ الاِنفصاليُّ ورفضُ الآخرين كان يسعى لعونِ الآخَرين.)) أمّا بعد ذلكَ اليومِ فإنَّ أمير لم يعُدْ يقرنُ ساعتَهُ، ولم يعُدْ يقرأُ الصُّحُفَ، ولم يعُدْ يُصغي إلى المذياع والكولونيل لم يكُنْ رأى أنَّهُ قد اشترى كتاباً جديداً وشرعَ في قراءتِه ((حيثُ أنَّهُ لا يخرُجُ خارِجَ البيت.))

الكولونيل راح يصيرُ شيئاً فشيئاً عُرياناً وصار يُغطّي عِظامهُ بملحفةٍ مُمزَّقَةٍ ويتصوَّرُ أنَّهُ لو كانت هُناكَ مرآةٌ بِطولِهِ أمامَ وجهِهِ لاستطاعَ أن يرى نفسَهُ فيها على هيئةِ وشكلِ جِنِّيٍّ صغيرٍ غيرِ مؤذٍ. أمَّا ذِهْنُهُ ففي غفلةٍ آنيَّةٍ عن أمير وما يتعلَّقُ بِه، ودونما توقُّفٍ انتبَهَ إلى أمرٍ ما هو أنَّهُ لا يوجَدُ توقُّفٌ بينَ اليومَ والأمسِ كما لا يوجَدُ حدٌّ فاصلٌ بين اليومَ والغد، ولباسُهُ لمْ ينشفْ بعد، يجبُ عليهِ أن يلبسَ لباسَهُ من جديدٍ ويشُقَّ طريقَهُ وَسَطَ هذا المطرِ الكارثيِّ ويذهبَ لِتشييعِ

جنازةِ ولدِهِ الصَّغير مسعود. ((فكِّروا بِهِ، الرَّجُلُ يصيرُ ذليلاً.)) أسَفَاه قلبُهُ يحترقُ، يتأثَّرُ، يبكي. ((لكن لا)) العَجَبُ أنَّ أيَّةَ حالةٍ من هذهِ الحالاتِ لم تترُكْ أثَرَها عليه، حتّى الفاجِعةُ الأخيرةُ النَّحِسَةُ طبيعيَّةٌ، لكن...في هذهِ الوضعيَّةِ وفي هذِهِ الحالِ الّتي لا شيءَ فيها يبدو عاديَّاً ولا شيءَ فيها بالفِعلِ عاديٌّ فإنَّ الكولونيل كان يُحسُّ فقط بالاتِّساخِ والنَّكبةِ والذُّلِّ دونَ أيِّ شيءٍ إنسانيٍّ آخر. موتٌ وقتلٌ معَ مضحَكَةٍ ((خلفَ نقابِهِ الَّذي ملؤهُ الصَّلابةُ كلُّ شيءٍ ممسوكٌ بلا شيء)) والشَّخصُ الَّذي يصيرُ في وسطِ حالةِ الغرقِ هذهِ يغرقُ قبلَ أن يحسَّ بالوحشةِ، ويهلكُ قبلَ أن يُصابَ بحَيرةِ هذا اللَّعِبِ والخداعِ. وهكذا يصيرُ ذليلاً ويُجبَرُ على القبولِ بالجرحِ والألمِ والضَّياعِ بِصورةِ مرضٍ، مرضٍ يُعاني منهُ كُلَّ آنٍ ويسحبُ كتِفَهُ من تحتِ ثِقلِ حِملِهِ وفي هذا الوسطِ كان لديهِ إحساسٌ واحدٌ هو الرَّغبةُ في غسْلِ وسَخِهِ ونكبتِهِ وعَرَقِهِ، رغبةٌ في حلْقِ شَعْرِهِ وتنظيفِ بَدَنِهِ من خنازيرِ البَدَنِ وتنظيفِ كُلِّ وجودِه، دونَ أن يمتلِكَ القُدرةَ على قبولِ هذهِ الحقيقَةِ المُميتَةِ بأنَّ الخنازيرَ تفوحُ رائحتُها من كُلِّ كيانِ وجودِه. بهذهِ الحالِ وبمثلِ هذا الإحساسِ ومعَ وقوفِهِ على أحوالِ ولدِهِ أمير، كيفَ يستطيعُ أن يطلُبَ منه أن يخرُجَ من المنزلِ ويُرافِقَهُ لتشييعِ جنازةِ ولدِهِ الصَّغير؟ من ناحية، ((إذا لم يُخبِرْهُ، فرُبَّما يُصابُ بالنَّدَمِ فيما بعد)) أنْ لِماذا تركَهُ غافِلاً بالنِّسبَةِ لخبرِ شهادةِ أخيه.

صار يرتجفُ من البردِ ولم يعُدْ الدِّفءُ الباقي في المدفأةِ وهذهِ الملحفةُ الواهيةُ يستطيعانِ مداواةَ الألمِ النَّاجِمِ عن البردِ الَّذي كان ينفذُ إلى لُبِّ عِظامِه، إبريقُ الشَّايِ كانَ على حالِهِ على الصِّينيَّةِ والصِّينيَّةُ على الطَّاولةِ والأكوابُ الَّتي لا تزالُ فيها بقيَّةٌ من الشَّايِ من اللّيلةِ الماضيةِ مُستقرَّةٌ على الطَّاولة وعلى الكولونيل أن يتناولَ عُلبةَ قِطَعِ السُّكَّرِ عن حافَّةِ النَّافِذةِ وقد تناولها ولا يعرفُ كم السَّاعةُ من اليومِ وهل اليومُ لا يزالُ هو الأمسِ أم أنَّهُ الغد؟ ولم ينظرْ إلى ساعةِ يدِ أمير الَّتي كانت موضوعةً على رفٍّ أمامَ المدفأةِ الَّتي لم تُقرَنْ منذُ أكثرَ من عامٍ، لأنَّهُ يعلمُ أنَّ عقاربَها تُشيرُ في لحظَةِ توقُّفِها ويباسِها إلى ذلكَ الجُزءِ من الزَّمانِ الَّذي بدأ يصيرُ رصاصيَّاً. وفي عينِ الحالِ كانَ مُضطرَّاً لِشُرْبِ كأسِ الشّايِ نفسِها وفي فِكْرِهِ أن يُشعِلَ المدفأةَ لأنَّهُ كانَ يُحسُّ أنَّ كُلَّ الأيّامِ اجتمعتْ في يومٍ وكُلَّ الفُصولِ في فصلٍ، فصلٍ بارِدٍ ورصاصيٍّ ((وبدأتْ سماؤهُ تُمطِرُ المصائبَ دُفعةً واحِدَةً)) وقد سألَ بِشكلٍ لاإراديٍّ، سألَ أمير ((هل تعرِفُ شيئاً عن الأيَّامِ والفُصول؟ هل تتذكَّرُ شيئاً عن الرَّبيعِ والخريفِ والصَّيفِ والشِّتاء؟)) وأمير لم يردَّ جواباً وأحسَّ

الكولونيل أنَّهُ ما كان عليهِ أن يتوقَّعَ جواباً، جواباً من أمير لسؤالٍ طُرِحَ بلا رغبةٍ منه؛ كما لا يتوقَّعُ أن يتكلَّمَ أمير ويُعطي إشاراتٍ عمَّا يدورُ في ذِهنِهِ للكولونيل أو لِشَخصٍ آخَرَ لا يتصوَّرُ الكولونيل حُضورَه. حيثُ أنَّهُ مرَّتْ مُدَّةٌ والكولونيل يرى أنَّ أمير أضاعَ ماضيَهُ وحتّى أنَّهُ سمعها منهُ وهو يقول ((أُحسُّ أنَّ ماضيَّ، كُلَّ خطوطِ ماضيَّ، مُحيَتْ بمِمحاةٍ دُفعَةً واحدة.)) وفكَّرَ الكولونيل أنْ كيفَ يستطيعُ المرءُ أن يعيشَ بلا ماضيه؟ وكيفَ يُمكنُ للشَّخصِ الَّذي لا ماضيَ لهُ أن يكونَ لهُ مستقبَلٌ؟ أمير ابن الكولونيل صارَ بلا هويَّةٍ وقد أدركَ أنَّهُ بلا هويَّةٍ وقبلَ ذلكَ واعتَقَدَه. ((فاجعةُ الحياةِ والوجودِ ابني الأرشدُ هذا، وهو الَّذي فقدَ تفكيرَهُ، ورُبَّما كان سببُ كابوسِ ألمِهِ أنَّهُ لا يعرفُ هل كان لهُ سهمٌ في قتلِ أُختِهِ وأخويه.)) مثلُ هذا الشَّخصِ الَّذي كان قد قبلَ بعجزِ نفسِهِ عن التَّفكير كيفَ يستطيعُ أن تكونَ لهُ أخيراً يدٌ في إيجادِ الفاجِعة؟ في ظنِّ الكولونيل فإنَّ مثلَ هذا الموجودِ في النِّهايةِ يستطيعُ بإثارةِ ذخيرةِ القوَّةِ المخفيَّةِ داخِلهُ أن يُحيلَ نفسَهُ إلى العدمِ فقط، أي أن يدفُنَ جثَّتَهُ، ومثلُ هذا العملِ هو أعظمُ عملٍ يستطيعُ القيامَ بِهِ!

. ((أنا لستُ أنا، أنا لستُ ابنَ أحدٍ، أنا لستُ من أهلِ أيِّ بَلَدٍ، وكما ترونَ أنا موجودٌ فقط لأقولَ أنِّي لستُ موجوداً، وموهبتي هي فقط في أن أقتُلَ نفسي باختياري ليُحقِّقَ ليَ الآخرونَ رغبتي بنقلي للقبرِ. هذا هو العملُ الوحيدُ والانتِقامُ الوحيد الَّذي أستطيعُ القيامَ بِه لهذا الَّذي حلَّ بي من انتقامٍ موحشٍ موهِنٍ. وهو هكذا انتقامٌ من نفسي. انتقامٌ من لسانيَ المُلوَّثِ ويديَّ المُلوَّثتينِ بما أسهمتُ بِهِ من جناياتٍ كثيرةٍ دونَ أن أكونَ قد ارتكبتُ تلكَ الجنايةَ بتلكَ السِّكِّينِ الملوَّثةِ بالدَّم.

الكولونيل لا يستطيعُ أن يأخُذَ كلامَ أمير على محمَلِ الجدِّ، بل يعتبِرُ هذا الكلامَ ونظيرَهُ مُصنَّفاً في حسابِ التَّوتُّرِ والضُّغوطاتِ الرُّوحيَّةِ. لكِنْ العجيبُ أنَّهُ يصيرُ شيئاً فشيئاً أقربَ من معاني هذا الكلامِ وهو الَّذي لم يكُنْ في أيِّ وقتٍ يعتقِدُ أنَّهُ سيأتي اليومُ الَّذي يقبلُ فيهِ قراراتِ ابنِهِ دونَ مُناقَشَةٍ وهو في مقامِ أب. ((انتقام)). أمير يؤكِّدُ دائماً على كلمةِ انتقام. إنَّها كلمةٌ لا يغيبُ عن نظرِهِ معناها العميقُ والمُشَخَّصُ إلّا نادراً وهي الَّتي ظلَّتْ بعيدةً عن نَظَرِ الكولونيل وعن ذِهنِه.

أيَّةُ فاجِعةٍ أبي! سمعتُ أنَّ اللهَ يمتحنُ عبادهُ الَّذين يُحبُّهُم كثيراً. وأرى وقد كان مرئيَّاً من قبلُ أيضاً أنَّهُ يقتُلُ أبناءَ وطني، أولئكَ الَّذين يُحبُّونهُ كثيراً. هل إيرانُنا نفسُها تقتُلُ نفسَها؟ لا، وهذا يستطيعُ أيُّ حمارٍ أن يفهمه! ... أيَّةُ فاجعةٍ مُرعبةٍ! يذهبونَ في جلدِكَ، يتكلَّمونَ بلسانكَ ويقتلونَكَ باسمِك. ضياعٌ، ضياع. تحتَ عنوانِ النَّجاةِ والعافيةِ تضيع. الغلمانُ، أولئكَ الَّذين كانوا مثلكَ، هم

الَّذين يُعدمونك. ابتداءً بنظَراتِهِم تصيرُ مفضوحاً، بعد ذلكَ بألسِنتِهِم يجعلونَ لكَ هويَّةً ثُمَّ يُقطِّعونَكَ بأسنانِهِم إرباً إربا. وفجأةً تعلو أصواتٌ عجيبةٌ من مجموعاتِ الغلمانِ وتُثيرُ في بَدَنِكَ ارتعاشاً، أصواتٌ . هيهاتَ . أن تكونَ أصواتَها، ولا أحدَ يُميِّزُ صوتَ نفسِهِ، وعملٌ يجُرُّ عملاً آخر، فقد لقَّنوهُم أن أمسِكوا بِهِ ... مزِّقوا، مزِّقوهُم. عدوُّكُم الأوَّلُ هو أخوكُم الَّذي رَضَعتُم الحليبَ معهُ من ثديٍ واحدٍ نفسُهُ!، الحيَّةُ في ثيابِكُم، دُقُّوا رأسَها! الحيَّةُ عينُ أولادِكُم، عينُ أُختِكُم وأُمِّكُم، أهلوكُم وأقرباؤكُم أعيُنُهُم، نسلُكُم وشبابُكُم، اقبضوا على هذا النَّسل، الشَّباب ... اقبضوا على الشَّباب! إنَّهُ يُريدُ أن يضحكَ اطحنوا أسنانَهُ! . وأخيراً الضَّحِكُ يُعدُّ خيانةً، البُكاءُ والعزاءُ يُنبتانِ ورداً، أنت مُجازٌ لكَ الشُّروعُ بالبُكاءِ على ظُلامتِك، وعلى تجهيلِكَ وظُلمِكَ وتحقيرِكَ في الواقِع، وبشكلٍ جماعيٍّ. هذهِ الضُّحكةُ لها مذاقُ الانتِقامِ على الوجوه كأنَّها تسمُ بالبلاهةِ لِحى أصحابِ القلوبِ الطَّيِّبةِ الَّذينَ صاروا قرابين. نحنُ يجبُ أن نتقدَّمَ لإبعادِ هذا النَّسلِ، وأن لا يبقى منّا جميعاً إلّا وجودُ التَّسليمِ والضَّياع، وجودُ القبولِ بعوارِضِ وأمراضِ المُستقبَلِ الحاملةِ للموت. لذلكَ فإنَّ أهلَ المُستقبَلِ إذا ما أرادوا أن يُحاكمونا ، إذا ما أُعطِيَتْ لأهلِ المُستقبلِ المُهلةُ لمُحاكمةِ ماضي أنفُسِهم، فسوف يقولون "أجدادُنا كانوا يكذبون على أنفُسِهِم وقد صدَّقوا كذبَ أنفُسِهِم وقدَّموا أنفُسَهُم قرابينَ في طريقِ ذلكَ ثُمَّ لمَّا شكُّوا بِمُعتَقَدِهِم كانوا جميعهُم قد صاروا قرابين ولم يكُنْ قد بقي لهُم من رؤوسٍ فوق أكتافِهِم!"

الكولونيل كان يُصغي إلى كلامِ أمير، كان يُصغي وهو صامت، كان أمير حاضِراً تمامَ الحُضورِ في كلامِهِ ويسعى تمام السَّعيِ ليكونَ كلامُهُ موزوناً وعقلانيّاً. أظهرَ القليلَ من التَّركيزِ على حُضورِ الكولونيل وكان يسعى بِشكلٍ جدِّيٍّ لكي لا يكونَ متوتِّراً. وفي المقابلِ فإنَّ الكولونيل كان يسعى بردَّةِ فِعلِهِ . رغم أنَّ أمير لم يكن ينظُرُ إليهِ . أن يُذكِّرَ أمير بِصَرفِ النَّظَرِ عن الرَّابِطَةِ الأبويَّةِ . أن يستمعَ إلى آرائهِ . بِصرفِ النَّظَرِ عن قبولِ أو ردِّ كلامِهِ، أصلاً هو لا يُريدُ أن يكونَ حجابُ أبٍ وابنِهِ باعثاً لكتمانِ الحقائق. في الظَّاهِرِ لم يكُنْ في موقعٍ يسمحُ لهُ بالفخرِ بوجودِ أمير ولكِنْ كان لديهِ في الباطِنِ إحساسٌ يبعثُ على الرِّضا لرؤيةِ ولدِهِ يسعى ليستطيعَ إيصالَ ثمارِ أفكارِهِ بِخصوصِ المسائلِ والحياةِ لأبناءِ وطنِهِ، لأنَّهُ قبلَ هذا لم يكُنْ في نظراتِهِ وكلماتِهِ أيَّةُ علامةٍ على ما يُرى اليوم. هو، بعدَ بلوغِهِ، مثلَ جميعِ أترابِهِ، شابٌ مُعذَّبٌ لا يعرفُ يداً من رِجْلٍ ويؤمِنُ بتغييرِ الدُّنيا. لكنْ الحِزب! في مجرى الإعتِقالِ والحبسِ والعذابِ نادراً ما كان يُفكِّرُ في

الوقائعِ المفروضة، مُعتَرَكُ الثَّورةِ وإطلاقُ السُّجَناءِ حالتانِ يجدُ عند نفسِهِ في كُلٍّ منهما . حيرةً وتأمُّلاً معاً . ويسعى للحفاظِ على امتزاجِهِما، والثَّورةُ الَّتي تأخُذُ شيئاً فشيئاً صورَتَها تُسلِّمُ نفسَها للتَّلقينِ في عجزٍ كاملٍ، هو قرَّرَ أن يجعلَ نفسَهُ في صفِّ الحُماةِ الَّذين يعملونَ بلا أجرٍ ولا مُكافأةٍ وكم سارَ في هذا الطَّريقِ إلى أن أحسَّ فجأةً كما لو أنَّهُ صارَ أخرساً وفجأةً صارَ صامتاً وصارَ أكثَرَ الوقتِ مُتأمِّلاً، وكُلَّما رُفِعَ سيفٌ على رَقَبَةٍ كان أمير يحسُّ أنَّهُ رُبَّما كانَ لهُ سهمٌ في قطعِ تلكَ الرَّقبة. بعد ذلكَ صارَ كُلُّ وجودِهِ شَكَّاً؛ مع ميلِهِ في نفسِ الوقتِ للتَّفكيرِ بِمُخِّه . الَّذي صارَ بعيداً عنهُ بِشَكلٍ قطعيٍّ قدراً ما . لأنَّ جميعَ المسائلِ لا تستقرُّ بشكلٍ طبيعيٍّ في ذهنِهِ وهو بمُفردِهِ غيرُ قادرٍ على حلِّ أقلِّها. فحاصِلُ تفكُّرِهِ وتأمُّلِهِ لا يستطيعُ أن يكونَ إلّا نفوراً، نفوراً ناجِماً عن الخداعِ الَّذي تعرَّضَ لهُ. خداعُ نِصفِ الطَّريق كان على طولِ الطَّريق. صارَ بلا حيلةٍ. لأنَّهُ ليسَ من تلكَ الجماعةِ الَّتي باستِطاعتِها الإعدامُ أو الإفشاءُ أو الفرارُ، وليسَ من أولئكَ الَّذين دخلوا الخِدمَةَ ليصيروا إلى الإعدامِ والإفشاءِ والفرارِ في دورةٍ أُخرى، بل رُبَّما كان من الَّذينَ هُم في الوسَطِ، ممّن يعدِمُ نفسَهُ لحظَةً بِلحظَةٍ وهو مفضوحٌ في عينِ نفسِهِ وفي فرارٍ دائمٍ من نفسِه؛ وفي جميعِ الأحوالِ فإنَّهُ كان يبحثُ عن نفسِهِ ويُنقِّبُ، أنْ ((لا! لستُ أنا الَّذي سوفَ أبكي من الموتِ العزيزِ عليَّ ولستُ أنا الَّذي سوفَ أقضي بسيفِ الجلّاد ولنْ أُسخِّرَ بدني في خدمةِ الكذِبِ، رُبَّما أُريدُ أن أَقتُلَ نفسي وهذا هو وحدَهُ العَملُ الَّذي أستطيعُ القيامَ بِهِ وأُريدُ القيامَ بِهِ.))

هذهِ الطَّريقةُ في حديثِ أمير كانت قابلَةً للتَّحمُّلِ من جانبِ الكولونيل وكان يسعى أن يتصوَّرَ هذا الكلامَ بنوعٍ من التَّعقُّل. لكنَّ العَمَلَ في هذهِ المرحلةِ لم يصِلْ نِهايتَه. لأنَّ أمير في الواقِعِ نافِرٌ ويائسٌ ((والذَّنبُ، الإحساسُ بالذَّنبِ)) يجولُ في داخِلِه، وقد أكملَ غُربَتَهُ بانزوائِهِ واعتزالِه. فبدلَ الكلامِ أسلَمَ قلبَهُ للسُّكوتِ وبدلَ التَّفكُّرِ أسلَمَ رأسَهُ للكابوس ((يداهُ كانتا كبيرتين، يداهُ صارتا تكبُرانِ أكثر، صارتا أكبرَ من كُلِّ أعضائهِ وأطرافِهِ الأُخرى، كانت أصابِعُهُ أكبرَ من يديه، وحين يفتحُ قبضتَهُ وتظهرُ راحةُ كفِّهِ فإنَّ ذراعَهُ ورأسَهُ وبدنهُ تختفي جميعَاً خلفَ قبضةِ يدِه، وجهُهُ بدا كقِطعةِ نقودٍ طُرِّقَتْ بِمطرقة، فقط عيناهُ الجاحِظتانِ تظهرانِ بينَ قبضتَيه. قبضتَهُ تلكَ، أصابِعَهُ الطَّويلَةَ تلك، أدخلَها ضمن بدنِ أُمّي، لفَّ قبضتَهُ وساعِدَهُ داخِلَ بَدَنِ أُمّي وأدارهما وأخرَجَ كُلَّ رَحِمِها إلى الخارِجِ، الدَّمُ والماءُ المُدمّى والرَّحِمُ في قبضتِهِ تقطَّعتْ وتمزَّقت إرباً، ونحنُ كُنَّا كفِراخِ طيرٍ صغيرةٍ في قبضتِهِ الّتي صارت على شكلِ مخلبِ حيوانٍ مُفترِسٍ ونحنُ نُسْلِمُ أرواحَنا، أنا

وبروانة ومسعود وتقي. وقد أخرَجَنا مع الرَّحمِ بمخلبِهِ بِمنتهى القساوةِ والعداوةِ وأنا رأيتُ يدهُ الطَّويلَةَ النَّحيلَةَ المومياِئيَّةَ الشَّكلِ وقد تلطَّخت بالدَّمِ إلى المرفق وقد انفصلتْ عنها الأكمامُ وتلطَّختْ بالدَّمِ أيضاً ولم نكُنْ نعرفُ كيفَ وفي أيّ موقعٍ سنُسلِمُ الرُّوح. كنَّا نُطلِقُ الصَّرَخاتِ لكنَّ صوتنا لم يكُن يخرُج، كُنَّا نضرِبُ بِأجنِحتِنا لكنَّ أجنِحَتَنا الضَّعيفَةَ كانت تبحثُ عبثاً عن مخرجٍ في طيَّاتِ قبضتِهِ العظميَّةِ، كنَّ نَتَمسَّكُ بِغُصنٍ وأوراقٍ يابِسَةٍ في قبضةِ مخالبِ نسرٍ عنيدٍ وكان هُناكَ طوفانٌ وصَرَخاتُنا لم تكُنْ تصِلُ إلى أيّ مكان، وجنونٌ على قياسِ ليلِ سماءٍ كبيرةٍ سوداءَ إذ أسقطَتْنا تلكَ المخالبُ للأسفل، أسقَطَتْنا و ... وبعدها لم أفهمْ شيئاً إلى أن أحسَسْتُ أنَّ حلقي حارٌّ وملآنٌ من دمِ مجرى البولِ الحارّ وبعدَها سمِعْتُ الضَّربَةَ الحادَّةَ من صخرةِ القبرِ القديمةِ على رأسي وخلفَ رَقبتي وعلى وجنتَيَّ وكتِفَيَّ وساقَيَّ وعضُدَيَّ وعلى لساني وأحسَسْتُ أنّي صِرْتُ فاقِدَ الحِسّ من الألمِ وصِرتُ على هيئةِ قِطعةِ لحمٍ تُفرَمُ وكأنّي كُنتُ أبحثُ عن لساني وهو كمن يضرِبُ نفسَهُ، يضرِبُني، يضرِبُنا. ولا يرفعُ يده ونفْسُهُ انتقلتْ إلى وجهِ قِطعةِ صخرٍ سوداء موضوعةٍ في دهليزِ بيتٍ قديمٍ في تلكَ الولايةِ القديمةِ. يبولُ دماً وعبرَ حلقي ينتشِرُ بولُهُ المُدَمّى في الزُّقاقِ ويقعُ على العابرينَ في الزُّقاقِ إلى أن صُرِعَ وأشرَقَتْ شمسُ ظُهرِ شهرِ مُرداد ويتصرَّفُ غيرَ آبهٍ وأنا بين أقدامِهِ أتعفَّنُ وأهترئُ ويقعُدُ عليَّ الذُّبابُ وتتحوَّلُ جروحي شيئاً فشيئاً إلى خنازيرَ أراها تتسِعُ وتمتدُّ لِتُغطّيَ أقدامَهُ أوَّلاً ثُمَّ الأفخاذَ ثمَّ البطنَ والصَّدرَ والرَّأسَ والأكتافَ والأذرُعَ والشَّفَةَ والأسنانَ والفمَ واللّسانَ لِنتعفَّنَ معاً ونفسُدَ معاً، وحينَ وصلنا إلى قدرٍ كبيرٍ من فسادِ الرَّائحةِ والنَّتانةِ تجاوزَ الحدَّ صارَ لازماً فصلُ لحمنا الفاسِدِ عن العظمِ بمقراضٍ وبسِكّينِ المطبخِ وبمنشارٍ ذي رأسَينِ، وحيثُ أنَّ العَفَنَ كان قد وصلَ إلى لُبِّ عظامِنا ولم ينتهِ بِقصّ وقطْعِ اللَّحمِ الفاسِدِ فقد قرَّروا نشْرَ عِظاميَ بالمنشارِ وقطعَ يدي وتقطيعَ هذا البدنِ الفاسِدِ أوَّلاً وبعدها وبالطَّريقةِ الَّتي يرونَها كما كانوا فكَّروا من قبلُ يعيدونَ وصلَ الرَّأسِ من جديدٍ، وثانيةً يُمدِّدونني على مصطبةِ المغسَلِ وعِظامي بدونِ حِسٍّ ولا أسمعُ سوى صوتِ خرْطِ وخَرطِ المِنشارِ ذي الرَّأسَينِ يبري بِشَفرتِهِ لُبَّ عِظامِ أقدامي ومعهُ وفي الوقتِ ذاتِهِ أسمعُ أصواتَ البلدوزراتِ تحفِرُ بِمعاوِلِها خنادِقَ خارجَ مغسَلِ الموتى لِدَفنِ الأجسامِ الفاسِدَةِ، وكُنتُ أسمعُها تنبِشُ بعضَ القبورِ وجاءَ في خيالي أنَّها كانت تُخرِجُ أجسامَ الموتى من القبورِ لتُلبِسَها لباساً فاخراً وتَضَعَ في أياديها العِصِيَّ المُرَصَّعَةَ وأمامها مجموعةٌ تعزِفُ لها الموسيقا في الطَّريق وكانوا يأخذونَها لإجلالِها ولِرَفْعِ شأنِها وقالوا إنَّهُ سيكونُ سريعاً شروعٌ بِعَرضٍ مُحزِنٍ بِشكلٍ يوميٍّ على شاشةِ

سينما كبيرةٍ وسنُعوَّضُ عن هذهِ المشقَّةِ بتجليلِ رؤوسِنا بالأكاليل ووجوهِنا بالنُّقُب وبِضُحكةِ الإنتصار. وأنا هكذا على مصطبَةِ المغسلِ الملاطيَّةِ وهم ينشرونَ عظامي مفصلاً مفصلاً وكنتُ أسمعُهُم يقولون أنَّهُم سيحرقون جثَّتي المُنتنَةَ في الخندقِ خلفَ المغسلِ وأنا من تصوُّرِ رائحةِ احتراقِ عظامي ولحمي ورُطوبةِ مغسلِ الموتى أصابني القَرَفُ وجلسْتُ لأتقيَّأ ولكنّني لم أكن قادراً على القيء.))

. ((أمير... أمير ...روحَ أبيكَ، على الأقلِّ ارحم أباك!))

لكنَّ أمير لم يكنْ هناكَ وصوتُ الكولونيل عادَ إليه. قبلَ لحظةٍ كان أمير هناك، جالساً على رُكبتيهِ خلفَ الزُّجاج و((الآن ليس هنا؟)) بأيَّةِ طريقةٍ كان قد خرجَ حتّى لم ينتبِه الكولونيل لِذهابِه؟ ((لا أعلم!)) رُبَّما لم يكنْ أمير أصلاً جالساً هناكَ وكان الكولونيل يتصوَّرُ حضورهُ هناك تصوُّراً. ربَّما ((ولكن أخيراً هو كان جالساً ذلكَ المكان كما في ليلةِ قتلِ أُمِّه وفي الحالةِ نفسِها.)) وصوتُهُ ماذا عن صوتِه؟ الكولونيل لا يزالُ يسمعُ صوتَ أمير، صوتَ أمير نفسِه

. نفورٌ، نفورٌ، إلى متى أستطيعُ البقاءَ نافراً من الحياة؟!

. لكن أينَ أنتَ أمير، ولدي! تكلَّمْ معي، مرَّ لأنظُرَ إليك، أنا وأنتَ كنَّا نعيشُ معاً. كنَّا نتحدَّثُ معاً. أنا أبوك!

أنا لا أعرفُ شخصاً. أنا لا أعرفُ أيَّ شخصٍ وأنا لا أستطيعُ أن أفهمَ أيَّ شيءٍ. أنا لا أتذكَّرُ ماضيَّ ولا أُريدُ أن أتذكَّره. أخاف، أخافُ وأنا نافِرٌ فقط. نافرٌ، وعندها!.

((لكن أين هو؟ هل عليَّ أن أشُكَّ بالنِّسبةِ للمكانِ الَّذي أنا واقفٌ فيه؟ لا، أخيراً لستُ مُصاباً بالتَّوهُّم، هذهِ هي الصِّينيَّةُ و... هذا هو الإبريق، هذهِ هي الطَّاولةُ وهذا الكُرسيُّ وهذهِ صورةُ الكولونيل فوقَ الرَّفِّ أمامَ المدفأة وها أنا نفسي مُلتحِفٌ بملحفةٍ عقدتُها على بدني وأرتجِفُ، وهذا صوتُ المَطَرِ، صوتُ المطرِ نفسُهُ وهو يضربُ على سقوفِ المنازِلِ من الزِّنجارِ والتُّوتياءِ والتَّنَك ... إلهي، أيُّ وقتٍ هذا من النَّهار، أيُّ وقت؟ ولباسي هذا لم ينشفْ بعدُ إلى الآن. ألم أكن قرَّرْتُ الذَّهابَ لتشييعِ الجنازة؟ وطيرُ القنارى، ماذا عن صوتِه؟)) صوتُ القنارى لا يصل، أمَّا الكولونيل فكان يحسُّ بذلكَ القدرِ من الذِّلَّةِ ويبحثُ عن وسيلةٍ يستطيعُ بها أن ينسى موضوعَ وجودِهِ من عدمِه. لأنَّهُ في الوضعيَّةِ الَّتي كان مُبتلىً بها والبردِ الَّذي كان يرتجِفُ من شدَّتِه، لم

يكن يرى الذَّهابَ أصلاً إلى الإيوانِ ثمَّ الدُّخولَ منهُ إلى الدِّهليزِ ليقطعَ رأسَ الطَّائر. لا لأنَّ القنارى مُسمّىً على اِسمِ بروانتي والآنَ مع دفنِ بروانة ومن أجلِ الاِحترازِ من التَّأثُّرِ النَّاشئِ عن تذكُّرِ حياةِ ((ابنتي)) أجعلُ ذلكَ ذريعةً لذبحِ القنارى، لا. أصلاً لم يكنْ هذا الموضوعُ من عملي والعِلَّةُ كانت من البردِ ((البردُ والمذلَّةُ)) وأمَّا لماذا لم يكُنْ يُسمَعُ صوتُ القنارى من الدِّهليز فهو يستطيعُ فهمَ هذا المعنى وأنَّهُ ربَّما يكونُ قد ماتَ منذُ وقت. لأنَّ القنارى كان دائماً يشرعُ في الغناءِ مع طلوعِ الفجرِ وكانت تظلُّ تُسمَعُ همساتُهُ إلى أن تقعَ الشَّمسُ على يديهِ ورجليهِ ((مع وجودِ الشَّمس)) ثُمَّ كان يسكُتُ ساعةً ويُعاودُ الغناءَ في حدودِ السَّاعةِ التَّاسِعةِ صباحاً وآخرُ نغماتِ القنارى كانت في العصر، قبلَ الغروب. لكنْ إذا كانَ هذا الوقتُ من النَّهارِ هو وقتُ صمتِ قنارى ((بروانة)) فالسَّاعةُ يجبُ أن تكونَ قبل التَّاسِعة أي وقتَ السُّكوتِ بين فترتي الغناء، لكن لماذا على الكولونيل أن يتصوَّرَ أنَّ القنارى من اليوم لن يُعاودَ الكلامَ والهذيان؟.

. أمير ... ماذا تعمل؟ هل ستأتي معي لتشييعِ جنازةِ أخيكَ أو ...

. لا! أنا لستُ أخاً لأحدٍ حتّى أسيرَ في تشييعِ جنازتِه.

ليسَ لازماً أن يكونَ أمير حاضراً في الغُرفةِ حتّى يسألَ الكولونيل مثلَ هذا السُّؤال ويسمعَ مثلَ هذا الجواب، لا. ليس ذلك لازماً. لأنَّهُ يعرفُ ماذا يطلبُ من أمير إذا كان حاضِراً وبماذا يُجيب ((لذلكَ فأيُّ سؤالٍ وجوابٍ بينَ أحدِنا والآخر؟))

ذلكَ اليومُ الَّذي ذهبَ فيهِ أمير لاستقبالِ جنازةِ محمّد تقي يومٌ لا يُمكنُ أن يتكرَّرَ في ظنِّ الكولونيل، وفي فكرِهِ أنَّهُ لا ذلكَ اليوم ولا مثل تلك الأحوالِ يمكنُ أن تحصلَ و تتكرَّرَ يوماً في عمره. في تلكَ الأيَّامِ والانتصاراتُ السّهلةُ تتوالى، ودمُ الشُّبّانِ الغالي الثّمنِ يُهدى بإيثارٍ وسخاءٍ على عتبةِ فِكرةِ الحُرّيَّةِ، والدَّمُ الثَّائرُ الحارُّ المتدفّقُ بلا نهايةٍ للخلائقِ، والتَّضحيةُ بالدَّمِ لإرضاءِ شوقٍ ووجدٍ مُثارَينِ في الشَّعب. ((حتّى أنا الَّذي لمْ يعُدْ لي الجُرأةُ لِمواجَهَةِ القنابِلِ وجهاً لِوجهٍ، كنتُ قادراً في مثلِ هذا الشَّوقِ والوجدِ على الذَّهابِ إلى أمامِ المُستشفى لأرفَعَ أكمامي راجياً منهُم أخذَ دمي، وأن يأخذوا منّي الدَّمَ بالقدرِ الَّذي يرونهُ لازماً!)) في الحقيقةِ، إذا لم يؤدِّ المرءُ دورَهُ في مثلِ هذا الميدانِ مع الآخرين فإنَّ الإحساسَ الدِّينيَّ المُعلَّقَ في عُنُقِهِ سيجعلُهُ يقضي ليلهُ بلا نومٍ، ورأسُهُ على الوسادة. ((ذلكَ لأنَّ شهادةَ ولدٍ من أُسرتي وفي عينِ حالِ بعثِها الغمَّ في الرُّوح ((لا

تُعطي المُهلَةَ للشَّكوى)) لوجودِ الإستدلالِ أنَّ هذهِ ثورةٌ، الجامعةُ والبلدُ على عتبةِ تحوُّلٍ تاريخيٍّ وإنجازُ هذا التَّحوُّلِ وحركةُ الجامعةِ والحياةُ الجديدةُ تكونُ بدمِ أبنائها فقط ((ونحنُ كنَّا جزءاً من الشَّعب.)) فأيُّ مكانٍ للشَّكوى إذا كان شابٌّ ((منّا)) صارَ فداءً. أمّا في أوضاعِ وأحوالِ هيجانِ الثَّورةِ، فالشَّخصُ من الأسرةِ الَّتي تُقدِّمُ قرباناً يصيرُ تحتَ ضغطِ إحساسٍ متضادٍّ ويُبتلى بأن يكونَ نصفُ إحساسِهِ داخليٌّ وهو عاطفةٌ شخصيَّةٌ بِعُمقٍ والنِّصفُ الآخَرُ إحساسٌ ظاهرٌ خارجيٌّ واجتماعيّ، وكلُّ وجودِ الإنسانِ في بحثٍ عن ذريعةٍ من جهةِ الفكرِ المنطقيّ يستدلُّ بها. بروزُ وإمكانُ بروزِ هذينِ الوجهين من وجودِ المخلوقِ يحتاجُ لشرائطَ ومواقِعَ منفصلةٍ. العواطفُ الشَّخصيَّةُ للإنسانِ تحتاجُ إلى الخلوةِ والصَّفاءِ لكي تبرُزَ وتتجلّى، وهذا يعني أنَّ الزَّمانَ المُناسبَ لها منتصَفُ اللّيلِ والمكانَ المُناسِبَ هو زاويةُ الخلوةِ من البيت. وبروزُ الإحساساتِ الخارجيَّةِ والاِجتماعيَّةِ لهُ زمانُهُ ومكانُهُ، وهو بعيدٌ عن الخلوةِ وفي حضورِ الآخرين، فللفاجِعةِ فعلٌ متضادٌّ داخِلَ الإنسان. ((في الخلوةِ يجدُ نفسَهُ محنيَّاً تحتَ حِمْلِ المُصيبةِ كطائرٍ مكسورِ الجناحِ، وفي حضورِ الآخرينَ أولئكَ الآخرينَ أنفُسِهِم الَّذين يهلهلونَ لهُ الصَّوت ويهزُّونَ لهُ بالرَّأسِ من الشَّوقِ، يصيرُ فجأةً شيئاً آخرَ، ويسلمُ نفسَهُ للبَهتِ من الفكرِ ويصيرُ بطلاً بهلوانيَّاً في الجدال!)) والحقيقةُ أنَّهُ يُسحقُ في هذهِ الجلَبَةِ العجيبةِ وبِشكلٍ مؤلِمٍ. خاصَّةً وأنَّ الاِبتعادَ عن النَّفسِ والاِلتِصاقَ بالآخرين، وكذلكَ الاِبتعادَ عن الآخَرين والاِلتِصاقَ بالنَّفسِ يأخذُ صورتَهُ بشكلٍ حادٍّ وغيرِ تدريجيٍّ ((ويجبُ القولَ بِشكلٍ غيرِ رحمانيٍّ))، وأحياناً هاتانِ النَّزعتانِ تجعلانكَ مريضاً من التَّعبِ والذُّلِّ بشكلٍ مُضنٍ. ((كما حلَّ بي)) لكنْ مهما حصل؟ الإنسانُ إنسانٌ، والإنسانُ أيضاً يعيشُ معَ نفسِهِ ويعيشُ معَ الآخرين. ((لكنْ في تلكَ الأيَّامِ لم تكنْ لديَّ الإمكانيَّةُ لأخلوَ بنفسي، يعني أنَّني لمْ أُعْطَ فُرصَةً لأهدأَ لحظَةً وأذوقَ الطَّعْمَ الصِّرْفَ للتَّأثُّرِ والحُزنِ.)) في الحقيقةِ كانتِ الشَّرائطُ والأوضاعُ حادَّةً وساخنةً حتّى أنَّ كُلَّ الأحياءِ كانوا يمرُّونَ سريعاً كأنَّهُم يشتعلون. وضعوا محمَّد تقي في باحةِ المنزِلِ غريقاً بدمِهِ، وكان ذلكَ شبيهاً تماماً بحقلٍ اشتعلتْ بهِ النَّار. لأنَّهُ بشهادةِ محمّد تقي ((ليسَ فقط أُسرتُنا وليس فقط محلَّتُنا)) بل المدينةُ كُلُّها صارتْ طُعمةً للنَّارِ وهذهِ النَّارُ أخذتْ أيضاً بأمير، حيثُ كانَ في جوارِ نعشِ أخيهِ وقد جثى على رُكبَتَيهِ وانحنى وقبَّلَ قميصَهُ المُدمّى، وحينَ نهضَ ((أنا رأيتُ اشتعالَ النَّارِ في عينَي ولدي ورأيتُ وجنتيهِ تذوبانِ وأنا لمْ أُعْطِ المجالَ لنفسي لتتذكَّرَ خضر جاويد، وأُعاتِبَ ولدي في ذهني لأنَّني كنتُ أرى النَّارَ تشتعلُ في أرواحِ أولادي واحداً واحداً.)) فرزانة كانت تحترقُ وتشتعلُ وتبعثُ الأسى في القلوب. بروانة كانت

قد فقدت زمامَ نفسِها وأسرعتْ بجنونٍ تُرفرِفُ كالطَّيرِ المذبوحِ على أخيها المُبتعِدِ عنها ومسعود نهضَ فوقَ جنازةِ أخيه وقد أمسكَ بقبضتَيهِ المرفوعتينِ فوقَ رأسِهِ كشُعلَتَينِ متوهِّجَتَينِ وصرخ ((سأقتُلُ، سأقتُلُ قاتلَ أخي ...)) وصرخَتُهُ كانت صرخةَ كلِّ الخلائقِ وضاعت في صرخاتِ الخلائقِ وبعدها لم تعُدْ جنازةُ محمّد تقي ((جنازتَنا)) والنَّاسُ لم يمهلونا ((لم يُعطونا مُهلَةً!)) وكان ازدحامٌ للجموعِ، وكأنَّ النَّاسَ يخرجونَ من الأرضِ يفورونَ وقد أخذوا تابوتَ محمّد تقي الَّذي صارَ الآنَ على أَكُفِّهِم بعيداً ورفعوهُ عالياً وتحلَّقوا حلقاتٍ واختلطتِ الحلقاتُ وانفتحتْ وكان هناكَ موجٌ وموجٌ من الأكُفِّ المرفوعةِ في الهواءِ دونَ أن تصِلَ إلى التَّابوتِ لأنَّ التَّابوتَ كان فوقَ الأكُفِّ العاليةِ وكانَ أعلى من كُلِّ الأكُفِّ وهو يسيرُ ولم يُدرِكْ الكولونيل كيفَ صارَ سطحُ التَّابوتِ مغموراً بباقاتِ الورودِ وكيفَ ((صرتُ أنا ضائعاً بين الخلائق!)) ولم يكنْ معلوماً ما هي الأحوالُ الدَّاخليَّةُ لأبناءِ الكولونيل، لكنَّهُ نفسَهُ ((وأقولُها بجُرأةٍ أنَّني في إزاءِ كُلِّ هذهِ العظمةِ والمهابةِ في كُلِّ شيءٍ أحسستُ أنّي حقيرٌ وأحسستُ بحقارةِ وصِغَرِ نفسي إزاءَ ولدي والأيدي ترتفِعُ عاليةً لِتَصِلَ إلى تابوتِهِ فلا تصلُ وذلكَ ما أحسستُ بِهِ بوضوحٍ وصراحةٍ)) و... لا أُطيلُ، إنَّ هذا الرَّجُلَ العجوزَ أحسَّ أنَّهُ غريبٌ، غريبٌ بالنِّسبَةِ للأيدي الَّتي تحملُ ولدهُ إلى المقبرة. وحيثُ أنَّ الخلائقَ عرفوهُ أبَ شهيدٍ فقد تأخَّروا لهُ و((أخذوا ولدي منّي)) وأخذوهُ إلى جِهتِهِم وحملوهُ في الطَّريقِ الَّتي أرادوها وكانوا يقولون عن كُلِّ ما قرّروهُ أنَّهُ بمناسبَةِ ((مقتلِ ابني)) ويردِّدون ذلكَ على ألسنتِهِم وكانوا يردّدونَ عبارةً ((أُذُني عاجزةٌ عن التَّشخيصِ الصَّحيحِ لها، ويشتركونَ في ترديدِها وأنا فقط أنظُر)) وكأنَّ الجنازةَ الَّتي سوفَ تُحمَلُ لا علاقةَ لها بالكولونيل ((ولا أنا أعرفُها!))

يصيرُ الوجودُ متراكماً، الزَّمانُ صار متراكماً وكأنَّها ليلةُ البارحةِ نفسِها إذ جاءَ ذلكَ الرَّجُلُ غيرُ المألوفِ للمنزل. كانَ الكولونيل واقفاً خلفَ زُجاجِ النَّافِذَةِ يُدخِّنُ سيجارةً مُصغياً إلى صوتِ حبَّاتِ المطرِ الضَّخمةِ تساقطُ على سطحِ ماءِ الحوضِ. كان الكولونيل ينتظرُ ليرى أيّاً من أولادِهِ سيخرُجُ ليفتحَ البابَ وينتظرُ ليرى من ذلكَ الشَّخصُ الَّذي يطرقُ بابَ المنزلِ في تلكَ السَّاعةِ من اللّيل؟ ومع صوتِ الضَّربةِ الثَّانيةِ على البابِ شاهدَ الكولونيل محمّد تقي وعليهِ معطفٌ لهُ قُبَّعةٌ ينزلُ راكضاً على درجِ الإيوانِ ويقفُ خلفَ البابِ ويفتحُ أحَدَ غَلَقَيهِ ويقفُ لحظةً وكأنَّهُ تعجَّبَ

لرؤيةِ الواردِ الجديدِ ثمَّ وقفَ بجوارِ الحائطِ وأعطى الطّريقَ للضَّيفِ للدُّخول وبدا وكأنَّ الضَّيفَ كان سيدخُلُ ولو لم يُعطَ الإذنَ بالدُّخول.

الرَّجُلُ الَّذي دَخَلَ المنزِلَ كان منقَّشاً بشكلٍ ناعِمٍ؛ على رأسِهِ قُبَّعةٌ إفرنجيَّةٌ، وعلى بدنِهِ معطفٌ وفي إحدى يديهِ محفظةٌ وفي اليدِ الأخرى عصا. وقد أشكلَ على الكولونيل التَّشخيصُ الدَّقيقُ لوجهِ ذلكَ الرَّجُلِ المُنقَّشِ بنظَّارةٍ صغيرةٍ على عينيهِ. تمهَّلَ الرَّجُلُ لحظةً وكأنَّهُ طلبَ شيئاً من محمّد تقي وأشارَ محمد تقي للضَّيفِ بالطَّريقِ إلى القبوِ وأغلقَ بابَ باحةِ المنزل. الرَّجُلُ المُنقَّشُ لم يبدُ غريباً إلى هذا الحدِّ أو كمن لا يعرفُ شيئاً عن المكان، ذهبَ إلى جهةِ دَرَجِ القبوِ ووضعَ قدَمَهُ على الدَّرَجِ، ومحمّد تقي يظنُّ أنَّهُ ((رفيقٌ حزبيٌّ لأمير؟)) توقَّفَ محمّد تقي على أعلى الدَّرَجِ وقالَ بصوتٍ عالٍ ((أخي هم معكُم!)) ثُمَّ صعدَ على الدَّرَجِ وهو لا يُدركُ أنَّ أباهُ يراقبُهُ بدقَّةٍ ويراقبُ تغيُّرَ حالِهِ من خلفِ زُجاجِ النَّافِذَة.

لا مجالَ للنَّومِ، للرَّاحةِ من المتاعِبِ المُستمرَّةِ للأيّامِ والشَّدِّ والجذبِ والغوغاءِ فيها والكلامِ والحديثِ والأعمالِ الَّتي لا تنتهي للأيَّامِ واللّيالي المليئةِ بالإضطرابِ والتَّشنُّجِ لأمير، نومُ بعدِ الظُّهرِ لو لم يُقطَعْ بصوتِ الضَّرَباتِ تطرقُ على البابِ كان يستمرُّ إلى الصَّباحِ احتمالاً، لقد صارَ سيماؤهُ عبوساً من ذلك، الآنَ هو ممزوجٌ بالتَّعبِ وكسلِ النَّومِ واليقظَةِ يُفكِّرُ أنْ ما أحسَنَ حالَ من لا يُطرقُ بابُهُ ومن ليسَ اِسمُهُ محمَّد تقي و... لكنْ الآنَ تأخَّرَ الوقتُ وصارَ وقتُ العملِ وعليهِ الآنَ أن ينهضَ ويُشعِلَ النُّورَ في القبوِ وينتظِرَ ورودَ الضَّيفِ، كانَ مفتاحُ النُّورِ على الحائطِ بجانبِ البابِ وما من مشقَّةٍ في إشعالِ الكهرباءِ، يكفي الشَّخصَ أن يمُدَّ يدهُ فقط.

. "أخي هم معكُم!"

الآنَ مصباحُ الكهرباءِ كان مُضاءً ونظرُ أمير كانَ مُثَبَّتاً على طريقِ الدَّرَجِ على الحذاءِ البرَّاقِ المُلوَّثِ بالطِّينِ وحائراً. وعلى البنطالِ المكويّ فوقَ الحذاءِ كذلك. ((تفضّلوا للأسفَل!)) وحتّى ولو لم يقُلْ هذا الكلام فإنَّهُم كانوا سينزلونَ، وقد نزلوا، وأميرُ وعيناهُ تنظُرانِ في الدَّرَجِ تعرَّفَ معطَفَ خضر جاويد الرَّماديّ وقد سقطَ قلبُهُ من الرُّعبِ لاإراديَّاً. نزلَ خضر للأسفلِ وكان نزولُهُ في طُمأنينةٍ وكانَ نظرُ أمير على أزرارِهِ ثُمَّ ارتفعَ إلى صدرِه وكتفيهِ ليصِلَ إلى وجهِهِ ونظَّارتِهِ الصَّغيرةِ وقُبَّعتِهِ الإفرنجيَّةِ المُدوَّرَةِ الموضوعةِ على رأسِهِ وقد بدت جديدَةً لأمير. نهضَ. فجأةً

نهض. في الواقعِ إنَّ قوَّةً خرساءَ أنهضتْهُ من على حافَّةِ سريرِهِ وهي لم تكنْ احتراماً للضَّيفِ، بل رُبَّما لم تكنْ مطلوبَةً منهُ وكانت نابعةً من الرُّعبِ من الشُّرطيّ وهو الآنَ يقفُ بانتباهٍ وباحترامٍ أمامَ أقدامِ خِضر جاويد مُسَلِّماً. رفعَ خضر جاويد نظَّارتَهُ الصَّغيرةَ عن أنفِهِ ومسَحَ عينَيْهِ بِظَهْرِ كفِّهِ وأطلَقَ ضُحكَةً، وعلى حالِهِ تلكَ أسنَدَ عصاهُ إلى زاويةِ الحائطِ كأنَّما كانت تُضايِقُهُ وقد علمَ أمير سريعاً أنَّ نظَّارةَ خضر جاويد وعصاهُ عاريتان. لأنَّهُ لم يكُن رآهُ ولو لِمرَّةٍ واحدةٍ مع العصا والنَّظَّارةِ طوالَ فترةِ التَّحقيقِ كما لم يكن رآهُ مع العصا المدوَّرةِ الإفرنجيَّةِ كذلك. ضُحكةُ خضر كانت أعجبَ من كُلِّ شيءٍ وكأنَّ أمير ابن الكولونيل اضطُرَّ معَ هذهِ الضُّحكةِ أن يمُدَّ يَدهُ ويُصافِحَ خضر جاويد. بعد ذلكَ يجبُ تهيئةُ مكانٍ لجلوسِ التَّعارُفِ معَ خضر جاويد وأشرفُ وأجلُّ مكانٍ كان حافَّةَ السَّريرِ حيثُ فكَّ خضر جاويد أزرارَ معطفِهِ قبلَ الجلوسِ ورفَعَ قُبَّعَتَهُ عن رأسِهِ ((الآنَ ماذا عليَّ أن أفعَلَ؟)) سحبَ كُرسيَّ الرَّسمِ الصَّغيرَ وجلسَ قربَ خضر ثمَّ تذكَّرَ أنَّهُ يجبُ أن يجلبَ لهُ الشَّاي.

. ((أخي ماذا تأكلونَ أو تشربونَ لنجلِبَ لكم؟))

قالَ أمير لمحمّد تقي ((شاي)). ورأى أنَّهُ يجبُ أن يأخُذَ قبَّعةَ خضر جاويد من يديهِ ويُعلِّقَها على مسمارِ الجدار. وأخذَ القُبَّعَةَ ليُعلِّقَها على مسمارِ الجدارِ ونهضَ خضر جاويد وخلَعَ معطَفَهُ الجميلَ بلونِ القهوةِ وأمير تناولَ منهُ المعطَفَ وعلَّقَهُ على حامِلِ الملابِسِ الخشبيّ.

الآنَ هذا هو خضر جاويد، خضر جاويد نفسُهُ ماعدا شاربَهُ الطَّويل كما كان أمير قد رآهُ يومَ التقى بِهِ أوَّلَ مرَّةٍ. بدَّلَ خضر جاويد موضِعَ محفظتِهِ بجانبِ السَّريرِ من مكانِها إلى مكانٍ آخرٍ وأدخلَ يدهُ في جيبِهِ وأخرجَ عُلبَةَ السَّجائرِ وعرضَ سيجارةَ تعارُفٍ على أمير وأشعلَ بالولَّاعةِ الألمانيَّةِ المطليَّةِ بالذَّهبِ سيجارةَ أمير أوَّلاً ثُمَّ سيجارتَهُ بعدَها وسألَ وهو ينظُرُ إلى شُعلةِ الولَّاعةِ وطَرَفَ سيجارتِهِ المُشتعِل:

((هذا المكانُ مشغلٌ للرَّسْمِ، ها؟))

أجابَ أمير أنَّ العَمَلَ لم يُشرَعْ بِهِ بشكلٍ جدّيٍ وأنَّ في ذِهنِهِ أن يقومَ بعَمَلِ المُجسَّماتِ وقد استرجَعَ في ذاكرتِهِ زمنَ كانَ خضر يردُ إلى السِّجنِ أنصافَ اللّيالي ليُلقيَ عبرَ فتحةِ بابِ كُلِّ غُرفةٍ من غُرَفِ السِّجنِ واحداً أو اثنَينِ من أعقابِ السَّجائرِ في الغُرفةِ وهو يقول((زر...زر را

خر می كشد)) وأجابَ على خضر الَّذي قالَ ((إنَّ عَمَلَ المُجسَّماتِ فكرةٌ حسنةٌ)) قائلاً ((إذا استطعتَ تهيئةَ الأسباب.))

. ((سمعتُ أنَّكَ تُلقي خُطَباً حماسيَّةً؟))

. ((ولا بُدَّ أنَّها مُضحِكَةٌ كثيراً؟!))

. ((لا لماذا مُضحكة؟))

أمير سكتَ لأنَّهُ أدركَ ممَّا تذكَّرَ عن خضر جاويد أيَّ شخصٍ هو وما كان شُغلُهُ، وبدأ الحديثَ معهُ كصديقٍ، بِلحنٍ ناشئٍ عن المَيلِ الغريزيِّ للشَّخصِ ليعرِفَ حُكمَ الآخَرينَ عليه. مع مَيلٍ لإرضائهِ لئلّا يجعلَ أمير منهُ خصماً ولكنَّ خضر جاويد لم يُعطِ المجالَ لهُ ليجعلَهُ يُحسُّ بذلكَ بالقدرِ الكافي، حيثُ أنَّ خضر . وبكُلِّ ما في كلامِهِ من قوَّةٍ وسُلطةٍ . بدَّلَ الحديثَ فجأةً وبسهولةٍ وسألَ:

. ((هنا، أما عندكُم هاتف؟))

قالَ العبارةَ بنوعٍ من الإستِعلاءِ، لأنَّهُ من المعلومِ أنَّ وجودَ أو عَدَمَ وجودِ هاتفٍ في منزلِ الكولونيل لن يُسبِّبَ مُشكِلَةً للعَمَل. في البدايةِ كان من الطَّبيعيّ أنَّ أمير تصوَّرَ للوهلةِ الأولى أنَّ خضر جاويد ينوي الإستِفادَةَ من الهاتِف، وفي تلكَ الحالِ يكونُ المعنى المُرادُ من سؤالِهِ أنَّهُ يريدُ معرفَةَ وجودِ الهاتِفِ من عدمِهِ بشكلٍ قطعيٍّ، كما أنَّهُ بعدَ أن ووجِهَ بسكوتِ النَّفيِ من أمير، سألَ كنايةً وباستهزاء:

. ((بلا خطّ؟ كيفَ ذلك؟ أخيراً هذهِ أيَّامٌ سيحصُلُ فيها النَّاسُ على كُلِّ شيءٍ!))

ضحكَ أمير وقال ((لا)) وكانَ واثِقاً من أنَّ خضر جاويد كانَ قد تحقَّقَ من الجوانبِ الأمنيَّةِ وأخَذَها بالحُسبانِ من جميعِ الوجوهِ قبلَ أن يضَعَ قدَمَهُ في المنزِل. الآنَ محمَّد تقي واقفٌ ببابِ القبوِ منذُ لحظةٍ ومعهُ صينيَّةُ الشَّاي وأمير يستطيعُ رؤيةَ قامةِ محمّد تقي بينَ مصراعَي الباب نصفِ المفتوحِ دونَ انتباهِ خضر، نهضَ أمير وتناولَ صينيَّةَ الشَّايِ من يدِهِ ومدَّ الشَّاي إلى أمامِ يدِ خِضر بعدَ أن ذهبَ محمّد تقي، رفعَ جاويد كأسَ الشَّاي وقال:

. ((كان واقفاً يُصغي؟))

قالَ أمير لا تقلقْ هذهِ من عاداتِ محمَّد تقي، وفي عينِ الحالِ نهضَ وبشكلٍ لا إراديّ وجعلَ بابَ القبوِ أمامهُ وكانَ يحسُّ بخضر ويراقبُ كُلَّ وجوهِ سلوكِهِ وسمعهُ يقولُ دونَ مراعاةٍ لغرورِهِ

. ((أعرفُ أثرَ وشأنَ محمَّد تقي في طهران، لكن... على كلِّ حالٍ ليس لي رغبةٌ في أن يفتحَ ليَ البابَ. أراهُ فقط في هذا المكانِ.))

أمير سكتَ ولا بُدَّ أنَّهُ كان يُفكِّرُ بالاختلافاتِ الرُّوحيَّةِ ما بينهُ وبينَ أخيهِ، وضعَ قطعةً من السُّكَّرِ في الشَّايِ وهو يسمع:

. ((صحيحٌ أنَّهُ لم يُلقَ القبضُ عليه، أمَّا التَّقاريرُ المُتعلِّقَةُ بِهِ فقد رأيتُها وأنا أعرفُه. وإنَّ تردُّدي في المجيءِ أو عدمِ المجيءِ إلى هنا كان بسببَِ محمّد تقي. الآنَ لا أُريدُ أن يعرفَ من أكون، رغمَ أنّي واثقٌ أنَّهُ إذا أرادَ المعرفةَ بتصميمٍ فإنَّهُ سيعرفُ عن طريقِ رفاقِه. أمَّا أنا فلا أُريدُ أن يعرفَ تقي هذا. ولا الآخرونَ كذلك. أفهمتَ ذلك؟!))

أمير كان ساكتاً خافِضَ الرَّأسِ وخضر جاويد كانَ واعياً إلى ذلكَ القَدْرِ الَّذي يستطيعُ بِهِ أن يعرِفَ في أيَّةِ حالةٍ هو. فقبلَ أن يأتيَ خضر جاويد على ذِكْرِ أثَرِ أمير كان قد جعلَ روحَهُ وحالاتِهِ وردَّةَ فِعلِهِ مفتوحَةً ليأخُذَ منها ما يُريد. فالآنَ هو يعرفُ ((في أيّ مكانٍ ضيّقٍ قرَّرَ أن يحشُرَني)) ولا بُدَّ أنَّهُ لا ينتظِرُ بعدَ سقوطِ أمير في مثلِ هذا الضِّيْقِ أن يشرعَ في الحديثِ كبلبلٍ. وعلى كلِّ حالٍ هو يُفرِّقُ بينَ وضعيَّةِ أمير الحاليَّةِ ووضعيَّتِهِ في فترةِ الإعتقالِ والتَّحقيق. وربَّما كانَ في ضيقِ هذا التَّردُّدِ أنَّ خضر جاويد شرعَ في شُربِ كأسِهِ من الشَّاي، وأمير الّذي كانت رأسُهُ مخفوضةً للأسفلِ كانَ على يقينٍ من أنَّ خضر في أثناءِ شُربِهِ للشَّاي كان ينظُرُ إلى وجهِه، ذلكَ النَّظَرَ الَّذي يجعلُهُ يُحسُّ بما يُشبِهُ المثقَبَ على وجهِه. وفي عينِ الحالِ فإنَّ أمير كان يحسُّ أنَّ خضر جاويد يجعلُهُ في سكوتٍ اضطراريٍّ لأنَّهُ ليسَ لديهِ شيءٌ يصحُّ مورداً لسؤال. ولم يكنْ أمير يريدُ أن يعطيَ نفسَهُ مهلةً للتَّركيز لأنَّهُ من المُمكنِ بذلكَ أن يفقدَ اختيارَ العقل ورُبَّما لِعَدَمِ الخوفِ يأتي بكلمةٍ تأخُذُ معنى الإعتراضِ الموجَّهِ على ورودِ مأمورٍ أمنيٍّ إلى منزلِهِ والحالُ أنَّ الخلائقَ كانت لا تزالُ غاضِبةً وتصرُخُ أنَّها قادرةٌ على إعدام مئاتٍ من

الأشخاصِ من أمثالِ خضر جاويد في يومٍ واحِد. خضر بملاحظَةِ احتمالِ مثلِ هذهِ التَّصوُّراتِ من جانبِ أمير، كسَرَ الصَّمتَ وقال:

. ((علامةٌ باقيةٌ لمنزلكم في خاطِري من صورةِ ملفِّك.))

أمير قال ((نعم)) فقط وهو على الحالِ ذاتِها. لكنَّ خضر عادَ بقصدِ شَقِّ التَّركيزِ الذِّهنيِّ لأمير، وقال:

. ((أنا أتيتُ بِشكلٍ مُباشَرٍ للمنزلِ دونَ أن أُخطِئَ وظننتُ أنَّكَ ستتعجَّبُ من رؤيتي. لكنَّ ذلكَ لا يبدو على وجهِكَ أصلاً، لماذا؟!))

أمير وهو لا يزالُ خافِضَ الرَّأسِ وكأنَّما يتحدَّثُ إلى نفسِهِ قال:

. ((عجيبٌ جدّاً، عجيبٌ جدّاً! بعدَ إطلاقِ سراحي كنتُ دائماً أُفكِّرُ أنَّ هناكَ احتمالاً في أن نلتقيَ مُجدَّداً يوماً ويرى بعضُنا بعضاً، وصُدفَةً ها نحنُ في الوضعيَّةِ نفسِها. أليسَ هذا عجيباً؟!))

. ((يعني في هذا الموضِعِ وفي منزِلِكَ وفي هذا القبو؟))

. ((لا ليسَ في هذا القبوِ تشخيصاً، لكنْ في وضعيَّةٍ مُشابِهةٍ. وهذا التَّصوُّرُ كان دائماً في ذهني أليسَ هذا عجيباً؟!))

. ((ملفتٌ للاِنتباهِ، ليس عجيباً. بالنِّسبةِ لي فإنَّ اختيارَ منزلكَ مُلفتٌ... واقعاً لماذا منزلُك؟ والحالُ أنّي في هذهِ البلَدِ بلا صديقٍ ولم أكُن معروفاً وإلى الآنَ لا أزالُ غيرَ معروفٍ معَ أنّي ألقيتُ القبضَ على أكثَرِ من ألفِ مُتَّهَمٍ والبعضُ منهم كان من رفاقي. لكن أنت ... لم يكن بيننا مقدّمةٌ أو قصدٌ للصُّحبةِ. فمع وجودِ هذا لماذا انتخبتُ هذا المكان. لماذا منزِلَكَ هذا؟!))

. ((ربَّما بلِحاظِ ضعفي، ضعفي وتردُّدي، ورُبَّما لعدمِ القطعِ بكُلِّ شيء!))

. ((لا أعرفُ لا أتخيَّلُ. هذا التَّصميمُ مرتبطٌ بحاجةٍ بي لأنْ أُبتَلى بِحِفظِ نفسي لاجئاً عندَ عدوّي. الثَّورةُ قامت، ترى أنَّ! إلى الآنَ هناكَ أكثرُ من سبعةٍ من أولادِنا أُعدِموا وعُلِّقوا على الأشجارِ على جانبي الشَّارِع، أكثرُ من سبعةِ أشخاصٍ من مأمورينا في محلٍّ. لكنْ ... حظِّي أنَّني هنا غيرُ معروفٍ، وربَّما كان هذا واحداً من أسبابِ قدومي إلى هذهِ المدينةِ ولأكونَ هنا في منزلك.))

أمير قال مرَّةً أُخرى ((نعم.)) ورُبَّما كان يُريدُ أن تكونَ المُحادَثةُ قصيرَةً وهو لا يستطيعُ النَّظَرَ إلى عينَي خضر جاويد، أمّا خضر فعادَ يتكلَّمُ بنغمةِ أَسَفٍ وقال:

((أمّا رفاقُنا، الجبناء ... وخاصَّةً من الصُّفوفِ العُليا فكلُّ واحدٍ منهم كان في شَأنِ نفسِه، وكلُّ واحدٍ منهم سرقَ روحَهُ أو كان قد سرقَ روحَهُ من قبل. بعدها صرتُ أسيراً لستَّةِ شهورٍ قبلَ أن تُفتَحَ أبوابُ السُّجون، لقد كانوا أرسلوا أُسَرَهُم للخارجِ وذهبوا وراءَ أُسَرِهِم وتركونا كأنَّهُم لا يعرفونَنَا إلّا قليلاً حتّى نكونَ طُعمَةً للحريقِ بِجِنايةِ الجميع، أولئكَ الَّذينَ صاروا كالمجانينِ من بينِ الخلائق. الآنَ صارَ واضحاً لنا جميعاً، نحنُ الَّذين بقينا هنا، أنَّ الطَّبَقَةَ العُليا كانت على علمٍ بالواقعةِ قبلَ أكثرَ من عامٍ من وقوعِها ورُبَّما قبلَ أعوامٍ من وقوعِها!))

استطاعَ أمير النَّظَرَ إلى خضر وسأل:

. ((أنت تركتَ الخدمة؟))

بدا خضر جاويد طبيعيّاً في حالِهِ وسلوكِهِ إزاءَ سؤالِ أمير وتجاوزهُ بالسُّكوت. وربَّما كان سكوتُ خضر باعثاً لأمير ليجدَ الجُرأةَ ويؤكِّدَ على السُّؤال:

. ((لماذا؟ ألا تزالُ تتخيَّلُ أنَّكَ تُدافِعُ عن شيء؟))

نظرَ خضر إلى أمير وقال:

. ((لا أعلم ... رُبَّما لأنَّني لا أعرفُ طريقاً آخرَ وشُغلاً آخر. رُبَّما لأنَّني أمضيتُ عمري في هذا العمل، أو من جِهةِ التَّعصُّبِ الَّذي لديَّ. وربَّما كنتُ أدافِعُ عن نفسي أيضاً!))

رفعَ رأسَهُ للأعلى ونظرَ في عينَي أمير بِشكلٍ مباشَرٍ وبتهديدٍ ضمنيٍّ قال:

. ((هل أنت مُطمئنٌّ إلى أنَّ أحداً لا يُنصِتُ إلى كلامنا؟)).

وأمير قال في الجوابِ نعم دونَ أن يكونَ في الأصلِ مطمئنّاً لذلك.

خضر سألَ:

. ((لايسكُنُ هنا إلّا محمد تقي ومسعود والكولونيل وبروانة، صحيح؟))

. ((نعم.))

. ((فرزانة تقيمُ مع زوجِها السَّيِّدِ قرباني، نعم؟))

. ((نعم.))

أعرفُ قرباني جيِّداً لكنَّني لا أعتمدُ عليه. أنا واثقٌ أنَّهُ ينتظِرُ جهةَ الرِّيحِ النِّهائيَّة، أحمق. لابُدَّ أنَّهُ من أوائلِ البعيدينَ عنكم كثيراً والَّذينَ يسعونَ إليكم، لا؟ هه... ويتخيَّلُ أنَّ السُّلطَةَ صارت في أيديكُم. وكأنَّنا واقعاً متنا!))

. ((انتم صحيحون وصريحون جدّاً سيّد جاويد، وأنا من عنوانِ اتِّهامِكُم كنتُ قد شخَّصتُ لكم خصوصيَّةً في المُعتَقَل. وإذا لم يُحمَلْ كلامي على التَّملُّقِ فأنا أستطيعُ القولَ أنَّكُم كنتم تتحلَّونَ بالشَّجاعة. لكنّي لا أفهمُ كيفَ يستطيعُ الإنسانُ أن يضعَ مثلَ هذهِ الخصالِ في خدمةِ هذا الجهازِ الجهنَّميّ! واقعاً لماذا ومن أجلِ أيِّ شيء؟))

جاويد شربَ الباقيَ من كأسِهِ من الشَّاي وبعدَ لحظةِ تأمُّلٍ قال:

. ((لِأنَّ دماغي كان سميكاً جدَّاً!))

. ((أنا أسألُ بشكلٍ جدِّيٍّ.))

. ((أنا أيضاً أُجيبُ جواباً جدِّيّاً. دماغي كان سميكاً جدَّاً. أعبُدُ هذا الشَّيءَ كما لو كان ملِكاً، ودماغي يضطرُّني لخدمةِ الملك! ... أمَّا الجهازُ الجهنَّميُّ؟! فأنا أقولُ بنفسِ القدرِ أنَّكُم مغرقونَ في أفكارِكُم النَّيِّرَةِ جميعِها بدليلِ أنَّكُم تُطلقونَ دائماً أبلغَ التَّعاريفِ والأوصافِ على الأشياءِ: جهازٌ جهنَّميٌّ، ها؟! لا ... كان ذلكَ جهازاً برزخيَّاً وفي ظنّي أنَّ جهنَّمَ لا تزالُ بعدَ البرزخ)).

بعدها لم يكنْ هناكَ محلٌّ لكلامٍ وحديث. فخضر سَكَتَ وأمير ظلَّ ساكتاً. جعلَ خضر جناحَ معطفِهِ تحتَ مرفقِهِ واتَّكأَ وأشعلَ سيجارةً أُخرى، وكي لا يستطيعَ أمير أن يفهَمَ شيئاً عن حالةِ عينَيهِ أغمضهُما نصفَ إغماضٍ كحالةِ ما بينَ النَّومِ واليقَظَةِ وأحسَّ أمير فجأةً أنَّ الفضاءَ صارَ ثقيلاً. وكأنَّ تحمُّلَ هذهِ المُعضِلَةِ المُبهَمَةِ كان صعباً عليه. بعدها بدا لهُ أنَّ هناكَ مجالاً ليسألَ خضر جاويد أو في الواقِعِ ليقولَ لهُ أنت المأمورُ الأمنيُّ والمُحقِّقُ بِشأني، والحالُ أنَّكَ جئتَ إلى

منزلي والجامعةُ مملوءةٌ بالشّائعاتِ والأحكامِ غيرِ السَّليمةِ والمفاهيمِ السَّيّئةِ الَّتي تستطيعُ أن تُزيلَ أفراداً وأُسَراً. بهذا التَّرتيبِ أنت لا تُفكِّرُ كم هو ثقيلٌ عليَّ تحمُّلُ مثلِ هذهِ الشَّرائطِ؟ أمَّا أمير فلم يكُن قد أحكَمَ وزنَ فِكرِهِ وتقييمِهِ حتّى قال خضر جاويد دونَ أن يرفعَ جفناً عن جفنٍ:

_ ((في العهدِ الجديدِ ليس جميعُ الثَّوريّينَ يوفَّقونَ للثَّبات. للقوى الخارجيَّةِ تأثيرٌ في مصيرِ الشُّعوبِ الصَّغيرةِ ولها مؤثِّرون، يا رفيق! لذلكَ أنا لا أزالُ أرجو تماماً أن لا أخرُجَ عن طوري. أنت لا تتذكَّرُ الأيَّامَ من الخامِسِ والعشرينَ إلى الثَّامِنِ والعشرينَ من شهرِ مرداد، أمّا أنا فنعم. تلكَ الأيَّامَ كنتُ واحداً من اليافِعينَ الّذينَ ينتظِرونَ قيامَ دستورِ اللّحظَةِ الحاسمة. لكنَّ الصَّفحةَ انقلبتْ ظهراً على عقِبٍ وقد رأينا بِأعيُنِنا شعبانَ عديمَ المُخِّ يجلسُ وحيداً بجوار مُصَدِّق وخسرو روزبه! ودونَ أن يرفَعَ جفناً عن جفنٍ قال:

.((قل لهم أن يجلبوا لنا شيئاً نأكُلُه، أيَّ شيء. وتوجَّهْ أيضاً إلى أُسْرَتِكَ بوجودي!))

. ((والنَّوم، أتنامُ اللّيلَةَ هنا؟))

خضر لم يُجبْ أمير وفقط نظَرَ إليه. أمير خفضَ رأسَهُ، تماماً كما في لحَظَاتِ التَّحقيقِ معهُ حيثُ كانَ مرَّةً وفي حالةٍ مُشابِهةٍ سألَ خضر شيئاً بشكلٍ عفويٍّ وخضر جاويد، وقد بانتِ الدَّهشةُ في عينَيهِ، ردَّ قائلاً:(فقط أجِبْ عن الأسئلة!)) ويجبُ عليكَ أن لا تسألَ في بقيّةِ الكلام! لكنَّ أمير وكمن يريدُ أن ينجوَ بنفسِهِ من ضغطِ النَّظرةِ والحالةِ الَّتي أوجَدَها خضر جاويد، نهضَ، أدارَ رأسَهُ وكتفَهُ جهةَ الدَّرَجِ وقال أنزلوا ما هيَّأتُم للعشاءِ للأسفَل وهو على يقينٍ من أنَّ محمّد تقي سيجيبُه. لأنَّهُ كان على يقينٍ من أنَّ بروانة لم تكنْ قد وصلتْ بعدُ للمنزل ويعلمُ انَّ مسعود كما هو الحالُ دائماً يتأخَّرُ في العودةِ من المسجِد لأنَّهُ بعد انتهاءِ مراسِمِ الدُّعاءِ يبقى ليكنسَ رواقَ المسجِدِ ويُنظِّفَ ويُرتِّبَ غُرفَةَ الوضوء ثمَّ إذا لم يبقَ بعدها من عملٍ يعودُ إلى المنزل؛ وليست قليلةً اللّيالي الَّتي نامها في المسجدِ دونَ أن يعودَ للمنزل. لقد كان السَّيّد رسول خضر جاويد راغباً في أن لا يستطيعَ أحدٌ غير محمّد تقي خدمتَه، والشَّيءُ الوحيدُ الَّذي كان يستطيعُ أمير القيامَ به هو أن يرجعَ إلى مكانهِ علَّهُ يستطيعُ بالمُحادَثَةِ أن يحرِفَ خيالَ خضر جاويد عن محمّد تقي إلى مكانٍ آخر.

((التَّفكيرُ في ضياعِ زوجتي على يدِ قوَّاتِ الشُّرطةِ لم يكنْ يتركُ ذهني في راحةٍ أبداً. ورغمَ أنَّني كنتُ لا أزالُ في عجزِ واضطرابِ اللِّقاءِ الأوَّلِ معَ خضر جاويد في منزلي فإنَّني كنتُ في طرزٍ غريبٍ من الوسوسةِ لبحثِ هذا اللُّغزِ معه. لأنَّهُ كان عنديَ اليقينُ أنَّ عندهُ اطِّلاعاً على القرارِ المُتَّخَذِ بِشأنِ زوجتي من مجرى حيثيّاتِ الملفِّ والاِعتقالِ والتَّحقيق وأنَّهُ عارفٌ بكُلِّ التَّفاصيلِ المُتعلِّقةِ بنور أقدس خمامي وما جرى عليها. فالآنَ وخضر موجودٌ في ملجئي فقد كان من الطَّبيعيِّ أن أسألَهُ أن يُطلِعَني على الأحداثِ المُتعلِّقَةِ بمصيرِ زوجتي الَّتي كانت ضائعةً ومخفيَّةً. أيُّ شيءٍ يمنعُني من الحديثِ عن زوجتي؟ لا أعلم، لكنْ هناكَ حسٌّ غامضٌ وقوَّةٌ خفيَّةٌ تمنعُني من فتحِ الحديثِ عن زوجتي. رُبَّما كانت حالةً ناشئةً عن الرّوحانيَّةِ الشَّرقيَّةِ موجودةً في باطني تجبرُني على أن أُغمِضَ العَينَ لئلّا أعرِفَ الواقِعَ الموضوعيَّ المُرتَبِطَ بالشَّرفِ والنَّاموسِ المُتعلِّقَينِ بي وهذا تابعٌ لإحساسٍ مبهمٍ بأنّي أُريدُ في الباطِنِ أن يظلَّ هذا مستوراَ. لأنَّ كُلَّ تلكَ التَّوهُّماتِ الموحِشَةَ الَّتي تأكُلُ ذِهني عن نور أقدس أوجدتْ نوعاً من الوحشةِ في روحي حتّى صرتُ أميلُ لأكتُمَ في نفسي كُلَّ ما يرتبطُ بها على نحوٍ ما وكأنَّني لم أسمعْ بِهِ ولم أرَه. وفي عينِ الحالِ فإنَّ حسَّاً آخرَ خفيَّاً في الصَّميم، حسَّ تدقيقٍ وتفحُّصٍ شخصيٍّ لا يرفعُ يدَهُ عن رأسي يدفعُني للقيامِ بالبحثِ عن مصيرِ زوجتي ومآلِها، لأنَّهُ لو كانَ مأمورُوا الأمن قد أعدموها لوجبَ أن يكونَ هناكَ دليلٌ وأن يتمَّ تعريفي على قبرٍ وحُفرةِ نور أقدس. لكنْ لم يكنْ هناكَ من دليلٍ أو أثَرٍ ولم تُعطَ لي أيَّةُ علامةٍ. فماذا حدثَ لنور أقدس إذن؟ لا أعلم، الآنَ وحيثُ أنّي لا أعلمُ فلماذا لا يجبُ فتحُ هذا الموضوعِ مع خضر جاويد ليكونَ مُضطرَّاً ليُعطِيَني جواباً. إذا لم يكُنْ لها جُرمٌ فمن الواجِبِ عمليَّاً أن تكونَ في منزلي؟ فلماذا لا أسأل؟ ألم يكُنْ ذلكَ لأنّي لا أملكُ الجُرأةَ؟ نعم! لا أملكُ الجُرأةَ ولا أملكُ الصَّراحةَ لأسألَ مسؤولاً بِشكلٍ مباشَرٍ عن اختفاءِ نور أقدس. كنتُ متردِّداً، متردِّداً، وهذا التَّردُّدُ رُبَّما كان ناشئاً عن الخجلِ أكثر. هذهِ ليست عادةً جديدةً عليَّ تجاهَ الآخَرين، الآخرينَ من ذوي السُلوكِ الوقحِ والقبيحِ، كنتُ أُحسُّ بالخَجَلِ وأحمرُّ عندهُم من الخجل. والآنَ أيضاً فإنَّ ذلكَ هو المانعُ الأصليُّ من طرحِ الموضوع، رُبَّما كانت غريزةُ الخَجَلِ عندي قويَّةً. في مكاني ذلكَ وأنا أجلسُ على الكرسيّ الصَّغير داخِلَ القبوِ وكنتُ حائراً إذْ شَرَدْتُ بخيالِ نور أقدس، وتذكَّرتُ يومَ رأيتُها أوَّلَ مرَّةٍ بعينَيها المُغلَقَتَينِ وقدميها المُتورِّمَتَين تجلسُ معصوبةً على أثاثٍ قديمٍ ملوَّثٍ بالدَّمِ في إحدى غُرَفِ معتَقَلِ الفلكة. كانت نور أقدس بانتظارِ إطلاقِ سراحِها وكانَ قلبي يشتهي أن يستطيعَ رؤيةَ عينيها، اللّتَينِ لا بُدَّ وأنَّ بريقَهُما قد ذهب، مرَّةً أُخرى

تحتَ عصابةِ الأعيُنِ السَّوداءِ المشدودةِ ، وكان قلبي يرغبُ أن يجدَ المجالَ ما بينَ مصراعَيِ البابِ نِصفِ المفتوحِ للنَّظَرِ للخارِجِ ليعرِفَ أيَّ وقتٍ هو من اللّيلِ الَّذي لا يعرفُ متى بدأ؟ وفجأةً لا أعرفُ كيفَ استطعتُ أن أطويَ لسانيَ وأسألَ خضر جاويد ((كم السَّاعةُ؟)) كي لا أسألَهُ "نور أقدس، سيّد جاويد. نور أقدس خمامي؟!"

" العشاء يا أخي العشاء."

على صوتِ محمّد تقي رفَّتْ عينُ خضر وتقريباً ارتجف، على أنَّهُ غيَّرَ مكانَهُ سريعاً وجلَسَ على حافَّةِ السَّريرِ وأمير قبلَ أن يقصِدَ أخوهُ القدومَ من الدَّرَجِ نهضَ وصَعَدَ للأعلى وأخذَ صينيَّةَ الطَّعامِ من يديهِ ونزلَ ينقلُ أقدامَهُ على الدَّرَج وإذا بمحمَّد تقي يقولُ بصوتٍ ليسَ عالياً ذلكَ القدرَ من العلوّ:

. ((لأبي شُغلٌ معكَ يا أخي!))

رُكبَتا أمير وهُنَتا، أمّا وجهُهُ فلم يظهر عليهِ شيءٌ. نزلَ للأسفل، وضعَ صينيَّةَ الطَّعامِ على حصيرةٍ وهيَّأَ مكاناً مناسباً عندَ أقدامِ السَّريرِ لخضر حتّى يستطيعَ أن يجلِسَ مُرتاحاً بِجانِبِ الصَّينيَّة وراقبَ للحظَةٍ ردَّةَ فعلِ خضر الَّذي كان قد سمِعَ صوتَ محمَّد تقي. خضر لم يُبدِ شيئاً وشرعَ بهدوءٍ بمضغِ لُقَمِ الطَّعامِ وسعى خاصَّةً ليُعينَ نفسَهُ على التَّقليلِ من النَّظَرِ إلى أمير. وأمير كأنَّهُ في بحثٍ واستِقصاءٍ عفويٍّ صِرْفٍ عن نور أقدس وكان يُفكِّرُ كثيراً في نومِ خِضر بعدَ العشاءِ ويُفكِّرُ بالسَّبَبِ الَّذي دعا محمّد تقي ليُهيِّئَ عُذراً لِوالِدِهِ ليستدعيَهُ ويُبعِدَهُ عن محضرِ خضر جاويد ويسحَبَهُ للأعلى؛ وأيضاً كان يُفكِّرُ بالوسيلةِ والعُذرِ لِتَرْكِ خضر جاويد وحيداً؟

((سيكونُ الشَّرابُ في مُتَناوَلِ يدِك؟))

يَحْضُر. وضَعَ غالوناً من أربعةِ ألتارٍ مع كأسٍ وصَحْنٍ من الزَّيتونِ أمامَ يدِ خضر لينشَغِلَ خضر بالشَّرابِ ويُعطيَ العُذرَ لأمير بالإبتِعاد. بعدها لبسَ حذاءهُ وصعدَ على الدَّرَجِ إلى غُرفَةِ الجلوسِ حيثُ كان أبوهُ جالساً على كُرسيٍّ بجوارِ المدفأة، تحتَ صورةِ الكولونيل وهو ينظُرُ في الشّاهنامه ورُبَّما كان يقرأُ فيها قِصَّةَ منوجهر.

كان محمَّد تقي جالساً على الكُرسيّ الجِلديّ تحتَ نورِ المِصباحِ الَّذي يرسِلُ ضياءهُ من السَّقف، كان يمسَحُ سلاحَهُ الفرديَّ بالزَّيت، وقف أمير إزاءهُ وجهاً لِوجهٍ ولم يرفَعْ محمّد تقي رأسَهُ عن عملِهِ لحظَةً واحدة. كان أمير ينتظِرُ أن يسمعَ بموضوعِ العملِ الَّذي كانَ الكولونيل في الظَّاهِرِ يريدُهُ بِهِ، لكنَّ رأسَ الكولونيل كانت غارقَةً في الشَّاهنامه ولم يُظهِرْ أنَّهُ على علمٍ ((بالشُّغلِ معَ أمير))، رغمَ أنَّهُ كان قد سمِعَ صوتَ محمَّد تقي ولم يكن غافلاً عن حالِ ولدِهِ محمَّد تقي وردَّةِ فِعلِه، أمَّا أمير فقد كان مُشوَّشاً مُضطرباً لأنَّهُ كان يُحسُّ أنَّهُ لا يملكُ الحقَّ لِتَرْكِ خضر جاويد وحيدا، وصار عاجزاً وبلا حيلةٍ تحتَ تأثيرِ السُّكوتِ من أبيهِ وأخيهِ على روحِهِ ولم يجدْ وسيلَةً إلّا أن يتوجَّهَ بالخِطابِ إلى أبيهِ ويسألَهُ أنْ ((أيُّ شُغلٍ لكُم معي؟)) وقد رفَعَ الكولونيل رأسَهُ ومن فوق نظَّارتِهِ ألقى نظرَةً على أمير وأفهَمَهُ أنْ ((ليس لي شُغلٌ مع أحد)) وأعادَ رأسَهُ إلى ما بينَ صَفَحَاتِ الشَّاهنامه وكأنَّهُ أسلَمَ أمير عمليّاً إلى أخيهِ محمّد تقي. أمَّا محمَّد تقي فلم يترُكْ مجالاً لأمير للتَّساؤلِ وفي الوقتِ الَّذي كانَ يُركِّبُ فيهِ آخِرَ قِطعةٍ من سلاحِهِ، وبصراحةٍ وجسارةٍ لم يرَهُما ولم يعهَدْهُما أمير من قبلُ في أخيهِ قال:

. ((من يكونُ، يا أخي؟))

أمير لم يجبْ، كأنَّهُ كان يُريدُ أن يجعَلَ من الأخوَّةِ وسيلةً لإسكاتِ محمّد تقي. ودونَ جوابٍ أدارَ وجهَهُ واتَّجَهَ جِهَةَ الباب، لكنْ وقبلَ أن يضعَ أقدامَهُ في الإيوانِ فإنَّ محمّد تقي أوقَفَهُ بِصوتِهِ القويّ. وقفَ أمير أوّلاً ثُمَّ عادَ ونَظَرَ إلى أخيه. الآنَ محمَّد تقي يمسِكُ بِسِلاحِهِ بكلتا يَدَيهِ وينظُرُ إليه، وقطعاً فإنَّ أمير لم يأخُذْ ذلكَ على أنَّهُ بِقصدِ تهديدِه. تقدَّمَ أمير قدماً وقال:

. ((بالنِّسبةِ لكَ ما أهميّةُ أن تعرفَ من يكون؟))

رفعَ محمَّد تقي رأسَهُ للأعلى ونظَرَ في عينَي أخيهِ وقال:

. ((أنا أعلمُ ما عملُه!))

. ((ما عملُه؟))

. ((شرطيّ!))

. ((من أينَ تعرفُ هذا؟))

. ((رأيتُه، أنا رأيتُه!))

. ((أين؟!))

في باحةِ السِّجنِ قبلَ أن يصير لقاءُ الأخِ والأختِ بالسَّجين ممنوعاً!))

محمّد تقي لم يقُلْ بِشَكلٍ أوضَحَ أنَهُ كان قد رأى في الشَّبابِ، حينَ كان يذهبُ للقاءِ أمير، خضر جاويد وجهاً لِوجهٍ. لم يكن هناكَ لزومٌ لإعادةِ الكلامِ. لأنَّ أمير كان قد أُفحِمَ. وفجأةً ارتجفتْ رُكبتاهُ وصارَ في حالةٍ تبعثُ على التَّصَوُّرِ انَّهُ من مُساعدي خضر جاويد. وبقي يابساً في خَرَسٍ وصمتٍ قبالةَ أخيه. لسانُهُ صارَ كقطعةٍ من الآجُرّ المطبوخِ وكان يحسُّ أنَّ لسانَهُ لا يفي بالقُدرةِ على البلعِ. حيثُ أنَّ الكولونيل أيضاً كان قد رَفَعَ رأسَهُ عن الشّاهنامه وراحَ ينظُرُ من فوقِ نظّارتِهِ إلى أمير. فاتَ الأمرُ من يدِهِ وعليهِ التَّسليمُ دونَ مزيدٍ من التَّوهُّم. ذهبَ باتّجاهِ محمّد تقي خافضاً يديهِ، وضعَ يدهُ على الطَّاولةِ، وانحنى قليلاً باتّجاههِ وقال:

. ((ضيف. هذهِ اللّيلَةَ هو ضيف. لم يكنْ سيّءَ السُّلوكِ معي كثيراً أثناءَ التَّحقيق. وأريدُ أن أحصَلَ على بعضِ المعلوماتِ من لسانِهِ عن اختِفاءِ زوجتي. عسى أن أفهَمَ أشياءً. لذلكَ أرجوكَ أن لا تكونَ مجنوناً. أفهمتَ؟ أرجوك!))

مرَّةً أُخرى جَعَلَ الكولونيل رأسَهُ في الكتابِ ولم ينتبِهْ أمير إلى أنَّهُ في فاصِلَةِ الحديثِ بينهُ وبينَ محمّد تقي كان قد أشعَلَ سيجارةً. الآنَ يرى كأسَ الشّاي نِصفَ الخالي وقد وضِعَ أمامَ يدِهِ. أمير أدارَ وجههُ ومرَّةً أُخرى نَظَرَ إلى أخيه. محمّد تقي نهضَ من تحتِ نَظَرِ أخيهِ وابتعدَ عن الطَّاولةِ وذهبَ في عُمْقِ الغُرفَةِ واستلقى على سريرٍ خشبيٍّ قديمٍ بجوارِ الحائط. أمير مرَّةً أُخرى نَظَرَ من الخلفِ إلى أكتافِ محمَّد تقي وعُنُقِهِ وحتَّى لا يكونَ لكلماتِهِ تأثيرٌ ضارٌّ خرجَ ساكتاً من الباب، طوى دَرَجَ الإيوانِ وأوصَلَ نفسَهُ خفيَةً إلى القبوِ ليوحيَ إلى خضر جاويد أنْ لا شيءٍ يتعلَّقُ بِه.

أمَّا خضر جاويد فلم يكُنْ رجُلاً ساذَجاً وأمير يستطيعُ أن يفهَمَ أنَّهُ يشُكُّ بِخيالِهِ ولقد كانَ شاكّاً. وقد نظرَ إلى أمير وهو يرفعُ كأسَهُ إلى شَفَتِهِ وظلَّ ينظُرُ إلى أن شربَ نِصفَ مُحتوى الكأسِ وقد نَفَذَ في روحِ أمير إلى دَرَجَةِ أنَّ أمير أحسَّ أنَّ شَعرَ بَدَنِهِ الّذي كان واقفاً راحَ يصيرُ يابساً في مواجَهَةِ خضر جاويد. وكان لا يستطيعُ أن يتحرَّكَ وكأنَّهُ واقفٌ أمامَ طاولةِ التَّحقيقِ وقلبُهُ يرتجِفُ

وعلى الحائطِ في قُبالةِ عينيهِ كانت قطعةٌ من الورقِ المُقوّى مكتوبٌ عليها ((النَّجاةُ في الصِّدق)) وكانَ ينتظِرُ وهو يقفُ كحائطٍ خشبيٍّ أن يُعطِيَهُ خضر جاويد إجازَةً بالجلوس.

. ((اِجلِسْ))

((جلَسْتُ. تماماً كما لو أنّي أقومُ بإنجازِ العملِ الَّذي كان قد طُلِبَ منّي.))

الجلوسُ في الواقِعِ حالةٌ طبيعيَّةٌ ومُشَخَّصَةٌ في مجموعةِ السُّلوكيَّاتِ البشريَّةِ، فحين يُسمَعُ أو يُقالُ ((جَلَسَ)) أو ((جَلَسْتُ)) فإنَّهُ لا ينتقِلُ إلى الذِّهن أكثَرُ من حالةٍ وهيئةٍ كُلّيَّةٍ. لكنْ في تلكَ اللّحظَةِ أدركَ أمير أنَّ هُناكَ تنوُّعاً في هيئةِ الجلوسِ بأعدادِ البشرِ الموجودينَ على الأرض وبتنوُّعِ الحالاتِ المُختلِفَةِ الإنسانيَّةِ في الظُّروفِ المُتنوّعَةِ إلى ما لا نهاية. أمير جلسَ بِشكلٍ مؤدَّبٍ عمليّاً، لكنَّهُ كان يُدرِكُ أنَّ التَّواضُعَ الممزوجَ بالخوفِ الَّذي يبرزُ في حالاتٍ خاصَّةٍ تحتَ عنوانِ الأدَبِ ليسَ لهُ حدٌّ يحدُّهُ ويُشخِّصُه لمن أحسَّ بِهِ، ولهُ عُمقٌ لا يقبلُ النِّهاية. أمير كان جالساً، لكنَّ الجُلوسَ بِخضوعٍ لا يكفي لِإقناعِ خضر جاويد بالطَّاعةِ المُطلَقَةِ والمحضَةِ للدُّستورِ الَّذي أعطاهُ إيّاه. فبألفِ لِسانٍ ساكتٍ كانت كُلُّ ذرّاتِ وجهِهِ تُعبّرُ ونَظَراتُهُ تُحاولُ الإيحاءَ لخضر جاويد ((الَّذي ألقى نظرةً على زاويةِ الغُرفَةِ ودارَ بِها على بقيَّةِ حدودِ الغُرفَةِ بنيَّةِ تحقيري)) أنَّهُ وفقَ مُرادِهِ ومُبتغاهُ بشكلٍ دقيقٍ وعلى الطَّريقةِ الَّتي طلبها وهو جالسٌ بانتظارِ أن يشمَلَهُ خضر جاويد بنَظَرِ عنايتِهِ العظيمةِ ويهَبَهُ القبولَ والأمان، انظُر ((وأدرِكْ روحيَ المُطيعَةَ يا جنابَ الدُّكتورِ جاويد!))

لم يقُلْ أحدٌ لأمير كيفَ يجبُ التَّصرُّفُ وما هو السُّلوكُ داخِلَ غُرفَةِ التَّحقيق. لكنْ كأنَّهُ أُلقيَ إليهِ أنَّهُ يجبُ أن ينظُرَ قُبالَةَ وجهِهِ فقط ولا ينظُرَ إلى أيِّ شيءٍ آخرَ أو مكانٍ آخرَ من الفضاءِ من حولِهِ والموقِعِ الَّذي هو فيه، وحتّى ولو كان بُكاءُ نور أقدس خمامي في جوارِ يدِهِ تحتَ الضَّرَباتِ الموهِنَةِ والمُهلِكَةِ لمُساعِدِ خضر جاويد يملأُ الفضاء. من المُمكِنِ أن يكونَ عندَ شخصٍ الجُرأةُ لأن يرفَعَ رأسهُ قدراً مُعيَّناً للأعلى إلى الحدِّ الَّذي يرى فيهِ في النِّهايةِ بعينَيْهِ القلائدَ المُعلَّقَةَ على صدرِ الشَّخصِ الَّذي يرتدي البزَّةَ النِظاميَّةَ، أمّا مثلُ هذا العَمَلِ بِحدّ عَينِهِ فيُعَدُّ خارجَ حدودِ القوانينِ غيرِ المكتوبَةِ للسُّلوكِ ضِمنَ غُرفَةِ التَّحقيق؛ القوانينِ غيرِ المكتوبةِ الّتي من اللّحظَةِ الأولى للاِعتِقالِ تشرعُ في النَّفاذِ في وجودِ الإنسانِ من ذرَّاتِ الهواءِ وحيثُ أنَّ هُناكَ حارساً في

المُعتَقَلِ يُبدِّلُ لباسَكَ بِقميصٍ وبنطالٍ من اللّباسِ المُستعمَلِ الباقي في المُعتَقَلِ ويأتيكَ بهِ بهيئةٍ مُفزِعةٍ تجعلُكَ تُحسُّ أنَّ القانونَ اللامكتوبِ يُحفَرُ في روحِكَ إلى نُقطَةِ نهايتِه.

. ((ضعْ هذهِ الورقَةَ أمامه!))

كانت ورقَةَ اعتقال.

. ((امضِ هُنا!))

من نَظَرِ حقوقِ الفردِ والقانونِ فإنَّ مُدَّةَ الإعتقالِ أربعٌ وعشرونَ ساعةً كحدٍّ أقصى، ويجبُ بعد الإعتقالِ تشخيصُ الجُرمِ وإبلاغُهُ للمُعتَقَلِ ويجبُ قبلَ انقضاءِ المُدَّةِ أن تُمضى ورقةُ الإعتقالِ وعليها علَّةُ الجُرمِ والتَّوقيفِ من المحكمة، وإذا لم يُثبَتِ الجُرمُ في خلالِ الأربعِ والعِشرينَ ساعةً فإنَّ المحكمةَ لا تملكُ الحقَّ بإدامةِ اعتِقالِ الفردِ المُتَّهَمِ طِبْقَ القانونِ. هذا ما فهمَهُ أمير فيما بعد دونَ أن يرى أنَّ من اللازمِ النَّظَرَ أو إعمالَ الفِكْرِ في أهمّيةِ مثلِ هذا القانونِ المكتوبِ بِشكْلٍ حَسَن. لأنَّهُ لا يوجَدُ أيُّ دليلٍ واضِحٍ أو حتّى مُبهَمٍ على أنَّ أيَّ مواطِنٍ إيرانيٍّ يُفكِّرُ بالقانونِ بمعنى أنَّهُ يُريدُ توجيهَ سلوكِهِ في حُدودِ وإطارِ القانون. إلّا أن يكونَ ذلِكَ القانونَ الَّذي يسبقُ الجميعَ وهو دائماً كثيرُ الفعاليَّةِ قليلُ النَّتيجَة؟ لذلكَ، فإنَّ قلقَ أمير لم يكُنْ لِجهةِ وجودِ أو عدمِ وجودِ القانون، حتّى أنَّ كُلَّ حواسِّهِ كانت تترقَّبُ كشفَ الإتّهامِ الَّذي سيُورَدُ عليهِ وهو إلى الآنَ لا يزالُ لا يعرِفُ ما هو ذلِكَ الإتّهامُ ((فمن ظَمَئي لأعرِفَ مورِدَ اتّهامي كانت عيني على خِضر جاويد)) الَّذي هو الآنَ واقِفٌ بِجانبِ طاوِلَتِه:

. ((نحنُ هنا أيضاً نلبسُ الحِذاءَ بِشكْلٍ صحيحٍ!))

وبمقْبَضِ سَوطِهِ أدارَ وجهَ أمير إلى جِهَةِ اليسار موجّهاً إيَّاهُ نحو تلكُما المرأتَينِ المعصوبَتَي العَينَينِ والمُلقاتَينِ على أريكةٍ قديمةٍ، وقبلَ أن يتمكَّنَ أمير من تحليلِ تقاطيعِ وجهِ وحالةِ شفاهِ المرأةِ الَّتي كانَ يظُنُّ أنَّها نور أقدس، ويودِعَها في ذاكرَتِه، رفعَ خضر جاويد قَدَمَهُ بِذلكَ الإتّجاهِ فعادَ وجهُ أمير تلقائيّاً إلى حالتِهِ الأولى وأحسَّ أنَّ خضر جاويد ضربَ بِمُقَدَّمِ حذائهِ على القدمينِ المجروحَتَينِ والمربوطَتَينِ لأقربِ المرأتَينِ المرميَّتَينِ على الأريكَةِ القديمةِ المُلوَّنَةِ بلونِ الدَّم؛ حيثُ أنَّها أنَّتْ أنيناً وفي لحظَةٍ سكتَتْ وخضر جاويد الآنَ في موضِعِهِ الأوَّلِ واقفٌ بِجانِبِ الطَّاولَةِ قربَ أمير وقد أشارَ بمقبَضِ سَوطِهِ إلى خمسِ نقاطٍ في الغُرفةِ لأخذِ المُتَّهَمينَ الخمسةِ إلى غُرَفِ

سجنِهِم وعلى السَّادِسِ أشارَ أن يبقى ساكناً وقال: ((خذِ الطَّريقَ إلى الغُرفَةِ سيراً!)) بعدَ أن غيَّرَ جِهَةَ نَظَرِهِ إلى نُقطةٍ أُخرى، وقال: ((أنتِ... أيَّتُها المرأةُ العجوزُ المُصابةُ بالسَّلَس، أعمِلي فِكْرَكِ هذِهِ اللّيلَة. غداً صباحاً تقولينَ كلامَكِ أو أنا بِنفسي سأقطَعُ نَفَسَكِ وسأُرسِلُكِ بينَ أيَادِي وَلَدَيكِ إلى مقبرةِ جَنَّةِ الزَّهراء! الآنَ تعالَ وخُذها إلى غُرفَتِها أيُّها الجُنديّ!))

أمير أحسَّ أنَّ المرأةَ العجوزَ في يَدَي الجُنديّ خفيفةٌ مثلَ كيسٍ من التِّبْن، وبعدَ أن حُمِلَتْ للخارِجِ لم يبقَ منها في تلكَ الغُرفَةِ النَّجِسَةِ سوى أنينِها الضَّعيف. ذهبَ خضر وجلسَ خلفَ كُرسيّ عَمَلِهِ دونَ أن ينظُرَ إلى أمير أو يتحدَّثَ معه، وأشعَلَ سيجارةً لِنَفسِهِ وانشَغَلَ بتدخينِها. وأمير لا يعلمُ كم استغرَقَ ذلكَ من الوقتِ ولا كم كانت السَّاعةُ من اللّيل إذ سمِعَ عقبَ سكوتٍ طويلٍ ومهيبٍ وقْعَ أقدامٍ قادِمَةٍ إلى غُرفَةِ التَّحقيق، وبعدَ أن نهضَ خضر جاويد وتقدَّمَ أدارَ رأسَ أمير إلى جِهةِ ظَهرِ كتِفِهِ فرأى أمير زوجَتَهُ وقد أُجلِسَتْ على أريكةٍ قديمةٍ قربَ البابِ وعيناها معصوبتانِ برباطٍ أسودِ وقد أُلبِسَتْ حِذاءَها في قدَميها بشكلٍ صحيحٍ وحين أعادَ خضر جاويد رأسَ أمير إلى حالتِهِ الأولى وذهَبَ بِحَرَكَةٍ سريعةٍ ((إلى جهةِ النُّور)) سمعَ أمير صُراخَ وبُكاءَ كُلِّ نِساءِ العالَمِ في فَضاءِ مدخَنَةِ المُعتَقَل وصارَ يلتفُّ ((في قحفِ رأسي)) وقد ذُهِلَ هذهِ المرَّةَ عن نفسِهِ حتّى كأنَّ نُخاعَهُ قد قُطِعَ ثُمَّ لم يفهَمْ بعدَها شيئاً إلى أن رأى على طاولَةٍ معدنيَّةٍ رصاصيَّةِ اللّونِ سكّيناً مُلطَّخَةً بالدِّماءِ تُبرِقُ تحتَ الضَّوءِ الموضِعيّ لِمِصباح.

. ((سيجارةً، خذْ واحدةً من السَّجائر!))

عينا خضر جاويد كانتا قد احمرّتا، وأمير لم يكُنْ يرى حالةَ عينَيهِ في النّ͏ّ͏ُورِ الضَّعيفِ للمصباحِ والمنبعِثِ من السَّقف بل كانَ يراها في ذِهْنِه، وكانَ يتذكَّرُ ذِكرياتٍ بقيتْ في ذِهنِهِ من تلكَ اللّيالي البعيدةِ والطَّويلةِ بلا نهايةٍ وكان يتذكَّرُ حتّى تثاؤباتِ خضر جاويد في نهايةِ عَمَلِهِ في التَّحقيقِ ويحسُّ بها، وذلكَ حينَ يكونُ خضر جاويد مُرهَقاً ومُتعَباً من العملِ المتواصِلِ ومن تأثيرِ الشَّرابِ وهو يذهبُ لقراءةِ جوابِ آخرِ سؤالٍ؛ وفي بعضِ الأحيانِ كان يُمسِكُ تثاؤبَهُ ويُسمَعُ من ذلكَ صوتُ حلقومِه. خضر جاويد في نَظَرِ أمير ابن الكولونيل لم يكُنْ في الواقِعِ ذلكَ الشَّخصَ نفسَهُ الَّذي كان يجلسُ في ذلكَ المكانِ على السَّريرِ الخشبيّ ويُخرِجُ نوى حبَّاتِ الزَّيتونِ من بين شَفَتَيهِ ويضعُها على طَبَقِ الطَّعام. لعلَّهُ في نَظَرِ أمير يُشبهُ في ثِقَلِ شخصيَّتِهِ وهوِيَّتِهِ رسول خضر جاويد المحفورَ في ذِهنِ أمير وروحِهِ من ماضٍ بعيدٍ ويعتقدُ أنَّهُ سيظلُّ إلى الأبَدِ جالساً

في قعْرِهما. لهذا السَّبَبِ فإنَّ من الطَّبيعيّ أن يكونَ أمير يعرفُ إلى حدٍّ ما عاداتِ خضر جاويد وأخلاقهُ ويعرفُ من حالِهِ ما إذا كان يُريدُ أن ينامَ، وهو يعلمُ في عينِ الحالِ أنَّهُ في النَّومِ من أَثَرِ السُّكْرِ لن يظَلَّ نائماً لأكثَرَ من ساعةٍ. لأنَّهُ كان قد جرى مرَّاتٍ أن ((طرحَ عليَّ سؤالاً واستلقى على سريرٍ سَفَرِيٍّ موضوعٍ في المكانِ بجوارِ الحائِطِ)) وإلى أن يكتُبَ أمير الجوابَ على هذا السُّؤالِ فإنَّهُ كان ينامُ غفوةً ثُمَّ ينهضُ نشيطاً ليجلِسَ على حافَّةِ السَّرير دونَ أن يكونَ بِحاجةٍ لِصَبِّ حفنَةٍ من الماءِ على وجهِهِ لتطييرِ النُّعاسِ عن عينَيه. ((لذلك، أنا على يقينٍ من أنَّ خضر سيستلقي على سريرِ نومي وسيذهبُ في نومٍ قصيرٍ، ولكنَّني لستُ على يقينٍ من أنَّ هذا النَّومَ سوفَ يستمرُّ إلى الصَّباح)) وقطعاً فإنَّ أمير ابن الكولونيل لا يملكُ الجُرأةَ ((ليسألَ للمرَّةِ الثَّانيةِ)) خضر عن نومِه، لأنَّهُ كان يُحسُّ أنَّهُ إذا كان خضر قد سمعَ حديثَهُ مع محمّد تقي ((وهو لا يظُنُّ أنَّهُ لم يسمعْ)) فسيكونُ لديهِ نِسبةٌ من احتمالِ سوءِ الظَّنِّ بسلوكِ محمّد تقي تجاهَهُ وسيكونُ مُجبَراً على الشَّكِّ. سوءُ ظنٍّ وشكٌّ كانا في لحظةِ عودةِ أمير إلى القبو يموجانِ في عينَي خضر الصَّغيرَتَينِ موجاً، وعلى أثَرِ مثلِ هذا الظَّنّ فإنَّ أمير صارَ للحظَةٍ تحتَ النَّظرةِ العاريةِ القاسيَةِ لِخِضر وقد تيبَّسَ منها، لأنَّهُ في تلكَ اللَّحظَةِ الحادَّةِ ظهرَ في نظرةِ خضر جاويد كُلُّ ما اختَزَنَ من ذخيرةٍ في نفسِهِ من تمامِ الثِّقَلِ وقساوةِ الذّات ((وإن كانت مكتومَةً حيثُ أنَّ خضر جاويد لا يزالُ في حالةِ الكِتمان)) حالةٍ يجبُ على أمير أن ينتظِرَ فيها طُلوعَ الأثمارِ الخاصَّةِ بِشَخصيَّةِ خضر.

وضعَ خضر جاويد كأسَهُ الفارغَ جانباً، وكما هو جالسٌ على حافَّةِ السَّرير، وضعَ رِجْلَهُ اليُمنى على رِجلِهِ اليُسرى، وفكَّ رِباطَ فردَةِ الحِذاءِ ونزَعَها من رِجلِهِ فأخَذَها أمير ووضَعَها قُربَ الجِدارِ ليتمكَّنَ خضر من حلِّ الرِّباطِ الآخَرِ ويدُهُ حُرَّةٌ. أخَذَ أمير الفَردَةَ الأُخرى للحِذاءِ من يدِهِ ووضَعَها بِجوارِ الأُخرى بِشكلٍ سويٍّ وقد فكَّرَ والحالُ هذهِ أنَّ خضر سيبقى اللّيلَةَ هنا وقلبُهُ ((فوقَ الإحساسِ الشَّديدِ بِعَدَمِ الرِّضا)) هبطَ فجأةً. لأنَّهُ تذكَّرَ تلقائيّاً سلاحَ أخيهِ الفرديَّ الّذي رآهُ في غُرفَةِ الجلوس. وعلاوةً على السِّلاحِ الفرديّ الَّذي يستطيعُ بِشكلٍ تلقائيٍّ أن يُسبِّبَ هَلَعَ وفَزَعَ أمير، كانَ هُناكَ حسُّ التَّفحُّصِ والتَّدقيقِ من جانبِ محمد تقي بخصوصِ خضر جاويد، كانَ التَّفحُّصُ عجينَةً من سوءِ الظَّنِّ الَّذي سيُستَبْدَلُ باليقينِ أخيراً ((بِظنّي)). فممَّا يعرفُ أمير عن الأحوالِ الرُّوحانيَّةِ لأخيهِ ومن وقوفِهِ على تلقِّيهِ الخَشِنِ للثَّورةِ وعَمَلِهِ فإنَّ خوفَهُ من إراقَةِ الدِّماء

الَّتي يُمكنُ أن تحصَلَ لم يكُنْ في غيرِ مَحَلِّه. لأنَّ بُغضَ محمَد تقي لهذا العدوِّ الَّذي يراهُ عامِلَ بوارٍ للنَّشْءِ معروفٌ وهويَّتُهُ جليَّةٌ للآخرينَ من جميعِ الوجوه وكان يطلبُ مجالاً للتَّعبيرِ عنهُ؛ والشَّرائطُ متوفِّرةٌ والنَّاسُ في الأزِقَّةِ والشَّوارِعِ وأهلُ الحيّ والبازارِ فرداً فرداً كانوا يبحثونَ عن الإنتقام وكانوا جاهزينَ للإنتقام. وهم النَّاسُ أنفُسُهُم الَّذين كانوا موجودينَ حينما جرى تعليقُ عددٍ من الجُثَثِ لمأمورينَ من أمثالِ خضر جاويد على جذوعِ أشجارِ الشّارِعِ الكبير. فبِنَظَرِ الشَّابِّ الثَّائرِ والغاضِبِ من أمثالِ محمّد تقي الَّذي كان يفدي رِفاقَهُ طوالَ السِّنين كما بِنَظَرِ الشَّعبِ الَّذي ظلَّ طوالَ نِصفِ قرنٍ يُمتَحَنُ بالنَّكَبات، لقد كان إخراجُ ذلكَ المُحقِّقِ الَّذي تمرَّسَ بالتَّعذيبِ إلى خارِجِ المنزلِ لِيُذبَحَ في خِضمِّ جُنونِ الثَّورةِ من أكثرِ الأعمالِ طبيعيَّةً.

((... لكن ما وظيفتي وما تكليفي في هذا الوَسَط؟ في بَلَدِنا إيران توجَدُ عاداتٌ قَبَليَّةٌ قديمةٌ وهي لا تزالُ تجري قليلاً أو كثيراً وإنْ بِشكلٍ أقلَّ وضوحاً، واحدةٌ منها أنَّ من الوظائفِ الأخلاقيَّةِ للشَّخصِ الحفاظُ على الضِّيافَةِ ولو معَ عدوٍّ مطلوبٍ بِدَمٍ. صحيحٌ أنَّ هذهِ العادةَ منسيَّةٌ في حياةِ المدينةِ الضَّاغطةِ لكنَّ تأثيراتِها الرُّوحانيَّةِ لا تزالُ باقيَةً ...

((ولماذا كنتُ راغباً بالحِفاظ على سُنَّةِ الضّيافةِ وقبولِها بهذا الشَّكلِ الجدّيّ والقويّ؟ كأنَّ حِفظَ وحمايةَ خضر جاويد من الواجباتِ الشَّرعيَّةِ ولا حقَّ لي في أن أرُدَّ يدهُ إلى صدرِهِ! ((. في حالةٍ لا ترضى فيها شعرةٌ من بَدَني بِحضورِهِ إلى منزلي. لأنّي أخافُ من حضورِ وعواقِبِ حضورِ خِضر جاويد، وبنفسِ الميزانِ أخافُ من طردِهِ . لعلَّني اتَّخَذتُ هذِهِ العادةَ عُذراً لأنَّني كنتُ أخافُ منه . ولا شكَّ عندي أنَّهُ لو كانت وقَعَتْ عيني على خِضر في الشَّارِعِ فإنَّني كنتُ سأُغيِّرُ طريقي تلقائيَّاً. لكنْ الآنَ الوضعيَّةُ مُختلِفَةٌ وأنا ممسوكٌ بالواقِعِ ومُبتلىً ولا مفرَّ لي لأُخلِّصَ نفسي وأجِدَ لها مخرجاً من هذهِ البليَّة.)) ((لا، لا أستطيع!))

. ((بماذا تُفكِّرُ، رفيق؟!))

قالَ كلمةَ رفيق بِسُخريةٍ وأمير الَّذي لم يعُدْ يعرفُ في أيَّةِ دُنيا يسيرُ عادَ ونَظَرَ إلى خِضر الَّذي استوى على مُتَّكَئِهِ ثُمَّ اتَّكَأ على مرفقِهِ الأيمنِ على السَّريرِ ورأسُهُ مرفوعٌ من فوقِ أكتافِهِ وراحَ ينظُرُ إلى الكأسِ في يدِهِ دونَ أن يتوجَّهَ إلى أمير بالخطابِ ليملأ لهُ الكأسَ مُجدّداً إلّا بحرَكَةٍ

ملائمةٍ أجراها بيدِهِ بالكأسِ وكأنَّما يلعبُ بالعَرَقِ في كأسِهِ حيثُ قالَ لهُ أمير إنَّهُ لا يُفكِّرُ بِشَيءٍ خاصّ.

((أنامُ اللَّيلَةَ هنا!))

قال خضر هذا بتحكُّمٍ وبنوعٍ من التَّعريضِ لإظهارِ غرورِهِ واعتمادِهِ على نفسِه، وأمير أتى بضُحْكَةٍ تصنُّعٍ وقال السَّريرُ موجودٌ ((وسأُغيِّرُ ملحَفَتَهُ أيضاً))

خضر لم يقُلْ شيئاً وأمير فهمَ أنَّهُ يُريدُ أن يقولَ أنَّ ذلكَ غيرُ مهمٍّ بالنِّسبَةِ له. ولكنْ كأنَّهُ صارَ ساخِناً حيثُ وضعَ كأسَهُ جانباً ونهضَ ليخلَعَ معطَفَهُ عن بدنِهِ، وحينَ رفعَ يدَهُ ليُعلِّقَ المِعطَفَ على حمَّالةِ الثِّيابِ الخَشَبيَّةِ رأى أمير حمائلَ كتِفِهِ والسِّلاحَ الفرديَّ في موضِعِهِ في غمدِه، كانتِ الحمائلُ مُعلّقَةً بِكَتِفِهِ الأيسر وغمدُ السِّلاحِ معمولاً بِشكلٍ مائلٍ ليستطيعَ الإمساكَ سريعاً بالسِّلاحِ بيدِهِ اليُمنى وإخراجِه. عندما رجعَ خضر ليجلسَ مكانهُ استطاعَ أمير أن يرى بِشكلٍ أفضلَ حمائلَ السِّلاحِ ومقبَضَهُ الأسودَ خارجَ الغِمْد، وخضر رفَعَ الكأسَ وهو يجلسُ وقبلَ أن يَضَعَهُ على شفتِهِ ضحِكَ باستِهزاءٍ وقال: ((أتعتقِدُ أنَّني في بحبوحَةِ الثَّورةِ كنتُ أتجوَّلُ في الشَّوارِعِ المركزيَّةِ للمدينة، أتعتقِد؟!))

قالَ أمير معقول، وهو يُدرِكُ انَّ الكحولَ قد أثَّرَ على دماغِ خضر وتذكَّرَ خضر في بعضِ ليالي التَّحقيقِ حينَ كان رأسُهُ فارِغاً بعدَ شُرْبِ كأسِ مشروبِهِ في غُرفَتِهِ وكان يتحدَّثُ عن نفسِهِ وعن بُطولاتِهِ وأنَّهُ كانَ في ظُفار وقامَ بالمأموريَّاتِ الخطيرةِ في الأهوارِ على الحدودِ العراقيَّةِ الإيرانيَّةِ وأنَّهُ أنجزَها بِنجاحٍ وتكلَّلَتْ بالنَّصر، وأمير اعتَقَدَ وهو يقيسُ رُتبَةَ وموقِعَ خضر بمُدَّةِ خِدمتِهِ أنَّهُ لا بُدَّ وأن يكونَ قد تَعرَّضَ للأخطارِ لكي يصِلَ إلى مثلِ تلكَ الرُّتبة.

. ((كان ذلكَ أوائلَ شهرِ أسْفَنْد، أي بعدَ عشرةِ أيَّامٍ من الثَّاني والعِشْرينَ من بهْمَن. رأيتُ ثلاثةً من رِفاقِكَ. اثنانِ منهُما مُتَّهَمانِ منّي والثَّالِثُ منهُما أعرِفُهُ. أتتخيَّلُ ما حَصَل؟ مصيرُهُم بيدي وهُم كانوا يعرفونَ هذا الشَّيءَ وأنَّهُ لو خرَجَتْ زقزَقَةٌ من أحَدِهِم ما كُنَّا لِنَدَعَهُ حيَّاً. أتتصوَّرُ ما حصل؟ اخترتُ أن أكونَ مُسالِماً بِشكلٍ كاملٍ. فقط صباحَ اليومِ التَّالي وعلى الصَّفحةِ الأولى من جريدتِكُم كتبتُم أيَّ شكلٍ من الثَّورةِ هذا والجلّادونَ لا يزالونَ يسيرونَ بِشَكلٍ ظاهِرٍ ومُعلَنٍ في الشَّوارِعِ؟

وتحتَ هذا العنوانِ العريضِ مُباشَرَةً كُتِبَ انشُروا قائمَةً بأسماءِ السَّفَّاكين! الرِّفاقُ يُظهرونَ عندَ أقدامِهِم اللَّبَنَ كمشروب والرُّؤساءُ... أيضاً ...ها! ...أنت لماذا لا تشربُ العَرَق؟!))

كان واضِحاً لأمير أكثَرَ من وضوحِ النَّهارِ أنَّ خضر جاويد كانَ قد نقلَ هذهِ القصَّةَ بمُناسَبَةِ سوءِ ظنِّهِ بمحمّد تقي وخوفِهِ منه، وكان بذلكَ يريدُ الإفهامَ أنَّهُ لا يخشى من هياجِ وشرِّ محمّد تقي وتلكَ اللَّحظَةَ أدرَكَ أمير أنَّ تصميمَ خضر على النَّومِ في المنزلِ كان آنيّاً وكان حقيقيَّاً، بمعنى أنَّهُ لن يهرُبَ ولن يُغادِرَ المكانَ مع إدراكِهِ لِردَّةِ فِعلِ محمَّد تقي ((وقطعاً فإنَّ هذا التَّصميمَ لم يكنْ شيئاً آخَرَ وهذا ما أدركتُهُ فيما بعد.))

. ((قلتَ أنَّكَ لا تشربُ المشروبَ ها؟ ... لماذا؟!))

قال أمير لأنَّهُ مؤذٍ ولهُ تأثيرٌ سيِّءٌ على أعصابِ المُخيخ. خضر كان قد سألَ هذا من قبل وهذهِ هي المرَّةُ الثّانيةُ الَّتي يسألُ فيها، وهذا معناهُ أنَّ رأسَهُ قد سخُنَ وتكرارُ كلامِهِ كان يُعطي علامةً على ذلك، وأمير يعرفُ أنَّ خضر جاويد نفسَهُ لم يكُنْ جاهلاً بعلامةِ سُكرِهِ ((شربَ كأسَه)) وقالَ لأمير، أحكِمْ سَدَّ وعاءِ المشروبِ إلى ليلةٍ أُخرى، ومن دونِ أن يباليَ بِتمعُّجٍ بنطالِهِ استلقى على السَّريرِ وأطبَقَ أجفانَه ((لكنَّني أعلمُ أنَّ خضر جاويد ينامُ وإحدى عينَيهِ مفتوحةٌ دائماً وأصلاً لا يجبُ الاعتقادُ أنَّهُ ينامُ نوماً عميقاً.)) وكونُ خضر مُستلقياً معناهُ أنَّ اللّيلَ قد اقتربَ من آخِرِهِ وعلى أمير أن ينهضَ ليجمعَ الأشياءَ من تحتِ يديهِ وقدمَيهِ ويُفكِّرَ بالنَّوم. يستطيعُ أمير الذَّهابَ للأعلى وجلبِ فراشٍ ولحافٍ لنفسِهِ ولكنَّهُ لم يذهبْ... هو لم يكنْ يريدُ أن يصطدِمَ مرَّةً أُخرى بمحمَّد تقي من جهةٍ ولم يكُنْ يُريدُ أن يُثيرَ شكوكَ خضر جاويد أكثرَ من جهةٍ أُخرى واقتنعَ بِأن يُسوِّيَ مكاناً لهُ على الحصيرةِ رغمَ أنَّهُ لم يكُنْ يرغبُ كثيراً بالنَّوم. الآنَ عليهِ أن يجمعَ ظروفَ الشّاي والبقايا الصَّغيرةَ ويضعَها على الصِّينيَّةِ الَّتي لم يكُنْ يُريدُ أخذها للأعلى، أطفأَ المِصباحَ وأشعَلَهُ مرَّتَين، وكان مُتردّداً بينَ إغلاقِ أو عدمِ إغلاقِ بابِ القبوِ واستلقى على الحصيرةِ ليتلقّى من جانبِ خضر عنوانَ إغلاقِ البابِ أو تركِهِ نِصفَ مفتوحٍ وفي المرَّاتِ الثَّلاثِ الَّتي كان نهضَ بها انتبهَ إلى أنَّ الجفنَ الأيمنَ لخضر جاويد نصفُ مفتوحٍ كما أدركَ بعدها أنَّهُ يُديرُ رأسهُ وقدميهِ ((بعكسي))، يعني بحيثُ يكونُ وجهُهُ إلى جِهةِ بابِ القبوِ بينما ينامُ أمير ووسادتُهُ تلاصقُ الجدارَ بجانبِ الباب. أخيراً أشعلَ الضَّوءَ وتركَ البابَ نصفَ مفتوحٍ وأشعلَ سيجارةً واستلقى سريعاً. وضعَ ساعدَهُ تحتَ وجهِهِ وراحَ ينظُرُ إلى دُخانِ سيجارتِهِ يصعدُ من بينِ أصابِعِهِ للأعلى

وهو يتلوّى ويضطربُ وكان في حيرةٍ ويأملُ بالحُصولِ على الهدوءِ لأنَّ النَّومَ كان مُحالاً على كُلِّ حال، ليس لأنَّهُ نامَ بعدَ ظُهرِ ذلكَ اليومِ واستمرَّ في النَّومِ إلى اللّيلِ، بل لأنَّ مُصيبَتَهُ كانت أنَّهُ لا يستطيعُ بأيِّ شكلٍ حلَّ مُشكلَةِ قبولِ أو رفضِ حضورِ ((عدوِّهِ في المنزل)). قلبُهُ راغبٌ في أن يستطيعَ أن يأخُذَ الأمرَ بِشَكلٍ بسيطٍ وسهلٍ وأن تُعتَبَرَ الواقِعةُ عاديَّةً، ((لكنَّ هذا لم يكُنْ)) فكانت أُمنيتُهُ الوحيدةُ في أن يكونَ محمّد تقي قد غلبَ الشَّيطانَ ونامَ، وأكثرَ من ذلكَ كانَ يتمنّى أن يبقى مسعود ((على الأقلِّ هذهِ اللّيلَةَ في المسجِدِ أو في هيئةِ المحلَّة)) ولا يأتي إلى المنزل كما كان قلبُهُ راغباً في أن لا يصلَ خبرُ هذهِ المُصيبةِ إلى أُذُنِ بروانة. فحينها يُمكِنُ تماماً ((من حيثُ أنَّها يُمكِنُ أن تفقِدَ الصَّبرَ)) أن لا تُمسِكَ دمعَها وتدخُلَ في صُلبِ الموضوع. لأنَّ أمير صارَ ممّا جرى لهُ يخافُ على إخوتِهِ وأختِهِ من هيجاناتِ الثَّورةِ وإشكالاتِها؛ ((وما شاءَ اللهُ، كلُّ واحِدٍ منهُم، لهُ مسلَكُهُ وطريقُهُ الخاصُّ وليسَ قليلاً ما عندَ كلِّ واحدٍ منهُم من أشياء بهذا الخصوص!))

. ((أتخيَّلُ أنَّني سأذهبُ لأُصلِحَ رأسي!))

في مثلِ هذهِ الوضعيَّةِ السَّابقةِ الذِّكرِ فإنَّ مثلَ هذا الكلامِ أخيراً هو من أعذَبِ الكلامِ الَّذي سُمِعَ من لسانِ خضر جاويد وهو سكرانٌ ونعسان، وأمير فكَّرَ أنَّهُ لابُدَّ وأنَّهُ يتوقَّعُ الحُصولَ على ((وجهةِ نظَري)) ومعرفتِها! رُبَّما كنوعٍ من التَّوجُّهِ لكلامِ خضر جاويد نهضَ أمير نصفَ نهوضٍ بشكلٍ عفويٍّ لينظُرَ إليهِ وراحَ يتكلَّمُ أحياناً إلى أن رأى أخاهُ محمَّد تقي واقفاً بالبابِ وهو يحملُ لحافاً وفراشاً تحتِ إبطِهِ ويقول:

. ((فكَّرتُ أنَّ الأرضَ رطبةٌ يا أخي. أعطِني أيضاً الصِّينيَّةَ والظُّروف أحملْها للأعلى!))

أمير صارَ أخرساً ويابساً، نهضَ وهو لا يدري أيأخُذُ أوّلاً اللّحافَ والفِراشَ من يدَي أخيهِ أم يرفعُ أوّلاً الصِّينيَّةَ ويعطيهِ إيَّاها وهو لا يستطيعُ أن يفهَمَ كيفَ أنَّ خضر جاويد مع الحَضورِ المُشَخَّصِ والقاطِعِ لمحمّد تقي على عتبةِ الباب ((وهو بلا شكٍّ يراهُ بِعينِهِ تلكَ نِصفَ المفتوحةِ)) يستطيعُ أن يقولَ بِذاتِ الحالِ واللّحنِ دونَ توقُّفٍ أو سكوت ((أبي قال... أبي أوصى أن ندفِنَهُ في أعلى نقطَةٍ من الصَّحراءِ... على أعلى هضبَةٍ مجاورةٍ للمدينةِ... في المكانِ عينِهِ الَّذي تمَّتْ معايَنَتُهُ من قبلُ وشراؤه!))

. ((ها... نعم... غفر الله...))

. ((أخي!))

أمير كأنَّما كان يُضرَبُ بالمساميرِ على وقعِ صوتِ أخيهِ الخَشِنِ وهذا ما ساعَدَهُ ليُدرِكَ أنَّهُ يجبُ أوّلاً أن يأخُذَ اللّحافَ والفِراشَ ثُمَّ يرفعُ الصِّينيَّةَ ويضعُها في يدِ محمَّد تقي؛ رغمَ أنَّ محمد تقي الآنَ على وشكِ أن يضعَ اللِّحافَ والفراشَ على الحصيرةِ . وتقريباً . يداهُ تكادانِ تصلانِ إلى الصِّينيَّةِ وهذهِ كانت مُساعَدَةً منهُ لأمير الَّذي كانَ كالنَّائمِ ليأخُذَ الصِّينيَّةَ والظُّروفَ الفارِغَةَ عنِ الأرضِ ويضعَها في يدِ أخيهِ ويستمِعَ إلى محمّد تقي أن ((سأجلبُ لكُم الماءَ حالاً!))

((أبي في القبرِ يريدُ أن يتنفَّسَ الهواءَ أيضاً، يُريدُ نسيماً عليلاً يهبُّ على روحِهِ من سفحِ الجبل. في النِّهايةِ هو كان يعتقِدُ أنَّ روحَ ابنِ آدَمَ تحتاجُ أيضاً إلى النَّسيمِ العليل!... لا أعلمُ لماذا أُفكِّرُ بموتِ أبيك، موتِ الكولونيل؛... اللّعنة!))

((سيّد جاويد، سيّد جاويد! هل تُريدُ أن أُعِدَّ لكَ شرابَ ماءِ اللّيمون؟))

((أنا ذاهبٌ لأُصلِحَ رأسي، أنا ذاهب... والمرَّةَ القادِمَةَ حينَ أعودُ إلى هُنا سوفَ لن ترى هذهِ الكُتلَةَ العُنقوديَّةَ الرَّديئةَ المنظَرِ على وجهي!... كان أبي دائماً يقول، دائماً كان يقولُ أنَّ روحَ ابنِ آدَمَ تحتاجُ إلى النَّسيمِ العليل، اللّعنةُ عليك... اللّعنةُ عليكُم!... ألا تستطيعونَ أن يكونَ لكُم أيُّ تأثيرٍ تحتَ السَّماء! حتّى كلاشينكوف واحد ليسَ عندكم أو آر ب ج 7 واحدة؟ أليسَ منكُم واحدٌ بينَ جنبيهِ خصية؟ لا، لا ذهبتُم بمناديلِ الحريرِ تستقبلونَ كونَكُم المُحترِقَ لتصيروا من ذلكَ شُعراء حميراً، وأنا أكونُ مجبوراً لأعطيَ رأسيَ المُحتَرَمَ لِمبضعِ الجرَّاح... أو أن ...أو أن ألصِقَ مُضطرّاً لِحيةً بِجلدِ وجهي اللّطيفِ الحَسَن وقد كنتُ أحلقُ وجهي مرَّتينِ كلَّ يومٍ طيلةَ ثلاثينَ عاماً، وأكونَ مضطرّاً للبقاءِ بجانبِ ذلكَ الجاني والمُزارعين اللُطَفاءِ... أشربُ غالوناً من العَرَقِ وأنتظِرُ كُلَّ ليلةٍ حتّى الصَّباحِ لأنهضَ من النَّومِ بعينَينِ عمياوين... ألا تستطيعونَ أن تُثيروا دُخاناً في الهواء؟ لا... لا... اللّعنةُ عليكُم جميعاً!... الآنَ، الآنَ تُريدونَ القيامَ بثورةٍ في صحراءِ التّركُمان! حُلْوٌ... منَ الخلف! ذكَرٌ!... سأقتُلُكُم جميعاً بنفسي يا أولادَ الفاجرات...))

. ((سيجارة...أتريدُ أن أُشعِلَ لكَ سيجارةً؟))

أمير لم يُجبْ. وأصواتُ مضغِ ونفخِ خضر عَلَتْ. حافظَ أمير على قدرٍ من الهدوءِ على أملِ أن يذهبَ في نومٍ عميقٍ واستلقى مرَّةً أُخرى جاعِلاً ساعِدَهُ فوقَ وجهِهِ وعيناهُ تسرحانِ في سقفِ القبو. لكنَّهُ ليسَ على يقينٍ من أنَّ خضر ينامُ نوماً عميقاً أصلاً، أو يذهبُ حتّى في نومِ سُكرٍ، وهوَ نفسُهُ الّذي كانَ أعطى لَقَبَ الكلبِ لخضر في المُعتَقَل؛ ((كلبٌ)) لِجِهَةِ أنَّ الكلْبَ نائمٌ ويقِظٌ معاً طوالَ اللّيل وهو أيضاً ينامُ مثلَ الكلبِ في النَّهار. الآنَ، وخاصَّةً من تلكَ الجهةِ يُسمَعُ من حينٍ لآخرَ أصواتُ رَشَقاتِ قنابِلَ وطلقاتٍ ناريَّةٍ متواليةٍ قريبةٍ وبعيدةٍ من المُسَدَّساتِ في الأزقّةِ و... ((في تلكَ اللَّحَظاتِ انتبهتُ إلى أنَّ إيواءَ خضر جاويد رُبَّما كان عملاً خطيراً علينا؛ لأنَّ تلكَ الطَّلَقاتِ والرَّشَقاتِ لم تكُنْ غيرَ مُرتبطةٍ بِخضر جاويد وأمثالِهِ وماضيهِم وحاضِرِهِم...)) والعجيبُ أنَّ خضر جاويد لم تظهرْ عليهِ النِّيَّةُ للخروجِ من المنزِلِ والظُّهورِ خارِجهُ أو كان يُظهرُ أنَّهُ لا ينوي الخروج. ومهما كانَ فإنَّ ظاهِرَهُ كانَ يوحي بأنَّهُ يأخُذُ هذهِ الوقائعَ على أنَّها طبيعيَّةٌ وأنَّهُ على علمٍ بِها وأنَّهُ كانَ يُفكِّرُ فقط في أن يمُرَّ الوقت. بنظَرِ أمير فإنَّ تفكيرَ خضر جاويد لم يُصَبْ بالشَّلل. ومثلُ هذهِ الحالةِ من اللّامبالاةِ ((حتّى ولو كانت أعصابُهُ من بولاد)) لا يُمكنُ أن تكونَ ذاتيَّةً، ويجبُ أن يكونَ هُناكَ نوعٌ من الإطمئنانِ الدَّاخليّ المخفيّ وراءَ مثلِ هذا المظهرِ وهذهِ السَّيماءِ منَ البرودةِ والصَّلابةِ لخضر. لأنَّ خضر لم يكنْ مأموراً مجهولاً وغيرَ معروف، وكان من علائمِ طلبِهِ الجاهَ وغرورِهِ ((وكونِهِ صاحبَ عُقدةٍ)) أنَّهُ كان يقولُ ((ألا يعلمُ من في الإدارةِ أنّني أنا الشَّخصُ الوحيدُ الَّذي ليس لي اِسمٌ مُستعار؟!)) . ((نعم، سيّد جاويد.)) وأمير لم يكُن يرى دليلاً لِعَدَمِ تصديقِ كلامِهِ بِشأنِ اصطدامِهِ بثلاثةِ أفرادٍ من المُتَّهَمين السَّابقين ((الَّذين لابُدَّ وأنَّهُم كانوا من القوى الثَّوريَّةِ)) لأنَّ أمير يعرفُ مثلَ هذهِ الرُّوحانيَّةِ في خضر ويتوقَّعُها ((وأنا الآنَ أيضاً أتوقَّعُ)) أنَّهُ كان يعتمدُ في باطِنِ نفسِهِ على شيءٍ غيرِ الجسارةِ الفطريَّةِ، ألم يكُنْ قيلَ عنهُ في أثناءِ اجتماعِ مأموري الهيئةِ الأمنيَّةِ أمامَ بابِ الوزيرِ الأوَّلِ أنَّ الهيئةَ تدعمُه؟ نعم، أمير في فترةِ الإعتقالِ والسِّجن ((كنتُ قد وصلتُ إلى قناعةٍ أنَّ الهيئةَ الأمنيَّةَ هي الأكثرُ شَبَهاً وانسِجاماً مع الهيئةِ السِّياسيَّةِ البوليسيَّة)) وأنَّها لا تملكُ إلّا قليلاً من ((الإيمان)) احتمالاً. في عينِ الحالِ وبعيداً عن الواقِعِ العينيّ فإنَّهُ يرى أنَّ فكرَ الإنفجارِ الثَّوريّ للأمَّةِ لم يكُن لهُ أيُّ أثرٍ، حتّى في أفرادٍ من أمثالِ خضر جاويد، وأنَّ أولئكَ الّذين ثبتوا دونَ تردُّدٍ ثبتوا لفترةٍ قصيرةٍ قياساً بحياتِهِم السَّابقةِ؛ على أنَّ خضر جاويد لا يُريدُ الإعترافَ بإحساسِهِ بالرُّعبِ من الثَّورةِ معَ

كُلِّ هذِهِ الجسارةِ في حِرفتِه. وهو الَّذي لم يكُنْ يتحدَّثُ إلّا عن الثّورةِ وحولَ الثَّورةِ وكيفَ قامتِ الثَّورة.

. ((لا تستطيعون، لا تستطيعون... أو أنَّكُم لا تملكونَ الحقَّ للتَّصرُّفِ بدونِ إجازة؟ العملُ أُنجِز، أنا أعلمُ، أُنجِزَ لأنَّني كنتُ عملتُهُ بيدي ، وأنا لم يكُنْ عندي إجازة. أنتم لماذا؟... أنتم أيضاً... بطريقٍ أولى لم تكونوا تملكونَ إجازةً! ها... في الوقتِ الَّذي لا يجبُ عليكُم أن تُرهبوا تُرهبون، في الوقتِ الَّذي لا يجبُ عليكُم أن تكونوا ديموقراطيّين تصيرونَ ديموقراطيين! وفي كُلِّ حالةٍ أنتم عملاءُ وخائنون!))

((أنا كانت عيني في سقفِ القبوِ ورُبَّما كانت هناكَ ضُحكةٌ على شِفاهي وكنتُ أفكِّرُ كم هذا مُلفتٌ للاِنتباه! لأنَّهُ في جميعِ الأحوالِ نحنُ مقصِّرونَ وخائنون؛ عَمِلْنا أم لم نعمَلْ! النِّفطُ والشُّرطَةُ وصاروخُ سام 7 والجيشُ كانت جميعاً في يدِ السّادةِ ونحنُ يجبُ أن نموتَ إلى أن يصيرَ ذلكَ القائدُ الثَّوريُّ دُخاناً في الهواء! وفي جميعِ الأحوالِ نحنُ مُقصِّرون! عملنا أم لم نعملْ! وأكثرُ ما يُثيرُ أنَّ أيَّ عملٍ لم نعملْهُ وأيَّ عملٍ عملناهُ تكونُ العاقبةُ هي التَّقصيرُ والخيانةُ في العملِ والنّتيجةُ واحدة!))

. ((لكنْ أنتم الّذينَ تدّعونَ أنَّكُم تُريدونَ إرجاعَ التَّاريخِ إلى الوراءِ وليسَ أنا، ليس نحن!))

. ((ولكنْ نحنُ، حتّى ولو كنّا أيضاً نستطيعُ، فلم يكُن يجبُ أن نُحرِقَ شخصاً على فكرةِ أنَّ ذلكَ مُنجٍ للأمَّةِ!))

_ ((على فكرةٍ، أو أنَّكُم كنتم تفكِّرون؟!))

كان خضر قاعداً وقد بدا تغيُّرُ حالِهِ لأمير وكان ذلكَ مبعثَ حيرةٍ لهُ، حيثُ أنَّ أمير كان مُجبَراً على هذِهِ المُقابَلَةِ كما كان مُجبَراً على احترامِهِ أيضاً؛ وقد نهضَ نِصفَ نُهوضٍ واتَّكأ على مرفقِهِ ليستطيعَ النَّظَرَ إليه. كانت صراحةُ هجومِ خضر جاويد تزدادُ لكنَّهُ لم يكُنْ هجوماً مُعلَناً. فقد أمسكَ غالون العَرَقِ من أمامِهِ وملأ كأسَهُ إلى مُنتصَفِها وشربَ ومرَّةً أُخرى أسندَ رأسَهُ وكتِفَهُ إلى وسادَتَين اثنتينِ إحداهُما فوقَ الأُخرى وصَمَتَ، وحيثُ أنَّ صمتَهُ طالَ فإنَّ أمير اضطُرَّ ليسألَ عن السِّرِّ الَّذي هو في بحثٍ عنهُ:

. ((أيُّ فرقٍ هناك، بالنِّسبةِ لكُم أيُّ فرقٍ هناكَ فيما لو أخذتِ الثَّورةُ مساراً آخر؟))

خضر قالَ دونَ أن يرفَّ أجفانَهُ هذهِ المرَّةَ:

. ((في تلكَ الصُّورةِ أنا كُنتُ أعملُ من أجلِكُم؛ كنتُ أشربُ مشروبي من العَرَق، وكنتُ أداومُ على التَّحقيقِ وما كنتُ لأُضطَرَّ لِتعريضِ دماغي للجراحةِ أو لأنْ أُلصِقَ لحيةً على وجهي لأتمكَّنَ من القيامِ بالعمل!))

. ((في تلكَ الصُّورةِ البعيدةِ جدّاً والَّتي لم تكنْ مُمكنةً، من أينَ يكونُ معلوماً أنّي أستعملُ أمثالَكَ في العمل؟ فمن السَّهلِ أن لا أستعملَكُم كما هو معلوم؟!))

أطلَقَ خضر ضُحكَةً في الوقتِ الّذي كان فيهِ أمير يُشعلُ لهُ سيجارتهُ، أطلقَ نَفساً وقال باطمئنانٍ غريب:

. ((حبيبي ، البوليسُ السِّياسيّ مثلَ مذهبٍ دينيٍّ، وإلى الآنَ هل رأيتَ أحداً يتخلّصُ من مذهبِهِ؟ وبعدَ هُنيهَةٍ أضافَ ((من الممكنِ أنَّ مجموعةً ارتقتْ حديثاً ولم يكنْ لها أساسٌ وجذورٌ من قبل. أذكُرُ أنّي... أذكرُ أنّي كثيراً ما أشرتُ لأمثالِ إخوتكَ الحادّيّ المزاجِ أنَّهم سيُعلَّقون على الأشجار، أليس ذلكَ ما جرى أخيراً! الأساسُ والقواعد، البناء أيُّها السّيّدُ المهندس!))

كان رمادٌ من السّيجارةِ يسقُطُ على راحةِ يدِ أمير، واضطُرَّ أمير للانتباهِ لكيلا يسقُطَ رمادُ سيجارةِ خضر جاويد بينَ عينيه وخضر جاويد يُمسكُ بالسّوطِ الّذي يتلوّى في يدِه. وهناكَ بدأَ خضر جاويد بالكلام، ولم يكنْ هناكَ دليلٌ على أنَّهُ يتكلَّمُ في النَّومِ أو في اليقظةِ، كلامُهُ كانَ كلامَ من أخذَ بِهِ النُّعاسُ دونَ أن يكونَ هناكَ من مُخاطَبٍ وقد يُحمَلُ أكثرَ على أنَّهُ نوعٌ من الحديثِ للنَّفسِ أو لهوٌ من القولِ يتداعى:

. ((... وقلتُ أنَّني جئتُ لأخدُمَ ملكي ووطَني وكنتُ أتخيَّلُ أنَّ العقيدَ ينظُرُ في الكتلةِ في وجهي. خفضتُ رأسي للأسفَلِ لكي لا يرى الكُتلَةَ. وتمنّيتُ أن يكونَ عرَفَني، وكُنتُ قد عُرِّفْتُ لهُ من قبل. كُنتُ متنفِّراً من ليالي الجُمَعِ تلك حيثُ كنتُ مع ستَّةٍ من المُعلّمين نعطي دورةً في القراءةِ وأنا من التَّعبِ الّذي جلبتُهُ لبَدَني، أو في الواقعِ سلكتُ الطَّريقَ إليهِ بشكلٍ عَرَضيٍّ، ومن عدمِ إقبالِ نفسي مُشمئزٌّ وأكادُ أسقُطُ، مشمئزٌّ من تلكَ اللّيالي كما من أولئكَ المُعلّمينَ الّذين يريدونَ أن يجلبونا إلى

ترياقِ وجودِهِم، ومن درّاجتي تلكَ الّتي ينثقبُ دولابُها في طُرُقاتِ تلكَ النّواحي وكنتُ مجبراً على حملِها على كتفي والسّيرِ على قدميّ مسافةً طويلةً لأُصلِحَ ثُقبَها ثُمَّ في اليومِ التّالي أعودُ إلى القريةِ لأرى الأطفالَ العُميَ والقرعَ والمُتَّسخيّ الرُّؤوسِ بأيديهِم ووجوهِهِم وأنوفِهِم جالسينَ ينتظِرونَ أن أُعطيَهُم الدّرسَ...)) ((أنتَ كنتَ مدرّساً للتّاريخِ في المدرسةِ الثّانويَّةِ، أليسَ كذلك؟)) . ((نعم)) وأيَّةُ حرارةٍ! العرقُ كان يتساقطُ من كلِّ أجزاءِ بدني السَّبعةِ. كلُّ ما هناكَ التّرابُ والنّخلُ. وأحياناً ترى عربيَّاً ضخمَ الجُثَّةِ وبعضَ الجواميس!.. قلتُ للعقيدِ تعبتُ من مهنةِ المُعلّمِ وهذهِ الدّرّاجةِ المُنحنيَةِ المُجمَّعةِ الأجزاءِ والتُّرابِ والأطفالِ الّذينَ وسخُ وجهِ كلِّ واحدٍ منهُم يشبعُ سبعةَ كلابٍ جائعةٍ، وقلتُ أريدُ أن أخدُمَ وطني. قال العقيدُ إنَّهُ لجميلٌ أنَّ الشُّبّانَ يُفكّرونَ بالوطنِ وبتطوُّرِهِم وقالَ إنَّ الشّابَّ يجبُ أن يتطوَّرَ ويجبُ أن يُدرِكَ لنفسِهِ مُستقبلاً مُعتَبَراً. وقالَ أنَّهُ يراني شابّاً لائقاً بنَظَرِه. وقد كُنت؛ كنتُ لائقاً؛ وكانت تلكَ المرّةَ الأولى الَّتي يتكلّمُ فيها معيَ شخصٌ عن لياقتي! كنتُ أستجدي ذلكَ من الكثيرينَ ولم يكُنْ أيُّ شخصٍ قد تحدَّثَ معيَ من قبلُ عن أيِّ شيءٍ منها. وكنتُ أصيرُ أختنقُ لأنَّني لم أكُنْ أُرى، وحتّى ولو نَظَرَ شخصٌ إليَّ فإنَّهُ لايرى منّي إلّا قامتي ودماغي السَّميك. لكنْ ألمْ أكُنْ إلّا قامةً قصيرةً ودماغاً سميكاً؟ ها؟!... لا أولئكَ المُعلّمونَ في دوراتِ ليالي الجُمُعَةِ الّذين لا يعبؤونَ بي ويستخفّونَ بقُدرتي الخفيَّةِ والظّاهرةِ؛ لأنّني لا أفهمُ شعرَ نيما يوشيج مثلهُم. لكنَّني ثبتتُ، ثبتتُ الشّهورَ السِّتَّةَ الأولى كُلَّها وأظهرتُ للعقيدِ أنَّهُ لم يكنْ مُخطئاً بشأني وتشخيصي. ذكاء؟))

. ((نعم، وأُذُني معكم!)) . ((لا، تتخيَّلُ أنّي كنتُ مريضاً؛ لا، روحي هذهِ كانت ظمأى لرفعِ التّحقيرِ عن نفسي وكانت القُدرةُ في مُتناوَلِ يدي . أبي كانَ يرجو أنْ يهُبَّ النَّسيمُ العليلُ على روحِهِ . حيثُ لم يكُنْ هناكَ شخصٌ يعرفُ استعدادي ولياقتي وقدرتي. ومن هنا صمّمتُ بكُلِّ ما يُمكِنُ أن أظهِرَ اللّياقةَ والاِستعدادَ من نفسي وذهبتُ إلى منزلِ العقيدِ وقلتُ أريدُ أن أخدُمَ وطني وقد اختنقتُ من كوني محكوماً للذّبابِ على مفارقِ شَعرِ التَّلاميذِ العُمي والقُرْعِ والَّذينَ لا يكُفّونَ عن العويلِ واختنقتُ من قاعةِ الدّرسِ المليئةِ دوماً بروائحِ الضّراطِ المُختلِفَة!... لكنْ السُّلطة، السُّلْطة، كانتِ السُّلطةُ الشّيءَ الّذي كنتُ أطلُبُهُ دائماً. قالَ العقيد: أقمْ الدّليلَ على لياقةِ نفسِك! قلتُ أرجو أن تُمهلَني ثمانيةً وأربعينَ ساعةً جنابَ العقيد، فقالَ معكَ مهلةٌ إلى نهايةِ الأسبوع. صباحَ السّبتِ أخذتُ ستّةَ شروحٍ كاملةٍ لِفقرةٍ معيَّنةٍ من المُعلّمينَ السّتّةِ الّذينَ كانوا يشرحونَ شعر

نيما وكتاب جورج وليستر ووضعتُها على طاولتِهِ وأفهمتُهُ أنّها شُغلي وعملي . بعدَ ستّةِ شهورٍ صارَ يُشارُ إليَّ وصرتُ مثالاً. كانت روحي بحاجةٍ للشُّهرةِ وقد حصلتُ على الشُّهرة. يجبُ بشأنِ الحالِ أن أجعلَهُم لا يحكمونَ على الشّخصِ من قامتِهِ القصيرةِ ودماغِهِ السَّميك. وفعلتُ ذلكَ بشأنِ الحال. بعد ذلكَ أوصيتُ على زوجَينِ من الأحذيةِ عاليةِ الكَعبِ وصمَّمْتُ على الذّهابِ لأُسلِمَ رأسي ليدِ جرَّاحٍ ولكنَّ الإدارةَ مانعت بالقَولِ أنَّ قيامي بهذا العملِ سيُنقِصُ من مهابتي وأبَّهتي. وحديثاً فهمتُ أنَّ كُلَّ شيءٍ تملكُهُ النَّفسُ هو قيمةٌ للنَّفسِ وأحسستُ أنّي أمتلكُ أجملَ الرؤوسِ وأليقها. أمّا الآن... الآنَ ثورتُكُم جعلتني مرَّةً أُخرى متخلّفاً وجعلتني مُجبراً على الذّهابِ لأُسلِمَهُ لمبضعِ الجرّاح. لكنْ إذا بقيَ لي عمرٌ ، فسوفَ أرجعُ إلى هنا مرَّةً أُخرى وسوفَ ترى أنَّ هذهِ القطعةَ الزَّائدةَ من اللّحمِ والغضروفِ المُلتصِقَةَ على وجهي لم تُقطعْ؛ فأنا أتخيَّلُ أنّي سأجعلُهم يرفعونَ نِصفها أو أكثر قليلاً.

. ((عقِبَ سيجارتِكَ سيِّد جاويد، عقِبَ سيجارتك.))

. ((تكلَّمتُ كلاماً صريحاً جدَّاً . اكتُمْهُ . ها؟))

. ((نعم صريحٌ جدَّاً؛ أنا في دورةِ التَّحقيقِ كنتُ أيضاً قد لاحظتُ أنَّكُم صريحونَ جدّاً، وأنَّكُم فوقَ ذلكَ شُجعان. أمَّا الآن، فماذا يدفعُكُم لتستفيدوا من هذهِ الخِصالِ بالتَّعدّي على الشَّعب؟ ... واقعاً ألا تخاف؟!))

خضر قالَ فقط ((حُمقٌ كبير!)) وحيثُ أنَّهُ لم يسمعْ جواباً من لسانِ أمير، قالَ: ((لماذا لا تسألُ؟)) وأمير ظلَّ صامتاً على الرَّغمِ من أنَّ خضر كانَ في داخِلِهِ يخبطُ يداً ورجلاً، وقد عادَ خضر وقال:

. ((أنا قتلتُ الكثيرين!))

بقيَ لحظَةً صامتاً. وحيثُ أنَّ الدَّهشةَ بدتْ على وجهِ أمير، انتقلَ ليصيرَ كلامُهُ مثلَ السُّمِّ الزُّعافِ، واستمرَّ قائلاً:

. ((...أمّا الشخصُ الجبانُ فلا يستطيعُ في الوضعيَّةِ العاديَّةِ قتلَ الآخَرين. الجبانُ عادةً ما يتحدَّثُ عن الإنسانيَّةِ والأخلاقِ وجُبنُهُ ثابتٌ خلفَ مثلِ هذا الكلامِ فالحالُ أنَّ مثلَ هذا الإنسانِ

جبانٌ فقط. أمّا أنا فشُجاعٌ، وقد خفتُ مرَّةً واحدةً في عمري وذلكَ يومَ ذهبتُ إلى بيتِ العقيدِ. أمّا الخوفُ منَ الشُّرطَةِ فقد قضيتُ عليهِ بأن صِرتُ شُرطيَّاً وحوَّلتُهُ من بعدِ ذلكَ إلى جُرأةٍ وشجاعة. في الواقِع، قبلَ أن يأتيَ الخوفُ إليَّ بأقدامِهِ استسلمتُ للذّهابِ إليهِ بِأقدامي. بعدَ ذلكَ لم أفهمِ الخوفَ إلّا أن يكونَ بصورةِ اضطراب. حيثُ أنّني حينَ طرقتُ بابَ منزلِ العقيدِ كنتُ أعلمُ أنَّ عليَّ التَّسليمَ لتلكَ الحرفةِ الّتي ستصيرُ حِرفتي، حرفةِ التَّعذيبِ والموت. فكانَ يجبُ أن أكونَ شُجاعاً. تسألُ الآنَ لماذا يجبُ عليَّ أن أظلَّ مداوماً على ذلك؟ أقولُ إنَّكَ أحمق. لأنَّكَ أصلاً لا تفهمُ ما تقول! الآنَ أنا أسألُكَ ماذا يجبُ عليَّ أن أعملَ؟ أستسلمُ؟ أصُبُّ ماءَ التَّوبةِ على رأسي؟ أينَ وفي محضرِ من وبأيَّةِ فُرصةٍ ومهلة؟... الآنَ تُريدُ منّي أن لا أكونَ شُجاعاً؟ إذا لم أكُنْ شُجاعاً فإنّني سوفَ أُقتَلُ سريعاً؛ وإنْ أصِرْ جباناً فإنَّني سأموتُ مئةَ مرَّةٍ قبلَ أن أُقتَل! أعرفُ عدداً غيرَ قليلٍ من زملاءِ العملِ الَّذينَ انهاروا لمُجرَّدِ سماعِ صوتِ الشَّعبِ دونَ أن يكونوا ظاهرينَ أو مقصودين. فأنا محكومٌ عليَّ أن أكونَ شُجاعاً لأنّي أُريدُ أن أظلَّ حيّاً وأصلاً لا يُريدُ قلبي أن يسيلَ دمُهُ في هذهِ اللّعبة. لا، أنتَ لو كنتَ مكاني لما أرادَ قلبُكَ أن تُقتَلَ، وقلبُكَ . أنا أعلمُ أنَّهُ . لا يُريدُ أن يكونَ مكاني!... هل تسمعُ هذهِ الأصوات؟!))

. ((نعم.))

يسمعُ وكلُّ فِكرِهِ وذكرِهِ عندَ مسعود الّذي لم يعُدْ بعدُ إلى المنزلِ ولحظةً بلحظةٍ يزيدُ قلقُهُ من جهةِ محمّد تقي خشيَةَ أن يخرُجَ إلى الشّارِع، وأكثرَ من ذلكَ كانَ عندهُ قلقٌ من أن يثورَ وُجدانُ محمّد تقي ويهيجَ ويفقُدَ صبرَهُ ويهجمَ على القبوِ ويُطلِقَ النَّارَ على خضر.

نهضَ. بغيرِ اختيارٍ نهضَ ونظَرَ إلى غلافِ السِّلاحِ الفرديّ على خصرِ خضر مُستقرّاً على خاصِرةِ بطنِهِ اليُسرى وثبَّتَ نظرَهُ لحظةً على السِّلاح. في تلكَ الحالةِ نفسِها كان الجفنُ الأيسرُ لخضر جاويد، تماماً كجفنِ عينِ وجهٍ صِناعيٍّ، ينفتِحُ وينغلِقُ، وفكَّرَ أمير مرَّةً أُخرى أن يُشعِلَ لنفسِهِ سيجارةً، استلقى وراحَ ينظُرُ إلى سقفِ القبو ولم يرَ أنَّ يدَ خضر كانت مُستقرَّةً على مقبضِ السِّلاحِ تماماً وتُمسِكُ به.

. ((لو أنّني كُنتُ قُبِلتُ في كُلّيَّةِ الضُّبّاطِ فلرُبَّما كانَ لي حالٌ آخرُ وأيَّامٌ أُخرى. لكنَّني رُفِضتُ لأنَّ الحدَّ الأدنى للطُّولِ كانَ يجبُ أن يكونَ أكثرَ من مئةٍ وخمسةٍ وستّينَ. وها قد مرَّت أربعُ عشرةَ

سنةً لأستطيعَ أخيراً أن أُثبِتَ بالإمتحانِ لذلكَ الضابِطَ الّذي يجبُ الآنَ أن يكونَ عقيداً جدارتي، فذلكَ اليومَ كان يُرِيدُ إلقاءَ القبضِ على واحدٍ من الضُبّاطِ تحتَ إمرتِهِ وكلَّفني بذلكَ شخصيّاً. كان ضابِطاً مُتدرّباً. أمسكتُ إصبَعَهُ الصَّغيرةَ ولويتُها. وأخذتُهُ ذليلاً إلى مكتبِ العقيد وطرحتُهُ أرضاً ونظرتُ في عينَي العقيد وأنا أركُلُ بِقدمي قامةَ الضّابِطِ المتدرّبِ الفارعةَ الّتي كانت أكثرَ من مئةٍ وخمسةٍ وثمانين وقلتُ انهضْ أيُّها الخسيس!))

((بابُ القبوِ يُطرَقُ وأنا وخضر جاويد قفزَ كُلٌّ منّا من مكانِهِ على صوتِ وقعِ الأقدامِ على الدَّرَجِ وجلس كلٌ منّا في موضِعِهِ وأحسستُ أنَّ أصابِعَ خضر ترتجِفُ على غمدِ سلاحِه. كنتُ على يقينٍ أنَّ خلفَ البابِ محمّد تقي لا غيرهُ وكادَ الإضطرابُ يجعلُ قلبي يُفارِقُ صدري. نظرتُ لحظةً إلى وجهِ خضر جاويد فرأيتُهُ كجصِّ الحائطِ وكأنَّهُ أحسَّ أنَّهُ وقعَ في مصيدةٍ في غفلةٍ منه. كان لونُ وجهِهِ أُرجوانيّاً من أثرِ الكحول وكنتُ أُحسُّ أنَّهُ يضغطُ كثيراً على نفسِهِ ليستطيعَ التَّحكُّمَ بِأعصابِه.))

((أخي!))

. ((أنهضُ . الآن . أنتعلُ حذائي وأخرجُ. محمّد تقي واقفٌ أعلى الدَّرَجِ، أتقدَّمُ نحوهُ وقد صارَ البابُ خلفَ ظهري، وثلاثُ رَشَقاتٍ متواليةٍ تضربُ الزُّقاق وأنا أُحسُّ أنّني أرى وجهَ وعينَي الكولونيل وراءَ زجاجِ النَّافذةِ رغمَ أنَّ التَّشنُّجَ الفوّارَ لمحمَّد تقي أصابَ ذهني بالشَّلَلِ وأنا أنتظِرُ منهُ أن ينطِقَ بكلامٍ وأنا واثِقٌ من أنَّ خضر جاويد سيسمعُ أيضاً:))

. ((أتسمع؟!))

. ((كنتُ أسمع. لكنَّ محمّد تقي يريدُ جواباً. لم يقُلْ يجبُ الكلام. أمسكتُهُ بِإبطِهِ لآخُذَهُ إلى نهايةِ الدَّرَجِ وأقودَهُ إلى غُرفَةِ بروانة الّتي كانت قد عادتْ إلى المنزلِ دونَ أن أنتبِهَ لذلكَ وهي الآنَ تقومُ بتقطيعِ الملاحِفَ على هيئةِ أربِطَةٍ للجروحِ وعلى حافَّةِ سريرِها عُلبةٌ من الورقِ المُقوّى مملوءةٌ بِأنواعِ الدَّواءِ و... أجلَسْتُ محمَّد تقي على كرسيٍّ بِجانبِ السَّرير، وقد رأيتُ العُروقَ وسطَ جبهتِهِ متورِّمةً وقد خفضَ رأسَهُ للأسفَلِ حتّى لا أرى الدَّمَ الَّذي ينزلُ على عينَيه. سرتُ قدماً ووقفتُ قبالةَ محمّد تقي وقلتُ لهُ أرجوك، أخي... لكِنَّ تقي لم ينتظِرْ لأُتِمَّ كلامي فقد رَفَعَ رأسَهُ للأعلى وللمرَّةِ

الأولى ينظُرُ مندهِشاً إلى عينّيَّ ويقولُ إنَّ مسعود في الشّوارِعِ وسطَ القتالِ وإنَّ رِفاقَ ضيفِكَ يقتلونَ النّاس، ألا تسمع؟))

. ((كيفَ لا أسمعُ، أنا أسمع. وأفهمُ ما تريدُ أن تقول!))

. ((لا أريدُ أن تفهمَ ما أقول. اِفهمْ ما يقولُ النَّاس!))

((وأنا أسكتُ ولا يستطيعُ إسكاتَ أخي إلّا استعمالُ حربةٍ على نحوٍ مؤذٍ معه))

. ((المعذرةَ أريدُ أن أضربَ رأسَكَ يا أخي؛ صرتُ في حالةٍ عصبيّة!))

. ((أنا أفهم، أفهم. الحقُّ معكَ لكنْ اِفهمْ وضعي وتحمَّلني هذهِ اللّيلَةَ فقط!))

لكنَّ محمّد تقي جرى راكضاً إلى الخارجِ على صوتِ طرْقِ بابِ باحةِ المنزل وبروانة الّتي تحملُ أشرطَةَ الملحفةِ في يديها تعملُ بجَلَدٍ حتّى أنَّها لمْ تُحسَّ بحُضورِ أخيها أمير. أمير جرى إلى الإيوان علَّهُ يرى أخاهُ الصّغيرَ مسعود عائداً إلى المنزلِ؛ لكنَّ ذلكَ الّذي قذفَ نفسَهُ في باحةِ المنزلِ لم يكنْ مسعود. كانَ عبدالله. ابنُ الأستاذ حبيب كلاه مال، وقد أغلقَ محمّد تقي البابَ خلفَ هذا الشَّابِّ ثُمَّ استفسَرَ منهُ عن مسعود ((الصَّغير، الصَّغير... أخبرني عنه؟))

. ((إنَّهُم أطلقوا النَّارَ على الغابةِ، الصَّغيرُ وهُم كلٌّ يجري خلفَ الآخَر... أنا قليلاً ...))

. ((هل جُرِح؟))

. ((نعم جُرِح. سحبهُ محمّد تقي من جانبِ الحوضِ إلى نهايةِ دَرَجِ الإيوان. وأمير نزلَ عن دَرَجِ الإيوانِ للأسفلِ وصارَ في القبو. دونَ أن يكونَ غافِلاً ولو للحظَةٍ عن نظرةِ الكولونيل من خلفِ زُجاجِ النّافذةِ وكأنَّهُ يُنشِدُ في داخِلِ نفسِه:

((أولادي... أولادي... يا جميعَ أولادي!))

خضر جاويد كان جالساً على حافَّةِ السّريرِ يُدخِّنُ سيجارةً. وقد عادَ لهُ لونُهُ ووجهُه. وأمير أفهمَهُ أنَّهُ ليسَ شُجاعاً بالقدرِ الّذي يُظهِرُ، وأنَّ جسارةَ مثلَ هؤلاءِ الرِّجالِ تبرُزُ وتظهرُ عندما تجعلُ مجموعةَ النِّظامِ سنداً لها. ((وهذا لا يجبُ أن يكونَ عجيباً بنظري)) لأنَّهُ كان واقعيّاً، حيثُ أنَّ الأكثريَّةَ المُطلَقَةَ للشَّعبِ ((ليست كما تُظهر))، على كلِّ حالٍ، أمير جلسَ في مكانِهِ دونَ أن

يكونَ لديهِ الإصرارُ على قلبِ الحقائقِ الّتي كانت تخرُجُ من داخِلِه. لأنَّ خضر جاويد كان أذكى من أن يُخطئَ بالزُّقاق. خضر لم يتوجَّهْ صراحةً إلى الواقِعةِ. رغمَ أنَّهُ لا يُريدُ أن لا يستطيعَ أن يمُرَّ عليها؛ واكتفى بأن يقولَ وهو يُطفئُ سيجارَتَه:

. ((أوجعتُ لكَ رأسَكَ، ها؟))

. ((لا!)) ونظرَ إليهِ، لكنّي أحسستُ أنَّ خضر سيستلقي مرَّةً أُخرى:))

. ((لو كنتُ قُبِلتُ في كُلّيَّةِ الضُّبّاطِ لرُبَّما كان لي حالٌ آخَرٌ وأيّامٌ أُخرى، لكنَّني رُفِضتُ! ومع ذلكَ لستُ نادماً ولا أرغبُ في أن أكونَ نادماً.))

. ((كأنَّهُ لايزالُ عندكَ أملٌ بالمُستَقبل؟))

. ((أرى مُستقبلي ولكنْ ليسَ بعيونِكَ الحولاءِ البلهاء!))

مرَّةً أُخرى سُمِعَ وقعُ أصواتِ أقدامِ محمّد تقي وعبدالله كلاه مال وهما ينزلانِ على دَرَجِ الإيوانِ ثُمَّ يتوجَّهانِ باتّجاهِ بابِ باحةِ المنزل. أصواتُ الأقدامِ كانت سريعةً وخفيفةً وأحسَّ أمير أنَّهما كانا يلبسانِ أحذيةً رياضيَّةً ناعمةً. لا طاقةَ في قلبِهِ. نهضَ وذهبَ في الدَّرَجِ ورآهُما يأخُذانِ حلقاتِ الأربِطَةِ من يدي بروانة ويخرجانِ إلى الشّارع. ظلَّت بروانة للحظاتٍ تنظرُ من المصراعِ نِصفِ المفتوحِ للباب إلى أخيها وعبدالله ذاهِبَين ثُمَّ أغلقتِ البابَ ورجَعَتْ لتذهبَ إلى غُرفتِها، وأمير سحبَ نفسَهُ إلى داخِلِ القبو قبلَ أن تقتربَ منهُ بروانة وأغلقَ البابَ وبقيَ ساكناً إلى أن اطمأنَّ إلى أنَّ أُختهُ قد صعدتْ على دَرَجِ الإيوان وذهبتْ للأعلى. بعد ذلكَ عادَ ليجلِسَ مكانهُ حيثُ كان خضر جاويد على حالِهِ مُستلقياً ووجهُهُ على ساعِدِهِ وقد أطبقَ أجفانَهُ وقالَ في كنايةٍ واضِحَةٍ:

. ((الأولادُ ذهبوا ليُتابعوا نهضَتَهُم، ها؟!...)) وقال كأنَّما يتحدَّثُ إلى نفسِه: ((أنا مُضطرٌّ لأعقدَ الصُّلْحَ معهُم غداً صباحاً!))

صوتُ رَصاصَتَينِ متواليتَين! رِباطُ قلبِ أمير انقطَعَ، وقد نسيَ الجوابَ الَّذي كانَ يجبُ عليهِ أن يُجيبَ بِهِ خضر جاويد. خضر من جِهتِهِ لم يُبدِ ضغينَةً أُخرى وكأنَّ خيالَهُ هدأَ واطمأنَّ لِلَحَظاتٍ، وصارَ صوتُ شخيرِهِ عالياً وبما أنَّ واحِداً من جفنَيهِ كانَ نِصفَ مفتوحٍ فقد أحسَّ أمير أنَّهُ يجبُ أن يكونَ نائماً فأشعَلَ سيجارةً لِنَفسِه.

((أنا أعلمُ أنَّ خضر جاويد لا يُحبُّ أن يفتَحَ محمّد تقي لهُ الباب والبابُ قد فُتِحَ من قِبَلِ محمَّد تقي وهذا كانَ باختياري . أعلمُ أنَّ خضر في الباطِنِ قلِقٌ ولكنَّهُ لا يُظهِرُ قَلَقَه. أعلمُ أنَّ خضر لم يكُنْ غيرَ راضٍ من جِهةِ ذهابي إلى الغُرفَةِ في الأعلى وحديثي مع محمّد تقي وفي عَينِ الحالِ أنا على يقينٍ من أنَّ خضر يُدرِكُ عميقاً تقييمَ محمّد تقي لهُ ونظرتَهُ إليه. أنا سعيتُ لئلّا يطولَ حديثي معَ محمّد تقي ولا ينجَرَّ للبَحْثِ والنِّقاشِ، ولم ينجرَّ، فقد أَقنعتُهُ بمُلاحظاتي لتمضيَةِ هذِهِ اللّيلَةِ فقط معَ خضر وليس بشكلٍ دائمٍ. سعيتُ لأرجِعَ سريعاً إلى خضر في الأسفَل، وقد رَجَعْتُ سريعاً، وهو لم يتكلَّمْ كلمةً واحدةً بلسانِهِ عمّا كان قد جرى بِشكلٍ مباشِر، لكنْ... لكنْ أنا قلِق. قلِقٌ على إخوتي وهذا القلقُ يمكنُ رؤيتُهُ أيضاً في عينَيِ الكولونيل. محمّد تقي ذهبَ للخارِجِ ليُرافِقَ عبدالله ويُساعِدَهُ في الوصولِ إلى منزلِه. الصَّغيرُ كانَ في الخارِجِ وكانَ في المعرَكَةِ على قولِ عبدالله وقد أُصيب. وأنا في حرارةِ القلقِ من غيابِ إخوتي وحضورِ خضر أحترق. عيناي صارتا يابستَين، جفنايَ كالآجُرِّ اليابِسِ يحتكُّ أحدُهُما بالآخَرِ ورُموشي... سيجارةٌ ... سيجارةٌ... سيجارةٌ... مع أذانِ الصُّبْحِ أسمعُ صوتَ البابِ وتحتَ نظرةِ الجَفْنِ نِصفِ المفتوحِ لخضر جاويد أنهضُ من مكاني وأخرُجُ إلى الخارِجِ وأرى محمّد تقي يدخلُ إلى باحةِ المنزل ويذهبُ ليجلِسَ على حافَّةِ الحوضِ ويغسِلَ يديهِ ووجهَه ولا بُدَّ أنَّ تَعبَ اللَّيلِ قد أبعدَهُ عن نفسِه. أينَ كان قد ذهبَ طِوالَ ساعاتِ هذا اللّيلِ وماذا كانَ فَعَل؟ والصّغير هل بقيَ في المسجِد؟ لماذا لم يأتِ؟))

. ((هو حيٌّ وسالِمٌ.))

. ((هذِهِ المرَّةُ أيضاً مرَّتْ على خير.))

محمّد تقي لم يقلْ غيرَ هذا الكلام وصَعَدَ على دَرَجِ الإيوانِ للأعلى. أحسَّ أمير أنَّهُ لا شُغلَ لَدَيهِ إلّا أن يجلُسَ ويغسِلَ يَدَيهِ ووجهه. جَلَسَ على حافَّةِ الحوضِ لِيغسِلَ تَعَبَ وكَسَلَ اللّيلِ ويُزيلَ بالماءِ عن وجهِهِ طَبَقَةَ الشَّحمِ الَّتي تُغطّيه. لكنَّ قَلَقَهُ لم ينتهِ بعد، وسيبقى حتّى يرى ما سيفعلُ محمّد تقي وقد كانَ عندهُ نوعٌ من الاِطمئنانِ لأنَّهُ أحسَّ أنَّ أخاهُ لن يبقى في المنزل. وما هي إلّا لحظةً حتّى عادَ إلى الإيوانِ وعلى كتِفِهِ محفظة. كان قلبُ أمير يرغبُ في أن يسألَ أخاهُ عن ذهابِهِ وهل يذهبُ وحدهُ أم برفقةِ شخصٍ آخرَ لكنَّهُ أحسَّ أنَّ سؤالَهُ لن يُنتِجَ إلّا مزيداً من اشتِعالِ النَّار فبقي صامتاً حتّى نزلَ محمّد تقي عن درجِ الإيوان وسارَ في الطّريقِ نحو الباب. قلبُ أمير يرتجِفُ، كان يرتجفُ لأنَّ محمَّد تقي لا يمكنُ أن يخرُجَ من البابِ دونَ حديثٍ وكلام ((دونَ أن

يقولَ بِحِفظِ اللهِ على الأقل!)). أطلقَ محمّد تقي العنانَ لسلوكِهِ القاسي وقبلَ أن يصلَ إلى بابِ باحةِ المنزلِ يرجعُ، يبقى لحظةً في مكانِهِ ولا بُدَّ أنَّهُ نفسَهُ لا يعرفُ لماذا توقَّفَتْ سبَّابتُهُ على جدائلِهِ اللّطيفةِ المُذهَّبَةِ. حيثُ خفضَ يدهُ بعد لحظةٍ وقالَ لأمير: ((لا أُريدُ أن تتأذّوا منّي يا أخي، لكنْ ما دامَ الشُّرطيُّ في البيتِ فأنا لن أضعَ قدَمي هنا بعدَ الآن. بروانة نائمةٌ، قل لأبي وأخي من جانبي بِحِفظِ الله!))!

أمير لم يكن عندهُ أيُّ جواب. محمّد تقي أيضاً لم يكنْ ينتظرُ جواباً، وقبلَ أن يَخرُجَ وضعَ قدمَهُ على حافَّةِ الحائطِ وشرعَ بإحكامِ عقدِ رِباطِ حذائهِ الكتَّانيّ وكأنَّهُ قد شُلَّ. بقي أمير على حالِهِ إلى أن خرجَ أخوهُ، وأمير بعدَ أن كانَ قد خرجَ للخارجِ عادَ إلى طَرَفِ درجِ القبوِ وقبلَ أن يضعَ قدمَهُ على الدّرجةِ الأولى وقعَتْ عينُهُ على عينَي الكولونيل الّذي كانَ ينظُرُ من خلفِ زجاجِ النَّافذةِ إلى رحيلِ محمّد تقي:

((ولدي... ولدي... يا جميعَ أولادي!)).

أمير لم يقوَ على نَظَرِ أبيهِ ونزلَ على الدَّرَجِ للأسفَلِ وقبلَ أن يضعَ يدَهُ على البابِ فتحَ خضر جاويد البابَ في وجهِهِ وأمير بقي متعجّباً لرؤيتِهِ مُستعِدّاً بِشَكلٍ كاملٍ للذّهابِ وقد انحنى ليربِطَ رِباطَ حذائهِ: ((الفُطور، الفُطور؟)) لكنَّ خضر لمْ يُجِبْ وكانَ من الطّبيعيّ أنَّ أمير لا يستطيعُ أن يسألَهُ أينَ تنوي الذّهابَ بِهذِهِ السُّرعةِ في الصَّباح؟ فرُبَّما كان معنى مثلِ هذا السّؤالِ مخفيَّاً في سلوكي وحركاتي ((إذ كنتُ أسيرُ خلفَهُ في باحةِ المنزِلِ كحِرْذَوْن)) ولمّا اقتربَ من البابِ وفتحَ لهُ البابَ، انتبَهَ إلى أنَّ خضر جاويد لم يأخُذْ معهُ عصاهُ وقال ((عصاكَ سيّد دكتر!))! وخضر لم يُجِبْ وكأنَّ أمير سمعَهُ في خيالِهِ يقول ((سأرجِع)) وأغلقَ أمير الباب، وكأنَّهُ بعدَ لحظاتٍ سمِعَ صوتَ إغلاقِ البابِ، البابِ ذاتِهِ ((الّذي أغلقتُهُ بِنفسي)) وفجأةً ارتجفَ وهبطَ قلبُهُ وتألَّمَ دماغُهُ و كأنَّ عينيهِ اسودَّتا... ((ولماذا تماماً بعدَ خروجِ محمّد تقي؟)) حيثُ لم يكُنْ قد خرجَ أحدٌ من المنزلِ في هذهِ الفترةِ ((لكيلا أُبتلى بمثلِ هذا الاضطرابِ المهول؟)) فلو كانَ في الفترةِ ما بينَ خروجِ محمّد تقي وخروجِ جاويد خرجَ شخصٌ آخرُ من المنزلِ لما كانَ أمير مُضطرّاً لأن يجريَ خلفَ هذا النَّوعِ من الخُرافاتِ وأن يشرعَ دِماغُهُ بالتَّألُّمِ على أثرِ إحساسِهِ بالضَّياع ((المٌ لم أُعانِ مثلَهُ حتّى في كوابيسي.))

((أولادي... أولادي!))

لا يعلمُ كم وكم مرَّ من الزَّمَنِ وفي أيَّةِ حالةٍ ظلَّ واقِفاً في المكانِ نفسِهِ خلفَ البابِ وتحتَ المطَرِ وهو يُفكِّرُ، وآلافاً وآلافاً من المرَّاتِ فكَّرَ بآخِرِ كلامٍ لخضر جاويد ((غداً صباحاً أنا مُضطرٌّ لأعمَلَ معهُم صُلحاً!)) وكلمةُ ((صُلحٍ)) تطرقُ دِماغَهُ كمطرقةٍ، ودونَ أن تتوقَّفَ وبلحنٍ وحيد ولا يَقدِرُ ((أو لا يملكُ الجُرأةَ على أن يُجلِّيَ المعنى الَّذي يختفي تحتَ كُلِّ هذا النَّحسِ!)) وكأنَّهُ الآنَ يفهمُ إلى أيِّ قدرٍ وبأيِّ مقدارٍ ينفُرُ ويشمئزُّ من نفسِهِ ومن خضر جاويد ولا يرى في ذِهنِهِ شيئاً إلّا أن يكونَ ((حالةَ نفسِهِ)) الحاملةَ للموتِ والحاملَةَ للذُّلِّ إلى أبعدِ مدىً، وسيماءَ خضر جاويد الوحشيَّةِ والقبيحةِ إلى أبعدِ مدى، في أكثرِ اللّحَظَاتِ هولاً من أنصافِ ليالي التَّحقيق، ((تحقيقٌ، تحقيقٌ، وتلكَ السِّكّينَ الملطَّخَةَ بالدَّمِ والمنحوسةَ؟)) وإحساساً بالخجلِ من الكولونيل الّذي لا يزالُ يُحسُّ بِهِ على نفسِ حالتِهِ خلفَ زُجاجِ نافِذةِ غُرفةِ الجلوسِ، وهي الحالةُ عينُها الّتي كنتُ بها ((وقتَ كنتُ واقفاً خلفَ الزُّجاجِ عينِهِ أنظُرُ إلى الكولونيل الَّذي دَخَلَ في باحةِ المنزِلِ بعدَ قتلِ أُمّي وقد وقفَ تحتَ المَطَرِ والدَّمُ على سيفِهِ وقال قتلتُها، قتلتُ!)) ولم يكُنْ قادِراً على رفعِ رأسِهِ لئلّا تقعَ عينُهُ على عينَيِ الكولونيل الَّذي لا سبيلَ لهُ ليفهَمَ بماذا يُحسُّ وما هي حالتُه؛ قنارى بروانة كانَ في غنائِهِ بينَ همسٍ وصياحٍ وكانَ يُطلِقُ الأصواتَ الرَّفيعَةَ الواحِدَ تِلوَ الآخَر، وألفُ كابوسٍ تدورُ في قحفِ رأسِ أمير و((تسحقُني وتقولُ لي إنَّ محمّد تقي لن يعودَ حَيَّاً مرَّةً أُخرى إلى المنزِلِ)) وهو ما عاد!

. ((أمير... أمير... ماذا تعمل؟ ألا تُرافِقُني لتشييعِ جنازةِ أخيك، ألا تأتي أو...))

. ((لا، لا! أنا لستُ أخاً لأحَدٍ، أنا لستُ ابناً لأحَد، أنا لستُ أيَّ أحَدٍ، أنا أصلاً لا أعرِفُ أحداً؛ لا أعرف!))

((ربَّما معهُ حقٌّ. رُبَّما كانَ معهُ حقٌّ. إنَّها مسألَةٌ مُهِمَّةٌ. الموتُ بلا صُداعٍ مسألةٌ مُهمَّةٌ. الآنَ بعدَ أكثرَ من ستّينَ عاماً من عُمري أُدرِكُ أنَّ الموتَ بهدوءٍ ودونَ صُداعٍ موهبَةٌ يجبُ أن يعرِفَ الإنسانُ قدرَها. الإنسانُ يصيرُ متعباً من كُلِّ صُداعِ الموتِ هذا؛ وتعبُ الموتِ يُشبِهُ تماماً طَبَقَةً من الشَّحمِ يُحسُّ ابنُ آدَم بها مُلتَصِقةً بِبَدَنِه. وحتّى لدى سماعِ وصفِ موتٍ جماعيّ، وقبلَ انتقالِ حِسِّ التَّأثُّرِ والحُزن، هناكَ نوعٌ منَ التَّعَبِ يسري في الشَّخصِ قبلَ التَّفكيرِ في العواقِب. وبالدَّليلِ

عينِهِ أعلمُ أنَّ سماعَ روايةٍ عن موتٍ عامٍّ يُمكِنُ أن تُوجِدَ تَعَباً ممزوجاً بالكَسَلِ عندَ المُستمِع. لكنَّ كُلَّ مُستمِعٍ أو ناظِرٍ غيرِ مُنصِفٍ يعلمُ أن لا علاقَةَ لي بِجَعْلِ الآخَرينَ يُعانونَ منْ حِملِ الموت؛ لكنَّني تحتَ المطرِ وعنديَ موتٌ لا يتوقَّفُ وأنا أتنشَّفُ وأتعفَّن. فالذَّنْبُ إذا كانَ من عَمَلي فذاكَ لأنَّني أسعى لتكونَ رِوايتي بسيطَةً ساذَجَةً أنقُلُها دونَ أيِّ تعصُّبٍ. لأنَّني أُحسُّ أنَّ الأثرَ الوحيدَ الَّذي سيبقى من إنسانيَّتي ومُشخِّصاتِ إنسانيَّتي وأنَّني كُنتُ حيَّاً، هو هذا البيانُ النَّاقِصُ لروايةِ الموتِ هذه؛ أيْ طريقٌ وحيدٌ وعملٌ وحيد؛ وهذا العَمَلُ بِنَظَري ليسَ حاملاً للموتِ للآخَرين، ماذا أعمل؟ ألا يرغبُ قلبي في آخِرِ عُمري وفي غروبِ يومٍ مُشمِسٍ أن أجلسَ معَ زوجتي . رفيقةِ حياتي بما علا وما انخفَضَ منها . بجوارِ إيوانِ منزلي قُربَ الفُسْحةِ السَّماويَّةِ الّتي تسخُنُ قليلاً قليلاً، آكُلُ الخيارَ واللّبَنَ وأشرَبَ كأسَ مشروبي وأُمسِكُ قيثارتي بيدي وأضعُها على رُكبتي وأُغنّي وأنا على يقينٍ من أنَّ كُلَّ واحِدٍ من أولادي في أطرافِ وأنحاءِ مملكتي لهُ عَمَلٌ يعملُهُ ومكانٌ يعمُرُه؟ نعم، حقيقةً لأنَّ قلبي يُريدُ أن يعيشَ بلا عذابٍ ولا مشقَّةٍ وعنديَ القابليَّةُ وهذا أقلُّ ما يتوقَّعُهُ الإنسان. أمَّا الآنَ فعلى مجموعةِ القهوةِ وعلى غلافِ قيثارتي سماكةُ إصبعٍ من الغُبارِ؛ غُبارِ الموتِ وأشيائيَ الأُخرى مُبعثرةٌ ومكسورةٌ وضائعةٌ ومنسيَّةٌ في منزلي ولا أعرفُها؛ وقد انتهى نفطُ المدفأة، وهناكَ مُشكِلَةُ تنشيفِ لِباسي، وأنا مثلَ جُثَّةٍ في هذِهِ الملحفةِ الرَّطبةِ الّتي أَلُفُّها عليَّ وتفوحُ منها رائحةُ الموت، ليسَ لي قلبٌ وعَقْلٌ لِذَبحِ قنارى ابنتي في القفص، وذلِكَ الصَّوتُ المُكرَّرُ المحزونُ الَّذي أسمعُ من البابِ والجدارِ والشَّارِعِ، والَّذي لا يزيدُ المرءَ إلّا ملالاً، وهذا المطرُ الحامِلُ للموتِ الَّذي لا يتوقَّفُ عنِ الهَطْلِ وكأنَّهُ ينزِلُ بلا قيد. فماذا أعملُ غيرَ الإنتظارِ لمعرِفَةِ موقعِ تشييعِ جنازةِ مسعود ولا علاجَ في التَّفكير؟ وكيفَ أستطيعُ أن أُفكِّرَ في شيءٍ آخَرَ أو أن، أرويَ حديثاً آخَرَ والحالُ أنَّ الموتَ يُحاصِرُني من الجِهاتِ السَّبعِ المُحيطَةِ بي وأنا مأخوذٌ في الوَسَطِ وأُحسُّ أنَّ شيئاً كحوضٍ من الماءِ يغمُرُني إلى أسفَلِ صدري؟ أعرفُ هذا، أعرفُ أنَّهُ ستأتي لحظَةٌ تُغلَقُ فيها شَفَتايَ عن الكلامِ وعينايَ عنِ النَّظَرِ لِقُدومِ الموت، وسوفَ يصعدُ الموتُ من قلبي وصدري إلى الأعلى ويُغلِقَ طريقَ حلقي، ولحظَةُ حُصولِ ذلكَ لا ينبغي أن تكونَ بعيدَةً جِدّاً. لكنْ... هذا اللّباسُ الَّذي بقيَ لي لِماذا لم ينشَفْ بعدُ؟ ألستُ بِصَدَدِ الذَّهابِ لِتشييعِ الجنازة؟!... أمير... أمير... أخيراً أنا وحيد ولدي؛ وأنت... أنت...))

((لا، لا، لا!))

الباب! صوتُ الباب. ظنَّ الكولونيل أنَّ ذلكَ السَّيّدِ قرباني وأنَّهُ يسيرُ خلفِ النَّافِذة وأنَّهُ قادمٌ ليأخُذَهُ، وحينَ فتحَ أمير بابَ باحةِ المنزل أدرَكَ الكولونيل أنَّ القادِمَ لم يكُنِ السَّيّدِ قرباني ورأى ذانِكَ الشَّابَّينِ اللّذَينِ كانا يُساعدانِ الكولونيل على دفنِ بروانة، وهما عبدالله كلاه مال وعلي سيف ويراهُما يوقِفانِ أمير ويقودانِهِ ليقفوا عند البابِ. أمير لا يدري ما يفعلُ ويدخُلُ في البابِ الصَّغيرِ للمُستراح، وعبدالله يسيرُ تحتَ نَظَرِ الكولونيل إلى طَرَفِ دَرَجِ الإيوانِ ويغيبُ لحظَةً عن نَظَرِ الكولونيل ليراهُ الكولونيل بعدَها وهو يدخُلُ إلى الغُرفة.

الكولونيل على حالِهِ واقفٌ بِجانِبِ النَّافِذة ويلُفُّ الملحَفَةَ على بَدَنِهِ بِشكلٍ مُحكَمٍ. عبدالله يُسلّمُ بِخُضوعٍ والكولونيل يُديرُ وجهَهُ ليرُدَّ عليه. يقفُ عبدالله خافِضَ الرَّأسِ بِجانِبِ البابِ ثُمَّ كمن يطلبُ الإجازَةَ يَتقدَّمُ باحتِرامٍ وبِخُطُواتٍ غيرِ واثِقَةٍ نحوَ الطَّاولة، يُخرِجُ صُندوقاً صغيراً من تحتِ جناحِ معطَفِهِ ويضعُهُ على الطَّاوِلَة ثُمَّ يُدخِلُ يَدَهُ في جيبِ بنطالِهِ المُرقَّشِ ليُخرِجَ منَ المالِ بِضعَ تومانات ورقيَّةً ويضعُها على الصُّندوقِ ثُمَّ في مكانِهِ وفي كمالِ أدَبٍ قرنَ بينَ يديهِ من خلفِ عورَتِهِ وألقى بِنَظَرِهِ إلى أمامِ حِذائِهِ وظلَّ ساكتاً لَحظَةً تحتَ نَظَرِ الكولونيل ثُمَّ قالَ في خُضوعٍ أكبرَ وصوتُهُ يرتجف:

. ((تفضَّلوا بقبولِ هذا العبدِ خادِماً لكُم كولونيل، أنا خادِمٌ لكُم... ماذا أعمل؟ هذا ما كان قيلَ لي. لكنْ... أُقسِمُ أنّي رأيتُ ابنتَكُم عِندَ أُختي... لذلِكَ... أنا خجِلٌ منكُم كولونيل، من أجلِ ذلِكَ كُنتُ صمَّمتُ على الذَّهابِ في إثرِ مسعود إلى الجبهةِ معَ أوَّلِ قافلة. والحقيقَةُ كانت أن أذهبَ كي لا أعود. كما أخبرتُ امرأتي. لذلكَ أنا أستحلُّكُم. أحِلُّوني. جنابَ الكولونيل!

بعدَها لم يرَ عبدالله. وحينَ كان ينظُرُ إليهِ اسودَّت عيناهُ واسودَّ الشَّابُّ الصَّغيرُ كذلكَ في عينَيه، اسودَّ وكأنَّهُ صارَ دُخاناً، وأحسَّ الكولونيل أنَّ رأسَهُ صارَ ثقيلاً كَصَخرةِ طاحونةٍ مائيَّةٍ. وأحسَّ كما لو أنَّ قلبَهُ أُخرِجَ من مكانِه وأنَّهُ صارَ مثلَ قُنارى مُضطرِبٍ يخبِطُ بِبَدَنِهِ على جُدرانِ القفصِ، ولمَّا عادَ إلى نفسِهِ رأى نَفسَهُ يُمسِكُ بِكلتا يَدَيهِ الكُرسيَّ مُلتَصِقاً بِظَهرِها وقد وقَعَتِ الملحفةُ الَّتي يلتفُّ بِها على أرضِ الغُرفةِ وبقيَ عارياً بلا ثيابٍ ((ومثلَ كلبٍ أرتجف)) ولا يخطُرُ شيءٌ آخَرُ في خاطِري ولا أستطيعُ أن أُفكِّرَ بِشيءٍ. كانتِ الغريزةُ فقط، الغريزةُ الخالصة؛ لذلكَ كنتُ أُحسُّ فقط ببرودةِ بدني. أخذتُ بيدي الملحفَةَ من حولِ قدمَيَّ ورفَعتُها وأدرتُها على بدني ولا أدري ما أصنعُ غيرَ ذلك. فقط القنارى ((وحدهُ الَّذي كان في ذِهني، ذلكَ القنارى الَّذي توقَّفَ عنِ الغناءِ

و...)) ولا بدَّ أنَّهُ محبوسٌ في القفص. ((لا أدري هل يتناولُ القناري بمنقارِهِ الفواكِهَ المُجفَّفَةَ أم لا؟ لكنْ... أخذَ حبَّةً من الفواكِهِ المُجفَّفَةِ بيدِهِ وأخرجها من الصّندوقِ ووقفَ وسطَ الدِّهليزِ قربَ القفصِ ووضعَ حبَّةَ الفاكهةِ داخِلَ القفصِ وظلَّ ينتظِرُ القناري. لكنَّ القناري لم يتحرَّكْ من مكانِهِ وحتّى أنَّهُ لم يرفعْ نظَرَه. نظرَ الكولونيل إلى المطرِ وانصرفَ عن فكرةِ إطلاقِ سراحِ القناري. ((المطرُ كان هناك، هذا إذا لم يكُنْ إطلاقُ سراحِ القناري يعني لهُ الموتَ لأنَّهُ لم يعتدْ على الطَّيرانِ خارجَ القفصِ وعندَ أوَّلِ رفيفٍ من جناحِهِ سيسقُطُ مكاناً ما على الأرضِ والهرَّةُ...)) الهرَّةُ السَّوداءُ نفسُها، والَّتي لابُدَّ وأنَّها الآنَ على حافَّةِ الحوضِ على عادتِها وسوفَ تتعرَّفُ على مكانِه. لو لم تكُنْ تُمطِرُ ((لرُبَّما كنتُ أُحرّرُه. لأنَّهُ سيكونُ وقتٌ يستجدي بهِ بعدَ موتنا جميعاً ثُمَّ يموتُ داخِلَ القفصِ وإنَّهُ لمنَ الأفضلِ لهُ أن يموتَ خارِجَ القفص.))

لكنْ قناري بروانة ألم يكنْ شحذَ واستجدى والحالُ هذهِ؟

لا يدري ولا يدري كم من الوقتِ مرَّ وهو واقفٌ بجانِبِ القفصِ وينظُرُ إلى القناري السَّاكن. عادَ إلى الدِّهليزِ فالإيوانِ وفي جانبٍ من الإيوانِ تماماً في المكانِ نفسِهِ الَّذي كانَ يقفُ فيهِ الكولونيل من حينٍ لآخر، وقف وراحَ ينظُرُ إلى المطرِ في باحةِ المنزلِ الّتي ظلَّ بابُها نصفَ مفتوح. ولم يكنْ هناكَ على جانبِ الجدارِ أثرٌ للمعولِ والمجرفة ((لعلَّ أمير قد أخذَ المعوَلَ والمجرفةَ وخرجَ بِهِما للخارِجِ!)) لا، لا يمكنُ القطعُ بشيءٍ ((لكنْ أيَّةُ وحدةٍ عجيبةٍ!)) المطرُ، فقط صوتُ قرعِ المطَرِ على أسطُحِ التّوتياءِ والزِّنجارِ القديمة، والكولونيل لا يستطيعُ بأيِّ وجهٍ أن يتذكَّرَ زماناً، لكنَّهُ كانَ من زمنٍ بعيدٍ، وفي غروبِ يومٍ من الأيَّامِ بعدَ المطر، أخذتْ أسطُحُ الزِّنجارِ لوناً آخرَ في عيني. حيثُ أنَّهُ لا يرى شيئاً بعينِهِ أو برأسِه، أيَّ شيءٍ. أكانَ الغروبَ أم لم يكُنْ الغروب؛ و((لابدَّ أنَّ السَّيِّد قرباني سيظهرُ الآنَ ليسيرَ برفقتي إلى المقبرة... ها؟ ولباسي الَّذي لم ينشفْ بعدُ إذا ما وصلَ خبرُ مجيئهم بمسعودي، الّذي لم يجيئوا به، لم يجيئوا به. لا، هم لم يأتوا به، لم يأتوا به. جنازةُ ولدي الصَّغير إلى أربعين يوماً، إلى أربعينَ شتاءً، إلى أربعينَ أربعينيَّةً أُخرى، لن يعودوا بِهِ إليَّ مجدَّداً. أيُّها السَّادةُ، أيُّها السَّادةُ الّذينَ تريدونَ أن تكتبوا التَّاريخ، أيُّها السَّادةُ الَّذين تحفظونَ كلَّ التَّاريخِ مخفيَّاً تحتَ الزَّمان، أنا قلتُ لكم من قبلُ أنَّني ضيَّعتُ اللّيلَ والنَّهارَ والفُصولَ . والآنَ أيضاً أربعونَ يوماً، أربعونَ أربعينيَّةً تمرُّ وأنا أتيهُ تحتَ المطرِ وأحسُّ أنَّ عظامي صارتْ رطبَةً وجوفاءَ خاليةً بلا لبٍّ وأُحسُّ أنَّ فؤاديَ فارغٌ... وعينايَ تريانِ كلَّ الأشياءِ

عجيبةً وغريبةً. والأعجبُ من ذلكَ أنَّ الأشياءَ العجيبةَ والغريبةَ تعودُ لتقولَ لي أنَّ عينيَّ صارتا قليلَتَي النُّور وتقولَ لي إنَّني لا أستطيعُ من ذلكَ تمييزَ مسعودي عن واحدٍ آخر، والحالةُ أنَّني... إنَّهُ لعجيبٌ، إنَّهُ لعجيبٌ جدَّاً! أقولُ لهم أيُّها السَّادةُ، إنَّ هذا الرَّأسَ المفصولَ الَّذي أُلصِقَ بهذا البدنِ ليسَ رأسَ اِبني! لكنْ أيقبلون؟! لا، لا يقبلون. أخيراً من غيرِ المُمكنِ أن أنسى وجهَ ولدي ويُمحى من ذاكرتي. أُخبِرتُ أنَّ قنبلةً أخذت نصفَ وجهِهِ وإحدى عينَيهِ، لكنَّ النِّصفَ الآخَرَ يدُلُّ بشكلٍ واضِحٍ على أنَّ الرَّأسَ والوجهَ ليسا رأسَ ولدي مسعود ووجهَهُ على فرضِ أنَّ الجُثَّةَ جُثَّةُ ولدي. فأيُّ دليلٍ هناكَ على كذبِ دعوايَ بأنَّ هذا الرَّأسَ الأشعثَ المُلْصَقَ بجثَّةِ اِبني مسعود ليسَ رأسَ اِبني مسعود؟ أنا أعرفُ كتفَيهِ وساعدَيهِ وأعرفُ حتّى أصابعَ يديه؛ وإن كانت إحدى يديهِ ما بينَ المرفقِ والكتِفِ مفقودةً لأستطيعَ الثَّباتَ على تشخيصي، وبقيَ أنَّ القلبَ والأمعاءَ خارجَ البدنِ وإحدى الرُّكبَتَينِ قد قُطِعَتْ، و... لكنْ لا أحدَ يستمعُ إلى كلامي وهذا عجيبٌ جدَّاً، عجيبٌ جدّاً. لأنَّني عندما أُريدُ أن أتكلَّمَ فلا أزالُ لا أستطيعُ وصْلَ كلمةٍ بكلمةٍ من النَّحيبِ واللّطْمِ وقد اختفى صوتي، أُريدُ أنْ أقولَ ((أيُّها السَّادةُ، يا إخوتي، يا أولادي... صدِّقوا أنَّ هذا الرَّأسَ المقطوعَ ليسَ رأسَ صغيري!)) أنا أُريدُ فقط أنْ أقولَ هذهِ العبارةَ، عينَ هذهِ العبارةِ فقط ودونَ أن أزيدَ كلمةً واحدةً، لكنَّهم لا يعطونني مجالاً. لا يعطونني مجالاً، ودونما توقُّفٍ تحتَ سقفِ المغسَلِ وعلى صوتِ نواحٍ مُكرَّرٍ ولطمٍ على الصُّدورِ أخذوني في اضطرابِهِم. ويخطِرُ في عقلي أن أقترحَ عليهِم أن يذهبوا ويحضروا أبَ أو أُمَّ صاحِبِ هذا الرَّأسِ المقطوعِ ليحملَ رأسَ ولدِهِ إلى مكانِه، لكنْ بدا لي ودونَ فاصلةٍ أنَّ هذا الرَّأسَ بلا صاحبٍ رُبَّما كانَ رأسَ واحِدٍ من مواطنينا الأكراد، لأنَّهُ من حيثُ المُميّزاتُ والتَّقاطيعُ المُختلفةُ فلا يوجَدُ ثَمَّةَ شبهٌ بينَ وجهِهِ وبينَ وجهِ مسعودي عندي. ومن هذا الجُزءِ الباقي من الوجهِ، يعني منَ الأنفِ والذَّقنِ وقِسْمٍ منَ الجبهةِ أستطيعُ التَّخمينَ أنَّ صاحِبَ هذا الرَّأسِ يجبُ أن يكونَ كُرديَّاً. لأنَّني كنتُ قد رأيتُ صُوَراً ورسوماً وقرأتُ مطالِبَ في كتابٍ بعنوان وجوهُ الشَّعبِ الإيرانيّ على ما أذكُرُ عن وجوهِ وتقاطيعِ الأكرادِ والمُشَخِّصاتِ الخاصَّةِ بهم في عظامِ الجُمجُمَةِ والأنفِ والذَّقن. وكنتُ فيما مضى قد رأيتُ الأكرادَ مراراً وليَ معهُم حشْرٌ ونشْر. لكنَّها مشكلةٌ، والمُشكلةُ ليستْ فقط في أنَّني لا أستطيعُ أن أُسمِعَ أحداً أو أن أجعلَ أحداً يُصغي إليَّ، المُشكلةُ هي في حُرمَةِ الموضوعِ. وأنا واثِقٌ من أنَّني لا أستطيعُ أن أقولَ هذا الشَّيءَ للسَّيِّدِ قرباني الَّذي أُسنِدَتْ إليهِ عمليَّاً كُلُّ أعمالِ مراسِمِ الدَّفنِ وقد قدَّمَ نفسَهُ تلويحاً في مقامِ القيِّمِ وصاحِبِ الشَّهيد . يعني صاحبَ مسعودي .)).

ولكي أكونَ صادقاً فإنَّ أجدادَ أجدادِ السَّيِّد قرباني كانوا مُغسِّلي موتى وحفَّاري قبور وإذا بِهِ يقومُ بالمراسِمِ بتنظيمٍ وتنسيقٍ والكولونيل مبهوتٌ ويدُهُ في فمِه ويرى نفسَهُ مُجبَراً على الخُضوعِ لما يجري والقبولِ ((بالتَّقديرِ كما كانَ، وماذا أعملُ إذا لم أقبلْ؟)) لأنَّهُ بالنِّسبَةِ لهُ كانَ أوضَحَ منَ المخطوطِ في راحةِ كفِّهِ أنَّهُ إذا لم يقبلْ بهذا التَّقدير ((فإنَّهُم سيضعونَهُ بالعصا في ثيابي)) وحينَها ستكونُ المُشكلاتُ الأُخرى وأوجاعُ الرَّأسِ الأُخرى ((لي)) أكبَرَ بِماءةِ مرَّةٍ. فيجبُ أن يقبَلَ أنَّ هذا الرَّأسَ المقطوعَ المُلصَقَ بالبدن، ((الرَّأسَ الَّذي لا علاقةَ لهُ بمسعود)) يتعلَّقُ بِهِ ويجبُ أنْ يُلصَقَ بالبدنِ الَّذي هو بلا رأسٍ)) وينزلَ معهُ في التُّراب، لأنَّ التَّقديرَ كانَ هكذا.

الكولونيل كان يخدِمُ ضابطاً في جيشِ الدِّكتاتور ((والدّكتاتور نفسُهُ بيديهِ المُغلَّفَتَينِ بقُفَّازَيهِ الأبيضَينِ غيرِ المرئيّينِ ينفذُ في مسلكِ أُمَّةٍ عجوزٍ و...)) وفجأةً يكتشِفُ أنَّ عملَهُ باطِلٌ وأنَّهُ ضابِطُ زور؛ لكنْ لم يكنْ عندهُ التَّجربَةُ المُسبَقَةُ من قبلُ ليعرِفَ أنَّ كلا الضَّابِطَينِ ضابِطُ زور. فبظنِّ الكولونيل أنَّ ابنَ آدَمَ مجبَرٌ على التَّحمُّل، وليتَهُ كانَ أعدَّ نفسَهُ من قبلُ لزمانٍ كهذا؛ ((لكنْ بما أنَّهُم لا يوضِحونَ ذلكَ للإنسان! فهُم يتركونهُ غافلاً ليجِدَ الإعتقادَ الخالصَ بعُمقٍ ومن صميمِ قلبٍ خالصٍ!))

((الآنَ ولدي. قلْ لي لأعرِفَ من أيَّةِ جِهةٍ أذهبُ إلى تلكَ النَّاحية؟ إلى ذلكَ المكانِ عينِهِ الَّذي يذهبُ إليهِ الآخرون؟!))

((رحِمَ اللهُ أباك؛ الذّهابُ خلفَ الآخرين والسُّؤالُ أيضاً؟ ألا تستطيعُ أن ترى إلى أيَّةِ جهةٍ يحملونَ التَّوابيت؟ أعمى؟ امضِ خلفَ الموتى واذهبْ إلى النِّهاية!))

((لستُ أعمى، لا، لستُ أعمى. وأسمعُ الأصواتَ، أصواتَ أُغنيةٍ تتَّصِلُ بِبعضِها كحلقاتِ سلسلة. لذلكَ لستُ مُصاباً بالصَّمَمِ كذلك.)) لكنْ حقيقَةُ الأمرِ أنَّ الكولونيل يُحسُّ بالحيرةِ قدراً ما ويظُنُّ أنَّ حيرتَهُ تعودُ للضَّعْفِ وتقدُّمِ السِّنِ ممَّا لا يُمكنُ أن يمُرَّ على أحدٍ في هذا الازِدحام. ما كان يهمُّهُ هو عقلُهُ الَّذي لا يزالُ مطمئنّاً إلى أنَّهُ لا يزالُ على وضعِهِ وفي محلِّه. فهو الهَرَمُ والهَرَمُ فقط. ((أنتم يجبُ أن تكونوا بجانبي لتفهموا ما يعني وكيفَ يُحسُّ ذلك... تابوت)) تابوتُ مسعود الَّذي بِبَرَكَةِ رفيقِ السَّيِّد قُرباني حجّاج كُشِفَ عن وجهِهِ . من بينِ قافلَةِ التَّوابيت . يستطيعونَ حملَهُ إلى مكانِه، وتمامُ واحدٍ وأربعينَ تابوتاً . ومسعودي أيضاً . زُيِّنَتْ بِأشرِطَةٍ خُضرٍ وسودٍ وكُتِبَتْ

عليها آيةٌ على جوانِبِها. أعضاءُ البَدَنِ واحداً واحداً والرَّأسُ المقطوعُ وُضِعَتْ وَسَطَ التَّابوتِ بالمُصادَفَةِ كأنَّها قِطَعُ آلَةٍ وغُطِّيَ التَّابوتُ بِقطعةٍ منَ القِماشِ من طبقةٍ واحدةٍ وبعدها وُضِعَتْ أشرطَةٌ سودٌ وخُضْرٌ على العَلَمِ وفي صَرَخاتٍ وصَرَخاتٍ تموجُ وتموجُ رفعوهُ على الأيدي العاليةِ وساروا في قطارِ تلكَ القافِلَةِ في هواءٍ مطيرٍ بدا أسودَ قليلاً. والكولونيل يسعى في كُلِّ لحظَةٍ ليحفَظَ في ذاكرتِهِ تابوتَ وَلَدِهِ حتّى يستطيعَ أن يعرفَهُ من جديدٍ لحظَةَ الدَّفن. ((لا يجبُ أن أُضيّعَهُ!)) مهما كانت مجموعةٌ من الأوضاعِ تُعطي الحُكمَ بِأنَّهُ لا علاقةَ لهُ بالجنازةِ الّتي سمَّوها جنازةَ ولَدِه. لأنَّ السّيِّد قرباني حجّاج في محلٍّ قريبٍ مُقرَّبٍ كانَ ينسِبُ لِنَفسِهِ كُلَّ الحقِّ والحُقوقِ والإمتيازاتِ الحاليَّةِ والمُستقبليَّةِ النَّاشِئَةِ عن شهادةِ الشَّهيدِ بِشكلٍ رسميٍّ وعلنيٍّ وقد أظهروا أنَّ ذلكَ قد أُمضِيَ مُسبَقاً.

الكولونيل استطاعَ بكُلِّ مشقَّةٍ تخليصَ نفسِهِ من حُفرةٍ مملوءةٍ بالطِّينِ والوحْلِ قبلَ أن يُسحَقَ تحتَ الأقدامِ، رَفَعَ رأسَهُ ونظرَ نظرةً إلى كُلِّ هذهِ الجموعِ وقطارِ التَّوابيتِ المرفوعَةِ على الأيدي. في البدايةِ كانَ مُتفحِّصاً علَّهُ يستطيعُ مرَّةً أُخرى عدَّ التَّوابيتِ على أمَلِ أنَّ مجموعةً منها لم تُعدَّ من قبلُ قد أُعيدَتْ، حيثُ أنَّهُ يعلمُ دونَ أن يُخفيَ ذلكَ من نفسِهِ، أنَّهُ كُلَّما كثُرَ عددُ المُصابينَ فإنَّ ألمَ المرءِ يصيرُ أخفَّ بِمُشاهَدَتِهِم، لكنَّهُ انصرفَ سريعاً من خداعِ النَّفسِ هذا وظلَّ ينظُرُ إلى قافلةِ التَّوابيت. خُصوصاً وأنَّ رأسَهُ صارَ حائراً وعينَيهِ اسودَّتا وكانَ يُحسُّ أنَّهُ لا يستطيعُ تحمُّلَ منظَرَ ساعِدَي قرباني حجّاج خارِجَينِ خارِجَ الأكمامِ والوبرُ يعلوهُما ((وقد كانَ في العادةِ يُبقيهِما داخِلَ الأكمام)). فأغلقَ عينَيهِ وبقي كذلكَ إلى أن أحسَّ أنَّ الجماعَةَ وقفت وأُنزِلَتْ التَّوابيتُ على الأرضِ وتوقَّعَ أنَّ قبورَها كانت محفورةً من قبل فما أكثرَ ما شاهدَ الأشباحَ في الوَهْمِ في لياليَ بطولِها في مواضِعَ من المقبرةِ، وحفَّاري قبورٍ مشغولينَ بِحَفْرِ القبور، ما أكثَرَ ما رأى ذلك!.

وضعَ راحَتَهُ على جبهَتِهِ وفَرَكَ عينَيه، لكنَّهُ أحسَّ أنَّهُ لم يحصَلْ تغييرٌ في أحوالِه. ورأى أنَّ أعقَلَ الأعمالِ هو أن يبتعِدَ عنِ الجُموعِ ويأخُذَ طريقَ المنزِلِ ويذهبَ فيه. لأنَّهُ بالذَّهابِ والإبتعادِ سيبتعدُ عن هجومِ الغوغاءِ والصُّراخِ الّذي يزيدُ لحظَةً بلحظَةٍ ويُسبِّبُ لهُ مزيداً منَ الحَيرَةِ. خصوصاً وأنَّهُ يحسُّ إحساساً عميقاً أنَّ جنازةَ وموتَ وَلَدِهِ لا يتعلَّقانِ بِه، وكانَ يُحسُّ أنَّهُ غريبٌ عمليَّاً. لكنْ وحتّى يستطيعَ التَّغلُّبَ على تردُّدِهِ ويُصمِّمَ التَّصميمَ القاطِعَ، رأى أن يقفَ مرَّةً أُخرى بينَ أكتافِ الجماعةِ وأن لا يتقدَّمَ أو يتأخَّر، ورأى في المكانِ نفسِهِ الّذي وضعوا فيهِ التَّوابيتَ

جهازاً أُحضِرَ في ساعتِهِ وعَلَمَاً وسمِعَ ألحاناً ورأى شيئاً يُشبِهُ المنصَّةَ يدور. وبِعَناءٍ استطاعَ تشخيصَ السَّيِّدِ قُرباني واقِفاً خلفَ مايكروفون يُمسِكُهُ بيدِهِ وهو في بيانِ كلماتِهِ الأولى وقد أجبَرَ الخلائقَ على أن تهيج وخلفَ موجِ الهَيَجانِ وعلى نحوٍ ماهِرٍ ((لكأنَّ جدَّ جدّهِ كانَ خطيباً وقارئَ مراثي ومُنشِداً على قبورِ الموتى)) شرَعَ في الوعظِ والخِطابةِ أنَّ ((مسعود متواضِعٌ... وعزيزٌ كانَ عندهُ عطَشُ الشَّهادَة... وقسماً... أنَّهُ إلى... الفناءِ... وانتِقام الدِّماء... قدم... وفي الطَّريقِ المُقدَّسِ... آخِرِ قطرةٍ من دمِه...)) ... والآنَ من بابِ القياسِ فإنَّ مسعود يُعتَبَرُ مثالاً لإيمانِ وإيثارِ فردٍ من عائلَة، يتَّخِذُ قراراً مُعاكِساً لأُختِهِ وإخوتِهِ مثلَ تقي وأمير أنَّ...

((وأنا مُحتارٌ!))

ومُحتاراً كانَ الكولونيل. حيرةً مُستمرَّةً تُحيلُ الزَّمانَ والمكانَ خراباً في داخِلِهِ وفي جميعِ الأحوالِ عندَهُ حاجَةٌ لِتأكيدِ أمرٍ عندَهُ أنْ ((لا، عقلي لا يزالُ في مكانِهِ، أنا واثِقٌ.)) ويتذكَّرُ أنَّ الشَّمسَ كانت هناكَ ذلكَ اليوم، يومَ تشييعِ ((ولدي محمّد تقي)) فجأةً ظَهَرَتِ الشَّمسُ وكانت مُشِعَّةً لِدَرَجَةِ أنَّ دَمَ محمّد تقي صارَ بلونِ عَسَلِ الجبالِ، وسواعِدُ الرِّجالِ الَّذين كانوا يحملونَ التَّابوتَ الغارِقَ بالورودِ نحوَ المقبرةِ بدَتْ مُلوَّنةً من الشَّمس، ومجموعاتُ الأيدي والأذرُعِ ذكَّرَتْهُ بالأسماكِ الَّتي كانت منَ السُّرورِ والفَرَحِ ترقُصُ وتلعبُ في البحرِ وتثِبُ للأعلى خارِجَ البحرِ ثُمَّ تضرِبُ نازِلَةً الماءَ وتغوصُ فيه وفي عينِ الحال ((تابوتُ وَلَدي المعمولُ من عدَّةِ قِطَعٍ خشبيَّةٍ يبقى فوقَ آلافِ الأيدي منَ الغَرقى في الوَسَطِ والَّذينَ يسعَونَ للنَّجاةِ بِأنفُسِهِم منَ الغَرَق)) وأيَّةُ غوغاء! جموعٌ بلا بدايةٍ ولا نهايةٍ في صياحٍ وضجيجٍ ونياحٍ ويُطلقونَ التَّهديدَ والتَّشويقَ والألحانَ في الطَّريقِ وهم يضربونَ على ثيابِهِم بِمشاعِر ((أظنُّ الآنَ أنَّ مُعظَمَ الشُّبَّانِ واليافِعينَ كانوا في شُبهةٍ وكانوا يتمنَّونَ أن يكونوا هم المُستَلقينَ في التَّابوتِ في مَحَلِّ مُحمَّد تقي بِثَوبِهِ وغُرَّةِ شَعرِهِ المُضمَّخَينِ بِدَمِهِ في التَّابوتِ المُزيَّنِ بِشالٍ والمملوءِ بمجموعاتِ الورودِ الحمراء!)) ويستطيعُ بجُرأةٍ أن يكونَ عندهُ اليقينُ أنَّ بعضَ الشُّبَّانِ في باطِنِ أنفُسِهِم مغبونونَ ويتحسَّرونَ لعَدَمِ تمكُّنِهِم من أن يكونوا مكانَ ((محمّد تقي بطلي)). ولا يعلمُ أين اختفى أولادُهُ الآخَرونَ بينَ الجُموعِ الَّتي هي أمواجٌ وأمواجٌ وظنَّ أنَّهُم لا بُدَّ وأن يكونوا ممسوكينَ وَسَطَ الشُّبَّانِ فلا يُرى وجهُ أحدِهِم إلّا من حينٍ لآخَر وبِشَكلٍ نادِرٍ فقط حينَ يخرُجُ من بينِ الجموعِ مُنصَهِراً ذائباً ثُمَّ يختفي في ضياءِ الشَّمسِ الَّتي تتوهَّج. ((لكنْ بروانتي لم أرها أصلاً)) لأنَّ النِّساءَ أخذْنَها وضاعَتْ في وَسَطِهِنَّ فكأنَّهُنَّ

أغرَقْنَها في الأمواجِ من لابساتِ السَّواد. رأيتُ فقط وجهَ فرزانة مرَّةً أو مرَّتَينِ حينَ كانت كأنَّها ترفعُ رأسَها للأعلى وتُخرِجُهُ من بينِ أكتافِ الجموعِ للتَّنَفُّسِ ثُمَّ اختَفَت؛ وآخر مرَّةٍ استطاعَ بِها أن يلمَحَ للحظَةٍ وجهَي فرزانة وبروانة رآهُما جنباً لِجنبٍ وانتبَهَ إلى أنَّ الأُختينِ خدشتا وجهَيهِما بأظفارِهِما وجرَّحَتاهُما وامتلأتْ ساحةُ وجهِ كُلٍّ منهُما بدمٍ طريٍّ ودافئٍ، وكانَ ذلكَ الدَّمُ يُشِعُّ في الشَّمسِ ((كلونِ العَسل)) ويجعَلُ العَينَ تحتارُ إذْ يُشِعُّ، وقد بدتِ الشَّمسُ بِشَكلٍ مفاجئٍ غريبةً ذلكَ اليوم!

((محتارٌ أنا. حيرةٌ. وعينايَ مُظلِمَتانِ مسودَّتان.))

رأسُهُ كانَ في حَيرَةٍ وهو يسيرُ وموجٌ وراءَ موجٍ من صَرَخاتِ اللَّعْنِ والعَداوةِ لأولادِهِ ((ما عدا صغيري مسعود)) تطِنُّ في أُذُنَيهِ وهو لم يكدْ يجِدُ الخلاصَ من هذه الضَّربَةِ العجيبةِ حتّى سمعَ باسمِهِ يُصاحُ بِهِ من مُكبِّراتِ الصَّوتِ الَّتي تُشبِهُ في نَظَرِهِ ((جماجِمَ مفتوحَةَ الأفواه)) ولم يكد يتحرَّكُ حتّى أحسَّ بالرَّاحاتِ ترفعُه، راحاتِ الأكُفِّ الَّتي حرفتُها وشُغلُها أن ترتفِع، وينظُرُ في ذهولٍ إلى الجِهازِ المرفوعِ فوقَ التَّوابيتِ كَعَلَم. وفي هذا الوَسَطِ أدرَكَ أمرَينِ بِشكلٍ دقيقٍ وزادَ اطمئنانُهُ من جِهَةِ أنَّ "عقلَهُ لا يزالُ في موضِعِه". الأمرَ الأوَّلَ أنَّهُ كان يُحسُّ بنفسِهِ خفيفاً مثلَ جناحِ حمامةٍ وكأنَّهُ لأوَّلِ مرَّةٍ يُدرِكُ بشكلٍ جدّيٍ أنَّ عظامَهُ فارغة. والأمرَ الثّاني أنَّهُ أحسَّ أنَّ فَردَةَ حذائهِ اليُسرى خرجَتْ من رِجلِهِ وفُقِدَتْ واللهُ أعلمُ أينَ وقعتْ، لذلكَ حينَ استقرَّ بجانِبِ السَّيِّد قرباني وراءَ المايكروفون كانَ أوَّلَ ما أحسَّ بِهِ أنَّ قَدَمَهُ اليُسرى تحترقُ، وأوَّلُ عملٍ قامَ بِهِ كانَ أن رَفَعَ يدَهُ للأعلى وأحكَمَ وضعَ قُبَّعَتِهِ على رأسِهِ وبعدها تطلَّعَ إلى الجموعِ بِنَظَرِهِ المُظلِمِ المُسودِّ فرأى النَّاسَ بلا وجوهٍ وظنَّ أنَّ مثلَ هذهِ الصُّورةِ ناشئةٌ عن أنَّ رأسَهُ فقدَ ميزانَ القياسِ وأنَّ عينَيهِ أظلمتا أكثرَ منَ الماضي. ومرَّ عملٌ بعدَ عملٍ والكولونيل مُجبَرٌ على أن يسمعَ صوتَ السّيّد قرباني حجّاج من لسانِهِ مُباشَرَةً، وصوتَهُ من مُكبِّراتِ الصَّوتِ الَّتي تُشبِهُ جماجِمَ منصوبةً على رؤوسِ الأعواد، وانعِكاسَ الأصواتِ الَّتي لا يفهمُ شيئاً من معناها في وجهِ الجَمْعِ الَّذي يموجُ كالأمواجِ بلا وجهٍ ويرى نظرتَها المُبهَمَةَ الخرساء. وحيرةُ رأسِهِ استحالتْ ألماً من شدَّتِها وهي تسيرُ لتُفجِّرَ بيضَتَي عينَيهِ لِبِضعِ دقائقَ تحمَّلَ فيها وقوفَهُ هناك. وأيَّةُ غوغاء!

((مجدَّداً رحمَ اللهُ والدَ السّيّد قرباني. حيثُ أنَّهُ يقومُ بإعطاءِ التَّشخيصِ لأحوالي بعدَ نقلِ قطارٍ منَ الشَّتائمِ عن لساني لأولادي بروانة ومحمّد تقي وأمير. ولم يعُدْ مُقيَّداً بنقلٍ ثنائي على مسعودي

وتفاخُري بمثلِ هذا الولدِ الفدائيّ، فأرخى زِمامي وسلَّمَني إلى جماعةٍ ليُعطيَ مكانيَ لأبٍ آخرَ أو أُمٍّ أُخرى أو خالةٍ أو عمٍّ. وأنا أوّلُ عملٍ بدا لي أنَّهُ منَ الواجِبِ إنجازُهُ كانَ أن أبحثَ عن فردةِ حذائي وأثناءَ العبورِ بينَ الجموعِ كانت عندي أمنيةٌ هي أن لا تسقُطَ قُبَّعتي عن رأسي لأنَّهُ عندَ العُبورِ ما بينَ طيّاتِ الجموعِ سأكونُ مُضطرّاً في جوابِ تمجيدِهِم وتمنّياتِهِم لأنْ أهُزَّ رأسيَ بِشكلٍ متوالٍ علامةً على التَّشكُّرِ والحمد.))

حقيقةُ الأمرِ أنَّهُ ما كانَ لديهِ المجالُ بأيِّ شكلٍ كانَ ليُفكِّرَ بمسعود أو يكونَ في ذِكرِهِ سواءً بالتَّأثُّرِ أو بالتَّأسُّفِ أو بالغرورِ أو حتّى بالحسرة. وكانَ تعجُّبُهُ أيضاً من أنَّهُ صارَ قطعةً حائرةً ممسوخَةً وليسَ لديهِ أيُّ حسٍّ، ((الحسُّ المربوطُ بِطبيعةِ الإنسانِ من كُلِّ وجهٍ)) ليسَ لديه، والسَّببُ الوحيدُ الباعثُ لحركتِهِ والمُسبِّبُ لها على نحوٍ غريزيٍّ كانَ أن يستطيعَ أن يُخلِّصَ نفسَهُ من بينِ الجمعِ ومن وسطِ بُخارِ الأنفاسِ ويُبعِدَ عينَيهِ عنِ الغُبارِ ويبتعد، فكأنَّهُ كانَ حسَّ خوفٍ من الجمع، الجمعِ الَّذي يبدي علامةَ الوَلَهِ والعِشْقِ للموتِ بِشكلٍ عمديّ، ((أمَّا أنا فأستطيعُ أن أعلمَ إلى أيِّ حدٍّ وصلتْ شهوةُ البلعِ والدَّفعِ عندَ أمثالِ السَّيِّد قرباني))، والكولونيل يعتقِدُ أنَّ هذهِ ظاهرةٌ جديدةٌ منَ الخوفِ. وهو خوفٌ يختلفُ عن تلكَ القوَّةِ الخفيَّةِ والدَّائمةِ عندهُ الَّتي تتعقَّبُهُ والَّتي أخذتْ شكلَ عادةٍ. ((أنا أخافُ، من سنينَ وأنا أخافُ، وأعتقدُ أنَّ خوفي بدأ منَ الدَّقائقِ الأولى الَّتي وضعتُ فيها المُسَدَّسَ على خصري وربطتُهُ، وفُرِضَ عليَّ التَّفكيرُ بِه)) ولكنْ قبلَ كلِّ شيء، وقبلَ هذهِ اللّحظَةِ الَّتي يقفُ عندها كان هناكَ خوفٌ موجودٌ في وجودِهِ ورُبَّما لا يُريدُ الكولونيل أن يُذكِّرَ نفسَهُ أنَّ هذا الخوفَ في وجودِهِ قديمٌ جدَّاً بل تاريخيٌّ، حسٌّ متوالٍ ومنتقلٌ ظهراً من ظهرٍ دونَ أن يعرفَ الكولونيل ذلك، وقد كانَ حاضراً بشكلٍ خفيٍّ في سلوكِهِ وأعمالِه. بعدها، فهمَ أنَّ الخوفَ قَدَرٌ مكتوبٌ في وجودِ الكائنِ الحيّ وإدراكُهُ إدراكٌ لشيءٍ موجودٍ بالقُوَّةِ في وجودِه ((خوفٌ تاريخيّ؟!))؛ الإنسانُ يقضي عُمرَهُ في هَلَعٍ واضطِرابٍ ولا يدري لماذا لا يعيشُ لحظَةً في راحةٍ وأمانٍ... حتّى يموتَ في النِّهايةِ فلا يحملَ معهُ هذِهِ القوَّةَ الخفيَّةَ إلى القبرِ بل يجعلُها أمانةً ووديعَةً عندَ الآخَرين! أمَّا عندما انتبهتُ للخوفِ فقد اضطُرِرْتُ للقبولِ بِهِ حتّى وجدتُ نفسي أسيرُ معهُ بشكلٍ تدريجيٍّ وأستطيعُ تقسيمَهُ إلى حدودٍ ومراتب. وحيثُ أنَّ الخوفَ منَ الجَمْعِ حديثٌ وجديدٌ عليَّ ويُمسِكُ بروحي فهو في المرتبةِ الأولى وقد شرعتُ في الإحساسِ

بِهِ والمُعاناةِ منهُ ولم أجِدْ للنَّجاةِ منهُ في هذا الوضعِ من عملٍ في الخُصوصِ غير عملٍ واحدٍ في نظري هو أن أخرُجَ بنفسي من وسطِ الجَمعِ وآخُذَ الطَّريقَ إلى المنزل.

((منزلي؟!))

حلَّ اللّيلُ ووقتُ مراسِمِ دفنِ محمّد تقي انتهى والكولونيل لا يستطيعُ تذكُّرَ ما جرى في المقبرةِ وكيفَ كانت نهايةُ المراسِم. وحينَ وصلَ إلى المنزلِ لم يكُنْ في رأسِهِ شيءٌ سوى الغوغاءُ المُثيرةُ للجنون، ولا صورةَ في نَظَرِهِ إلّا العيونُ والوجوهُ ذاتُ الحالاتِ العجيبةِ وليسَ في صدرِهِ شيءٌ سوى صخرةِ قبرٍ واحدةٍ تسُدُّ نَفَسَهُ وذهنُهُ يسعى وراءَ أُمنيةٍ هي أن يصيرَ إلى التَّمكُّنِ منَ الإمساكِ بالباعِثِ لهذهِ العربَدَة. ((أولادي... أولئكَ مدُّوا ثيابَ محمَّد تقي المُلَطَّخَةَ بالدِّماءِ وسطَ الغُرفَةِ وجلسوا بعيداً لِكي...)) وهذا بِحدِّ ذاتِهِ مكَّنَ الكولونيل من أن يلتقِطَ نَفَسَهُ ويحُلَّ عُقدَةَ صدرِه. كانت اللّيلَةُ بطولِها في اختيارِ أُسرةِ الكولونيل وعلاوةً على بُكائهم مُجتمعين فقد كانَ لكُلِّ واحِدٍ منهُم فُرصَةٌ لينزويَ بنفسِهِ ويخلوَ بروحِهِ الَّتي كانَ محمَّد تقي دونَ أيِّ شيءٍ آخرَ في موقدِها.

((حين جاءَ الصُّبحُ المُغبرُّ لتلكَ اللّيلَةِ أخرَجْتُ الصُّورَةَ التِّذكاريَّةَ لمحمَّد تقي من جيبي ووضعتُها أسفَلَ الحذاءِ البرَّاقِ للكولونيل وجعلتُ لها مكاناً في حاشيةِ إطارِ الصُّورةِ وبعدَها رَفَعْتُ رأسي عالياً لأنظُرَ في عينَي الكولونيل المعشوقتينِ وقد رأيتُ الكولونيل يُطبِقُ أجفانَه؛ وأنا ماذا أستطيعُ أن أفعلَ غيرَ أن أُفكِّرَ كيفَ ستكونُ مراسِمُ اليومِ الختاميّ وليلةِ أسبوعِ ولدي؟))

لا يعلمُ هو أين، ولا يعلمُ في أيِّ وقتٍ منَ اللّيلِ أو النَّهارِ ينقُلُ أقدامَه. عيناهُ تُصارعانِ النَّومَ ويداهُ ترتجِفانِ وأحسَّ أنَّهُ صارَ كطائرِ الحبارى الصَّغيرِ وعندهُ مَيلٌ غريبٌ لتدخينِ سيجارةٍ، لكنَّهُ كان راضياً على كُلِّ حالٍ لتمكُّنِهِ منَ النَّجاةِ ولم يعُدْ يحسُّ بالحُفَرِ المليئةِ بالوحلِ والطِّينِ ودونَ أن يُقيِّدَهُ البردُ وساقاهُ العاريتانِ ودونَ أن ينظُرَ وراءَهُ، أسرَعَ ليُبعِدَ نفسَهُ بقدرِ المُستطاعِ عن ذلكَ المكانِ الَّذي كانَ فيهِ ولا يعرِفُ أينَ هو، و((أصواتٌ... مئاتُ الأصوات...)) من نَظائرِ تلكَ الَّتي تحدُثُ في الثُّغورِ والحُدودِ البعيدَةِ عنهُ تُسمَعُ وكأنَّها خلفَ ظهرِهِ وهو، رُبَّما في الوهمِ أيضاً، يسعى ليُبعِدَ نفسَهُ عن تصوُّرِ الأصواتِ الَّتي كانت تخرُجُ منَ الأفواهِ المفتوحةِ للجماجِمِ العالية، بما أمكنَ من سُرعةٍ، تلكَ الأصواتِ الَّتي أحسَّها مُنفِّرَةً وأكثَرَ تنفيراً وغريبةً وأكثرَ غرابةً في مجراها ممّا يعرفُ أيُّ أحدٍ آخر. وحينَ كانَ يُدَقِّقُ ويُفكِّرُ في نفسِهِ لم يكُنْ يُميِّزُ صوتَ نفسِهِ من أصواتِ

الجماجِمِ المفتوحةِ خارجاً، ولم يكُنْ ذلكَ قابلاً للتَّمييز. ((صوتي، في الواقع؟! هل صوتي ولساني وكلماتي أيضاً كانت لعناً مُرسَلاً على... أولادي؟... لا! أخيراً يجبُ أن أسمَعَ صوتَ نفسي، صوتي، صوتَ الكولونيل!))

صارَ أخيراً كفأرٍ وقعَ في الماءِ وبيضتا عينَيهِ تنفجرانِ منَ الألَمِ والحافَّةُ الدَّائريَّةُ لقُبَّعتِهِ انحنتْ تحتَ ضغطِ حِمْلِ ماءِ المطر، قدمُهُ اليُسرى عاريةٌ وساقا بنطالِهِ إلى تحتِ رُكبَتَيهِ مُبتلَّتانِ بالوحلِ والطِّين وجناحا معطفِهِ هابطانِ من ثقلِ ماءِ المطر. وكانَ صوتُ صريرِ نعلِهِ يُسمَعُ من كثرةِ ما سارَ فوقَ الطِّينِ والوحلِ وما علِقَ بِه، وفمُهُ يابسٌ ومُرٌّ مثلَ سُمِّ الأفعى. إذْ لم أكُنْ تناولتُ شيئاً من طعامٍ لمُدَّةِ يومَين. بذلكَ الخوفِ والاِضطرابِ والتَّشنُّجِ، وذلكَ التَّعبِ المُنفِّرِ المُسلَّطِ عليهِ ما بينَ قُبَّعَتِهِ ومعطفِهِ ظهرَ لِنفسِهِ وفقاً لما كانَ قد رأى أو قرأَ من قبلُ على هيئةٍ هي أشبهُ ما تكونُ بهيئةِ يهوديٍّ عجوزٍ عائدٍ من مُعسكَرِ الموتِ ولا يعرفِ إلى أيِّ وطنٍ ينتمي ولا إلى أيِّ وطنٍ يذهب؟

((هنا الميدان. ميدان مدينة جناب الكولونيل؛ ميدان القضاء!))

((لكن منزلي... ولدي؟))

((من ذلكَ الجانبِ كان، من ذلكَ الجانبِ جنابَ الكولونيل!))

وهل عيناهُ تريانِ بِشكلٍ صحيحٍ حتّى يكونَ على محيطِ الميدانِ الواسِعِ الخالي حرّاسٌ ومسؤولونَ ومأمورونَ عدليّون مصطفّينَ كأنَّهُم واقفينَ في انتظار؟ ...((نعم، ومهما بدا ذلكَ عجيباً!)) وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ طريقَ منزلِهِ يسيرُ بجانبِ أعمدةِ الكهرباءِ ومن خلفِها حتّى يصلَ إلى آخِرِ عمودِ كهرباءٍ جديدٍ صغير، لابُدَّ وأنَّ السَّيّد قرباني هو الّذي كان وراءَ وضعِهِ وتهيئَتِه، والكولونيل كان على يقينٍ من أنَّ السيّد قرباني حجّاج فوقَ هذا أقامَ عمودَ كهرباءٍ بِمصباحٍ عظيمِ الضِّياءِ أمامَ بابِ منزله؛ والآنَ صارَ يفهمُ لماذا كانَ السَّيّد قرباني يتابِعُ موضوعَ عَمَلِ صورةٍ كبيرةٍ لولدِهِ الصَّغير مسعود، ولماذا جعلَهَا ضمنَ إطارٍ مُذهَّبٍ معمولٍ بعنايةٍ، ولماذا وضعها فوق واجهةِ المدفأةِ الجديدةِ في غُرفةِ الاِستقبال وكانَ الكولونيل يشكُّ في أنَّ كلَّ هذا الشَّيء حتّى في أصغرِ جزئيّاتِهِ كانَ مُعيَّناً من قبل؟

((أيَّةُ أوهام؟!))

حينَ يضعُ الرَّجُلُ العجوزُ قدمَهُ فوقَ عتبَةِ بابِ باحةِ المنزل للدُّخولِ بدا للحظةٍ ينظُرُ وكأنَّما عيناهُ توقَّفَتا منَ التَّعجُّب. لقد رأى مُجسَّماً يُشبِهُ بدنُهُ بدنَ أمير نظام وقد أوقِفَ على قدميهِ على سريرِ أرضِ الحوض. وفكَّرَ أنَّ أمير بِصدَدِ إتمامِ عملِهِ فيهِ فيما بعد. مجسَّمٌ يبلغُ ارتِفاعَهُ أكثرَ من مترَين. وقد وجبَ على أمير حتماً أن يُخرِجَهُ قطعةً قطعةً منَ البابِ الصَّغيرِ للقبو ليجمَعَ القِطَعَ بعضها إلى بعضٍ على سريرِ الحوضِ وليُنجِزَ الأشياءَ الدَّقيقَةَ من عملِهِ بالخارِج. رأسُ المُجسَّمِ لم تُركَّبْ عليهِ بعد وهي مُستقرَّةٌ بينَ يَدَي الكولونيل. الكولونيل واقفٌ في الإيوانِ وكأنَّهُ ينظُرُ إلى الرَّأسِ بتفحُّصٍ. ودمٌ جارٍ، ذلكَ الدَّمُ الحارُّ والمُشِعُّ الَّذي كان يجري على الدَّوامِ صافياً من حَلْقِ الكولونيل فيأخُذَهُ بمنديلٍ أبيضَ نَظيفٍ متينٍ دائماً دونَ أن يرفَعَ عينَهُ عن وجهِ أمير كبير. أمير واقفٌ على أسفَلِ الدَّرَجِ تماماً قبالةَ الكولونيل وعينُهُ على يديه. أمير لم يكنْ انتبهَ لعودةِ الكولونيل، وبعينيهِ المُشِعَّتَينِ والحائرتَينِ ظلَّ ينظُرُ إلى الكولونيل الَّذي صَنَعَهُ بيدِهِ ولا بُدَّ أنَّهُ كانَ يتوقَّعُ تمجيداً وثناءً على عَمَلِهِ من جانبِ الكولونيل. لكنْ في فِكْرِ الأبِ، إنَّ توقُّعَ مثلِ هذا منَ الكولونيل الَّذي كانَ ذا ذوقٍ فنّيٍ بالغٍ ناشئٌ من طَبْعِ أمير السَّاذَج. هو لا يعرفُ طبيعَةَ الكولونيل ولا يعلَمُ أنَّهُ إذا كانَ شخصٌ ما أنجَزَ عملاً ما بشكلٍ رائعٍ فإنَّهُ بنظرِ الكولونيل أنجزَ وظيفَةَ نفسِهِ كما يجب، و((أيُّ شخصٍ لا يجبُ أن ينتظِرَ ثناءً لجهَةِ إتمامِ وظيفتِه)). وعليهِ فإنَّ أمير إذا كان يتوقَّعُ تشويقاً بِوقفتِهِ قبالةَ الكولونيل فيجبُ عليهِ أن يفهَمَ أنَّهُ إلى الآنَ لم يعرِفِ الكولونيل. وهكذا فإنَّ الكولونيل رَسَمَ ضُحكَةً على شفتيهِ كمن يُظهِرُ الرِّضا. أمير أيضاً راضٍ وقد رفعَ رأسَهُ بِحَذَرٍ عن يدَيِ الكولونيل الَّذي بدا كأنَّهُ ينتظِرُ إتمامَ العملِ وقد قرنَ بينَ يَدَيهِ على صدرِهِ ومنديلُهُ الأبيضُ المُزانُ قليلاً بألوانِ الورودِ المُختلفةِ والَّذي كانَ يحتفِظُ بهِ بينَ أصابِعِهِ في حالةٍ حُرَّةٍ على الحذاءِ الأسودِ البرَّاق.

أمير واقفٌ على كرسيِّهِ وقد وضعَ رأسَهُ على الكتفَينِ الغليظَتَينِ لأمير نظام، ويدُهُ على محاسِنِ الرَّجُلِ وشَعْرِهِ، والقبَّعةُ السَّوداءُ العاليةُ موضوعةٌ على شعرِهِ بِشكلٍ أنيقٍ ، ثُمَّ ودونَ أن يرفَعَ نَظَرَهُ عنِ الوجهِ الّذي صنعَهُ بيدَيهِ نزلَ عن الكُرسيِّ الصَّغير ((وأنا رأيتُ في عينَي ولدي صفاءً وضياءً بعد ذلكَ اليومِ المُشمسِ لم أرهُما في عينِ إنسانٍ أبداً.)) كانت عينا أمير قد وجدتا مزيداً منَ البريق؛ ((قطعاً!))، لكنْ وفي عينِ الحالِ كانَ في حَدَقَتَي عَينَيهِ بريقٌ خاصٌ. وبذاتِ النُّفوذِ والتَّمكُّنِ وضعَ أمير قدمَهُ على حافَّةِ حوضِ غسلِ الأقدامِ ونظَرَ إلى قامةِ وهيئةِ مجسَّمِ البَدَنِ ثُمَّ

مشى مُتراجِعاً إلى الخلفِ حتّى صارَ قُربَ درجِ الإيوان وهناكَ وفي جوارِ حذاءِ الكولونيل وقف وقرنَ بينَ يَدَيهِ أمامَ صدرِهِ وراحَ ينظُرُ إلى ما صنعَ بيدِهِ وظلَّ كذلكَ لدقائقَ طالتْ كأنَّهُ يريدُها ألا تنتهي.

((لا داعيَ للقولِ أنَّني كنتُ أكادُ أسقُطُ منَ التَّعَبِ، ولكنَّني لم أكُنْ أُريدُ أنْ أُثيرَ اضطرابَ أمير أو أُحرِّكَهُ من مكانِهِ وأُخرِجَهُ خارِجَ الجوِّ الَّذي هيَّأهُ لنفسِهِ والحالِ الَّتي كانَ عليها. بقيتُ على حالي حتَّى يقعَ نظرُ أمير عليّ.)) ولم يطُلِ الوقتُ حتّى توجَّهَ أمير إلى والدِهِ الَّذي كانَ واقفاً تحتَ المَطَرِ وقطَراتُ المطرِ تنزلُ من مُحيطِ قُبَّعَتِهِ وتشرُّ على كتِفَيهِ وظهرِ ياقتِه؛ وكأنَّ ترحُّمَ الرَّجُلِ العجوزِ لهُ قد أثَّرَ بِهِ فجاءَ إلى جِهتِهِ وأمسكَ بِهِ من تحتِ إبطِهِ ومرَّ بِهِ بجوارِ مغسَلِ الأقدام ثُمَّ إلى نهايةِ الدَّرَج، وعندَ الإيوان قامَ أمير احترِاماً منهُ للكولونيل . وقبلَ أن يدخُلَ هو وأبوهُ للغُرفَة . بِخفضِ رأسِهُ بجوارِ الباب بعدَ أن وقف. أمَّا الكولونيل فلم يصلْ إلى الآنَ إلى مكانِهِ، هناكَ، في طَرَفِ الإيوانِ حيثُ كانَ يقف. أخذَ أمير أباهُ للغُرفَةِ وأجلسَهُ خلفَ الطَّاولةِ بجوارِ المدفأةِ على كُرسيّ. كانتِ المدفأةُ دافئةً وأدرَكَ الأبُ من سُلوكِ أمير معهُ أنَّهُ يجبُ أن يكونَ قد تغيَّرَ تغيُّراً كاملاً، لأنَّ ابنَهُ يتعامَلُ معهُ كمريضٍ واقعيّ، وأوّلاً رفعَ قُبَّعَتَهُ الثَّقيلَةَ من ماءِ المطَرِ عن رأسِه. خرَجَ للخارِجِ وعصرَها ثُمَّ وَضَعَها أمامَ واجِهَةِ المدفأة. بعدَ ذلكَ نزعَ عنهُ معطَفَهُ المطريَّ وبَسَطَهُ على أَحَدِ الكراسي بِجانِبِ المدفأةِ ثُمَّ كانت نوبةُ المعطَفِ والقميصِ الدَّاخِليّ والبنطالِ واللّباسِ الدَّاخِلِيّ تحتَ البنطال. ثُمَّ جاءَ بملحفَةٍ ((شيءٌ لم أتصوَّرْهُ في طولِ حياتي كُلِّها، أن أكونَ ملفوفاً بملحفة)) وأدارَ الملحفَةَ على بَدَنِ الأب، ووضعَ لباسَهُ حولَ المدفأةِ لينشَفَ ((ولكي لا يبقى هنالكَ إبهامٌ عن كيفيَّةِ كونِ المدفأةِ دافئةً فإنَّهُ يظنُّ أنَّ فرزانةَ وبعيداً عن عينَي السَّيِّد قرباني جلبتْ لي صفيحَةً منَ النِّفط)). أمير صبَّ كأساً منَ الشَّاي ووضعهُ أمامَ يدِ أبيهِ فوقَ الطَّاولةِ وقرَّبَ وعاءَ قِطَعِ السُّكَّرِ منهُ لكي يُمكِّنَهُ من أخذِ قِطعةٍ منْ قِطَعِ السُّكَّرِ دونَ عناءٍ وحتّى لا تُسبِّبَ حركةُ يدِهِ انفتاحَ الملحَفَةِ عنه ((كلُّ شيءٍ عندي لكنَّ أمير لا يعلمُ بأيِّ شيءٍ كانَ ذهني مشغولاً، وهو بِأن أجِدَ واحِدةً منَ الصُّوَرِ القديمةِ لمسعود وأجعَلَ لها مكاناً في جوارِ صورَتَي بروانة ومحمّد تقي تحتَ رأسِ حذاءِ الكولونيل. أعلمُ قطعاً أنّي سأجِدُ الصُّورَةَ بالبحث. تحتَ السَّرير أو في حقيبةِ السَّفَرِ الَّتي مفتاحُها معي!)). أمير كان يجلسُ ووجهُهُ إلى وجهِ أبيه، مرفقاهُ على الطَّاولةِ ويداهُ تحتَ ذقنِهِ مقبوضتانِ وعيناهُ المُشِعَّتانِ تنظُرانِ إليه، وكأنَّهُ أنهى عَمَلاً مهمَّاً

من حياتِهِ وهو الآنَ عازمٌ على البدءِ بعملٍ جديدٍ وعلى أن يَضعَ قَدَمَهُ في مرحَلَةٍ جديدةٍ من حياتِه. الكولونيل لم يظنَّ أنَّهُ فجأةً تبدَّلَ وعادَ مرَّةً أُخرى ينظُرُ إلى الدُّنيا. لكنْ، في الحالِ عينِهِ لم يكُنْ يُريدُ نفيَ هذا الاِحتمال. لأنَّ الكولونيل وكما مرَّ لم يعُدْ يتعجَّبُ من أيَّةِ واقعة، وأدركَ أمراً مُفادُهُ أنَّ أيَّ فردٍ لا يُمكنُ أن يكونَ ((ساكناً ومعدوماً ذاتاً)) لأنَّ الحياةَ غالبةٌ على ذاتِهِ ووجهُ اعتمادِهِ ((التَّجربة، التَّجربةُ يا سيّد، أنا ونسلي نتذكَّرُ تجربَةً بعدَ أكثرَ من اثنينِ وثلاثينَ عاماً.)) في ورطَةِ العِصيانِ ووقوعِهِ في نفيٍ في أوجِ الخصوصيَّةِ لحدودِ عشرينَ عاماً، يعني يدومُ حتّى ضياعِ نسلٍ وظهورِ نسلٍ جديدٍ ويكونُ النِّزاعُ في النِّهايةِ على مرأى ومسمَعِ النَّسلَين. لا تتخيَّلوا أنَّكُم ستسمعونَ من لساني أنَّهُ بعدَ أنْ يُكسَرَ نسلٌ ويُنفى سيتولَّدُ منهُ نسلٌ أكثرُ واقعيَّةً وأكثرُ تجربةً ؛ لا. النَّسلُ الآتي عُرضةٌ للنَّفيِ أيضاً، نفيٌ لكلِّ شيءٍ. ولادةٌ من ضياعِ العصيان، الأبُ نفيٌ لكُلِّ شيءٍ إلّا فكرةَ الزَّوال؛ الاِبنُ يُعمِلُ كُلَّ شيءٍ في ورطةِ النَّفيِ حتّى نفسَه. الأبُ أُصيبَ بالشَّلَلِ والاِبنُ مقيَّدٌ مغلول. وفي جميعِ الأحوالِ فإنَّ هذا الآخَرَ الَّذي ينفونَهُ معَ الماضي والمُستقبل سينتهي أمرُهُ إلى مسلَكِهِ الخاصّ وطريقتِهِ الخاصَّة. واحدٌ كانَ منفيّاً مُنفعلاً وواحدٌ كان منفيّاً مُهدَّماً. واحدٌ يعدُّ كلَّ المعتقَدَاتِ كذباً وآخَرُ يرى كُلَّ الأكاذيبِ معتَقَداً. لا في الآباءِ بقيَ رَمَقٌ ومقدرةٌ على التَّوضيحِ الحقيقيّ للوقائعِ ونقلِ التَّجربَةِ ولا في الأبناءِ إيمانُ قبولِ التّجربَةِ والصَّبرُ والتَّحمُّلُ موجودٌ ولا المجالُ موجود. التَّاريخُ بِطِّيخَةٌ مُغلَقَةٌ. واحدٌ يقولُ إنَّها فجَّةٌ مثلَ الصَّابونِ وآخَرُ يدَّعي أنَّها ناضِجَةٌ مثلَ الدَّم. وليسَ معَ أيِّ واحدٍ منهُما سكّينٌ يُعتَمَدُ عليها ولا جُرأةٌ ولا رُخصَة. ((فالتَّاريخُ سيبقى مُغلقاً ومجهولاً إلى أن يتعفَّن.)) والآنَ وجهُ أمير نفسُهُ كانَ مرآةً يظهرُ فيها التَّعفُّنُ للعيان، وتلكَ المرآةُ تُذكِّرُ الكولونيل بحالاتٍ كثيرةٍ لأشخاصٍ منَ الماضي البعيد. وهكذا الكثيرُ من الآباءِ والأولادِ كانوا في ذاكرةِ الكولونيل وأمير، إذ كانا يجلسانِ وجهاً لوجه، لكنْ ليسَ بهذا الشَّكلِ ساكتَينِ ومبهوتَين، بل في كلِّ لقاءٍ كانَ هناكَ الكثيرُ منَ الإهانةِ والنِّزاعِ بينهما. هما قليلاً ما يحتاطانِ في الجدالِ بينهما ويعرفانِ جيّداً أيَّةَ عداواتٍ يُسبِّبُ أحدُهُما للآخَر، لأنَّ كُلّاً منهما يعرفُ نقاطَ ضعفِ الآخرِ وكلّاً منهما يتكلَّمُ لغةَ الآخَر. لكنَّ مشكلةَ الكولونيل وأمير لم تكنْ في هذهِ النُّقطةِ ولا فيما قبلها، كانت في أنَّهُ ليسَ بينهما اختلافُ نظرٍ ودعوى فلا يُوجَدُ اختلافٌ بينَ الأنسالِ المُختلفةِ في أساسِ دورةِ الضَّياعِ! ولا يبقى غير كيفيَّةِ توجيهِ هذا الضّياع، في الوجودِ أو في العدم، وحتّى في نِسَبِ الضَّياعِ فليسَ هناكَ أقلُّ اختلافٍ في النَّظَر؛ وربّما في كمالِ صداقةٍ وحسْنِ نيَّةٍ يكونُ الضَّياعُ معروفاً للنَّفسِ ومقبولاً منها. فيبقى

كيفَ يتعايشُ كلُّ واحدٍ معه، ((حيثُ أنَّ الشّيءَ الَّذي أراهُ واضِحاً بِعَيني يراهُ أمير صراحةً في كوابيسِه)) أرى أنَّ أمير لا يستطيعُ أن يأتيَ على لسانِهِ بذكرِ كلِّ شيءٍ يراهُ ويحسُّه:

((بما أنَّ قتلَ المرءِ نفسَهُ في لحظةِ عملٍ يعطيهِ قوَّةً خارقةً للعادةِ فكلُّ قلقي كانَ من أنْ لا يبقى لهذا الرَّجلِ العجوزِ رمقٌ أخيرٌ ليستطيعَ قتلَ نفسِه، وهذا هو العملُ الوحيدُ الَّذي على كلِّ شخصٍ أن يُفكِّرَ في تدبيرِهِ بنفسِه. يتعفَّن. وجهُهُ مرآةُ نفسِهِ الَّتي تعبِّرُ وتعلنُ عن زوالِه وكأنَّني الآنَ أفهمُ كم كنتُ قد أحببتُه، أبي!))

في العودةِ من مركزِ السِّجن عندما ترجَّلَ أمير من الحافلة، رأى الكولونيلَ داخلَ معطفِهِ المطريّ بجوارِ حائطِ الآجُرِّ للكراج واقفاً تحتَ قطراتِ المطرِ في الفجرِ منحنياً وعلى رأسِهِ قبّعةٌ دائريَّةٌ وهو ينظُرُ إليهِ من تحتِ فلفلِ وملحِ حاجبَيهِ وقلبُهُ كان يرجو أن يكونَ عندهُ ضحكةٌ مخفيَّةٌ تحتَ شاربيه. أمير ذهبَ إلى جهةِ أبيهِ وقد فتحَ يديهِ حتّى يأخُذَ بإبطِهِ ولم تكُنْ هناكَ أيَّةُ علامةٍ للشَّوقِ في وجهِه، ((ولم تكنْ عيناهُ رطبتين من دمعِ الشَّوق)) رغمَ أنَّ أمير أيضاً كانَ في قلبِه محزوناً ولم يكنْ يظهرُ على قلبِهِ ودماغِهِ السُّرور. ((أنا كنتُ متردِّداً من رأسي إلى قدمي، لكنْ ودونَ اختيارٍ منّي فإنّي تحتَ ضغطِ المحيطِ صرتُ قطعةً واحدةً منَ الأمل! ثمَّ انقسمتُ إلى قسمَين، أنا نفسي وتوأمي، ذلكَ الموجودِ الَّذي هو مطويٌّ معي والَّذي هوَ معيَ في جدالٍ مستمرّ، وفي النِّهايةِ يقتلُني ويقتلُ نفسَه. لم يعدْ عندي عملٌ ولا عُذرٌ أعتلُّ به ولا أتخيَّلُ أنّي سأجعلُ شيئاً من نفسي ينجو. أمّا هو . توأمي، ذاكَ الأمير . فكانَ قوَّةً غريبةً، قوَّةً غريبةً في إبرازِ الشَّيءِ الّذي لم أكُنْهُ!)). كي لا تطولَ الطَّريقُ إلى المنزلِ أخذَ محمّد تقي الّذي كانَ ذهبَ للاِستقبالِ الحقيبةَ وصرَّةَ الثّيابِ بيدِهِ وسارَ الثَّلاثةُ في الطَّريقِ سيراً على الأقدامِ وقتَ الصَّباحِ في صمتٍ، في خلوةٍ، وميدانُ البلديَّةِ خالٍ أيضاً في هذا الوقتِ منَ الصَّباحِ ويبدو واسعاً، قال الكولونيل وهو يمشي على قدميهِ وكأنَّما يتحدَّثُ إلى نفسِه:

. ((حسناً... حسناً... هذهِ الدَّورةُ أيضاً مرَّت!))

. ((نعم...مرّت دورةٌ من خمسينَ عاماً.))

. ((لا... ستّةِ آلافِ عام.))

لم يكنْ هناكَ أسَفٌ أو حسرةٌ في كلامِ الكولونيل والعجيبُ أنَّهُ لم يكنْ فيهِ سرورٌ أيضاً. ((وأنا أعلمُ أنَّ أبي يعتقِدُ أنَّ لحكومةِ إيرانَ ستَّةَ آلافِ سنةٍ منَ التَّاريخ)) لكنْ بلا قيد، وإذا كانَ الغبنُ والأسفُ محسوسَينِ تحتَ كلامِهِ فإنَّ ذلكَ يمكنُ أن يكونَ ناشئاً من هذِهِ اللاقيديَّةِ عينِها الّتي كانَ يحسُّ بها أو ربَّما يتوقَّعُ من نفسِهِ أنَّهُ لا يوجَدُ إلّا القليلُ منَ الأماني بلا قيد.

((هذا الحسُّ وحالُ أبي أفهمُهُ، لكنْ لا! أنا لم أعُدْ نفسي. بل ربَّما أنا صيَّادٌ ببوطٍ بلاستيكيٍّ عالي السَّاقِ وقبَّعةٍ ودماغٍ كبيرٍ وشعرٍ وفيرٍ تشبِهُ شباكُهُ شباكَ صيدِ الأسماكِ وتتدلّى على كتفي وأمسكُ سيجارة أشنو. ويجه بينَ إصبعَيَّ وأسيرُ في جوارِ الكولونيل حذوَ النَّعْلِ بالنَّعْلِ وفي السُّكوتِ العميقِ الَّذي يحملُ نفسَهُ عليه ودونَ مقدّمةٍ أقول:

"لا مكانَ للتَّردُّدِ في عرصةِ التَّاريخِ والثَّورة، أبي! التَّاريخُ القصيرُ للمبارزاتِ الوضَّاءةِ لأربعينَ سنةً للعُمّالِ ومعاناتُهُم علامةٌ بارزةٌ عن...)) وأنا أنفُرُ من هذا الشَّكلِ منَ الحديثِ الكُلّي الَّذي هو إلزاماً غيرُ موزونٍ ومآلاً غيرُ عقلانيّ. وعليهِ، فعندَ سماعِ مثلِ هذهِ العباراتِ من لساني، من لسانِ ذلكَ الكائنِ الحيّ الَّذي هو داخلي ، أقرفُ، لكنْ... لكنْ الأمل . الأمل أبي الحبيب! . إنسانٌ بلا أملٍ هو في الحقيقةِ حشرةٌ، والحشرةُ موجودٌ بلا تفكيرٍ ولا مُستقبَلٍ؛ وإنسانٌ بلا مستقبلٍ فلا جرَمَ أنَّهُ يُعدُّ في صفِّ الرَّجعيّين. في السِّجنِ كانَ يُقالُ عن الَّذينَ ليسَ لهم اتّجاهٌ إنَّ من لا اتّجاهَ لهُ لا شرفَ لهُ!))

أدارَ الكولونيل وجهَهُ وراحَ ينظُرُ من تحتِ حاجِبِهِ الفلفل الملحيّ إلى وَلَدِهِ وهنا كانَ المحلُّ الَّذي سوفَ يصيرُ فيهِ أمير مبتلىً، ومبتلىً بِغيرِ قرار. لم يعُدْ لديهِ ما يُشبِهُ شبكَةَ صيدِ الأسماكِ على كتِفِه ولا سيجارةُ أشنو بينَ إصبَعَيه ولم يعُدْ حذاؤهُ البلاستيكيُّ في طريقِ مسيرِهِ يعطي هيئةَ وهيبَةَ رجُلٍ ناضِجٍ ومتعلّمٍ ولا يُغطّي ظهرَ رقَبَتِهِ شعرٌ متراكِمٌ. الآنَ كانَ طفلاً تحتَ نظرةِ أبيهِ النَّاضِجَةِ المُجرّبةِ وكانَ يذوبُ وكانَ يسعى بغيرِ جدوى بِسُعالِهِ المُصطَنَعِ لتخريشِ فضاءِ الصَّباحِ المُخيفِ ذاك، وفي النِّهايةِ كان مُضطرًّا للنَّظَرِ لحظَةً في عينَي أبيه. من أجلِ ذلكَ أرادَ الكولونيل أن يقولَ في حدقَتَي عينَي وَلَدِهِ، وقال:

. ((نعم... أذكرُ؛ في السِّجن!))

((لا يجبُ أن تنظُرَ إليَّ بهذا الشَّكلِ يا أبي لتجعَلَني أُحسُّ بالخَجَل؛ لأنَّني كنتُ متردِّداً بكُلّي، تردُّداً ربَّما يُصيبُني باليأسِ أو على الأقلِّ يُقالُ عنّيَ أنّي إنسانٌ غيرُ طموح. لكنْ... لماذا أتحدَّثُ بهذا الشَّكل؟ لماذا أُريدُ أن أنقلَ خصلةً داخِلَ نفسي للآخَر، أجعلَهُ مقابلاً لي وأهجُمَ عليه؟ لماذا أريدُ أن أعملَ في داخِلِهِ هجوماً دونَ أن أرى أذىً في ذلك؟ وذلكَ على أبي أيضاً؟ وهل...فقط أنا كنتُ كذلك؟ يعني أنَّني كنتُ وحدي الوحيدَ في هذهِ الدُّنيا الَّذي لا يملكُ الجُرأةَ والجسارةَ للإفصاحِ عن تردُّدِ نفسِه، منَ السَّهلِ إذا كنتُ رذيلاً إلى هذا الحدّ أن أنسِبَ هذهِ الخصلةَ لآخَر. حتّى ولو كانَ أبي. وأهجُمَ عليه؟! ومرَّةً وصلتْ هذهِ الخاصِّيَّةُ أوجَها حينَ كنتُ جالساً في غُرفَةِ الإستِقبالِ يحيطُ بيَ الأصدقاءُ والأقرباءُ وأنا بكُلِّ وجوديَ استِفسارٌ ((نور أقدس، زوجتي أينَ هي؟! "لكنَّني لم أكُنْ أنطِقُ بهذا السُّؤالِ بلساني وكنتُ أقولُ لنفسي ((مثلُ هذا الكتمانِ غيرُ مقبولٍ ورُبَّما يؤدّي إلى تحوُّلِ رأسي خلالَ قرنٍ، ولا مكانَ لتزلزُلِ الأفكارِ المُضيئةِ في عرصةِ التَّاريخِ والثَّورة، أصدقائي!")) وتوأمي لم يعُدْ ذلكَ الرَّجُلَ صيَّادَ السَّمَكِ بل أراهُ على هيئةِ رجُلٍ مُلتحٍ بلحيةٍ ظهرَ الشَّيبُ فيها على الذّقن وشاربَينِ متهدِّلَينِ وياقةٍ بيضاء وقُبَّعَةٍ ويُدخِّنُ الغليونَ بعدَ الفُطور. يسعُلُ سعلةً وحيدةً من حينٍ لآخر. ومن ذلكَ الوسط. أفكِّرُ الآن. أكثرَ من جميعِ الآخَرين كانَ قلبُ بروانة اللّطيفُ ينجذِبُ إلى ذلكَ الرَّجُلِ الَّذي يُدخِّنُ الغليونَ بعدَ الفُطورِ والَّذي كانَ لسوءِ الحظِّ أخاها، أنا!))

((كانَ يُقالُ مثلُ هذهِ البنتِ يجبُ أن تكونَ مهدورةَ الدَّمِ وأن تُفصَلَ وتُخرَجَ من رداءِ عائلتنا!)) الظَّهرُ والأكتافُ وتمامُ البدَنِ ملفوفٌ بالملحفَةِ والكولونيل صارَ دافئاً من حرارةِ المدفأة، حتّى برودةُ رِجلِهِ اليُسرى ابتعدتْ عنهُ وأحسَّ بالارتخاءِ حتّى صارَ مُمكِناً لهُ بعدَ كلِّ هذهِ المتاعِبِ الّتي ألمَّتْ بِهِ وانعِدامِ النَّومِ أن ينامَ دونَ اختيارٍ منه. لكِنَّ أمراً واحداً كانَ يُعكِّرُ هدوءَ خاطِرِهِ وكُلَّ حينٍ يهزُّهُ وهو تذكُّرُ كلامِهِ الَّذي كانَ يُسمَعُ من لسانِهِ لِشَبَحِ فروز بِخصوصِ بروانة، كما كانَ يُسمَعُ من مُكبِّراتِ الصَّوتِ الَّتي لم تكنْ تُرى؟ لا، هو لا يستطيعُ أن يُصدِّقَ أنَّهُ هو الَّذي تكلَّمَ بهذا الكلامِ على ابنتِهِ الّتي إلى الآنَ لم تبلُغِ الرَّابِعَةَ عشرةَ من عُمُرِها بعد ((البنتِ الّتي كنتُ لها أباً وأُمّاً)) وأنَّ الكلامَ كانَ من لسانِ الكولونيل وبِصوتِ الكولونيل نفسِه.

هل كانَ واقِعاً هو نفسُهُ، صوتُ نفسِهِ الَّذي كانَ يقولُ ((مثلُ هذهِ البنتِ يجبُ أن تكونَ مهدورةَ الدَّمِ وتُفصَلَ عن رداءِ عائلتنا))؟ أخيراً أيَّةُ عائلة؟ وهل كانَ الكولونيل نفسُهُ هو الَّذي يصرُخُ

((ابنتي كانت واجبَةَ القتل!)) وأنَّ ((ابنتي وقعتْ في يدِ الشَّياطينِ وتلوَّثَت، وابنتي مُلوَّثةٌ، و...))
وإذا كنتُ أنا نفسي، فلماذا يجبُ أن أنطِقَ بمثلِ هذا الكلام؟ ألم يكنْ شخصٌ آخَرُ يئزُّ في داخلي عُمراً لأنطِقَ في مثلِ هذا اليومِ بمثلِ هذا الكلامِ من حلْقي وبلساني وللآخَرين؟)) واقِعاً هل صوتُهُ بمثلِ وزنِ ولحنِ الأصواتِ الَّتي كانت تُسمَعُ من مُكبِّراتِ الصَّوت؟ ذلكَ الصَّوت، ذلكَ الصَّوت... ((واقِعاً)) وأخيراً كيفَ يُمكِنُ أن يكونَ مثلُ هذا الشَّيءِ مُمكِناً؟

((ها؟! أمير؟!))

أمير كأنَّهُ لم يكنْ موجوداً وإذا كانَ موجوداً فقد كانَ موجوداً معَ بروانة الَّتي لم تعُدْ موجودةً وفي نفسِهِ بحثٌ غريبٌ وما يُشبِهُ المَرَض، أنْ ماذا حلَّ ببروانة وبِأيِّ ترتيبٍ قُتِلَت وبِأيَّةِ مراحِلَ منَ العذابِ مرَّتْ قبلَ موتِها وكيفَ تحمَّلَتْ وكانَ يتذكَّرُ وقتَ عودَتِهِ وماذا قالت بروانة من كلامٍ وروتْ من حديثٍ عن أخيها البطلِ لزميلاتِها في الصَّفِّ، أخيها الَّذي كانَ لهُ اِسمٌ وشُهرةٌ حَسَنَةٌ، محبوبِ الشَّبابِ وكثيرٌ من تلاميذِ المدرسةِ الثَّانويَّةِ كانوا يعشقونَهُ، الأخِ المُحرَّرِ مرفوعَ الرَّأسِ من سجنِ ((نظامِ السفاك!)) الَّذي صارَ الآنَ كأخرس ولا يجدُ في داخِلِهِ شيئاً سوى الماضي المخدوشِ يؤلمُه، وإنَّ ألَمَهُ إذْ يألَمُ كانَ بِقصْدِ المُحاسَبَةِ الَّتي سوفَ تكونُ منهُ لنفسِه في اللّحَظَاتِ الَّتي يظهرُ أنَّها ستكونُ آخِرَ لحَظَاتٍ يقضيها من عُمُرِهِ المُخنَّثِ، وحينَ كانَ يُحاكِمُ نفسَهُ كان يرى أنَّهُ يجري خلفَ سهمِ نفسِهِ في الجناياتِ الَّتي حَصَلَتْ لأُختِهِ وأخَوَيهِ ولا يرى الآنَ طريقاً غيرَ أن يتمَنّى أن يستطيعَ أن يرى خضر جاويد مرَّةً أُخرى لعلَّهُ يسمعُ شيئاً من لسانِهِ بخصوصِ أُختِهِ الصَّغيرةِ كما كانَ قد سمعَ أخيراً بِشأنِ زوجَتِهِ نور أقدس.

. ((إذا كانوا قد أعدموها أيضاً. فيجبُ عليهِم إجابتُنا كذلك وأن يُعطونا علامةً عن القبرِ والكَفَن. فهي في النِّهايةِ كانت زوجتي يا سيّد جاويد! زوجتي ومُتَّهَمَتُكُم!))

كأنَّها المرَّةُ الأولى الَّتي ينظُرُ فيها إلى خضر بل يُمكِنُ القولُ أنَّهُ تمعَّنَ في وجهِهِ وعينَيهِ وظلَّ على تلكَ الحالِ كمن يطلُبُ بألفِ لِسانٍ الجوابَ منْ خضر، وخضر مضغوطٌ وخشِنٌ، ودونما تندُّمٍ أو تأسُّفٍ قال:

. ((أنا أطلقتُ سراحَها؛ بعدَ ذلكَ هي قتلتْ نفسَها. تحمّلَتنا ظاهراً لكنَّها لم تستطِعْ أن تتحمَّلَ نفسَها. كانَ هذا في اللّيلةِ الأولى منَ الحُرِّيَّةِ. قتلتْ نفسَها. وحينَ ذهبنا إلى مكانِ الحادِثَةِ كانَ قد

مضى عليها زمنٌ، لم أستطِعْ التَّعرُّفَ إلّا على شعْرِها فقط لأنَّ بَدَنَها ووجهَها كانا مُتورِّمَين ومُتعفِّنَين.))

أمير وصلَ إلى المنزلِ متأخِّراً بعدَ منتصَفِ اللّيل. ((في الواقِعِ مرَّ منَ اللّيلِ أكثرُ من نِصفِهِ حتّى استطاعَ أن يجدَ منزلَ خانُم خمامي.)) كانَ المفتاحُ معه. فتحَ البابَ وصعدَ على الدَّرَجِ للأعلى بلا صوتٍ ودخلَ الغُرفَةَ. نور أقدس عرفتْ صوتَ أقدامِه. لذلكَ لم يكُنْ هناكَ من خوفٍ، بل الحيرةُ الباقيةُ بِشأنِ السّكّينِ المُلطَّخةِ بالدَّم. وقفَ أمير لحظَةً أمامَ بابِ الغُرفَةِ ونظَرَ إلى الطَّاولة. ((قلبي يدُقُّ بِشِدَّةٍ)) لكنْ لا يرى حيلةً سوى السَّيرِ معَ الحقيقةِ الواقِعة. تقدَّمَ وجلسَ قُبالةَ زوجتِهِ وجهاً لوجهٍ ونظرَ إلى أوراقِ دَرسِها مُلقاةً على طاولةِ الطَّعامِ الصَّغيرةِ. ((كانت نور أقدس في حالةٍ هي أكثرُ حالاتِها واقِعِيَّةً وسوفَ تبقى دائماً في ذِهني))، حالةٍ منَ الجِدِّيَّةِ وكأنَّ أمير لم يكُنْ زوجَها، وكأنَّ نور أقدس كانت مُصمِّمَةً على أن تكونَ غريبةً على زوجِها.

لحظةٌ أُخرى ويدخُلُ منصور إسلاميّه في الغُرفةِ منَ البابِ الصَّغيرِ للمطبَخِ وقد غسلَ يدهُ ووجهَهُ ويذهبُ ليتناولَ المنشفةَ من على المسمارِ العريض. حاجباهُ وشارباهُ وجزءٌ من شعرِهِ رطبةٌ وأكمامُهُ مرفوعةٌ إلى ما تحتَ المرفقين. نشَّفَ يديهِ ووجهَهُ وجلسَ على أقربِ كُرسيٍّ وأخرَجَ من جيبِ قميصِهِ عُلبَةَ سجائرٍ وتناولَ الكبريتَ من على الطَّاولةِ ليُشعِلَ سيجارتَه، وأمير في كلِّ هذهِ اللّحَظَاتِ ينظُرُ إلى الشَّعْرِ الأسودِ على السَّاقَينِ النَّحيلَتَينِ لمنصور وقد تلاصَقَ بعضُهُ ببعضٍ من أثَرِ الرُّطوبة منصور الَّذي كانَ ينفخُ سيجارتَهُ جلبَ انتباهَ أمير بِحلقاتِ الدُّخانِ الَّتي كانَ يُطلِقُها في تلذُّذٍ من فمِهِ كمن يُذهبُ عن بدَنِهِ تعباً طويلاً. المُحيطُ ساكتٌ والاِضطرابُ فيهِ مخفيٌّ، أمير استحالَ أخرساً ((وأُذعِنُ أنّي تمنَّيتُ لو أنَّني لم آتِ إلى طهران تلكَ اللّيلة.)) لكنَّ ما حصلَ قد حصلَ وعمليّاً أنا وردتُ على مجمَعٍ وكنتُ شاهداً على علاماتِ حادثةٍ يُنظَرُ إليَّ فيها بكلِّ وجهٍ على أنّي شريكٌ في الجُرم.

. ((أنا لا علاقةَ لي ولا أثَرَ في تلكَ الواقِعةِ يا سيِّد خضر جاويد. أنتُم آذيتموني كُلَّ هذا الإيذاءَ بلا سبب!))

أمير صارَ ذليلاً. هو ذليلٌ وفارغٌ. كانَ يُحسُّ أنَّهُ لا يملُكُ أيَّةَ رغبةٍ في الحياةِ. كانَ جالساً مُتَّكِئاً على الجدارِ الرَّطبِ للقبو، خافِضَ الرَّأسِ ويحسُّ أنَّ خضر جاويد قد تصرَّفَ بمنزلِهِ وسريرِهِ

ومحلِّ نومِهِ وتمامِ حياتِهِ وحتّى بِوحدَتِه، ومعَ كُلِّ شخيرِ نومٍ من خضر كانَ يحسُّ أنَّ تنفُّسَهُ يصيرُ أقصرَ، والَّذي كانَ يشُلُّهُ أكثرَ إحساسُهُ أنَّ قُدرةَ الإقدامِ منهُ مقيَّدةٌ أو بالأصحِّ أنَّ قُدرةَ الإقدامِ على أيِّ عملٍ مقتولةٌ عنده، وحتّى قدرةُ التَّفكيرِ العدائيَّةِ بالنِّسبةِ ((لقاتِلِ زوجتي!))

. ((كنتم على خطر؛ كنتم تصيرونَ على خطر. أخيراً لم تصدِمْكُم بالشَّاهِ وحاشيتِه. وذلكَ أنَّ اللهَ نَظَرَ حتّى يُنجيَ الوطن!))

خضر كانَ واقفاً منتصِباً ويهتمُّ بسيجارتِهِ وولّاعتِهِ لكَيْ يهتمَّ بعدها بكلامِه:

. ((قوَّةٌ متراكمةٌ لثلاثينَ سنةً في شعبِ هذا الوطنِ وعليها دائماً قناعٌ يُغطِّيها وكأنَّها دُمَّلٌ مُتقيّحٌ. دُمَّلٌ سوفَ ينفتِحُ اليومَ أو غداً وسوفَ يفورُ دمُهُ وفسادُه. دمُ وقيحُ الدُّمَّلِ سيسيلانِ للخارِج. ومحَلُّ الوَجَعِ يصيرُ مُخدَّراً والبدنُ يرتاحُ. ولهذا السَّبَبِ عينِهِ يجبُ فصدُ هذا الدُّمَّلِ ليخرُجَ منهُ الدَّمُ والقيحُ. ولكي تتخلَّصَ هذهِ الأُمَّةُ العزيزةُ منَ الشِّدَّةِ والحدَّةِ. وهكذا وعلى هذا الشَّكلِ ستأتي أوقاتٌ يسيلُ فيها الدَّمُ والقيحُ في الطَّريق، الحُملانُ والحمقى فقطْ هم الَّذينَ يقفونَ أمامَ السَّيلِ عاجِزين. ثمانيةٌ وأربعونَ بالمئةِ من سُكَّانِ هذا الوطنِ كانوا شُبَّاناً وكانوا تحتَ هذا الدُّمَّلِ يُعانونَ فكانَ منَ اللّازمِ فصدُ هذا الدُّمَّل!))

أمير كانَ صامتاً ومبهوتاً وينظُرُ بِعَينَيهِ اللَّتينِ كأنَّما صارتا منَ الزُّجاجِ ولا يرى شيئاً وليسَ في ذهنِهِ شيءٌ من ماضيهِ معَ خضر جاويد وكأنَّما لا يتذكَّرُ من ذلكَ الماضي شيئاً أو كأنَّهُ لم يبقَ في ذاكرتِهِ من شيءٍ مُهمٍّ إلّا ذاكَ الَّذي استحضَرَهُ إلى ذاكِرتِه؛ والكولونيل لكن... لا يزالُ صوتُ نفسِهِ في فِكْرِهِ وهو قلِقٌ، تُرى هل سمِعَ النَّاسُ صوتَه؟ وهل منَ المُمكِنِ أن يكونَ أمير أيضاً قد سمِعَ تلكَ الأصواتَ؟ ((لا، لا يجبُ، لا يجبُ أن يكونَ قد سمِع. وهوَ الَّذي لم يكُنْ قد خرَجَ خارجَ المنزل. لكنْ لماذا هو حائرٌ في نَظَرِهِ إلَيَّ بهذا الشَّكل؟ ... . ها؟ لماذا ينظُرُ إليَّ بهذا الشَّكل؟ ألمْ أكُنْ قد عملْتُ خطأً ما؟ لماذا لا ينطقُ بحرفٍ؟ أنا... أتمَمْتُ شُغلَ ومراسِمَ التَّكفينِ والدَّفنِ للصَّغيرِ ولباسي الَّذي ينشَفُ منَ المُحتَمَلِ أن يأتيَ خلفي لأذهبَ إلى أمامِ المسجِدِ وأقفَ أمامَ الضُّيوفِ وأقولَ لهُم كلامَ التَّرحيبِ و... أمَّا أنتَ فلا تملكُ قلبَهُ ودماغَهُ ليأتيَ معك، لا؟ حَسَناً... فما دامَ هناكَ إشكالٌ، فأنا الَّذي سأذهبُ بنفسي وأُتِمُّ هذا العَمَل، سأرتدي لباسيَ الَّذي ينشَفُ وأسيرُ في الطَّريقِ إلى المسجِد... المسجد... المسجد. الجالسونَ على الرَّصيفِ في محلَّةِ

أحمد آباد كانوا يأملونَ أنْ تعطيَهُمُ الدَّولةُ الماءَ والكهرباءَ والإسفلتَ ببرَكَةِ المسجِد. البازارُ يلزمُهُ حُسينيَّةٌ ذاتُ شأنٍ. المؤمنونَ هنا وهناكَ اشتروا السينمات وحوَّلوها إلى مساجد، و... وهكذا بهذا الشَّكلِ تظهرُ الوقائعُ شيئاً فشيئاً بشكلٍ هادئٍ ثُمَّ ينتبَهُ لها النَّاس. رغمَ أنَّهُ لو التفتَ النَّاسُ لأدركوا أنَّهُ لم يحصَلْ تغييرٌ في أصلِ القضيَّة. بعدَ ذلكَ كانَ أن أُعدِمَتْ أوَّلُ امرأةٍ بأمرٍ مَلَكيٍّ في سِجْنِ القصرِ لكَي لا أخجلَ اليومَ من إعدامِ ابنتي الَّتي إلى الآنَ لم تبلُغِ الرَّابِعَةَ عشرَةَ من عُمرِها!))

. أنتَ... أمير، أتذكُرُ شيئاً؟... لا بُدَّ لا،...ها؟ أتتذكَّرُ؟... من كلامي أتذكُرُ شيئاً؟ ما قيلَ في شأنِ أُختِك!... ألا تفهم؟...لا أفهم. لا أفهمُ لماذا لا تفهمُ كلامَ أبيكَ؟ أخيراً لماذا... هل كنتُ أتكلَّمُ بلغةٍ أُخرى ولسانٍ آخر؟!))

. أنا لا أفهمُ، أنا لا أفهم.

. مرَّةً أُخرى قُلْ، كرِّرْ!

. أنا لا أفهمُ ما تُريدُ أن تقولَ يا أبي!

. عجيبٌ جدَّاً، عجيبٌ جِدَّاً، لماذا لم يتحسَّنْ حالي؟ قلْ كلمةً بلسانِكَ حتّى أستطيعَ أنْ أُدرِكَ كلامَك. كيفَ لا أستطيعُ أن أعرِفَ صوتَ ابني وأنْ أفهَمَ كلامَ ابني؟

. أبي الحبيبُ، أنتَ تبدو مُصاباً بالحُمّى وتهذي. أُخلُدْ إلى النَّومِ واسترِحْ، لأنَّ هذهِ الأصواتَ العجيبةَ الَّتي تُخرِجُها من حلقِكَ تزيدُ تحطيمَ أعصابِك. لماذا تُشنِّجُ نفسَكَ؟ أنتَ مُضطرِبٌ مُشوَّشٌ!

. أمير... أمير... اسعَ لئلّا تُعذِّبَ أباكَ أكثر. تحدَّثْ معي بمِثْلِ لساني ومِثْلِ كلامي؛ أخيراً كيفَ لا أفهمُ الأصواتَ الَّتي تخرُجُ منْ حلْقِك؟.

. أبي الحبيب، أبي حبيبي. نم بِضْعَ ساعاتٍ حتّى نستطيعَ بعدها أنْ نتحدَّث، أتخيَّلُ أنَّني قبلَ موتي سأتحدَّثُ معكَ حديثاً قصيراً. أمَّا الآنَ... فعندي يقينٌ أنَّ الحديثَ معكَ مُحالٌ، لأنَّني لستُ واثِقاً من أنَّكَ بِحالتِكَ هذِهِ تستطيعُ أن تفهَمَ كلامي.

. أمير... أمير... لستُ بانتظارِ مثلِ هذهِ الفاجِعَةِ وأنْ تصيرَ أبكماً أخيراً في هذِهِ الدَّورةِ من عُمرِك. فكَّاكَ ينفتِحانِ وشفتاكَ تتصادَمانِ، لكنْ الصَّوت... لا أسمعُ صوتَك، أيَّةُ صُدفةٍ وماذا جرى كي...

. لا تضغطْ على نفسِكَ يا أبي... أمَّا أنا فماذا أعملُ وأعلمُ أنّي عاهَدْتُ نفسيَ منْ قبلِ موتيَ أن أتحدَّثَ إليكَ. لا أملكُ شخصاً غيرَكَ يا أبي. أنا أُريدُ أن أقولَ هذِهِ الحقيقَةَ لكَ، وأنَّني إذا كُنتُ أُريدُ الموتَ فذلكَ لأنَّني أُحسُّ أنَّني نسيتُ كُلَّ المُعتَقَداتِ والقِيَمِ الَّتي كنتُ مؤمناً بها. وبكلامٍ واحدٍ أقولُ إنَّني لا أستطيعُ أنْ أتحمَّلَ ماضيَّ كما لا أستطيعُ أيضاً أنْ أعيشَ نافِراً من نفسي. أخيراً إلى متى أحيا في نُفور؟ ومعيَ بعضُ الدّلائل، وهو ما أُريدُ أنْ أذكُرَهُ لكُم، وكُنتُ أريدُ أن أقولَ ذلكَ لفرزانة الَّتي جلبتْ ليَ اليومَ صفيحةً منَ النّفطِ وكلَّما أردتُ أنْ أُفهِمَها ما أُريدُ قولَهُ لا أستطيعُ، وقد خرجَتْ باكيةً منَ المنزِلِ والحالُ أنَّ كلامي لها لم يكُنْ ناضِجاً، أنا كنتُ أُريدُ فقط أنْ أقولَ لأُختي أنَّني لم أكُنْ شريكاً أقلَّ منَ السَّيِّدِ قرباني في قتلِ إخوتِنا وأُختِنا. لكنَّني لم أُوَفَّقْ لذلكَ يا أبي!))

الكولونيل لم ينطِقْ كلاماً آخَر. من حيثُ أنَّهُ فكَّرَ أنَّ أمير لا يستطيعُ أن يفهَمَ أنَّهُ لا يفهمُ كلامَه، ولا يستطيعُ أن يفهَمَ أنَّهُ لا يعرفُ لُغَتَه؛ وفكَّرَ أنَّ ابنهُ لم يكُنْ جاهزاً ليوضِحَ لهُ قصدَهُ الَّذي هو في الواقِعِ عملُ وصيَّةٍ من قبلِ موتِه، لماذا يُريدُ الموت. هو يريدُ أن يقولَ لأمير أن لا ينظُرَ في هذِهِ النَّكبَةِ العارِضَةِ لأبيهِ وأن يعلَمَ هذا ((أنَّني أوصَلتُ حِمْلَ هذهِ الحياةِ أخيراً إلى المنزلِ وأوصِلُه)) والآنَ إذ ينوي الموت فإنَّ وجدانَهُ مرتاحٌ لأنَّهُ لم يُخْلِ كتِفَهُ من تحتِ حِمْلِ المسؤوليَّةِ أبداً. هو يريدُ أن يقولَ هذا الأمر ((أنّني كنتُ جنديَّاً وأريدُ أنْ أظَلَّ جُنديَّاً.)) ويُريدُ أنْ يُبقيَ هذهِ الحقيقَةَ ثابتةً معَ نوعِ الموتِ الَّذي يختارُهُ لنفسِه. وإذا كانَ يُريدُ الموتَ فذلك لأنَّهُ لا يُريدُ أن يرى نفسَهُ بوجهٍ ممسوخٍ وملامحَ ممسوخَةٍ في الشَّوارِعِ والأزِقَّةِ، ولا يُريدُ أن يرى الأطفالَ العاطِلينَ يرمونَ عليهِ الحِجارةَ ويكونونَ لهُ أعداءً. ((حيثُ كانَ عنديَ إحساسٌ بأنَّ صوتيَ قد تبدَّلَ أو سوفَ يتبدَّل، ومعنى هذا أنَّ مُقدّماتِ المسخِ قد شرعتْ، وللإنصافِ، أنا لا أستوجِبُ ذلكَ وأنْ أقضيَ الصَّباحاتِ الباقيَةَ من عُمُري بخفَّةِ الجُنونِ والخَوَرِ بلا معنىً وأصيرَ أُضحوكَةً في النِّهاية.)) ويُريدُ أن يقولَ أنَّهُ إذا أرادَ قبلَ الموتِ إيقافَ لسانِهِ عنِ العملِ فيجبُ أن لا يصيرَ موضوعاً لتعجُّبِ شخصٍ والظَّنِّ بأنَّ ذلكَ كانَ على أثَرِ جُنونٍ منه. ((ربَّما أقومُ بهذا العمَلِ

لجُبرانِ تلكَ العِباراتِ الَّتي كانت تنطقُ بها مُكبِّراتُ الصَّوتِ في المقبرةِ عن لساني وأنا نفسي سمعتُها.)) رغمَ أنّيَ الآنَ لا أزالُ على يقينٍ أنَّ ذلكَ الصَّوتَ لم يكُنْ ((صوتي))؛ أنَّ ذلكَ الصَّوتَ كانَ صوتَ واحدٍ آخَرَ وأنَّهُ جرى ((على لساني)). لكنْ وفي عينِ الحالِ هُناكَ خَطَرٌ في أنْ يتكرَّرَ ذلكَ الصَّوتُ من لساني ويصيرَ لي على صورةِ عادةٍ ثانويَّةٍ. فهو يُحسُّ أنَّهُ وحتّى المسخِ التَّامِ والنِّهائيّ لا تزالُ هناكَ إمكانيَّةُ المُمانَعَة، لأنَّهُ كانَ يعتقِدُ ((أنَّ عقلي لا يزالُ كما هو وفي محلِّهِ)) ولهُ التَّسَلُّطُ على الأعصابِ ويستطيعُ حِفظَ هدوءِ نفسِه، وهذا الَّذي يريدُهُ من منعِ المسخِ عن نفسِهِ يُعدُّ أمراً طبيعيّاً. وهكذا إذا كانَ يُريدُ قبلَ الموتِ أن يكونَ لهُ حديثٌ معَ أمير وأنْ يسمَعَ منْ لِسانِهِ هذِهِ العِبارَةَ ((أنَّني لم أكُنْ أباً سيِّئاً لأولادي)) ويريدُ من أمير بعنوانِ أقربِ شخصٍ إليهِ أن يقومَ بالشَّهادةِ ويقولَ له ((أنا الإبنُ أهبُ نفسيَ للتُّرابِ إذا كانَ هذا العَمَلُ يقعُ في دائرةِ الهوى والفتنةِ ويأخُذُ صورةَ رذيلةٍ)) ويوضِحُ أنَّ إدراكَ هذا الموضوعِ المُفجِعِ يجبُ أن لا يكونَ سبباً للسُّخريةِ من صِدقِ روحِ الفداءِ ((لأولادي))؛ لأنَّهُ منَ الوقتِ الَّذي قاموا فيهِ بأداءِ دورِهِم بكلِّ إخلاصٍ أدركوا أنَّ الحياةَ والأرضَ والشَّعبَ يُدركُها المرءُ بنفسِهِ وهذا الإختلافُ من رذالةِ التَّافهين... ((أنا أريدُ أن أقولَ هذا المطلَبَ لأمير، لأنَّني أُحسُّ أنَّني يجبُ أن أقولَ قبلَ موتي لأولئكَ الَّذينَ لا يكتبونَ التَّاريخَ أبداً أن لا يظنُّوا أنَّنا نحنُ الشَّعبَ نولَدُ أبناءَ حميرٍ ونموتُ حميراً. لكنْ ما أعملُ إذا كانَ ابتعدَ أخيراً ولا أمير يفهمُ كلامي ولا أنا أفهمُ لغتَهُ وصوتَه. ورُبَّما يجبُ عليَّ أخيراً التَّوضيحُ يوماً لوَلَدي أنَّ قتلَ أُمِّهِ من قِبَلي لم يكنْ مُجرَّدَ جنايةٍ فقط بل رُبَّما كانَ مُقاومةً حيثيَّةً من جانبي. كان يجبُ أن أقتُلَها وقد قَتَلْتُ. قتلتُ صيرورتي إلى التَّحقير. وفي عينِ الحالِ لو كانَ أسفي يُغيِّرُ شيئاً لكُنتُ جاهزاً لإظهارِ أسَفي على قتلِ زوجتي في الحالِ الَّتي يعلمُ فيها أمير . بمقدار استِعدادِهِ للشَّهادةِ. أنَّني لا يجبُ أن أكونَ نادماً من فِعلتي.))

أمير هزَّ رأسَهُ بتأثُّرٍ واستخلصَ من حالةِ عَينَي الكولونيل ووجهِهِ انَّهُ يملكُ نظَرَ تحسُّرٍ بالنِّسبَةِ له. في الواقِع، حالةُ أمير لم تكُنْ ناشئةً من حُبِّهِ لأبيه بل هو من نفسِهِ استنتجَ أنَّ أباهُ فاقِدُ السَّيطَرَةِ على حديثِهِ وأنَّهُ زائلٌ وهو يتلقّى حديثَهُ على ذلك؛ وهو قطعاً اشتباهٌ من أمير إذا كانَ يظُنُّ أنَّ الكولونيل كانَ هكذا. لأنَّ الكولونيل يتوقَّعُ من ابنِهِ أن يملِكَ قدراً منَ الذَّكاءِ يستطيعُ معهُ أنْ يقرأَ ((تصميمَ الزَّوالِ)) في سيمائه. لأنَّ التَّصميمَ ((حتّى ولو كانَ ذلكَ التَّصميمَ على النَّفيِ المُطلَقِ لِنَفسِهِ)) يُعَدُّ حالةً وجُزءاً من إرادةِ الحياة. لكنَّهُ لا يملكُ دليلاً في حالةِ كونِ الكولونيل أرادَ

لنفسِهِ الزَّوالَ أنَّ أمير سيتلَقَّاهُ زائلاً. ((لكنْ ما أستطيعُ أنْ أقولَ، هو لا يفهمُ حديثي!)) فماذا يجبُ أنْ يفعَلَ الكولونيل؟ قلمٌ وورقَةٌ؛ أعدَّ قلماً وورَقَةً ليوضِحَ بالكلماتِ على الورَقِ ما لم يستَطِعْ إيصالَهُ بالكلامِ واللّسانِ لِوَلَدِه. الوصِيَّةَ، وهيَ في الأصْلِ تُكتَبُ على الوَرَق، ومن أجلِ ذلكَ تُسمَّى أيضاً رسالةَ الوصيَّة. لكنَّهُ تعجَّبَ وهو يرى أمير يأخُذُ قلماً وورقَةً ويشرعُ في الكتابَةِ أيضاً. الآنَ كلاهما مشغولانِ بالكتابةِ ولا أحَدَ منهُما ينظُرُ إلى خطِّ الآخَر. حيثُ أنَّ كُلّاً منهُما مُطمئنٌّ إلى أنَّهُ يكتُبُ ما يكتُبُ ليقرأهُ الطَّرَفُ المُقابلُ لهُ فقط. ومضمونُ رسالةِ الوصيَّةِ كانَ واضِحاً أيضاً:(الموت)). الكولونيل يريدُ أن يُفهِمَ أمير أنَّهُ عازِمٌ على الموت وقد بدَرَ إلى ذِهنِهِ قبلَ الموتِ أن يكتُبَ إلى وَلَدِهِ بعضَ العباراتِ القصيرةِ يشرحُ لهُ فيها ما كانَ فهِمَ من تجارِبِهِ في تمامِ الحياةِ الَّتي طواها بطولِها وعَرْضِها. لكِنْ أمير، أيَّ مضمونٍ تُراهُ يريدُ أنْ يخُطَّ على الورَق؟ هل؟ أو... ((كابوساً جديداً أيضاً))؟

عندما وُضِعَتْ نُقطَةُ النِّهايةِ على الصَّفحة، رَفَعَ الكولونيل رأسَهُ ونَظَرَ إلى أمير فرآهُ يضَعُ نقطَةَ النِّهايةِ أيضاً ويرفَعُ رأسَهُ لينظُرَ إلى والِدِه. رَفَعَ الكولونيل وَرَقَةَ الرِّسالةِ ووضَعَها أمامَ يدِ وَلَدِه، أمير أيضاً قامَ بنفسِ العَمَل، الآنَ كلاهُما ينظُرانِ في الخُطوطِ بِشَكلٍ دقيقٍ بعدَ أن تبادلا رِسالَتَيهِما. عندَ الإنتهاءِ منَ القراءَةِ بقيَ كُلٌّ منهُما حائراً لأكثَرَ منَ الحدِّ المعمول. كأنَّ كُلّاً منهُما يُريدُ التَّعرُّفَ مُجَدَّداً على الآخَر. بدا كُلٌّ منهُما غريباً بِعَينِ الآخَرِ وهُما يجلِسانِ وجهاً لوجهٍ وكُلٌّ منهُما يتخيَّلُ الموتَ الَّذي تَجَسَّمَ لهُ في قبولٍ و... وكأسا الشَّاي قد برُدا.

العَمَلُ يصِلُ إلى نِهايَتِه.

الكولونيل ينهضُ بِحَذَرٍ لئلّا تسقُطَ الملحفةُ من حولِ بَدَنِهِ بِغيرِ اختيارٍ منهُ. وصارَ يُفكِّرُ بالعَمَلِ الَّذي صارَ ذِهنُهُ مشغولاً بِهِ كعادَةٍ، وضعِ صورةِ مسعود في المكانِ المُخصَّصِ لها في حاشِيَةِ إطارِ صورةِ الكولونيل، تماماً بِجانِبِ صورةِ بروانة مُلاصِقَةً لِصورةِ مُحمَّد تقي. أخَذَ مِفتاحَ الصُّندوقِ، جثا على رُكبَتَيهِ بِجوارِ السَّرير، قرَّبَ الصّندوقَ منهُ وفَتَحَهُ، بحثَ عن صورةِ الصَّغيرِ ورفَعَها ووضَعَها مُستقِرَّةً في المكانِ نفسِهِ الَّذي كانَ قد أعَدَّهُ لها، وقد كانَ أنجَزَ هذا العَمَلَ في ذِهنِهِ أكثَرَ من ألفِ مرَّةٍ، ثُمَّ عادَ ليجلِسَ مكانَه.

أمير كانَ واقِفاً ومُتَهيّئاً للذَّهاب. لم يكُنْ مُستَعجِلاً، لكنَّهُ لم يكُنْ يتحرَّكُ في كَسَلٍ كذلك. وقبلَ أن يزُرَّ مِعطفَهَ المطريّ أدخَلَ يدَهُ في جيبَةِ إبطِهِ وأخرَجَ منها دفتَرَ ذِكرياتٍ صغيراً وأخَذَ صورَةً من بينِ أوراقِ دفتَرِهِ، وبِقليلٍ منَ التَّرَدُّدِ ونظرةِ استِجازَةٍ منَ الكولونيل الَّذي كانَ شارداً في كأسِ الشَّايِ الَّذي صارَ بارِداً تقدَّمَ أمامَ المدفأةِ ووضَعَ الصُّورةَ الَّتي كانت مأخوذَةً لهُ في شبابِهِ تحتَ الحِذاءِ الأسودِ والبرَّاقِ للكولونيل بجوارِ صفِّ الصُّوَرِ الأُخرى ((لأولادي)) ثُمَّ قالَ وكأنَّما يتحدَّثُ إلى نفسِهِ *بِحِفْظِ الله*، وتحتَ شِفاهِهِ زمزمَةٌ ((أخيراً...أخيراً...)) وسارَ مُتراجِعاً قدماً فقدمينِ وهادئاً بلا صوتٍ خرجَ منَ الغُرفَة.

بقيَ الكولونيل جالساً للحَظَاتٍ طويلةٍ على حالِهِ وينظُرُ في دهشَةٍ إلى بابِ الغُرفَةِ الَّذي بقيَ نِصْفَ مُغلَقٍ ويسعى ليرى أمير في تابوتٍ رماديٍّ يُحمَلُ منَ البابِ للخارِجِ، وعليهِ أن لا يتخلَّى عن متانتِهِ وهدوءِ نفسِهِ لموتِه. وفي الحالِ عينِهِ يرى أنَّهُ بموتِ أمير وامِّحائِهِ سيُحسُّ بنوعٍ من راحةِ البالِ والفراغِ منَ المتاعِب. لأنَّهُ في الباطِنِ كانَ يحسُّ أنَّ أمير يُحمِّلُ عمداً على كتِفَي والِدِهِ حِمْلَ مَشَقَّةِ موتِه. لكِنَّ إحساساً خفيَّاً ((يعني إحساساً أبَويَّاً، شيئاً لا دليلَ على أنَّهُ سيبقى خفيَّاً)) حرَّكَ الكولونيل من موضعِهِ وأخَذَهُ إلى جانِبِ زُجاجِ النَّافِذَة للنَّظَرِ إلى ولَدِهِ من خلفِ زُجاجِ النَّافِذَةِ والنَّظَرِ إلى المطَرِ وباحَةِ المنزِلِ والهواء، وأوَّلُ نظرةٍ منهُ كانت إلى المعوَلِ والمجرَفَةِ الَّذَينِ كانا مُسنَدَينِ إلى الحائِطِ بجوارِ بابِ باحةِ المنزل وفكَّرَ أنَّ أمير كانَ يُريدُ أخذَ المعوَلِ والمجرفةِ معهُ. رُبَّما لم يكُنْ مثلُ هذا التَّفكيرِ الَّذي جاءَ على ذِهْنِ الكولونيل في غيرِ مَحَلِّه. أمَّا ما صَدَمَ خيالَهُ وجعلَهُ مُضطرِباً وغيرَ مثمِرٍ فهو عَدَمُ وجودِ أثَرٍ لِتمثال **أمير كبير** فوقَ سريرِ الحوضِ وَسَطَ الباحة. لم يكُنْ في البدايةِ يُفكِّرُ أنَّ **أمير كبير** سيُخْرَجُ خارِجَ المنزِلِ، لكنَّهُ حينَ دقَّقَ النَّظَرَ ما بينَ حِبالِ المَطَرِ رأى غَلَقَي بابِ باحَةِ المنزِلِ وقد رُفِعا وخُرِّبَ الجُزءُ فوقَ البابِ منَ الجِدارِ؛ لذا حصَلَ عندهُ اليقينُ أنَّ أمير أخرَجَهُ منَ المنزِلِ فلم يعُدْ يحتَملُ وخرَجَ منَ الغُرفَةِ وذَهبَ للإيوان دونَ حَذَرٍ أو مُراقَبَةٍ لئلّا تسقُطَ الملحفَةُ عن كتِفَيهِ ويصيرَ عارياً، هُناكَ رأى أمير وقد خَرَجَ سريعاً من بابِ القبوِ وهو يبحثُ عَبَثاً عن تِمثالِ **أمير كبير** وسطَ المنزِلِ، أخرَجَ يَدَهُ من تحتِ الملحَفَةِ وأشارَ بسبَّابَتِهِ إلى موضعِ البابِ الكبيرِ للمنزِلِ الَّذي صارَ بلا باب، وأمير الَّذي انتبهَ حديثاً للبابِ الكبيرِ المُخرَّبِ، وكأنَّهُ لم يعُد مُقيَّداً بِحَمْلِ المِعوَلِ والمجرَفَةِ، مضى مُسرعاً نحو البابِ والزُّقاق.

والكولونيل مبهوتٌ وقد بقيَ في الإيوانِ دونَ أن يُفكّرَ حتّى بالموتِ أو يتذكَّرَ أنَّهُ كانَ يجبُ الإشارةُ بيدِهِ وسبَّابَتِهِ إلى الأسفلِ حيثُ موضعُ البابِ الكبير؛ وهي تُمطِرُ وتُمطِرُ دونَ أنْ يتموَّجَ صوتُ المَطَرِ في أُذُنَيهِ أو يُثيرَ ذكرى في ذِهنِهِ، ولا حتّى المشهَدَ البعيدَ المُبهَمَ لغروبِ الشَّمسِ بعدَ المَطَرِ على أسطُحِ الزّنجار. وهكذا إلى أن رأى خضر جاويد يسحبُ وراءَهُ رجُلاً بكُلّابةٍ في يدِه، دخلَ منَ البابِ الكبير، مشى في باحةِ المنزلِ وتوقَّفَ عندَ مغسَلِ الأرجُلِ لحظَةً. كمن يُريدُ اكتِسابَ التَّصميم. ثُمَّ عادَ ليأخُذَ مُرافِقَهُ مرَّةً أُخرى كمن يقومُ بتجربةٍ، وهذا الورودُ الَّذي لا ينبغي تلقّيهِ كأمرٍ عجيبٍ استطاعَ أن يكسِرَ ويُحطِّمَ بُهتَ وسكونَ الكولونيل، وكأنَّهُ لا يعرفُ متى وكيفَ جَمَعَ سبَّابَتَهُ إلى قبضَةِ يدِهِ وأنزلَ يَدَه، نظَرَ بِشَكلٍ دقيقٍ إلى ذلكَ الموجودِ المُرافِقِ لِخضر جاويد وقيدُ يَدِهِ في قبضَةِ يدِ خضر جاويد، وهو ينظُرُ بعينَيهِ العجيبَتَينِ المُتبايِنَتَينِ مُرتَعِداً إلى الكولونيل وإلى مُحيطِ وأطرافِ المنزل، خصوصاً حينَ رَبَطَ خضر قيدَ يَدِهِ بالغُصْنِ الوحيدِ اليابِسِ لِشَجَرَةِ النَّارَنجِ على حافَّةِ مغسَلِ الأرجُل وذهبَ بِنفسِهِ إلى القبو لينظُرَ فيهِ من جديد. أطبَقَ الكولونيل جفنَيهِ وفتَحَهُما ثُمَّ أعادَ الكرَّةَ ليتأكَّدَ من أنَّهُ غيرُ مُصابٍ بِخَطَأٍ في باصِرَتِه. لم يتغيَّرْ شيءٌ والَّذي كانَ موجوداً ظلَّ موجوداً: موجودٌ أحدبٌ، مُنحنٍ مُعوجٌّ مكسورٌ مربوطٌ إلى حافَّةِ الحوضِ في جوارِ مغسَلِ الأرجُل، واقفٌ تحتَ المَطَرِ وقيدُ الحديدِ في يدِهِ ومربوطٌ إلى الغُصنِ الوحيدِ اليابِسِ لِشَجَرَةِ النَّارَنْجِ وقد غُطِّيَ بدنُهُ كُلُّهُ من رأسِهِ إلى قدَمِهِ بملحفَةٍ عسكريَّةٍ فلم يظهَرْ منهُ إلّا قيدُ يدِهِ الحديديُّ وعيناهُ العجيبتانِ المُتباينتانِ اللّتانِ تُشبِهُ إحداهُما عينَ مسعود والأُخرى عينَ عبدالله كلاه مال الَّذي رآهُ آخِرَ مرَّةٍ معَ عُلبَةِ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ في عَتَبَةِ غُرفَةِ الجُلوسِ وكانَ يقول:

((كولونيل أريدُ الذَّهابَ، أذهبُ بحيثُ لا أرجِع. أتيتُ أطلُبُ منكُم أن تُحِلُّوني كولونيل، أحلُّوني!))

بعدها لم يرَ عبدالله. وحينَ كانَ ينظُرُ إليهِ اسودَّتْ عيناهُ واسودَّ الشَّابُّ كذلِكَ في عينَيه، صارَ أسوداً، صارَ دُخاناً وأحسَّ الكولونيل أنَّ رأسَهُ صارَ ثقيلاً كحَجَرِ الطَّاحونَةِ المائيَّةِ وأنَّ قلبَهُ انتُزِعَ منْ مكانِهِ وصارَ يضربُ بِبَدَنِهِ جُدرانَ القَفَصِ مثلَ قُنارى مُضطَرِبٍ. ولمّا انتبَهَ إلى نفسِهِ رأى نَفسَهُ مُمسِكاً بأعلى ظهرِ الكُرسيّ بيدَيهِ ومُلتَصِقاً بِهِ وقد انحلَّتِ الملحفةُ عن بَدَنِهِ وسَقَطَتْ على أرضِ الغُرفَةِ وقد صارَ عُرياناً ومكشوفَ العورَةِ ويرتَجِفُ مثلَ كلبٍ

. عليل كولونيل، عليل هه! وقدُّكَ جذَّابٌ جنابَ الكولونيل، ليتني أستطيعُ أن آخُذَ لكَ صورةً!

صوتُ خضر جاويد في دِماغِ الكولونيل ونظرتُهُ الحادَّةُ ووقاحَةُ كلامِهِ على البَدَنِ العاري المُرتَجِفِ للكولونيل الَّذي كانَ يُمسِكُ بكلتا يَدَيه بالكُرسيّ مُلصِقاً بَدَنَهُ بِها، كانت شبيهَةً بِغَرزِ مِسمارٍ، وقد كانت من خضر ضُحكَةٌ بلا صوتٍ وقد تركَ فمَهُ مفتوحاً. الكولونيل عادَ إلى نفسِهِ، لكنْ ليسَ بسُرعَةٍ، أنزلَ يَدَيهِ بهدوءٍ وأخَذَ ملحَفَتَهُ عن أرضِ الغُرفَةِ وسَحَبَها فوقَ كتِفَيه وتذكَّرَ أنَّهُ كانَ واقفاً في الإيوانِ قبلَ قليلٍ وخضر كانَ قد ذهبَ للقبو كي... والآنَ يُجاءُ بذلكَ الشَّخصِ المُنحني المُعوجِّ إلى الإيوانِ كعدوٍّ ((لكي نجعلَ لهُ مكاناً في إحدى غُرَفِ المنزل))؛ وقد تذكَّرَ كيفَ أنَّ خضر كانَ أدخلَهُ وهو يقول ((عليل كولونيل، عليل!)) والآنَ يرى بِشكلٍ أوضَحَ عينَيهِ العجيبتَينِ المُتبايِنَتَينِ كقِطعَتَينِ منَ الزُّجاجِ مُختلِفَتَينِ في الوجْهِ نِصفِ المصنوعِ والممسوخِ لعبدالله والمقسومِ بشكلٍ واضِحٍ إلى نِصفَينِ ويرى أنَّ تلكُما العَينَينِ العجيبَتَينِ المُتبايِنَتَينِ الزُّجاجيَّتَينِ الخائفَتَينِ المرعوبَتَينِ تنظُرانِ إليهِ وإلى الأشياءِ والأماكِنِ جُزءاً جُزءاً؛ وقد سُحِبَ إلى جوارِ ذلكَ البابِ الَّذي سحبَ خضر جاويد إليهِ ذلكَ الشَّابَّ المُنحنيَ المُعوجَّ والَّذي يُفضي إلى الدِّهليز وقالَ دونَ أن يتوجَّهَ بالخِطابِ إلى الكولونيل((أخرسٌ، صارَ أخرساً)) وبعدَ لحظاتٍ دخلَ من بابِ الدِّهليزِ الخارجيِّ ووقفَ على طَرَفِ الإيوانِ ونظرَ إلى البابِ الكبيرِ المُخرَّبِ وتنفَّسَ تنفُّساً قويَّاً وقالَ للكولونيل دونَ أن ينظُرَ إليه:

. كانَ هناكَ تصميمٌ على جعلِ المنزلِ داراً عامَّاً، كولونيل. اللهُ وحدهُ جعلَهُم جميعاً مثْلَ هذا الأخرس، ولولا ذاك لكانَ من المُمكِنِ بعدَ القالِ والقيلِ منهُم أن يصير.

((إلهي... عينايَ هاتانِ هل تريانِ بشكلٍ سليمٍ، وأُذُنايَ هاتانِ هل تسمعانِ بشكلٍ سليم؟!))

نعم ودون اشتباهٍ. لأنَّني رأيتُ منذُ لحظَةٍ خضر جاويد يفركُ لِحيَتَهُ وهو نازلٌ على دَرَجِ الإيوان. وقد وقَفَ وبالَ عندَ الجِدارِ في نفسِ المكانِ الَّذي كانَ المعولُ والمجرفةُ موضوعَينِ فيه ثُمَّ خرجَ منَ البابِ الكبيرِ للخارجِ وكانَ جانبا ثوبِهِ يتمعَّجانِ على ساقَيهِ وهو يدخُلُ الزُّقاق.

((كم أربعينَ مرَّتْ، كم أربعين؟ وكأنَّني أرى منذُ لحظَةٍ عبدالله قادِماً يحملُ صندوقَ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ ويقولُ أنَّهُ ذاهبٌ لئلّا يرجِع. وقالَ أنَّهُ قالَ لإمرأتِهِ...آه، الفُصولُ في ذِهني تُضرَبُ وكأنَّ كُلَّ ما في نفسي منَ الدُّنيا سقطَ في لحظَةٍ صُدفَةً؛ والآن... الآنَ ماذا أفعلُ غيرَ أن أحمِلَ لهُ

بِضعَ حبَّاتٍ منَ الفواكِهِ المُجفَّفَة؟... توهُّمٌ...توهُّمٌ... لماذا يجبُ أن أتخيَّلَ أنَّ هذا هو عبدالله نفسَه؟))

كانَ؛ أو على الأقلِّ لم يرَ فيهِ الكولونيل غيرَ عبدالله وكانت في وجهِهِ إحدى عينَي . وَلَدِهِ الصَّغير . وكانت عيناهُ مُختلِفَتَينِ وعجيبتَينِ وكأنَّهُما من زُجاجٍ وتنظُرانِ في رُعبٍ وخوفٍ إلى الكولونيل وجدارِ الدِّهليزِ وفضائِهِ المُعتِمِ الرَّطبِ جزءاً جزءاً، وحينَ أخذَ الكولونيل كأساً منَ الشّاي وجعلَ بِضْعَ حبَّاتٍ منَ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ على الصِّينيَّة وقرَّبها من قبضةِ يدِهِ المربوطَةِ أسفَلَ الجدار تحتَ قفصِ القنارى الصَّامت ، رأى اليدَ اليُسرى للشَّابِّ تخرُجُ من تحتِ الملحفة وتُمسِكُ يدَ الكولونيل وسمِعَ الكولونيل صوتاً مُتقطِّعاً ممسوخاً يطلُبُ منهُ بِألمٍ أن يُخبِرَ والدَتَه ((...قبل أن أنا نفسي إليها)) وأظهرَ القيدَ الحديديَّ ملتَفّاً على ساعِدِ يدِهِ اليُمنى ((...مع هذا...حلقي هذا...)) وقالَ أنَّهُ يريدُ أن يرى أُمَّهُ قبلَ موتِه، أُمَّهُ الَّتي ((أبحثُ عن صدرِها!)) ثُمَّ صمتَتْ شفتاهُ المُحترِقتانِ ورفَعَ عينَيهِ الزُّجاجيَّتَينِ عن وجهِ الكولونيل حيثُ كانتا تنغرزان، وراحتا تنظُرانِ مرَّةً أُخرى إلى الأماكِنِ والأشياء لتريانِها جُزءاً جزءاً، وحين سارَ الكولونيل من أمامِ عينَيهِ ليخرُجَ من بابِ الدِّهليزِ للخارجِ سَمِعَ بِأُذُنِهِ الصَّوتِ المُتقطِّعِ نفسَهُ يقول ((وأنتَ... علي سيف، أنتَ كنتَ تعملُ قاتلَ كلابٍ، أنتَ... أنا أبحثُ عنكَ يا علي سيف، علي سيف!))

((روحٌ خطِرَةٌ، روحٌ خطِرة؛... الرُّوحُ الخطِرَةُ للشَّباب!))

الكولونيل فكَّرَ أنَّ العُلَماءَ في هذا المجال يستطيعونَ حذْفَ دورةِ الشَّبابِ من عُمرِ ابنِ آدَمَ، وبعدها لن يكونَ لخاطِرِهِ في أيِّ وقتٍ أيَّةُ علاقَةٍ بالحكومةِ والخُصومَةِ، حيثُ في تلكَ الصُّورةِ لن يسقُطَ الشَّابُّ في فِكْرِ العدالةِ والحُرِّيَّةِ الخطِر، فقط من عُمْرِ الثَّامنةِ عشرةَ إلى الثَّلاثينَ سنَةً. ((كيفَ لم يتوصّلوا إلى الآنَ إلى مِثْلِ هذا الاكتِشافِ المُهِمّ؟)) لكنْ الشُّبانُ لم يصِلوا إلى كمالِهِم ((لا، ليسَ لهُم كمال)) فأيَّةُ يدٍ ستُطلِقُ الطَّلقَةَ الأولى؟ ها هنا في منزِلِ الكولونيل اقطَعوا الرَّأسَ. قطعاً إنَّهُ لمنَ الأفضلِ من قبلِ هذا أن تواجَهوا ((بنعشي)). صوتُ زنجيرٍ ((مقبَضِ بابِ العمارة؟...))ها؟ إنَّ هذا الَّذي يسمعُهُ هو صوتُ تصادُمِ الحَلقاتِ الضَّخمَةِ للزَّنجيرِ القديمِ لِمقبَضِ الباب؟ ((لستُ أسهو؟)) لا، لم يكُنْ هُناكَ من سهوٍ. الزَّنجيرُ ضخمُ الحَلقاتِ لمقبضِ بابِ العَمارةِ موضوعٌ في عنقِ أمير كبير، يداهُ مربوطتانِ خلفَ ظهرِهِ وهُم يسحبونَهُ طَرَفَ باحَةِ منزِلِ الكولونيل. ((حقيقةً يبعثُ على الأسَف)) وأمير بِذلِكَ القميصِ الأبيضِ، والثَّوبِ الأسودِ الطَّويلِ

وقُبَّعَتِهِ المائلةِ بينَ كتِفَي شابَّين وهُما يخفِضانِ رأسَهُ وَرَقَبَتَهُ للأسفَل ويُدْخَلُ في باحةِ المنزل بِشكْلٍ مُهينٍ وهو مأخوذٌ من إبطَيهِ ولم يكُنْ يبدو عجيباً ويداهُ مربوطتانِ خلفَ ظهرِهِ أن لا يُدخَلَ منَ البابِ على رُكبَتَيه وقد توقَّفَ عندَ حوضِ مغسَلِ الأرجُلِ ورَفَعَ رأسَهُ للأعلى وأبرَزَ صدرَهُ الضَّخْمَ للأمام وراحَ ينظُرُ في حَيرَةٍ إلى الكولونيل الَّذي كانَ واقِفاً تحتَ قفصِ القُنارى تماماً في قبالتِهِ؛ وكم كانَ الكولونيل مأخوذاً لِبِضْعِ لَحَظَاتٍ وهو يرى ولا يستطيعُ التَّشخيصَ الدَّقيقَ أنَّ المأمورَينِ المُرافِقَينِ لِأمير كانا السَّيِّد قرباني حجَّاج وعلي سيف نفسَيهِما وقد جلَبا هذا المُجرِمَ إلى مكانِ ارتِكابِ الجُرمِ لِإيضاحِ الجريمةِ ومُقدّماتِ وبواعِثِ العَمَل.

((وأنتَ كنتَ تعملُ قاتِلَ كلاب علي سيف!))

الكولونيل لا يعلمُ إلى كم منَ الوقتِ ظلَّ واقِفاً هكذا صامِتاً تحتَ القفصِ وإلى أيِّ مكانٍ كانَ ينظُر، لكنَّهُ يعلمُ أنَّ زنجيرَ بابِ العَمارةِ وأمير والآخَرانِ أفقدوهُ ذاكِرَتَه، وكأنَّما جيءَ بِهِ إلى الإيوانِ وعلى طَرَفِ الإيوانِ تماماً في ذاتِ المكانِ الَّذي لطالما وقفَ فيهِ الكولونيل بالمنديلِ الأبيضِ في يدِهِ، أوقفوه، نَظَرَ إلى المَطَرِ ونَظَرَ إلى البابِ الكبيرِ المُخرَّبِ لباحَةِ المنزِلِ وإلى الجدارِ إلى جانبِ البابِ البابِ الكبير حيثُ كانَ المِعولُ والمجرفةُ قد أُسنِدا ولا أثَرَ لهُما الآنَ وصارَ عندهُ يقينٌ أنَّ أمير كانَ قد أخَذَ المِعوَلَ والمجرفةَ من قبلُ وذَهَبَ، وأنَّ كُلَّ ما رآهُ في هذِهِ الفترةِ الفاصِلَةِ ليسَ غيرَ أوهامٍ وتجسُّماتٍ؛ و((أيَّةُ غُربَةٍ!)) حيثُ لا صوتَ غيرُ صوتِ المَطَرِ يقرعُ أسطُحَ الزّنجارِ القديمةَ ولا شيءَ هُناكَ، ((أيَّ شيءٍ)) إلّا شبَحَ يَدَي قُرباني حجَّاج بِأصابِعِهِما الضَّخمةِ تُمسِكُ لباسَ الكولونيل الَّذي لا يزالُ رَطباً لِتُلبِسَهُ إيَّاهُ ليكونَ جاهِزاً ليُؤخَذَ إلى المسجِد. من أجلِ مراسِمِ...

((لم أعُدْ أُفكِّرُ بإغلاقِ بابِ باحةِ المنزِلِ، ولا فيما إذا كانَ مِصراعا البابِ في مكانِهما أم لا. لأنَّهُ لم يعُدْ هُناكَ أيُّ أثَرٍ عن شيءٍ مخفيٍّ أو مستورٍ في منزلي، كُلُّ شيءٍ لي صارَ مثلَ قلبٍ وأمعاءٍ ومعدةٍ مُنفجِرَةٍ، صارَ عُرياناً وواضِحاً. لذلِكَ لم يخطُرْ بِفِكري وقتَ خُروجي منَ المَنزِلِ أنَّهُ يجبُ أنْ أُغلِقَ بابَ المنزِلِ. لقد نسيتُ عادتي بإغلاقِ بابِ المنزِلِ ولا أشعُرُ بأيِّ إحساسٍ بالتَّشويشِ والقَلَق. وقطعاً وقبلَ هذا أيضاً أنا لا أملِكُ أيَّ شيءٍ مخفيٍّ أو مُخبَّأٍ في منزلي حتَّى أُريدَ أنْ أُحافِظَ عليهِ مخفيَّاً. أمّا عادةُ إقفالِ بابِ المنزِلِ فقد صارَت جُزءاً من طبيعتي، وأنا أرى إذ أُفكِّرُ بِها الآنَ أنَّني بإغلاقِ بابِ منزلي إنَّما أُريدُ الحِفاظَ على حُرمَةِ حريمِ نفسي وليسَ شيئاً آخَر، وهذا

كانَ حسَّاً معنويَّاً صِرفاً لا غير. لكنْ حينَ أخرُجُ وكتفي إلى كتِفِ السَّيِّدِ قُرباني فذلكَ الشَّيءُ الوحيدُ الَّذي لم يُثِرْ قَلَقي على المنزلِ والحريمِ وغيرِها من مِثلِها منَ الأشياء. صارَ ذِهني مُتوجِّهاً إلى ما يجِبُ أن أفعَلَ في المسجِد، أينَ سأقِفُ وماذا عليَّ أن أقولَ، وفي النِّهايةِ ذِهني مشغولٌ بمتى يكونُ خلاصي.))

قطعاً فإنَّ السَّيِّدِ قرباني سهَّلَ الأمرَ من هذا الجانب، لأنَّهُ مدارَ المراسِمِ بِطولِها كانَ يحفَظُ الكولونيل تحتَ يدِه ويعرضُ نفسَهُ في مَحَلِّهِ وكانَ يُظهِرُ الإمتنانَ والشُّكرَ للنَّاسِ الَّذينَ جاؤوا ليقرؤوا الفاتِحَةَ للشَّهيد، والكولونيل أمامَ بابِ المسجدِ يرتجف؛ وعندما أحضروا لهُ واحداً باسمِ علاءِ الدِّين كانَ خَتْمُ المجلِسِ الإعلامي.

في العودَةِ إلى المنزِلِ لمْ يُرافِقْهُ السَّيّد قرباني. فعندهُ مزيدٌ منَ العَمَل. ومن جُملَتِها أنَّهُ يجبُ أنْ يسيرَ في وداعِ الوفودِ إلى طَرَفِ ميدانِ المدينةِ ((ميدان المحكمة)). لذلِكَ لم يسِرْ معَ الكولونيل إلّا بِضعةَ أقدامٍ وفي مدخَلِ الزُّقاقِ قالَ لهُ في نُفورٍ ووقاحَةٍ:

((لو لم تكُنْ لكَ هاتانِ النُّطْفَتَانِ أوِ الثَّلاثُ نُطَفٍ منَ الحَرَامِ لكانت حياتُكَ إلى آخِرِ عُمُرِكَ حياةً مُشَرِّفَةً، لكنْ الآنَ...

السَّيِّد قرباني لم يبقَ ليسمَعَ الجواب، والكولونيل لم يكُنْ يملكُ كلاماً ليقولَهُ في جوابِه. رُبَّما كانَ يملِكُ الجوابَ للسَّيِّدِ قُرباني، لو كانَ لا يزالُ يعملُ على تدارُكِ الحياةِ، وليسَ بالقَطْعِ مُلْزَماً بِأن يبصقَ في وجهِهِ سواءً أكانَ ذلكَ مُمكِناً أو غيرَ مُمكِنٍ ((رُبَّما كانَ يُشيرُ عليَّ من قبيلِ المواساةِ والمُصاحَبَةِ وعليَّ على الظَّاهِرِ القبولُ أنَّ وَلَدَيَّ أو أولاديَ الثَّلاثَةَ لم يكونوا مولودينَ من حلالٍ وكانَ عليَّ الذِّهابُ إلى جِهَةِ ولدي المولودِ من حلالٍ والعَيشِ معهُ إلى آخِرِ عُمري؛ ما الَّذي يَعلمُ الإنسان؟)) ماذا يعرفُ الإنسانُ وأيُّ خَبَرٍ لَدَيهِ عن قلبِ الآخَر؟ وفكَّرَ الكولونيل أن كم منَ المرَّاتِ من بابِ المحبَّةِ كانَ السّيِّد قرباني قد قالَ لهُ هذا الكلامَ، ورُبَّما أيضاً من قبيلِ النُّفورِ إذْ منَ المُحالِ أن يجعَلَ الكولونيل هذا الحِمْلَ على ابنتِهِ الّتي هيَ زوجَةُ السَّيِّد قرباني. ((لأنَّ السَّيّد قرباني يعرفُ أفضَلَ منكُم أنّي لا أملكُ حُقوقاً تقاعُديَّةً، وهناكَ سرٌّ آخَرٌ! إذ كثيراً ما كانَ السَّيّد قرباني نافِراً منّي ومن أولادي لئلّا نكونَ سبباً لِرَفضِ طَلَبِهِ في مُناقَصَةِ بناءِ مقبَرَةٍ جديدةٍ للمدينة.)) لكنْ ومن جميعِ الوجوهِ فإنَّ الكولونيل يعلمُ أنَّ السَّيّد قرباني لا يعلمُ أيَّ مسيرٍ في ذِهنِهِ

يطوي وفي أيّ طريقٍ سوفَ يَضَعُ قَدَمَه. لأنَّهُ لو كانَ يعلمُ يقيناً ويقِفُ مُطمئنّاً على عاقِبَةِ الكولونيل ما كانَ ليشُقَّ على نفسِهِ بِمؤانَسَتِه. ومن كُلِّ جِهةٍ فإنَّ الكولونيل لا يُمكِنُ أنْ يجعَلَ نفسَهُ في معرضِ الرَّدِّ على الإهاناتِ الصَّغيرةِ وغيرِ المقبولة، لكنَّ مُشكِلَتَهُ كانت تأتي منَ الإهاناتِ العميقَةَ والمُهِمَّةِ، تلكَ الإهاناتِ الّتي لا يُمكِنُ الرَّدُّ عليها بِغَيرِ ((هدمِ وخرابِ النَّفْس)).

((أوّلاً يجبُ إنجازُ الأعمالِ المُختَصَرَةِ الباقيةِ عليَّ. يعني يجبُ أن آخُذَ صُندوقَ الفواكِهِ المُجَفَّفَةِ وأحمِلَها وأرجِعَ بِها إلى المدينةِ، وأن أُقَسِّمَ تلكَ الخمسةَ وثلاثينَ توماناً بينَ الفُقَراءِ ثُمَّ أعودَ لِتَحريرِ القُنارى أو أفتَحَ لهُ بابَ القَفَصِ على الأقلِّ حتَّى لا يجِدَ بابَ القفصِ مُقفَلاً في وجهِهِ إذا ما أرادَ أن يطيرَ في الهواء، وحينَ أُنجِزُ هذِهِ الأعمالَ يبقى في عُهدَتي كيفَ وفي أيَّةِ طريقٍ أرجِعُ. عليَّ على كافَّةِ الوجوهِ أن أذهبَ أوّلاً إلى المنزل.))

البابُ الكبيرُ للمنزلِ على حالِهِ مفتوحٌ والكولونيل ليسَ بِحاجَةٍ بعدَ الآنَ للتَّفتيشِ في جيوبِهِ عن المفتاح. ولا يوجَدُ أيُّ حِسٍ قلقٍ وتشويشٍ ممّا أصابَهُ حديثاً يؤذيهِ. حيثُ أنَّهُ منَ الواضِحِ بالنِّسبَةِ للكولونيل أنَّ المنزِلَ سيوضَعُ سريعاً تحتَ تصرُّفِ الآخَرين ليُستَخْدَمَ في طريقِ الخَير، ((قطعاً السَّيِّد قرباني لا يجبُ أن يكونَ لديهِ توقُّعٌ بتملُّكِهِ حيثُ أنَّهُ سيستعمِلُنا مُقابِلَ سهمِ الإرثِ الَّذي سيجلبُهُ لِنَفسِهِ في مُناقَصَةِ بناء المقبرة)) لِذلِكَ فإنَّهُ سيَرِدُ إلى باحَةِ المنزِلِ فارغاً منَ الحِسّ الَّذي هو علامةُ الوحدةِ ونفْسُهُ قليلةُ الاِرتباطِ بِوجودِهِ وبعيداً عن أقلّ قدرٍ منَ القَلَقِ دونَ أن يُحسَّ بالأسَفِ لأنَّهُ لم ينظُرْ في آخِرِ لحظَةٍ إلى صورةِ مسعودِهِ في إطارٍ على عمودِ الكهرباءِ، ودونَ أن يكونَ مُقيَّداً بالتَّفكيرِ فيما إذا كانَ هوَ الَّذي أشعَلَ مِصباحَ النُّورِ في غُرفَةِ الجُلوسِ بِنَفسِهِ أو أنَّ شخصاً آخَرَ هوَ الَّذي أشعَلَهُ؛ الشَّيءُ الوحيدُ الَّذي كانَ يُفكِّرُ بِهِ هوَ مدفأةُ الغُرفَةِ الَّتي كانَ يأمُلُ أن تكونَ النَّارُ لا تزالُ تشتعِلُ فيها إلى الآن. فبأقدامِهِ المُتحرّرَةِ من الوجودِ والعَدَمِ وبحافِزٍ واضِحٍ في الحالِ عينِهِ يتحرَّكُ إلى مصيرِهِ المحتومِ، يصعدُ على دَرَجِ الإيوانِ ليخطُوَ إلى داخِلِ الغُرفَة، ولم يُصدِّقْ ما يرى ويبِسَ في مكانِه ((الكولونيل معَ رجُلٍ . شخصيَّةٍ يُناديها باسِمِ جناب أشرَف، يجلِسانِ على كُرسيَّينِ جِلديَّينِ خلفَ الطَّاولَة، وجهاً لِوَجه. **الكولونيل** تماماً في المكانِ الَّذي "كنتُ أجلسُ بِهِ عادةً"، وعالي الجناب تماماً في موضعِ أمير في حين كنتُ أنا "واقفاً" بالباب، وجهُ **الكولونيل** إلى البابِ وجناب أشرف ظهرُهُ إلى الباب. أنا كنتُ كوارِدٍ فجأةً إلى جلسَةٍ مُحرَّمَةٍ فاضطُرِرْتُ لِقِلَّةِ مُلاحَظَتي وخطئي للخَجَلِ عندَ **الكولونيل** رغمَ أنَّ الكولونيل لم يُظهِرْ أيَّ

شيءٍ يُفيدُ بانتباهِهِ لِحُضوري وعيناهُ السَّوداوانِ النَّافِذَتانِ غارِقَتانِ في عينَي جناب أشرف وكأنَّما كانَ يُبدي لهُ مُعارَضَةً في شأني. لذلِكَ تردَّدتُ، أأبقى في مكاني أم أرجع؟ ولمعرِفَةِ تكليفي نظرتُ إلى **الكولونيل** لكنَّ **الكولونيل** لم يلتفِتْ إلى نظرتي المُتوسِّلةِ حيثُ كانَ يمسحُ الدَّمَ الَّذي يسيلُ من حلْقِهِ بمنديلِهِ الأبيضِ وهو مُستمِرٌّ في المُحادَثَةِ وأنا كُنتُ أُصغي...

كانَ قيلَ لكُم أن تُغادِروا البلَدَ كولونيل!

نعم،...هذا ما كنتم قلتُم عالي الجناب!

كُنتُ أبلَغتُكُم هذا الحُكمَ منَ المركَز. وطبقَ حُكمِ المركزِ أنتم ومبارك وشجاع مسحوبوا الحقوق لسنتين وأُعلمُكُم أنَّ عليكُم الذَّهابَ إلى أوروبا.

عليَّ إنجازُ بعضِ الأعمالِ المُتعلِّقةِ بي وتحتَ مسؤوليَّتي، ولا تلزمُني لهذا العمل تنبيهاتٌ جديدةٌ.

أعمالٌ نصفُ مُنجَزَةٍ!... أنتُم جِدِّيّونَ كثيراً كولونيل،... في غيابِكُم سيُنجزونها.

الهربُ منَ المسؤوليَّةِ لم يكُنْ مقدوراً لي أبداً، وأعدائي دائماً كانوا ينصِبونَ ليَ الكمينَ ويُراقِبونَ تعذُّري ولا يزالون.

أنتُم تطلبونَ الذَّهابَ من إيران، ولا علاقَةَ لأعدائكُم بِهذِهِ المسألَة. أيٌّ منهُم ليسَ في قبضتي؟.

أنا كنتُ عُدتُ من أوروبا إلى وطني لأتِمَّ إنجازَ وظيفتي ولم يعُدْ عندي رغبةٌ في الذّهابِ إلى أوروبا، و... ولا أرى ذلكَ لازماً!.

أنا لم أكنْ أريدُ أن أسألَكُم عن رأيِكُم بالذَّهابِ أو عَدَمِ الذَّهابِ إلى أوروبا ولا علاقةَ لي برغبتكُم أو عدمِ رغبتِكُم، ما كنتُ أريدُ أن أقولَهُ لكُم هو أن تذهبوا من إيران!

((أنا أُدرِكُ وجهَةَ نظرِكُم يا عاليَ الجناب، لكنَّني لا أُريدُ أن أخرُجَ من وطني. إيران وطني ألا تريدونَ إدراكَ هذِهِ الحقيقةَ؟!))

أنتم حينَ توردونَ اِسمَ الوطنِ على لسانكُم أكثرَ منَ الحدِّ المطلوبِ تكونونَ مغرورينَ ومُشاكِسين، كولونيل! مثلُ هذا السُّلوكِ غيرُ قابِلٍ للتَّحمُّلِ وأنا بالخُصوصِ لا أتحمَّلُ حجارَةَ وأشواكَ طريقِكُم. تقطعونَ خُطوطَ ارتباطِنا، تُصادِرونَ مخازِنَ أسلِحتِنا، تُصدِرونَ القرارَ بِجَعلِ نواميسِ دولتِنا

العزيزةِ موردَ الإهانةِ والهُجومِ عليها. وترفُضونَ اقتراحَ الصَّداقَةِ معَ تُركِ إيران و... لا كولونيل، لا يجبُ أن تتوقَّعوا أن يتحمَّلَ أيُّ شخصٍ مثلَ هذا السُّلوكِ الجَسور، لا من جانبكم ولا من جانبِ أيَّةِ قُدرةٍ!.

أنا لم يكُنْ عندي مثلُ هذا التَّوقُّعِ أبداً يا سيِّد! قطعتُ خُطوطَ الاِرتباطات، لأنَّهُ كان يجبُ أن أقطعها. صادرتُ مخازنَ الأسلحةِ حينَ كانَ يجبُ مُصادرةُ الأسلحةِ المنزليَّةِ غيرِ المُرخَّصة، صادرتُ الأحصِنَةَ ومعدَّاتٍ أُخرى لأنّي كنتُ أعتقِدُ أنَّكُم يجبُ أن لا تكونوا مالكينَ لأسلحةٍ منزليَّةٍ بِشكلٍ مُستقلٍّ عنِ الدَّولةِ ضمنَ الوطن . بأيِّ عُذرٍ . وكانَ لي نفسُ السُّلوكِ الواجِبِ في مقامِ جُنديٍّ إيرانيٍّ بشكلٍ دقيقٍ.

لكنَّكُم لم تراعوا ضوابِطَ السُّلوكِ لضابِطٍ في دولَةِ إيران، كولونيل!

أنا؟!

نعم أنتم! الحكم الَّذي كنتُ أبلغتُكُم إيَّاهُ من مركزِ الإبلاغ.

من مركزِ ماذا؟!

من مركزِ إيران!.

فلماذا أبلغوكُم أنتم يا سيِّد؟ في أيِّ مقامٍ؟

كولونيل؛ أنتُم تُبدونَ لجاجَةً وعداوةً. ويُمكنُ القولُ عصياناً!

لقرارِكُم، رُبَّما!

هنا كانَ حديثٌ عن تفاهُمِ دولَتَينِ وأنتُم أصررتُم على الطَّعنِ فيه، إذن لماذا هذا الحُكم ...

حُكم؟! الحُكمُ إذن كانَ من طَرفِ دولةِ إيران...

إيران لا تملكُ دولةً في ذاتِها يا سيِّد، ألا تُريدونَ أن تفهموا هذا؟!

لماذا! لنفسِ العِلَّةِ أنا وأنتم كانَ يجبُ أن نُفكِّرَ بدولةٍ في إيران!

وتلكَ لابُدَّ أن تكونَ دولةً قوميَّةً أيضاً! هه... تقومونَ بالاستِدلالِ كالفلاسِفةِ المِثاليّين الألمان. كولونيل، وأخلاقُكُم وسجاياكُم تُذكِّرُني بموسيقى الرَّايش الرومانتيكيَّة.

أُدركُ انتقادَكُم جناب أشرف، كما أُدركُ خصوصيَّتَكُم الرُّوحيَّةَ والعائليَّة. وبوجودِ هذا أرجو منكُم أن تقبلوا منّي أنَّ الوطنَ الَّذي هوَ وطني ووطنُكُم ليسَ فاقِداً للفلاسِفَةِ والعارِفينَ بالموسيقا.

توهُّمٌ، وهمٌ قديمٌ!... من غرورِكُم، حينَ تتكلَّمونَ عنِ الوطَنِ يحصَلُ عندي النُّفور.

يجبُ أن أُعطيَ قراراً قبلَ أن تثورَ عليكُم العشائر!.

أنتم قرَّرتُم عاقِبَةَ هذا الأمرِ وقرّرتموها مُسبَقاً كما هو الحالُ دائماً. كانَ خطئي أنَّني لم أُبعِدْكُم إلى القلعَةِ وأجعَلكم خارجَ نِطاقِ مأموريَّتي.

منَ المُمكِنِ أن يكونَ ذلكَ عجزاً لا خطأً! مع وجودِ هذهِ المُحاصَرَةِ الَّتي لم تُنسَ بَعدُ لقُنصُلِ دولةٍ صديقَةٍ بناءً على قرارِكُم، وكما كنتُ قلتُ فإنَّ مثلَ هذهِ الإهاناتِ لن تُنسى أبداً.

هذِهِ الخُصوصيَّةُ نافِعَةٌ لِحالِكُم جناب أشرف، أتمنّى أن نستطيعَ جميعاً أن نتعلَّمَ هذا الدَّرسَ منكُم.

أنتُم تستطيعونَ أن تتعلَّموا أشياءَ أكثرَ من تجربةِ وعاقِبَةِ عملِ ميرزا تقي خان أمير.

وتعلَّمنا، يا سيِّد!

الكولونيل نهضَ، ويذهبُ ليضَعَ مرفقَهُ على رفٍّ بارزٍ أمامَ المدفأةِ وهو يأخُذُ الدَّمَ الَّذي يسيلُ من حلقِهِ بمنديلٍ أبيضٍ. عالي الجناب، ينهضُ أيضاً، يأخُذُ قبَّعتَهُ عن الطَّاولة، يتَّكئُ على عصاً في يدِهِ، يُسوّي عُقدَةَ الكرافيت الرَّماديَّة المعمولةَ بِشكلِ فراشةٍ على رَقَبَتِهِ تحتَ حلقِهِ ويتَصنَّعُ السُّعالَ وينظُرُ من وراءِ نظَّارتِهِ المُكبِّرَةِ في وجهِ الكولونيل الجانبي، ويقول:

أنا كنتُ عندكم وكنتُ من نفسي أراقبُكُم كثيراً، كولونيل!

الكولونيل يُديرُ وجهَهُ، ينظُرُ ويقولُ:

هل بقيَ كلامٌ لم تقولوهُ؟!

جناب أشرف اكتفى بِضُحكةٍ ومرَّةً أُخرى ينظُرُ إلى **الكولونيل**. وهو لكي يستطيعَ رؤيَةَ **الكولونيل** بشكلٍ جيِّدٍ كانَ عليهِ أن يُحافِظَ على رأسِهِ مرفوعةً للأعلى بِمقدارٍ مُعيَّنٍ وقد بانَ شعرُ قفا رأسِهِ والشَّعرُ ما حولَ أُذُنيهِ وهو على تلكَ الحالِ صافياً كذيلِ الدّيكِ وكانَ يبرق. بقيَ لحظَةً ساكتاً ثُمَّ وكما لو أنَّهُ أحسَّ بنوعٍ منَ الإهانةِ من ردِّ **الكولونيل** عليه واصطِدامِه معهُ عاودَ الجلوسَ ووضَعَ قُبَّعَتَهُ وعصاهُ على الطَّاوِلةِ واتَّكأَ على مرفقيهِ على حافَّةِ الطَّاولةِ وجعلَ ذقنَهُ بينَ قبضَتَي يَدَيهِ ومن وراءِ نظَّارَتِهِ نَظَرَ إلى الكولونيل بعنادٍ. هو لا يجبُ أن يخرُجَ ضعيفاً منَ البابِ لكنَّهُ ظلَّ بانتِظارِ حركةٍ أو مُقاوَمَةٍ منَ **الكولونيل**. لكنَّ الكولونيل ظلَّ واقِفاً تحتَ إطارِ صورتِهِ الكبيرةِ بجوارِ الرَّفِّ أمامَ المدفأةِ وكُلَّ حينٍ يأخُذُ الدَّمَ الَّذي يسيلُ من حلقِهِ بمنديلِهِ الأبيضِ وبدا مُدرِكاً لروحيَّةِ عالي الجناب الَّذي كانَ يُريدُ عمداً أن يجعَلَهُ ينتظِرُ نظرةً منه، إذ لن يتحمَّلَ جناب أشرف أكثَرَ من هذا، وهذه المرَّةَ صارَ لحنُهُ ممزوجاً بالتَّهديدِ بِشكلٍ صريح:

((أنا باقٍ ما بقيَ نفطُ الشِّمال. أمّا أنت غرور... أمثالُكَ! محكمةٌ خاصَّةٌ شُكِّلَتْ لكُم يا كولونيل، محكمةُ جرائمِ قرنٍ من ميرزا تقي خان إليكُم))

وينهضُ: ((أرغبُ في التَّحمُّلِ والصَّبرِ معكُم. إنَّها جرائمُ فوقَ العادةِ واقِعاً. تجديدُ النَّظَرِ كانَ لازماً، تجديدُ نظرٍ تاريخيٌّ وهناكَ ملفَّاتٌ مختومةٌ ليستْ للإعلام، فقط أحاولُ أن أكونَ صبوراً بِشأنِها، يجبُ... أمَّا شعبُ المحلاتِ والأحياءِ فسيتولّى إدارَةَ أمورِ المحكَمَةِ وقيادَتَها؛ أبناؤكُم، شبابُ الوطن!))

كانَ واضِحاً أنَّ عالي الجناب يريدُ إثارةَ **الكولونيل** ليطردَهُ خارجَ المحلَّةِ، و**الكولونيل** يسعى بكلِّ جهدِهِ ليُسيطِرَ على نفسِهِ وأعصابِهِ وحينَ نظرَ إلى عالي الجناب من جديدٍ كانت عيناهُ مثلَ كأسَينِ مملوءينِ بالدَّمِ تشعَّان؛ وصوتُهُ يرتجفُ كعَلَمٍ منَ الدَّمِ في الرِّيح، و((أنا من هَيبةِ صوتِهِ أصابَني ارتِعاشٌ)) حينَ اصفرَّتْ عيناهُ منَ الدَّمِ في حَدَقَتيهِ اصفراراً يدُلُّ على الفهمِ وهو ينظُرُ في عينِ خصمِهِ ويصرُخُ: ((بسببِ صوتِكُم فلتخرجوا عالي الجناب، بسببِ صوتِكُم وهذا العَرض!))

الآنَ وجدَ صوتُ الخصمِ الهدوءَ مرَّةً أُخرى. حتّى أنَّهُ ضحِكَ وقال كنايةً عنِ الإنتصارِ وهو يتناولُ واحِدَةً منْ حبَّاتِ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ ويضعُها في فمِه:

في محلّهِ يا كولونيل، كان ذلكَ في محلّهِ. أيُّ جنديٍّ خبيرٍ مُتمَرّسٍ في عملِهِ لا يترُكُ خندَقَهُ القديمَ قبلَ أن يحفُرَ خندقاً جديداً!.

أمّا أنتم هذهِ المرَّةَ فقد اختبأتُم بآخِرِ خندقٍ لكم، يا سيِّد. ليسَ بهذا الشَّكل؟

آه... قلبي مُتأسِّفٌ بِشأنِكُم بِشأنِ مَقدِراتِكُم وبِشأنِ انكسارِكُم. شخصُكُم كانَ أعلى من هذا التُّرابِ ومن هذا العُشبِ الوضيع! تربيةٌ أوروبّيةٌ بتأثيرٍ قويٍّ منَ الرومانتيكيَّةِ الألمانيّة؛ واكنر... نيتشه! ليتكُم قبلتُم منّي التَّوصيَةَ طوالَ الوقتِ حتّى لا تَصِلوا إلى هذِهِ المرارةِ وهذا الشَّقاءِ وتتعرَّضونَ لِغضَبِ وانتقامِ الجموعِ يا كولونيل! غضبِ وانتقامِ أبنائكُم الأشقياءِ، للأسفِ كنتم ذهبتُم!

أنا لا يجبُ أن أَخرُجَ من وطني يا سيِّد، منطقاً أنتم كنتم...

أنا قلتُ لماذا أبقى!... أمّا أنتُم... فسوفَ لن يبقى من روحِكُم شيءٌ، كولونيل. أبناؤكُم هؤلاءِ الأوباشُ سيأكلونَ روحَكُم، إنَّ لهُم أسناناً كأسنانِ الذِئاب! وبجُرمِ حبِّكُم للوطنِ يا كولونيل، أتستطيعونَ التَّصديق؟! أبناؤكُم!

أبنائي وأبناؤكُم سيُخرِجونَ الحقيقَةَ من وراءِ الأصواتِ يا عالي الجناب. أقولُ لكُم!

والأحياء؟ أبناؤكُم هائجون يُمزِّقُ بعضُهُم بعضاً بأسنانِ الذِّئابِ الَّتي يملكون، كم هو مرعبٌ، في الواقِع! وأنت... أُنظُرْ إلى جِهةِ إصبعي، أنا أُشيرُ إلى يومِ غدٍ!

أنا أيضاً أريدُ أن أجدَ قبلَتي يا سيِّد. أنا أتكلَّمُ عن نهايةِ العَمَل!))

((كم هو موحشٌ. أبناؤك ينتظرونَ في الخارِجِ مؤقَّتاً. منظرٌ عظيمٌ! لكنْ...أنا أنصحُكُم أن تُبدوا أقلَّ قدرٍ منَ السَّماجَةِ وأن تنتخبوا القَصاصَ الأكثَرَ مُلاءَمَةً لكُم. أخيراً... قطعُ رأسٍ وهل تُقطَعُ الرَّأسُ أكثَرَ من مرَّةٍ؟

عالي الجناب يُديمُ سكوتاً قاسياً للحَظَاتٍ وهو ينظُرُ إلى **الكولونيل** ثُمَّ ينهضُ ويمُدُّ يَدَهُ ليأخُذَ عصاهُ وقُبَّعَتَهُ ويأخُذُهُما دونَ أنْ ترِفَّ عينُهُ ويرفَعُ نَظَرَهُ عنِ **الكولونيل** ((...أنا مُغتاظٌ من موقِفِكُم، أنتُم تقِفونَ بِشَكلٍ جيِّدٍ جِدّاً موقِفاً يُثيرُ الحَسَد. إنَّ ما ليَ من مقامٍ وشرفٍ يوجِبُ عليَّ أنْ

أُذعِنَ لِهذِهِ الحقيقةِ المؤذيةِ. لنفسِ السَّبَبِ أنا راغِبٌ بالإبتداءِ بالسَّاقَينِ جميلَتَي المنظَرِ ليكسِروا استِقامَتَهُما!))

أَلَدَيكُم كلامٌ لم تقولوهُ بعد؟!

لا؛ والرَّجُلُ العجوزُ أُصيبَ بالإرتِجافِ من جديدٍ، عيناهُ السَّوداوانِ سرحتا ورأسُهُ يكادُ ينشقُّ نِصفَينِ منَ الألَم. وكأنَّهُ أخيراً يُصابُ بالجُنونِ مما يُحسُّ ((ليسَ هُناكَ أيُّ شيءٍ واقِعيٌّ)) ويرى أنَّ ((كُلَّ شيءٍ واقِعيٌّ.)) كيفَ كانَ يقفُ وحيداً على صوتِ عزفِ مَطَرٍ بلا رحمةٍ وسواءً ((أكانَ الغروبُ أم لم يكُنِ الغروب؟)) فإنَّهُ كانَ يُحسُّ بالغروبِ في ظُلمةِ الإختناقِ الَّتي ملأتِ الغُرفَةَ، ويرى أيديَ هارِبَةً تربطُ كتِفَي **الكولونيل** إلى سرجِ حِصانٍ ضيّقٍ وتسيرُ بِهِ تحتَ المَطَرِ إلى الزُّقاقِ ((ومن ثَمَّ لابُدَّ أن تأخُذَهُ إلى الميدان)) و**الكولونيل** على حالِهِ مُنتصِبٌ وهادِئٌ ويرفَعُ قَدَمَهُ دونَ أن يكونَ مُقيَّداً بِرَفعِ الدَّمِ الَّذي يسيلُ من حلقِهِ على ذَقنِهِ وصدرِه. يجبُ أن تكونَ الغُرفَةُ مُضاءةً، وقد أُضيئتْ بِمفتاحِ الكهرباءِ باليدِ المُرتَجِفَةِ للرَّجُلِ العجوز، وفي النُّورِ المُضيءِ، شاهَدَ الإطارَ الكبيرَ للصُّورةِ خالياً من هيئةِ وقامةِ الكولونيل كما رأى صُوَرَ أولادِهِ مُهمَلَةً مرفوسَةً بالأيدي والأرجُلِ، والمطرُ على حالِهِ، يدُقُّ على أسطُحِ الزّنجارِ القديمةِ وقد انطفأتْ نارُ المدفأة. ويتناهى إلى نَظَرِهِ أنَّ عَمَلَهُ بلغَ تمامَهُ. فانفتَلَ إلى الحائِطِ حيثُ سيفُهُ وقيثارتُهُ على حالِهِما وفي مكانِهِما وعلى كُلٍّ منهُما سماكةُ إصبَعٍ منَ الغُبارِ. وكانت لحظَةَ حُزنٍ إذ أمسَكَ القيثارةَ بيدِهِ ومسَحَ عنها الغُبارَ ليخرُجَ بِها... لكنْ ((لا)) لا يجبُ تعطيلُ العَمَلِ أكثرَ من هذا، وسريعاً، يجبُ الانتهاءُ بأسرَعِ ما يُمكِنُ منَ الأعمالِ الواجِبَةِ عليهِ، الأعمالِ الَّتي تنتظِرُهُ على الطّاولة، صندوقِ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ والخمسةُ والثَّلاثونَ توماناً الّتي هيَ في عُهدَتِهِ والَّتي عليهِ أن يخرُجَ من أجلِها للخارِجِ. وحينَ خَرَجَ منَ البابِ ووضعَ قَدَمَهُ في الإيوانِ سمعَ ذلكَ الصَّوتَ الممسوخَ المُنَفِّرَ المُتقطِّعَ، وأُجبِرَ على الوقوفِ أمامَ العينَينِ العجيبتَينِ المُتباينتينِ لذلكَ الموجودِ المنحني المُعوجِّ الملفوفِ بالملحفةِ العسكريَّةِ القديمةِ بوجهِهِ المُحترِقِ، وشعرِ ذقنِهِ الَّذي لم يأخُذْ بعدُ مظهَرَ الرُّشد، وقيدِ يدِهِ الَّتي كانت كأنَّها تبحثُ عن وريدِ الرَّقَبَةِ الكبير أو عظمِ القَصِّ أو أطرافِ الحِزامِ لتُمزِّقَها وهو يصرُخ ((أنتَ كنتَ علي سيف الَّذي يعملُ قاتِلَ كلاب... وأمّي الَّتي... أشتهي أن أبحثَ عن صدرِها.)) ويئنُّ ((أنتَ كولونيل... أخبر أمّي قبلَ أن أجِدَ قصَبَتي الهوائيَّةَ...)) ويصرُخُ ((بهجت...بهجت.)) وفكَّرَ الكولونيل أنَّهُ لا يجبُ التَّعجُّبُ، لا يجب. لا يجبُ التَّعجُّبُ من شيءٍ،

حتّى من صوتِ قتلتُ، قتلت. ألفَ مرَّةٍ قتلتُه! بعدَ أن فتحتُ ساعَةَ معصَمِهِ وجعلتُها في معصَمِ يدي. كانَ في خندَقٍ. خلفَ خَيشٍ ورملٍ يبكي. فهمتُ أنَّ مخزَنَ رَصاصِهِ فارِغٌ. لكنَّني لم أُكلِّفْ نفسي مدَّ يدي إلى سَبَطانةِ رشّاشِهِ لأرى أساخِنَةٌ هيَ أم بارِدَةٌ. لم أكُنْ أُريدُ أن أجِدَ العُذرَ لئلّا أقتُل، لا أُريدُ أن أشُكَّ. صِرتُ وبالاً عليه. لم أرَ وجهَهُ . أيُّ شيءٍ أفضلُ! كانَ يجمَعُ بَدَنَهُ منَ الألَمِ. نظرتُ فقط إلى الجُرحِ على صَدرِه، كانَ فمُ الجُرحِ مفتوحاً. كنتُ أستطيعُ أن أترُكَهُ يموت، كنتُ أستطيعُ تحويلَهُ إلى... لكن لا؛ خرّبتُ وجهَهُ بالحَربَةِ بنفسي. أستطيعُ أن أتذكَّرَ الضَّربَةَ الأولى، ضربتُها تماماً وَسَطَ فمِ الجُرح. بعدها، لم أنعَمْ بالسُّرور، لم أُسَرَّ و...ثُمَّ وقتَ رَفَعتُ يدي منَ القَتلِ وكُنتُ لا أزالُ أملكُ الرَّمَقَ لأنزعَ السَّاعَةَ من معصَمِهِ وأضَعَها في معصَمي. بعدَ ذلكَ أُغشِيَ عليَّ، هُواعٌ... وحالةُ إغماءٍ... كنتُ أُفكِّرُ أنَّ أبي سيكونُ مسروراً حينَ أُهديهِ ساعَةَ المِعصَم، علي سيف! كانَ يقولُ هذا ويُكرّرُه!))

يرفعُ الكولونيل صندوقَ الفواكِهِ المُجَفَّفَةِ مُقابِلَ الوجهِ المُحتَرِقِ والعينَينِ العجيبتَينِ المُتباينَتَينِ لعبدالله وتحتَ نَظَرِه، لكنَّهُ الآنَ يرى نفسَهُ وحيداً في الإيوان وأحسَّ أنَّ صوتَ عبدالله الَّذي كانَ يظلُّ يشخُرُ، أو حتّى نَفَسَهُ لم يعُدْ يُسمَع. وهو لم يكن موجوداً في الواقِعِ. بحثُ الكولونيل بلا مبرّرٍ بطَرَفِ الدّهليزِ المُظْلِمِ قادَهُ ناحيَةَ ذلكَ الموجودِ المُنحني المُعوجُّ الأحدبُ الَّذي كانَ واقفاً تحتَ قفصِ القنارى مثلَ صخرةٍ قاسيةٍ وعيناهُ العجيبتانِ المُتباينتان تلمعانِ في الظَّلامِ مثلَ عيونِ جميعِ آكلاتِ اللّحومِ في البوادي والغاباتِ في اللّيل، واحدةٌ نيليَّةٌ وواحدةٌ صفراء. والكولونيل سمِعَ:

((أنا أخرسٌ يا كولونيل؛ أنا... أيضاً أخرس...))

((أنا أيضاً... أنا أيضاً يا ولدي والآن عليَّ الذّهابُ للاِنتهاءِ من أعمالي!))

حينَ وصلَ الكولونيل إلى ميدانِ المدينةِ، كانت جموعٌ من رؤوسٍ وأكتافٍ تسيرُ صاعِدَةً. وقد ضاعَ وجهُ الجَمعِ في المَطَرِ والضَّجيجِ وغلظَةِ اللّيلِ وهو لا يستطيعُ تشخيصَ هويَّةِ أيِّ وجهٍ لأيِّ شخصٍ أو يرى سيماءَهُ بشكلٍ واضِحٍ وفقط يقعُ في نَظَرِهِ أفواهٌ تُفتَحُ وتُغلَقُ وتصدُرُ منها في كلِّ آنٍ أصواتٌ تعلو لِتَهَبَ الرُّعبَ والوحشَةَ للفَضاء، وما عدا ذلكَ كانَ يرى عُيوناً، عيوناً مُمَزَّقَةً مُدهِشَةً. كما لو أنَّ الجماعَةَ صارتْ في سُكْرٍ من دواءٍ مُميتٍ. لكنَّ الكولونيل لم يرَ دليلاً آخَرَ

ليكونَ مُستوحِشاً، لأنَّهُ لم يعُدْ يملكُ منَ الدُّنيا شيئاً. أيَّ شيءٍ يملكُ ليستوحِشَ بِشأنِهِ؟ ((ممَّا مرَّ، أرغبُ في أن أهبَهُم الفواكِهَ المُجفَّفَةَ!))

فتَحَ صُندوقَ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ المُختلِفةِ الألوان وأخَذَهُ بيدِهِ أمامَ الأيدي الَّتي كانت جاهِزَةً مُسبَقاً لِتمتَدَّ. وتأخُذُ الأيدي الفواكِهَ المُجَفَّفَةَ وتُحلّي أفواهَها. أصحابُ الأيدي والأفواهِ يحسبونَ هبَةَ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ يُمناً للمعرَكَةِ الَّتي يخوضونَها وَسَطَ الميدان. يأخُذونَ الفواكِهَ المُجفَّفَةَ، يضعونَها في أفواهِهِم وبِعِبارَةِ ((مباركٌ عليكَ)) للكولونيل يفتحونَ الزُّقاقَ باتِّجاهِ مكانِ اشتِعالِ المعركَة.

((لا أتعجَّبُ، أصلاً لا أتعجَّب!))

جميعُهُم مثلَ أسرى حربٍ أُجلِسوا في الميدانِ المفروشِ بالحِجارةِ ليُعطَوا كما يبدو جُزءاً ممّا أُمضِيَ لهُم من مُكافأةٍ وجَزَاءٍ على أعمالِهِم. **أمير كبير**، شاخِصٌ أكثَرَ منَ الآخَرين، ومُتقدِّمٌ عليهِم، وقد أُجلِسَ على رُكبَتَيهِ على التُّراب، وفي تُرابِ الموقدِ المُطفأ أُجلِسَ الكولونيل.

كُلُّ شيءٍ مثل كابوسٍ لأعظَمِ لوحاتِ الرَّسْمِ في التَّاريخِ بِألوانٍ جميعُها رماديَّةٌ وسوداءٌ في فضاءٍ مُلوَّثٍ بالضَّبابِ والدُّخانِ والمَطَر. دمُ حلْقِ الكولونيل الأحمر، دمُ عروقِ يَدَي أمير، دمُ قلبِ حيدر وساقُ القيثارةِ مرسومَةٌ جميعُها بِلونٍ رماديٍّ كلونِ المَلحَفَةِ الَّتي لفُّوا بِها مُصدِّق. وحيداً في الطَّرَفِ الأوَّلِ الأيسَرِ للَّوحَةِ خطٌّ عموديٌّ أحمَرُ اللّونِ يقعُ على العَينِ، بلونٍ عجيبٍ مُختلِفٍ وعريانٍ وهناكَ في ذلِكَ المكانِ رَجُلٌ مُلقىً يرفَعُ كشكولَهُ الأحمَرَ إلى السَّماءِ الَّتي تُمطِرُ. زُجاجَتا نَظَّارَةِ الرَّجُلِ تكسَّرَتا قِطعَةً قِطعةً دونَ أن تسقُطا منَ الإطار. لكِنَّ أساسَ التَّعجُّبِ كانَ في أنَّ ذلِكَ الرَّجُلَ مُعلَّقٌ على مشنَقَةٍ حمراءَ اللّونِ عُرياناً ومكشوفاً وبدا أنَّهُ متروكٌ هكذا لِإظهارِ فضيحَتِهِ وعَرضِها عمداً على الملأ وكانت هُناكَ أيدٍ لامرئيَّةٌ تؤكِّدُ على الإضاءةِ وإرسالِ الضَّوءِ على هذا البَدَنِ العاري من كُلِّ زاويةٍ واتِّجاهٍ وتجعَلَهُ تحتَ ضياءِ مصباحٍ قويّ النُّورِ مِمّا يُعطي دليلاً واضِحاً على التَّعَمُّدِ والقصدِ. رغمَ أنَّ ذلكَ البَدَنَ العاري المفضوحَ ليسَ أكثَرَ من عظمَين وبدا أنَّ ذلكَ الشَّابَّ قضى عُمُرَهُ في مكانٍ مُنخَفِضٍ مُظلِمٍ رطبٍ والجِلدُ يابسٌ على عِظامِه. لكِنَّ السَّماجَةَ الغريبةَ كانت في عَرضِ العُريِ بشكلٍ مفضوحٍ وإظهارِ سوادِ جنايتِه، ولاحظْتُ أنَّ بُكاءَ أُمِّهِ عليهِ لم يمنَعِ السَّماجَةَ في عَرضِ الفضيحةِ بِشكلٍ عَلَنيٍّ وهي تصرَخ ((ولدي هذا أنا لا أعرفُه، هذا ليسَ ولدي، أروني إيَّاه))، طلبٌ لم يكُنْ لهُ أيُّ تأثيرٍ على ذِهنِ وروحِ حجَّاج بن

يوسف قرباني حيثُ لم يكُنْ حجَّاج يُفكِّرُ إلّا بالخراب ولا يُريدُ من مُخِّهِ الفجّ إدراكَ الكلامِ المُعذَّبِ لتلكَ المرأة، وهو الَّذي يمتازُ ويتمايزُ بالهدمِ الكامِلِ لنواميسِ أُمَّةٍ كاملَة. لذلِكَ فحجَّاج يوسُف قرباني لا يُنتَظَرُ منهُ أن يُصغيَ لبُكاءِ امرأةٍ منكوبَةٍ محزونَة. وقفت على الجنازةِ المكشوفَةِ لِوَلَدِها جاثيَةً على رُكبَتَيها وصارِخَةً أنَّها لا تعرِفُ ولَدَها ومُلتَمِسَةً أن يُروها وَلَدَها ((يا مُسلِمون، يا مُسلِمون، هذا الموجودُ ليسَ وَلَدي... ولدي الشَّابّ... تقي... تقي...ولدي!))

امتيازٌ آخَرٌ لحجَّاج يوسُف أنَّهُ . دونَ أن يلتَفِت إلى صُرَرِ ألبسةِ القرابين الَّتي تبلَّلَتْ في يدي خضر جاويد المُرتجفَتَين وهيَ تُرمى من أعلى على أيدي وارثيهِم . بعدَ ذِكْرِ طسْتٍ منَ التُّهَمِ المنسوبَةِ إليهِم، يُعطي الإختيارَ لانتِخابِ نوعِ المُجازاةِ وفي الواقِعِ إنَّهُ يترُكُ لهُم الحُرّيَّةَ في انتخابِ نوعِ الموتِ الَّذي سيوقَعُ بِهِم. ((مع شرطٍ وحيدٍ فقط!)) هوَ أنَّ إبلاغَهُم سيكونُ من مُكبّراتِ صوتٍ مخفيَّةٍ ولقد شَخَّصَ الكولونيل صوتَ صِهرِهِ بوضوح ((إنَّ أنواعَ وأقسامَ القِصاصِ عديدةٌ جِدّاً بِحمدِ الله، ومتنوِّعةٌ ومُختلِفَةٌ وإنَّها لتَصِلُ إلى حدودِ ألفينِ وأربعِ ماءةٍ ونيِّفٍ منَ الأنواع، فلكُلِّ مُجرِمٍ نوعٌ خاصٌّ منَ القِصاصِ ينتظِرُهُ مُطابِقٌ للجُرمِ الَّذي ارتكبَه.)) والسَّيِّد قرباني في عُلوِّ قَدرٍ من عِلمٍ وتمجيدٍ يعُدُّ الجرائمَ جريمَةً جريمَةً، وفي تلكَ الحالِ كانت نظرةُ الكولونيل المُتقطِّعَةُ تقعُ على الرَّجُلِ العجوزِ وسطَ الملحفَةِ العسكريَّةِ القديمة جالساً وقد أخرَجَ رُكبَتَهُ اليُمنى، قبضةُ عصاهُ مُستقرَّةٌ على الأرض، خصرُهُ صارَ بينَ حُفرَتَي إبطَيه، رأسُهُ مخفوضٌ يكادُ يبلُغُ التُّراب، وفي هذِهِ الحالِ كم كانَ يُشبِهَ راعياً مخطوفاً لِلذِّئاب، وفي عينِ الحالِ ترتسِمُ ضُحكَةٌ تنمُّ عنِ العَقلِ والوعيِ وبُعدِ التَّفكيرِ على شَفَتَيه. وخيالُ وجهِ خضر يعبُرُ خلفَ مُقلَتَيهِ كشبح. لكنْ بِجانِبِ ذلِكَ العجوزِ المخطوفِ للذِّئاب حيدرٌ الَّذي يضعُ السَّبَطانةَ الباردةَ لبندقيَّةِ الميرزا صغير مَرَّةً أُخرى معَ ابتِداءِ انهِمارِ المطَرِ المصحوبِ بالرِّيحِ والثَّلجِ في موضِعٍ فوقَ قلبِهِ ويُعطي الأمرَ بالإطلاقِ في جانِبِ صورةِ نجمِ وشيخِ الشَّارِعِ الكبيرِ المُجلَسِ على رُكبَتَيه. و**الكولونيل** الَّذي قُطِعَت رأسُهُ يحملُ رأسَهُ المقطوعَ بيدِهِ بِشعرِهِ المُدمّى ويرفعُهُ للأعلى كفانوسٍ وهو على حالِهِ واقف، وأخيراً **أمير كبير، أمير كبير** في موقعِ الصَّدارةِ منَ المشهَدِ المهولِ العظيم. **أمير** أيضاً في سكوتٍ وعبوسٍ يجلسُ على رُكبَتَيهِ كأنَّهُ جالسٌ على سجَّادةٍ أو على نطع، يداهُ مُدَّتا على فرشِ الحِجارةِ البارِدَةِ ودونَ التِفاتٍ إلى الدَّمِ بِلونِ التُّرابِ الَّذي يسيلُ من ساعِدَيه، في ترديدٍ لجُزءٍ من أُغنيةِ قائم مقام رُبَّما... وهو ينظُرُ إلى التُّراب إذ يصِلُ حجَّاج بِشَفرةِ خنجَرِهِ المُقوَّسةِ المُتلوِّنَةِ بلونٍ بنفسجيٍّ رماديٍّ من دمِ

الصَّدرِ الَّذي لا يزالُ باقياً عليها، كُمَّتاهُ مُتقابلتان، جناحُ ثوبِهِ مربوطٌ بِشالٍ على خصرِهِ وشرّاباتُ قُبَّعَتِهِ مُزيَّنَةٌ باللآلئِ المُشِعَّةِ ومُزيَّنَةٌ بالزُّمُرُّدِ وساقاهُ العاريتانِ البشِعَتانِ غارقتانِ إلى كَعبيهِ بالوحلِ والطِّينِ والدَّمِ وهو يُخرِجُ كلماتِهِ من جَذرِ حَلقِهِ ويُلقي بِصاقةً معَ كُلِّ كلِمَةٍ وهو واقفٌ بجانبِ كتِفِ أمير وبِألفاظٍ ليستْ على أيَّةِ قاعِدَةٍ أو وزنٍ، يتكلَّمُ ويُقرِّرُ لعنَهُ وإهانتَهُ كمُجرِمٍ منَ الطِّرازِ الأوَّلِ ويطلُبُ منهُ أن يختارَ نوعاً منَ القتلِ لِنَفسِه. وأمير دونَ أن يرفَعَ نَظَرَهُ عن التُّرابِ ((التُّرابِ المُمتزِجِ بالوحلِ والطِّين)) أو ينظُرَ إلى سيماءِ حجَّاج "مُطلقاً" يُقرِّر:

((رأسي!))

((أنا في تمامِ عمري لم تأتِني أبداً سعادةٌ منَ التَّقعيرِ الهِلاليِّ لسيفي. كما لم يكُنْ بمقدوري أبداً أن أجعلَ نفسي سعيدةً من قطعِ ثَمَرَةِ الرَّأسِ الوحشيَّةِ منَ القفا، وخُصوصاً والبَدَنُ جاثٍ على الرُّكبَتَينِ وراحتا اليَدَينِ مغروزتانِ بالأرض... واقِعاً يا لهُ من انتقامٍ مُنفِّرٍ!))

أذكُرُ أنَّهُ في الأيَّامِ غيرِ القديمةِ جِدّاً، وتحتَ أقدامِ المعدومينَ المُعلَّقينَ على المشانِقِ في ميدانِ الإعدامِ في ميدانِ المدفعيَّةِ كانَ النَّاسُ يرمونَ قِطَعاً نقديَّةً منَ المالِ تُعدُّ كفَّارةً ويمضون. في هذا العَمَلِ توجَدُ حقارةٌ، وإنَّ الأفرادَ بإلقائهِم النُّقودَ بهذا الشَّكلِ يُريدونَ في الواقِعِ تبرئةَ أنفُسِهِم منَ الجِنايةِ والقولَ أنَّهُم ليسوا من أهلِ الجِنايةِ ثُمَّ يمضون؛ ((لكنْ أنا لستُ مُلوَّثاً بِهذِهِ الجِنايةِ المهولةِ حتّى أبحثَ عنِ البراءة. فيدي...)) دونَ اختيارٍ منّي أَخَذتْ قبضَةً منَ الفواكِهِ المُجفَّفَةِ الباقيَةِ في العُلبَةِ وكما يبذُرُ الدَّهقانُ البُذورَ راحتْ تنثُرُها على الدِّماءِ المُراقَةِ والرُّؤوسِ المقطوعةِ ولم يعُد يرى شيئاً آخرَ وكانَ يحسُّ أنَّ الدُّنيا أكثرَ سواداً من كُلِّ ذي سوادٍ في نَظَرِهِ وفي عُمقِ ظُلُماتِ ذلكَ المشهدِ الأخير كانَ يرى فقط قامَةَ **الكولونيل** المُمتَدَّةَ ورأسَهُ المقطوعَ مرفوعاً على اليدِ وهو يشعُّ كأنَّهُ مشعل.

رأسُهُ كانَ لا يزالُ يدورُ حين رفعَ الجبهةَ عنِ الحِجارةِ البارِدَةِ الَّتي تفرشُ الميدان، جلَسَ على رُكبَتَيهِ وسعى ليستطيعَ المُحافَظَةَ على رأسِهِ فوقَ كتِفَيه. تأمَّلَ لحظَةً، ثُمَّ بِمَشَقَّةٍ ورُبَّما أيضاً بِخوفٍ فتَحَ جفنَيهِ. المطرُ كانَ قد توقَّفَ والميدانُ صارَ خالياً، وفقط وقْعُ نِعالِ أحذِيَةِ الحُرَّاسِ على بِساطِ الحِجارةِ العاري، يطِنُّ في الآذانِ وقد غطَّى الدَّمُ كُلَّ حِجارةِ الميدان. رفعَ نَظَرَهُ عنِ الأرضِ ورأى من بعيدٍ قافِلةً منَ الرُّؤوسِ وحامليها وهي تبتعِدُ وتتوارى عن الأنظارِ والحالُ أنَّ كُلَّ

من في القافِلَةِ كانَ يحمِلُ رأسَ نفسِهِ على كتِفِهِ وكانت أحذيتُهُم القديمةُ تبرُقُ تحتَ ضياءِ نورِ مصابيحِ الأعمدةِ الكهربائيَّةِ لأبنائِهِم معَ مشعلٍ محمولٍ وَسَطَها مرفوعٍ على الأيدي هو الرَّأسُ المقطوعُ **للكولونيل**.

((آبائي... أيُّها الآباء!))

هذا الكلامُ الَّذي تكلَّمَ بهِ أمير لا يستطيعُ الكولونيل أن يفهَمَه. كانَ أمير واقِفاً مُقابِلَ أبيهِ وعلى كتِفِهِ معولٌ ومجرفةٌ كأنَّهُ حفَّارُ قبورٍ قديم. نظرَ إليهِ الكولونيل. أمير أيضاً نَظَرَ لَحظَةً إلى أبيه ((وليسَ عندَ أحدِنا كلامٌ للآخَر. حيثُ، رغمَ أنَّنا مُتعلِّقانِ بنسلَينِ مُختَلِفَينِ لكنَّنا في مُشاهداتِنا وتجارِبِنا واحِدٌ، لقد صِرنا واحِداً! إلّا في موردٍ واحِدٍ أنَّني عنديَ اليقينُ بِذلِكَ وليسَ عندي جُرأةُ الإعتراف...)) الكولونيل نهضَ ولمْ يكُن يُقيّدُهُ أنَّ كُلَّ ثيابِهِ مُلَطَّخَةٌ بالدَّمِ الجاري على بِساطِ الحِجارة. سارَ في الطَّريق، سارَ وكتِفُهُ إلى كتِفِ وَلَدِهِ دونَ مَشَقَّة. كانَ صوتُ أقدامِهِما على بِساطِ حِجارةِ الميدانِ هوَ الصوتَ الوحيدَ الَّذي يسمعانِه. وفي طَرَفِ الميدانِ وقَفَ الإثنان، كأنَّهُما من قبلُ مُتَّفِقانِ على أنْ يذهَبَ كُلُّ واحِدٍ منهُما في طريق. ((في الحديثِ يجبُ عدمُ دفنِ الميّتِ ليلاً)) لكِنَّ أمير كانَ قد أخَذَ الطَّريقَ إلى المقبَرَةِ ومضى. الكولونيل نَظَرَ إلى ابنِهِ لحظَةَ ذهابِهِ دونَ أن يُعطيَ المَجالَ لِقلبِهِ ليحزَن، لأنَّهُ نفسَهُ لا يزالُ لديهِ القدرُ الكافي منَ العَمَلِ أمامَهُ.

((يجبُ أن أذهب، يجبُ أن أذهب!))

على رأسِ الزُّقاقِ كانَ مصباحُ عمودِ كهرباءِ مسعود يُضيءُ التَّقاطُعَ بِتمامِه. الكولونيل وهوَ يمُرُّ بِجانِبِ المِصباحِ على العَمودِ أحسَّ أنَّ قبضَةَ يدِهِ اليُسرى لا تزالُ مُغلَقَةً. فتحَها. كانتِ الخمسةُ والثَّلاثونَ توماناً قد تبلَّلَتْ منَ العَرَقِ وَسَطَ راحَتِه. وقفَ بِجانِبِ المِصباحِ قُبالَةَ صورةِ مسعود، صغيرِهِ، وألقى الأوراقَ النَّقديَّةَ المطويَّةَ بيدِهِ عندَ قَدَمِ عمودِ الكهرباءِ ومضى. ((ليسَ عندي مجالٌ، يا ولدي! يجبُ أن أذهبَ إلى المنزِلِ وأن أُفكِّرَ أوَّلاً بحالِ قنارى أُختِك.)) يعلمُ أنَّهُ إذا أطلَقَ هذا الطَّائرَ . الَّذي قضى عُمراً في القفص . فإنَّهُ لن يتمكَّنَ من ذلِكَ منَ الطَّيَران. سهلٌ أن لا يُريدَ أن يقدِرَ على الحياة؛ لكنَّهُ يُرجِّحُ هذا على أن يُبقي القُنارى في القفص مِثلَ حيٍّ في قبرِه.

وحينَ دَخَلَ إلى باحةِ المنزِلِ سارَ بِشَكلٍ مُستقيمٍ إلى طَرَفِ الدَّرَج ليدخُلَ مُباشَرَةً إلى داخِلِ الدِّهليز ويفتَحَ بابَ القفص. لكنَّ صوتَ الهرَّةِ العجوزِ السَّوداءِ من حافَّةِ حوضِ مغسَلِ الأقدامِ جَلَبَ

انتباهَهُ. استدارَ ونظَرَ إلى الهِرَّة. الهِرَّةُ أيضاً نَظَرَتْ إليه. ضَرَبَ الأرْضَ بِقَدَمِهِ وأطلَقَ التَّهديد، لكِنَّ الهِرَّةَ لم تَخَفْ. أحسَّ أنَّ الهِرَّةَ بِغيرِ حَياءٍ في الواقِعِ وكأنَّها تُريدُ أن تُفهِمَ الكولونيل أنَّها هُناكَ في كمينٍ بانتِظارِ أن تأكُلَ قنارى بروانة. قلبُهُ كانَ راغِباً بِقتلِها. لكنَّهُ رَجَّحَ أن يتفقَّدَ أثَرَ القُنارى أوَّلاً. مرَّ في الإيوانِ ودَخَلَ في الدِّهليزِ وكبسَ مِفتاحَ الكهرباءِ واقتربَ منَ القفصِ المُلتَصِقِ بالجِدارِ ونَظَر. الطَّائرُ لم يكُنْ موجوداً. رَفَعَ القفصَ عنِ الجِدارِ ووضَعَهُ بِشكلٍ مُباشرٍ أمامَ النُّورِ وَنَظَرَ إليهِ، لكِنَّ الطَّائرَ في الواقِعِ لم يكُن موجوداً.

((أنا خَجِلٌ منكَ يا كولونيل، أنا... اعتَبِرني ابنَكَ. أنا... أنا أكلْتُهُ، أخيراً قبلَ هذا هوَ كانَ ميّتاً.))

كأنَّهُ صوتُ الهِرَّةِ نفسُهُ يتردَّدُ مُتقطِّعاً في فضاءِ الدِّهليز، وعيناها المُتبايِنَتانِ اللّتانِ... لكِنَّ الكولونيل لم يذهبْ في هذا التَّفكيرِ المُعطِّلِ بِطائرِ بروانة وموتِهِ وما جرى عليه، وفي تمامِ النُّفورِ منَ العالَمِ قال ((ذاكَ أيضاً لكُم!)) وجاءَ إلى الإيوان. قلبُهُ راغِبٌ بالوقوفِ لَحظَةً طَرَفَ الإيوانِ وأن يتنفَّسَ الهواءَ بعدَ المَطَرِ وأن يتذكَّرَ يوماً رأى فيهِ الغُروبَ بعدَ المَطَرِ على أسطُحِ الزّنجارِ أخِرَ مرَّةٍ. وقفَ وقرَنَ بينَ يديهِ فوقَ صدرِهِ وَنَظَرَ في سماءِ تلكَ اللّيلَةِ وفكَّر .كم يرغبُ أن تكونَ الشَّمسُ غداً طالِعَةً جميلَةً. شمسٌ كشمسِ ذلِكَ اليومِ الَّذي جلبوا فيهِ نعشَ ((وَلدي محمّد تقي)). وجالَ في فِكرِهِ أنْ ما أسعَدَ الأشخاصَ الَّذينَ سيكونونَ غداً أحياءً.((دون أن أغبِطَهُم أو يرغَبَ قلبي في البقاءِ حيَّاً إلى غدٍ)) لا، فهُناكَ آلامٌ كثيرةٌ إذا ما فتحوا العَينَ والأُذُنَ وعَصَروا الرُّوحَ، تستطيعُ تنظيفَ روحِ ابنِ آدَمَ من ضيقِ النَّظَر. لذلِكَ لماذا عليهِ أن يكونَ حقيراً ولئيماً ويُكِنَّ الحَسَدَ لِحياةِ الآخَرينَ ويُحوّلَ نِهايَةَ حياتِهِ إلى حقيرَةٍ ومُلوَّثَةٍ. ((ليتَ أنَّهُ بالإمكانِ جعلُ الموتِ جميلاً وسعيداً في الحياة)) وكانَ لهُ ذلك وهو في هذا النَّفَسِ الأخير، يُحسُّ أنَّ اعوِجاجَ ظهرِهِ يستقيمُ وبِلَذَّةٍ يتنفَّسُ الهواءَ بعدَ المَطَر.

((لا، لم أُحبَّ أبداً أن أموتَ وأنا غيرُ طيّبِ الرَّائحة. خُصوصاً في مِثلِ هذا الموقِعِ فإنَّني أنفرُ منَ الموتِ ذليلاً.))

فيجِبُ أوَّلاً أن يستحِمَّ، يحلِقَ لِحيَتَهُ، يُمشِّطَ رأسَهُ ويلبَسَ لِباسَهُ النِّظاميَّ. ((أنا جُنديٌّ!)) وهذا القَدرُ الَّذي كانَ لهُ يجبُ عليهِ أن لا ينساه. ويُعلِّقَ أوسِمَتَهُ على كتِفِهِ ويُخرِجَ حِذاءَهُ العَسكريَّ من صندوقِهِ ويُلمِّعَهُ ويلبسَهُ. رُتَبُهُ "لِحُسنِ الحظِّ" كانت قد نُزِعَتْ منهُ قبلَ خلعِ لباسِه. الآنَ يحسُّ أنَّ

رأسَهُ وبدنَهُ قد غُسِلا منَ الآثارِ اللَّزِجَةِ للموتِ والمُلَوَّثَةِ بالموتِ الواقعِ أمامَهُ ولم تعُدْ معهُ ذرَّةٌ من علائمِ الموت. بقيَ أن أمسَحَ الغُبارَ عن وجهِ قيثارتي ((العزيزةِ)) وأضَعَها مثلَ تِذكارٍ باقٍ على الجِدار ((فأنا على يقينٍ أنَّ شخصاً ما سيعزِفُ عليها يوماً ما.)) يتناولُ سيفَهُ عنِ الجِدار؛ يمسحُ الغُبارَ عنهُ ومرَّةً أُخرى يُمِرُّ إصبَعَهُ على شفرتِهِ الحادَّةِ البرّاقَةِ في النُّورِ الَّذي يلمعُ عليها. ((وقبلَ موتي يجبُ أن أُشعِلَ كُلَّ مَصابيحِ المنزِل.)) ولو كُنتُ أستطيعُ لرجوتُ أن أُشعِلَ المصابيحَ الَّتي تُضاءُ في الاِحتِفالات. يجبُ أن أسيرَ في الطَّريقِ وجميعُ مصابيحِ الغُرَفِ مُضاءةٌ، ((ومصابيحُ غُرَفِ جميعِ أولادي كذلك!)) وسارَ في الطَّريقِ وَوَرَقَةُ رسالةِ وصيَّةِ أميرِهِ على الطَّاولة، تحتَ عُلبَةِ قِطَعِ السُّكَّرِ، رفعَها وسعى ليُلقيَ عليها نَظرَةً لعلَّهُ يقرأُ ويتذكَّرُ ما كانَ قد كُتِبَ له ((إذا وَجَدَ أهلُ المُستقبَلِ المَجالَ لِمُحاكَمَةِ ماضيهِم فلا بُدَّ أنَّهُم سيقولون، أصلُنا من أُناسٍ أقوياء ومهولين صاروا قرابينَ لِعَمَلِهِم العظيمِ الخطيرِ إذ كانوا يكذبونَ ويُصدِّقونَ كَذِبَهُم ويقومونَ بتبليغِه، ثُمَّ لمَّا شكُّوا في مُعتَقَدِهِم لم يكُنْ هُناكَ من رؤوسٍ باقِيةٍ فوقَ أكتافِهِم.)) وأيضاً كم كانَ بينهُم من تُجَّارٍ وسماسِرَةٍ يسعَونَ في ترويجِ فِكرةٍ ((أنَّنا كُنَّا سنكونُ شَعباً حَسَنَ الحَظِّ لو استَطَعنا أن نختارَ من صفّ جلّادينا أكثَرَهُم إنصافاً!)) وَضعَ ورَقةَ الرِّسالةِ في مكانِها، تحتَ عُلبَةِ قِطَعِ السُّكَّرِ ومرَّةً أُخرى، في نورِ المِصباحِ المُباشَرِ، نَظَرَ إلى لَمَعانِ شَفرَةِ سيفِه، ثُمَّ رَفَعَ يدَهُ إلى الأعلى ولَمَسَ بِأصابِعِهِ بِقَلْبٍ طاهِرٍ وريدَ الرَّقَبَةِ الأكبَرِ وخَرَجَ من بابِ الغُرفَةِ بِقصدِ الإيوان. ((قبلاً يجِبُ أن أكونَ قد أضأتُ جميعَ مصابيحِ المنزل، نعم، نعم!))

بعدَ تِلكَ اللَّيلَةِ غيرِ ذاتِ المَطَر، بينَ النَّاسِ في الزُّقاقِ والبازار وفي ظُلمَةِ زُقاقٍ منَ الأزِقَّةِ الضَّيِّقَةِ كانَ صدى قَيثارةٍ قديمَةٍ، وكانَ يتردَّدُ بينَ النَّاسِ أنَّهُم رأوا رَجُلاً في يدِهِ فانوسٌ وهو يتجوَّلُ ويقرأ في غيرِ وقت:

حينَ ترى رأساً مقطوعَةً في الطَّريق

وهي تتدحرَجُ باتِّجاهِ ميداننا

فلتَسَلْها الحديث عن حالِنا فلتَسَلْها

لِتسمَعَ منها وتَعرِفَ مخفيَّ أسرارِنا

تمّت الترجمةُ بعونِ اللهِ وتوفيقه



د. علي عباس زليخة